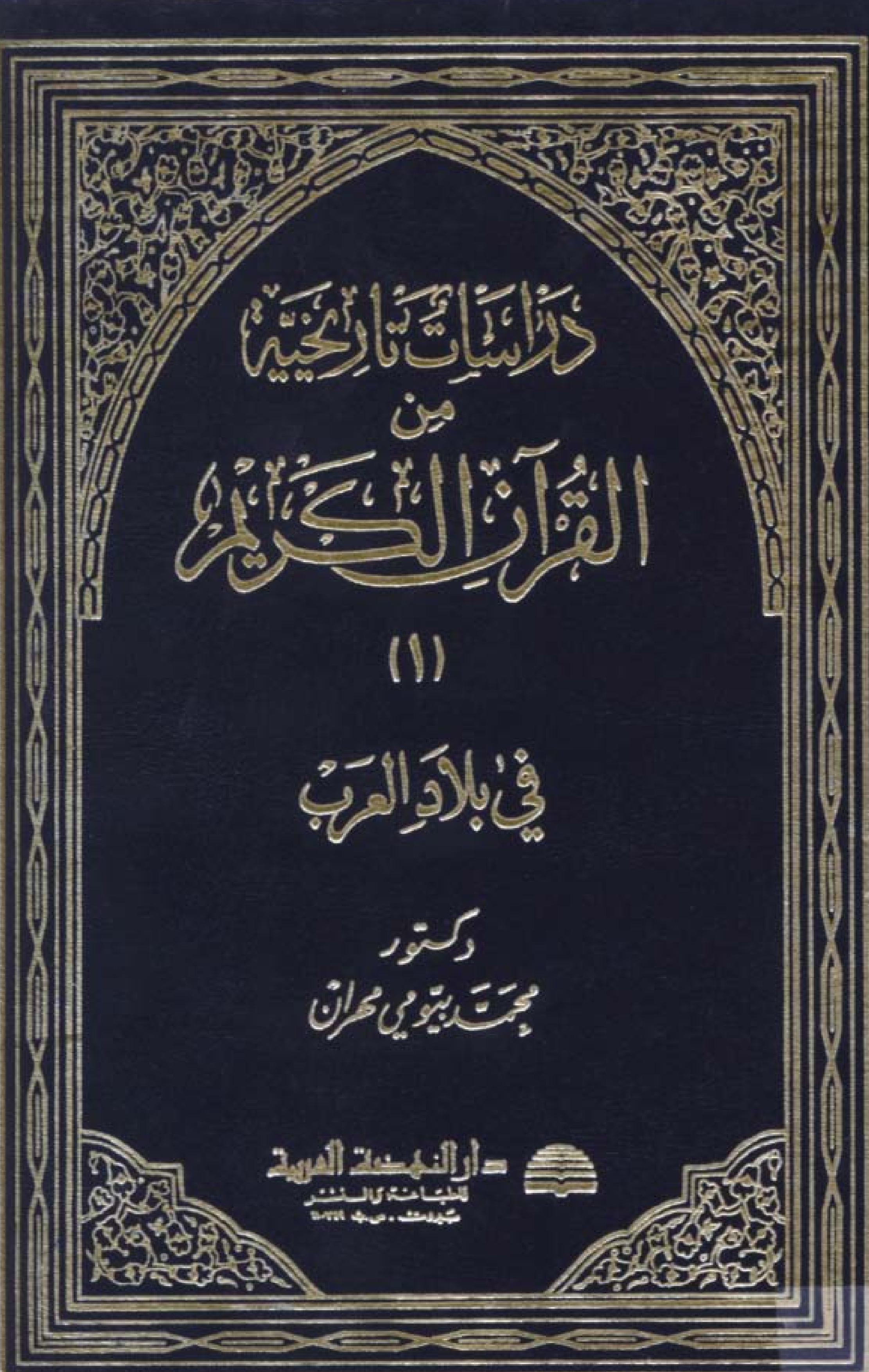


دراسات تاريخية
من
القرآن الكريم
(١)
في بلاد العرب
دكتور
محمد بيومي مهران
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

(١)

فى بلاد العرب

دكتور
محمد بيومي مهران
أُستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب -جامعة الاسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٧٤٩-١١

* الإدارة : بيروت ، شارع مدحت باشا ، بناية كريدية ، تلفون : ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً : دانهضة ، ص . ب ٧٤٩-١١
تلكس : NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة : شارع البستاني ، بناية اسكندراني رقم ٣ ، غربي الجامعة العربية ، تلفون : ٣١٦٢٠٢

* المستودع : بئر حسن ، تلفون : ٨٣٣١٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد المبعوث رحمة للعالمين

تقديم

لا ريب في أن القرآن الكريم كمصدر تاريخي ، إنما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق ، فهو موثوق السند ، ثم هو قبل ذلك وبعده ، كتاب الله الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[1] » .

ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل ، ذلك لأن القرآن الكريم إنما دون في البداية بإملاء الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وتُلِيَ فيما بعد وحمل تصديقه النهائي قبل أن ينتقل - عليه أفضل الصلاة والسلام - إلى الرفيق الأعلى[2] ، ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية لم تلتبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع[3] .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد تعهد بحفظه دون تحريف أو تبديل ، يقول عزّ من قال : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[4]» ، ويقول «إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه[5]» ، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٢

(٢) محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤٩

(٣) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني ص ٥٢

(٤) سورة الحجر : آية ٩

(٥) سورة القيامة : آية ١٧ - ١٩

تعالى : « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله[1] » ، أي بما طلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ، ومهيمنا عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه[2] » .

ومن هنا كان القرآن الكريم جامعا لما في هذه الكتب من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ، ولم يكن شيء منها يسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم[3] .

ومع ذلك كله ـ ويا للعجب ـ فإن ميدان الدراسة في التاريخ القديم، قد حُرم من هذا المنهل الغزير ، ربما لأن هذا الميدان إنما قد ظلّ إلى عهد قريب يكاد يكون مقصورا على المستشرقين ، وتلاميذهم من العرب غير المسلمين، وإن هؤلاء وأولئك لم يتطرقوا في دراساتهم إلى الأحداث التاريخية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، ربما لأن هذه الدراسة بعيدة عن أغراضهم، أو لأن مجال البحث فيها قد لا يستهويهم لسبب أو لآخر ، أو لأن العرب منهم إنما كانوا يحسون بحرج إن تناولوا أحداث القرآن التاريخية بالبحث والدراسة .

وأيا ما كان السبب ، فإن ميدان البحث في التاريخ القديم ، إنما قد

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٤

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨

(٣) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١٣ ـ ١٤

خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الإطلاق، هذا فضلا عن أن الموقف إنما بقي كما هو ، حتى بعد أن دخل نفر من المسلمين ميدان التخصص في التاريخ القديم ، وحتى بعد أن حاولت قلة نادرة منهم - ربما لا يتجاوز عددها الواحد أو الاثنين - أن تعتمد في كتاباتها على ما جاء من محكم التنزيل ، فقد ظل المتخصصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، يعتمدون على المصادر التقليدية لدراسة هذا الفرع من فروع الدراسات التاريخية ، ولم يكن القرآن الكريم منها ، على أي حال .

ومن عجب ، فإن المؤرخين المحدثين - الاوربيين منهم والشرقيين ، المسلمين وغير المسلمين - إنما ينظرون إلى التوراة ، وكأنها المصدر الأساسي لدراسة فترات معينة من تاريخ الشرق الأدنى القديم ، رغم أنهم يجمعون - او يكادون - على أنها غير موثوقة السند ، ورغم ان هناك مئات من الأبحاث التي كتبها المؤمنون بالتوراة - فضلا عن غير المؤمنين بها - وهي جميعا إنما تثير جدلا طويلا حول وثاقة نصها ، بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك[1] .

ورغم ذلك كله ، لم يفكر واحد من هؤلاء المؤرخين في أن يرجع إلى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب السماوي العظيم ، الذي تجمع آراء العلماء في العالم كله على وثاقة نصه ، أو كما يقول « سيروليم موير » - وهو من أشد المتعصبين ضد الإسلام - «إن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن الكريم ظل أربعة عشر قرنا كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »[2]

(١) أنظر عن التوراة كتابنا «إسرائيل » ص ١٩ - ١٥٩ (القاهرة ١٩٧٣)

(٢) محمد حسين هيكل : الصديق ابو بكر ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٢٣ وكذا

Sir William Muir, The life of Mohammad and History of Islam, Edinburgh, 1923

ويعود العالم الإنكليزي مرة أخرى ليؤكد أن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر إنتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف ، وأنه قد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة ، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية في كل العصور وكل الأزمان[1] ، وهذا الإستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع يعدّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المُنزل الموجود معنا[2] .

ويؤكد « لوبلوا » أن القرآن الكريم هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير[3] ، كما يقرر « نولدكه » أن النص القرآني

(١) قارن ذلك بما هو معترف به عن التوراة من جميع المؤمنين بها ، حيث ترى أن هناك نسختين للتوراة عند اليهود ، الواحدة لليهود العبرانيين ، والأخرى لليهود السامريين ، وكل منهما تختلف عن الأخرى في عدد أسفارها وفي كثير من نصوصها ، ولم يكن الأمر عند المسيحيين - وهم من المؤمنين بها إيمانهم بأناجيلهم المختلفة - بأفضل منه عند اليهود ، ذلك لأن هناك على الأقل طبعتين للتوراة (العهد القديم) ، الواحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية ، والأخرى تستعملها الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية الشرقية ، والتي تزيد عن الأولى بأسفار عدة ، اعتبرها البروتستانت أسفاراً زائفة (أبوكريفا) ، هذا فضلا عن الأختلاف في عدد إصحاحات أسفار توراة البروتستانت عنها في توراة الكاثوليك ، بل إن أسماء الأسفار نفسها كانت - ولا تزال - موضع خلاف بينهما ، واخيراً فهناك الإختلاف في ترتيب الأسفار عند اليهود عنها عند المسيحيين (انظر : كتابنا «إسرائيل» ص ٢٠ - ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٥١ (بيروت ١٩٦٤) حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ، القاهرة ص ٦٧ - ٦٨ ، فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية ، القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤ - ١٥ ، وكذا -

(١) *M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 144*

(٢) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٤٠ ، وكذا *W.Muir, The Life of Mohammad. B.St. Hilaire, Mahomat et le Koran, P.33*

(٣) محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ٤٠ وكذا . *Leblois, le Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887, P.47*

إنما بقي على أحسن صورة من الكمال والمطابقة[1] .

هذا ويؤكد العلماء في كل أنحاء الدنيا أن المصحف الذي كتب على أيام أبي بكر الصديق ، هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وهو نفس المصحف الذي كتب على أيام عثمان ، وبالتالي فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لا تجوز ، وأنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة[2] .

وليس من شك في أن القرآن الكريم ، أنما يقدم لنا - عن طريق القصص القرآني - معلومات هامة وصحيحة تماما عن عصور ما قبل الإسلام ، وأخبار دولها ، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد ، وعلى سبيل المثال ، فإنه يقدم لنا - عن طريق قصة الكليم عليه السلام - كثيرا من المعلومات الملكية الإلهية في مصر الفرعونية ، وعن الأحوال السياسية والإقتصادية والاجتماعية فيها[3] ، والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يقدم لنا الكثير من المعلومات عن العراق القديم[4] .

---

(١) أنظر: T. Noeldeke, Geschichte *des Quarans, 1961, P.16*

(٢) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٤٣ ، تفسير القرطبي ١/ ٨٠ - ٨٦ ،فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥١ - ٥٥ ، وانظر كذلك : ***W.Muir***, *op-cit, P.P.XIV-XIXX*

(٣) انظر عن قصة موسى (البقرة : آية ٤٧ - ٧٤ ، الأعراف : آية ١٠٣ - ١٥٥ ، يونس : آية ٧٥-٩٣ ، طه : آية ٩ - ٩٩ ، الشعراء : آية ١٠ - ٦٨ ، القصص : آية ٣ - ٤٤ ، غافر : آية ٢٣ - ٥٤)

(٤) انظر عن قصة إبراهيم (البقرة : آية ٢٥٨ ، الأنعام : آية ٧٤ - ٨٣ ، إبراهيم : آية ٣٥ - ٤١ ، مريم : آية ٤١ - ٥٠ ، الأنبياء : آية ٥١ - ٧٣ ، الشعراء : آية ٦٩ - ٨٩ ، الصافات : آية ٨٣ - ١١٣ .

وأما عن بني إسرائيل ، فليس هناك من شك في أنه ليس هناك كتاب سماوي ـ حتى التوراة نفسها ـ قد فصل الحديث عن بني إسرائيل ، وأفاض في وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم ، وأبان مواقفهم من الأنبياء ، كما فعل القرآن الكريم ، وصدق الله العظيم حيث يقول « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون[١] » .

وأما عن بلاد العرب ، فإنك تجد في كتاب الله الكريم تعالى جملة من الآيات الكريمة ، تتحدث عن مملكة سبأ ـ في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ـ هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد ـ دون غيره من الكتب المقدسة المتداولة اليوم ـ بذكر أقوام عربية بادت ـ كقوم عاد[٢] وثمود[٣] ـ فضلا عن قصة أصحاب الكهف[٤] ، وسيل العرم[٥] ، وقصة أصحاب الأخدود[٦] ، إلى جانب قصة أصحاب الفيل[٧] ، وهجرة الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام ، إلى الأرض الطاهرة في الحجاز ، ثم إقامة إسماعيل هناك[٨]

وصدق الله العظيم حيث يقول «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين[٩] » ، وحيث يقول «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت

---

(١) سورة النمل : آية ٧٦
(٢) انظر : الأعراف : آية ٦٥ ، هود : آية ٥٠ ـ ٦٠ ، الشعراء : آية ١٢٣ ـ ١٤٠
(٣) انظر : الأعراف : آية ٧٣ ـ ٧٩ ، هود : آية ٦١ ـ ٦٨ ، الشعراء : آية ١٤١ ـ ١٥٩
(٤) سورة الكهف : آية ٩ ـ ٢٦
(٥) سورة سبأ : آية ١٥ ـ ١٩
(٦) سورة البروج : آية ٤ ـ ١٠
(٧) سورة الفيل
(٨) انظر : سورة البقرة : آية ١٢٤ ـ ١٣١ ، سورة ابراهيم : آية ٣٥ ـ ٤١
(٩) سورة هود : آية ٤٩

لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون[1] » .

غير أن ذلك كله لا يعني بحال من الأحوال ، أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الأمم ، كما يتحدث عنها المؤ رخون ، وإنما هو كتاب هداية وارشاد للتي هي أقوم[2] ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين،ومنهاجا يسيرون عليه في حياتهم ، ويدعوهم إلى التوحيد[3] ، وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مباديء للأخلاق[4] ، وميزان للعدالة[5] ، واستنباط لبعض الأحكام[6] ، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبرة والعظة[7] .

ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا ـ دائما وأبدا ـ أن القصص القرآني إن هو الا الحق الصراح ، وصدق الله العظيم حيث يقول « ومن أصدق من الله حديثا[8]» ويقول « إن هذا لهو القصص الحق[9] » ويقول «نحن نقص عليك نبأهم بالحق[10]» ويقول « والذي اوحينا اليك من

---

(١) سورة آل عمران : آية ٤٤

(٢) سورة الإسراء : آية ٩

(٣) انظر مثلا : في قصة نوح (سورة نوح : آية ٢ ـ ٢٠) وفي قصة يوسف (سورة يوسف آية ٣٧ ـ ٤٠) وفي قصة عيسى (النساء : آية ١٧١ ـ ١٧٢ ، آل عمران : آية ٥٩ ، المائدة : آية ٧١ ، ٧٦)

(٤) انظر مثلا : سورة البقرة : آية ٤٤ ، الأعراف : آية ٨٥ ـ ٨٧ ، هود : آية ٨٤ ـ ٨٨

(٥) انظر مثلا في قصة داود (سورة ص : آية ٢١ ـ ٢٦)

(٦) انظر مثلا في قصة هابيل وقابيل : سورة المائدة : آية ٢٧ ـ ٣٢ ، ٤٢ ـ ٥٠ ، البقرة : آية ١٧٨ ـ ١٧٩

(٧) انظر : عن أهداف القرآن ومقاصده : تفسير المنار ١/ ٢٠٦ ـ ٢٩٣

(٨) سورة النساء : آية ٨٧

(٩) سورة آل عمران : آية ٦٢

(١٠) سورة الكهف : آية ١٣

الكتاب هو الحق [1] » ويقول «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق[2] » ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون[3] » ويقول « وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم[4] » ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين[5]» ويقول « نزل عليك الكتاب بالحق[6] » .

ويعلم الله ، أنني منذ التحقت بقسم التاريخ في جامعة الاسكندرية ، في الخمسينات من هذا القرن العشرين ، كنت أسائل نفسي ـ عندما أدرس أحداثا تاريخية تعرض لها القرآن الكريم بالإيجاز أو التفصيل ـ لمَ لم يرجع المؤرخون المسلمون ـ وفيهم الكثيرون ممن حفظوا كثيرا أو قليلا من القرآن الكريم بحكم نشأتهم الدينية ، وعرفوا الكثير مما جاء من محكم التنزيل بحكم دراساتهم العلمية ـ أقول لمَ لم يرجعوا إلى ما جاء في القرآن الكريم عن هذه الأحداث ؟ على الأقل ليتثبتوا من صحتها او عدم صحتها ، طبقا لما جاء عنها في كتاب الله الكريم ، ولكنني لم أكن أهتدي إلى نوع من الإجابة يرضيني ، أو على الأقل ينير أمامي الطريق، أزاء موقفهم هذا .

وبقيت كذلك في حيرة من أمري، حتى أكملت دراساتي العليا ، وعينت مدرسا للتاريخ القديم بجامعة الإسكندرية في أخريات الستينات من هذا القرن العشرين ، وبدأت اتجه نحو القرآن العظيم ، نحو المصدر

---

(١) سورة فاطر : آية ٣١

(٢) سورة الزمر: آية ٢ ، وانظر الآية ٤١

(٣) سورة الجاثية : آية ٦

(٤) سورة محمد : آية ٢

(٥) سورة البقرة : آية ٢٥٢

(٦) سورة آل عمران : آية ٣

الذي يعلو فوق كل المصادر ، ويبدو أنه مما يسر لي ذلك أن تخصصي إنما كان في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، فضلا عن نشأتي في بيئة إسلامية محافظة ، في الصعيد الاقصى من أرض الكنانة ، هيأت لي المناخ المناسب لحفظ القرآن الكريم ، ولم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري بكثير ، هذا إلى جانب دراسات إسلامية ، قضيت فيها الشطر المبكر من حياتي العلمية في معاهد المعلمين ، وأخيرا فلقد كان وجودي بين اعضاء هيئة التدريس في قسم التاريخ ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، فرصة طيبة ، وحاسمة ، للإتجاه إلى دراسة الأحداث التاريخية ، التي جاءت في القرآن الكريم .

وهكذا عقدت العزم ـ بعد أن إستخرت الله سبحانه وتعالى ـ على أن أكتب في الأحداث التاريخية التي تعرض لها القرآن الكريم ـ دون غيرها ـ سلسلة من الأبحاث تحت عنوان « دراسات تاريخية من القرآن الكريم[1] » في خمسة أجزاء ، والتي أرجو أن يوفقني الله إلى اخراجها في صورة طيبة ، وعلى النحو التالي : ـ

١ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الأول ـ في بلاد العرب

٢ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثاني ـ في العراق

---

(١) يعني هذا العنوان أن هذه الدراسة في أجزائها الخمسة ، لن تتعرض للأحداث التاريخية التي جاءت في غير القرآن الكريم ، وانما سوف تكون مقصورة ـ إن شاء الله ـ على ما جاء من محكم التنزيل من أحداث دينية وسياسية ، واقتصادية واجتماعية . . . الخ ، في بلاد العرب وفي العراق وفي مصر وفي سورية ، ثم يكون ختام المسك من هذه السلسلة ، سيرة أشرف الأولين والاخرين ، نبي الرحمة ورسول السلام ، رسول الله ، ﴿ﷺ﴾ ، كما جاءت في القرآن الكريم : ولعل هذه الإشارة الموجزة إنما توضح عنوان هذه السلسلة (دراسات تاريخيه من القرآن الكريم) ، أي التاريخ الذي جاء في القرآن الكريم فحسب ، دون التعرض فيها لما جاء في المصادر التاريخية التقليدية ، ولم يرد له ذكر في القرآن العظيم .

٣ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثالث ـ في مصر
٤ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الرابع ـ في سورية (فلسطين).
٥ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الخامس ـ في السيرة النبوية الشريفة.

وأما هذا الجزء الأول من هذه السلسلة، فإنما يتعرض للأحداث التي أشار إليها القرآن، والتي كانت أرض العروبة، وموطنها الأول، مسرحا لها، ومن ثم فإننا نراه يتحدث عن ابراهيم الخليل، وعن الكعبة المشرفة، ثم عن العاديين قوم هود، والثموديين قوم صالح، والمديانيين قوم شعيب، فضلا عن أحداث أخرى كان لها دوي كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام، كسيل العرم، وقصة أصحاب الأخدود، وأخيرا غزوة الفيل، والتي كانت واحدة من إرهاصات كثيرة، سبقت مطلع النور من مكة المكرمة، حيث ولد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، ورسول رب العالمين، محمد رسول الله، ﴿ﷺ﴾

وأما الفصول الثلاثة الأولى، فكانت دراسة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واخيرا علم التفسير، حيث اعتمدت هذه الدراسة على القرآن الكريم، بصفته مصدرها الأول والأساسي، ثم على حديث رسول ﴿ﷺ﴾، وتفسير القرآن الكريم، بصفتهما المفسرين الأساسيّين لكتاب الله الكريم، ومن هنا كان لزاما علينا أن نقدم للقارىء صورة موجزة عن مصادرنا الأساسية لهذه الدراسة.

وأما غير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلم التفسير من مصادر، لا شك أنها أفادتنا كثيرا في دراستنا هذه، فلم تقدم عنها دراسة مستقلة لأنها مصادر مساعدة أو مصادر ثانوية، لم يكن عمادنا عليها إلا في

تفسير بعض الأحداث، أو تقديم وجهات نظر مختلفة، قد نتفق معها أحيانا، وقد نختلف معها أحيانا أخرى، ولكنها في كل الأحوال مصادر إنسانية - وليست سماوية - ثم إنها ليست مصادر أصيلة في هذه الدراسة التي تبحث في «الدراسات التاريخية من القرآن الكريم».

وبعد: فلعل من حسن الطالع أن يسبغ الله فضله على صاحب هذه الدراسة، وأن تشملها هي عناية الرحمن، فتهيء لها وسيلة النشر عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لتخرجها إلى الناس في ثوب قشيب، جزى الله القائمين بالأمر في هذه الجامعة الإسلامية عن صنيعهم الجميل هذا خير الجزاء.

وأخيرا، فهذا نوع جديد من الدراسة التاريخية، تهيبت كثيرا قبل أن أخوض في غمار بحره المتلاطم، ولكني وجدت آخر الأمر أن التردد ليس في مصلحة البحث العلمي في كل الأحوال، ثم إنني ما زدت عن كوني باحثا يستحث خطاه في أول الطريق، ومن ثم فعليه أن يضع لبنة في بناء هذا الصرح الشامخ، وعلى غيره من الباحثين أن يضعوا لبنات أكثر قوة، وأشد رسوخا، حتى تأتي أجيال أخرى فتقيم صرح الدراسات التاريخية القرآنية، كما أقامت أجيال سبقت صرح الدراسات اللغوية والفقهية وغيرها من الدراسات التي اعتمدت على محكم التنزيل، فالقرآن الكريم كان - وما يزال وسيظل أبد الدهر - «لا يشبع منه العلماء، ولا يمله الاتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

وأملي من الله كبير أن تنال هذه الدراسة بعض الرضا.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

محمد بيومي مهران

الفصل الأول

القرآن الكريم

(١) التدوين في عهد النبي ﷺ

القرآن الكريم كتاب الله الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [١] » ، نزل على رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - منجما في ثلاث وعشرين سنة[٢] ، حسب الحوادث ومقتضى الحال[٣] ، وكانت الآيات والسور تدون ساعة نزولها ، إذ كان المصطفى ﷺ إذا ما انزلت عليه آية أو آيات ، قال : « ضعوها في مكان كذا . . . من سورة كذا » ، فقد ورد أن جبريل - عليه السلام - كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي ، فيقول له ، يا محمد إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا » ، ولهذا إتفق العلماء على أن جمع القرآن « توقيفي » ، بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف ، إنما هو بأمر ووحي من الله[٤]

---

(١) سورة فصلت : آية ٤٢

(٢) قارن صحيح البخارى ٦/ ٩٦

(٣) نزل القرآن منجماً فيما بين عامي ١٣ ق.هـ ، ١١ هـ (٦١٠ - ٦٣٢ م) لأسباب : منها تثبيت قلب النبي أمام أذى الكافرين ، ومنها التلطف بالنبي عند نزول الوحي ومنها التدرج في تشريع الأحكام السماوية ، ومنها تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين ، ومنها مسايرة الحوادث والوقائع والتنبيه عليها في حينها ، ومنها الارشاد إلى مصدر القرآن وانه تنزيل الحكيم الحميد (محمد علي الصابوني : التبيان في علوم القرآن ص ٤٠ - ٤٩ ، محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٣ ، محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن ص ٣٦ - ٤١) ومنها أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة ليست فيهم رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فما كان في إستطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ، إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف (محمد أبو زهرة : القرآن ص ٢٣ - ٢٤)

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ٤٧ - ٤٩ ، السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١/ ٤٨ ، ٦٣ ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، السجستاني : كتاب المصاحف ص ٣١ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦ - ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٨ ، تفسير القرطبي ١/ ٦٠ ، محمد علي الصابوني : المرجع السابق ص ٥٩

وهكذا تمر الأيام بالرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو على هذا العهد ، يأتيه الوحي نجما بعد نجم ، وكتاب الوحي يسجلونه آية بعد آية [1]، حتى إذا ما كمل التنزيل، وانتقل الرسول الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الرفيق الأعلى كان القرآن كله مسجلا في صحف ـ وإن كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين ، ولم يلزموا القراء توالي سورها[2] ـ وفي صدور الحفاظ من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار ، الذين كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه ، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت ، حتى كان الذي يمر ببيوت الأنصار في غسق الدجى ، لا يسمع فيها إلا صوت القرآن يتلى ، وحتى كان المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمر على بعض دور الصحابة ، فيقف عند بعضها يستمع القرآن في ظلام الليل ، وحتى روي عنه ﴿ ﷺ ﴾ أنه قال : «إني لأعرف أصوات رفقة الاشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن ، وإن كنت لم أر منازلهم بالنهار » [رواه الشيخان].

ومن هنا كان حفاظ القرآن الكريم في حياة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ لا يحصون ، وتلك ـ ويم الله ـ عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن

(١) لعل أشهر كتاب الوحي ـ والذين يقال أن عددهم بلغ تسعة وعشرين كاتباً ـ الخلفاء الاربعة وأبي بن كعب وزيد بن ثابت والمغيرة بن شعبه والزبير بن العوام وشرحبيل وعبد الله بن رواحه (أنظر فتح الباري ٩/ ١٨) وكانوا يضعون ما يكتبونه في بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم يكتبون لأنفسهم منه صوراً أخرى يحفظونها لديهم (البرهان ١/ ٢٣٨ ، الاتقان ١/ ٥٨ ، محمد عبدالله دراز : المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ ، من روائع القرآن ص ٤٩ ـ ٥١)

(٢) الاتقان في علوم القرآن ١/ ٥٩ ، البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٥ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ ، مقدمة كتاب المصاحف لآرثر جفري ص ٥ ، محمد حسين هكل: حياة محمد ص ٤٩ ـ ٥٠

العظيم ، حين يسره للحفظ ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[1] » ، فكتب له الخلود ، وحماه من التحريف والتبديل ، وصانه من تطرق الضياع إلى شيء منه ، عن طريق حفظه في السطور ، وحفظه في الصدور[2] مصداقا لقوله تعالى « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [3] » ، وقوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[4] » ، وقوله تعالى « إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[5] » .

ولعل من الأفضل هنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم ، إنما كان مكتوبا كله عند الصحابة ، قد لا يكون الأمر كذلك عندهم جميعا ، أو عند واحد منهم بعينه ، ولكنه كذلك عند الجميع ، وأن ما ينقص الواحد منهم يكمله الآخر ، ومن ثم فقد تضافروا جميعا على نقله مكتوبا ، وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر ، وكان الكمال النقلي جماعيا ، وليس أحاديا

على أن هناك بعض المؤرخين - وكذا بعض المستشرقين - إنما يذهبون إلى أن القرآن الكريم ، إنما بقي حتى انتقال الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الرفيق الأعلى ، لم يجمع سورا ، ولم ينتظم كتابا ، فبقيت الآيات التي نزلت فرادىَ لم تضم إلى غيرها على الصورة التي نراها

(١) سورة القمر . آيه ٣٢
(٢) أنظر : الدكتور محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ص ١٢ - ١٤
(٣) سورة فصلت : آية ٤١ - ٤٢
(٤) سورة الحجر : آية ٩
(٥) سورة القيامة : آية ١٧ - ١٩ ، وانظر : تفسير الطبري ١/ ٩٥ - ٩٧
(٦) محمد ابو زهرة : القرآن ص ٢٨
(٧) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ١/ ٢٥٠ - ٢٥١
(٨) *R.Blachere, Introduction au Coran, 1959 P.22* وكذا
T.Noeldeke, Geschichte des Quarans, 1961, P.16.

اليوم ، فلما كان الجمع رتبت السور ونظمت في كتاب [1] ، بل إن بعضهم ليذهب إلى حد ان ينسب إلى زيد بن ثابت ، أنه قال : « قبض النبي ولم يكن القرآن جمع في شيء »[2] . . . . إلى غير ذلك من إدعاءات لا يقصد بها وجه الله ، فضلا عن البحث العلمي لذاته .

والحق أن هؤلاء وأولئك قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه ، فالأمر الذي لا شك فيه أن الآيات إنما جمعت سوراً على عهد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبتوقيفه ، لأسباب كثيرة ، منها (أولا) أن الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ كان يقول : « إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾[3] » ، ومنها (ثانيا) أن عبد الله بن مسعود يقول : «قرأت من فيّ رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾ ، بضعا وسبعين سورة ، وقرأت عليه من (سورة) البقرة إلى قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين[4] » (أي إلى آخر الآية : ٢٢٢) ، ومنها (ثالثا) ما رواه البخاري ومسلم ، عن أنس بن مالك ، أنه قال : « جمع القرآن على عهد النبي ، ﴿ ﷺ ﴾ ، أربعة كلهم من الأنصار[5] » .

ومنها (رابعا) أن زيد بن ثابت قد قرأ القرآن كله على رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾ ، ومنها (خامسا) ما تظاهرت عليه الروايات بأن الأئمة الأربعة قد جمعوا القرآن على عهد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأجل سبقهم

---

(١) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٠٧

(٢) أنظر : *Sir William Muir, The Life of Mohammad, Edinburgh, 1923*

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٦٠ ، محمد أبو زهرة : القرآن ص ٤٨ ، قارن : مقدمتان في علوم القرآن ص ٤٩

(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٠ ، تفسير القرطبي ١/ ٥٨

(٥) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٣

للإسلام ، وإعظام الرسول ، ﴿ ﷺ ﴾ ، لهم[1] ، ومنها (سادسا) ما ورد عن رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾ - من طريق عثمان رضي الله عنه - من أنه «كان ﴿ ﷺ ﴾ ، تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : « ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » ، ومنها (سابعا) قول زيد بن ثابت : « كنا عند النبي ﴿ ﷺ ﴾ ، نؤلف القرآن من الرقاع[2] ، مما يدل على أن كتبة الوحي كانوا يتحرون أن تكون آيات كل سورة مجموعة مرتبة ، بعضها إلى بعض، في مكان خاص، حتى يسهل عليهم تنفيذ أمر النبي عندما ينزل الوحي ، ليوضع في مكانه المحدد[3] .

ومنها (ثامنا) ما روي عن إبن عباس من أن النبي، ﴿ ﷺ ﴾ ، كان أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبي - ﴿ ﷺ ﴾ القرآن[4] ، وفي حديث فاطمة الزهراء - رضي الله عنها وأرضاها - قالت : « أسر إلي النبي ، ﴿ ﷺ ﴾ ، أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضور أجلي »[5] .

ومنها (تاسعا) ما جاء في قصة إسلام عمر بن الخطاب ، من أن الرجل قد شكا له ما أحدثه الدين الجديد من فرقة بين أهل مكة ،

(١) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٢) الاتقان في علوم القرآن ١/ ٦٠ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٤١ - ٤٢

(٣) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن . القاهرة ١٩٦٦ ص ٧٨ - ٧٩

(٤) نفس المرجع السابق ص ٥٢ ، صحيح البخارى١/ ٢٨٧(طبعة المطبعة البهية ١٢٩٩ هـ) .

(٥) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٤٤ ، البرهان ١/ ٢٣٢ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦ ، مدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٦ ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيميه ١٣/ ٣٩٥

إضطرت كثيرين منهم إلى الهجرة إلى الحبشة ، فهداه تفكيره إلى أن الخلاص من هذه الأزمة الحادة، إنما يكمن في « قتل محمد الذي فرق أمر قريش وعاب دينها » ، ومن ثم فقد خرج متوشحا سيفه ، فلقيه نعيم بن عبد الله ، وأخبره أن اخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن الخطاب، قد أسلما وتابعا محمدا ، فما كان من عمر إلا أن أسرع إليهما، وهناك سمع عندهما من يقرأ القرآن، فبطش بهما حتى شج أخته ، غير أنه ما لبث غير قليل ، حتى ندم على ما أصابها، وطلب منها أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرءون فيها ـ وكان بها سورة طه ـ وقرأ إبن الخطاب ما بالصحيفة ، فأخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ، فذهب إلى الرسول ـ ﴿ ﷺ ﴾ وأسلم على يديه [1] ، وليس من شك في أن هذه الصحيفة لم تكن إلا واحدة من صحف كثيرة متداولة بين أيدي الذين أسلموا من أهل مكة ، سجلت سورا أخرى من القرآن الكريم ، ولقد ظل الرسول ﴿ ﷺ ﴾ بين المسلمين في مكة والمدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه « لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه»، وكان طبيعيا أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته في الصلاة، ولمعرفة أحكام الدين الذي يؤ منون به، كما كان يكتب القرآن كذلك أولئك الذين كان يوفدهم النبي إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن ، وتفقيههم في الدين ، وهم لم يكونوا يكتبونه آيات متقطعة ، بل سورا متصلة ، يمليها رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾ [2] .

ومنها (عاشرا) أن ما كان يوحي إلى النبي متصلا بوحي سبق إليه

---

(1) إبن الاثير : الكامل في التاريخ ٢/ ٨٤ ـ ٨٧ ، ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ص ١١ ـ ١٢ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٧٣ ـ ١٧٤

(2) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٠٩ ـ ٣١٠

كان الوحي يلحقه به ، ومن ذلك أن جبريل قال للنبي ﴿ ﷺ ﴾ حين أوحى إليه قوله تعالى «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» « يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة[1]» ، ومنها (حادي عشر) إن ترتيب السور ووضع البسملة في الأوائل ، إنما هو توقيف من النبي ، عليه الصلاة والسلام ، حتى أنه عندما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة ، تركت بلا بسملة ، والأمر كذلك بالنسبة إلى تقديم سورتي البقرة وآل عمران ، رغم نزول بضع وثمانين سورة قبلهما ، ذلك لأنه ﴿ ﷺ ﴾ كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن[2] » .

ومنها (ثاني عشر) أن رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ ، كثيرا ما كان يتلو في الصلاة ـ وفي غير الصلاة ـ سورة كاملة ، منها البقرة وآل عمران والنساء والاعراف والنجم والرحمن والقمر والجن وغيرها ، وهذا كله صريح في الدلالة على أن ترتيب الآيات في السور قد تمّ بتوقيف النبي ، وأنه قبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت في صدور القراء والحفاظ[3] ، ومنها (ثالث عشر) ما نقله الرواة من أن رسول الله ، ﴿ ﷺ ﴾ ، قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : إقرأ القرآن في كذا ليلة يدعوه إلى التيسير ، وهو يقول : إني اطيق أكثر من ذلك ، إلى أن قال له : إقرأ القرآن في ثلاث ليال[4] ، ومنها (رابع عشر) أن هناك كثيرا من أحاديث الرسول ، ﴿ ﷺ ﴾ ، تتحدث عن فضائل سور معينة[5] .

(١) نفس المرجع السابق ص ٣١٠ ، تفسير القرطبي ١/ ٦٠ ـ ٦١ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٤١ ،

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٥٩ ـ ٦٠ ، ٨/ ٦١

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦ ـ ٢٧ ، ٢٩ ـ ٣١ ، الصديق ابو بكر ص ٣١١

(٤) انظر روايات أخرى للحديث الشريف (مقدمتان في علوم القرآن) ص ٢٧ ـ ٢٨

(٥) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ٦٤ ـ ٧٤ [مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية ، وقد صححه ونشره الدكتور آرثر جفري ـ القاهرة ١٩٥٤ م]

ومنها (خامس عشر) ما تدل عليه الأخبار المروية عن النبي ﴿ﷺ﴾ ، في تسمية سورة « الحمد لله رب العالمين» فاتحة الكتاب ، فلولا أنه ﴿ﷺ﴾ ، أمر اصحابه بأن يرتبوا هذا الترتيب عن أمر جبريل عليه السلام ، عن الله عز وجل ، لما كان لتسمية هذه السورة « فاتحة الكتاب» معنى ، إذ قد ثبت بالإجماع أن هذه السورة ليست بفاتحة سور القرآن نزولا ، فثبت أنها فاتحته نظما وترتيبا وتكلما ، [1] ، ومنها (سادس عشر) ما يروى عن إبن عباس أن النبي ، ﴿ﷺ﴾ ، لم يكن يعلم ختم السورة حتى نزل « بسم الله الرحمن الرحيم» ، وهذا أيضا من أدل الدليل على أن ترتيب السور التي في أيدينا هو ما كان عليه في اللوح المحفوظ[2] ، وأن السورة كانت تنزل في أمر يحدث ، والآية جوابا لسؤال ، ويوقف جبريل رسول الله على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن رسول الله ، عن رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغير الحروف والكلمات[3] .

(٢) جمع القرآن في عهد أبي بكر

وجاء الصديق - رضي الله عنه وأرضاه - (١١-١٣ هـ = ٦٣٢-٦٣٤م)، وكانت حروب الردة التي أبلى المسلمون فيها بلاءاً حسناً، وليس من شك في أن أشدها عنفاً وضراوة، تلك التي دارت رحى الحرب فيها بين المسلمين - بقيادة خالد بن الوليد من ناحية، وبين المرتدين - بقيادة مسيلمة بن حبيب الكذاب - من ناحية أخرى، في

(١) نفس المرجع السابق ص ٤١ - ٤٢

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤١

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٥٠ - ٥١ ، ٦١ (القاهرة ١٩٦٧)

مكان من الصحراء في طرف اليمامة يسمى «عقرباء» [1]، وانتهت بفرار مسيلمة وأتباعه، إلا أن المسلمين تبعوه، واشتبك الفريقان من جديد، وقتل مسيلمة وعشرة آلاف من أتباعه، كما إستشهد كثير من وجوه المسلمين وقراء القرآن الكريم ـ قيل سبعون، وقيل قريب من خمسمائة، وقيل سبعمائة ـ وسمي المكان الذي دارت فيه المعركة «حديقة الموت»، كما سمي يوم المعركة «بيوم اليمامة» [2].

وبدأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يحس بالخطر الداهم، الذي لا حت نذره في معركة اليمامة، ويوشك أن يلتهم كل حفاظ القرآن من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم الشهود العدول على وثاقة النص المكتوب، وقد كان مفرقاً في لخاف وكرانيف وعسب. أضلاع وأكتاف، إلى جانب ما كان في الصدور، ولم يأخذ بعد صورة الكتاب الواحد، اللهم إلا في صدور الصحابة الذين جمعوه حفظاً في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقد بدأت الحرب تقرضهم واحداً إثر واحد [3].

وهكذا ـ وكما يروي الإمام البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت [4] ـ أن الفاروق عمر جاء إلى أبي بكر، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء في كل المواطن،

(١) أنظر عن «عقرباء»: ياقوت ٤/ ١٣٥، البكري ٣/ ٩٥٠، كتاب الحربي ص ٦١٦ (حيث يضعها مكان بلدة الجبيلية الحالية على ضفة وادي حنيفة) ثم قارن: صحيح الأخبار ١/ ١٩٦، ٢/ ١٦٩، ٥/ ٩٣

(٢) ياقوت ٢/ ٢٣٢، ٤/ ٤٤٢، مروج الذهب ٢/ ٣٠٣، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٧٤ ـ ٧٦ من القسم الثاني، صحيح الأخبار ١/ ١٩٦، ابن الاثير ٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٧، تاريخ الطبري ٣/ ٢٨١ ـ ٣٠١، الاتقان ١/ ٥٩، تفسير القرطبي ١/ ٥٠، فضل القرآن ص ١٥ ـ ١٧، الصديق ابو بكر ص ١٥٢ ـ ١٦٨

(٣) عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٠٢

(٤) صحيح البخاري ٢/ ١٩٦ (طبعة البهية)

فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن»، ويتردد الصديق بعض الوقت، خشية إن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﴿ﷺ﴾ ثم ما يلبث أن يشرح الله صدره لهذا العمل الجليل، فيأمر باستدعاء زيد بن ثابت، حيث يكلفه بجمع القرآن، ويتردد زيد - كما تردد الصديق من قبل - لأنه لا يريد كصحابي أن يقوم بعمل ما لم يقم به النبي أو يأمر به، ولأنه كمؤ من يتحاشى مثل هذا العمل الخطير خشية أبسط الأخطاء وأتفهها في تنفيذ مهمته، وأخيراً يشرح الله صدره لذلك، ويتم الأمر بما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبما كان يكتب بين يدي رسول الله - ﴿ﷺ﴾ ويحفظ المصحف الشريف عند الصديق، ثم عند الفاروق عمر (١٣-٢٣ هـ = ٦٣٤-٦٤٤م) من بعده، ثم عند أم المؤ منين «حفصة بنت عمر» - رضي الله عنهم أجمعين [١].

ولعل هدف الفاروق - رضي الله عنه وأرضاه - من هذه الطريقة لم يقتصر على حفظ المدون من التنزيل في مأمن من الأخطار، وفي صورة يسهل الرجوع اليها، وانما كان يقصد ايضا إقرار الشكل النهائي لكتاب الله الكريم وتوثيقه عن طريق حفظته الباقين على قيد الحياة، واعتماده من الصحابة الذين كان كل منهم يحفظ منه أجزاء كبيرة أو صغيرة [٢].

---

(١) الاتقان ١/ ٥٩ - ٦٠، ابن الاثير ٣/ ١١٢، تفسير الطبري ١/ ٥٩ - ٦٢، كتاب المصاحف ص ٥ - ١٠، ٢٠، فضائل القرآن ص ١٤ - ١٦، مقدمتان في علوم القرآن ص ١٧ - ٢١ وكذا البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٣ - ٢٣٤، ٢٣٩، تفسير القرطبي ١/ ٤٩ - ٥٠، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٥٠ - ٥١، الصديق أبو بكر ص ٣٠٣ - ٣١٢، محمد أبو زهرة القرآن ص ٣٠ - ٣١، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٢٥١ - ٢٥٢ وكذا EI, 14, PP. 1261-2

(٢) محمد عبدالله دراز: مدخل الى القرآن الكريم ص ٣٦، وأنظر: م.ج رستوفدوني: تاريخ القرآن والمصاحف ص ٢٦ - ٢٧ (مترجم).

ولعل من الأهمية بمكان هنا الاشارة إلى أن الخليفة الراشد أبا بكر الصديق كان موفقاً التوفيق كل التوفيق في مهمته الجليلة ـ والخطيرة كذلك ـ لثقة الناس فيه [1]، ثم لاختياره للصحابى الجليل «زيد بن ثابت»، ذلك الاختيار الذي توفرت له كل عوامل النجاح، لأسباب منها (أولاً) أن زيداً كان شاباً، ومن ثم فهو أقدر على العمل من غيره، وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه وإعتزازه بعلمه، وذلك يدعوه الى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ، والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه هو، ومنها (ثانياً) أن زيداً إنما كان من حفاظ القرآن الكريم، فقد وعاه كله، ورسول الله حي، ثم هو (ثالثاً) من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وهو فوق ذلك، كان معروفاً بشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، فضلا عن نبوغ وذكاء، ولعل كل ذلك، ما كان يعنيه الصديق من قوله: «إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، ﷺ، فتتبع القرآن فأجمعه» [2]، ومنها (رابعاً) أنه من المتواتر أن زيداً إنما حضر العرضة الاخيرة للقرآن، حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية، في السنة التي كانت فيها وفاته، [3]، ومنها (خامساً) أن زيد بن ثابت ـ وإن كان في حداثة من السن في جانب أكابر الصحابة ـ فقد كان من أكابرهم في الفقه والرأي، وكانت الرياسة له بالمدينة في القضاء والفتيا،

---

(١) T.Noeldeke, po-cit, P.205

(٢) الاتقان ١/ ٥٩ البرهان ص ٢٣٣ ، تفسير القرطبي ١/ ٥٠ ، فضائل القرآن ص ١٤ ، تاريخ القرآن للزنجاني ص ١٧ ، مقدمتان في علوم القرآن ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، وأنظر لوبلوا حيث يقول ـ بعد أن أورد هذه الرواية ـ « من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » — (Leblois, le Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887, P.47)

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٥٣ ، محمد أبو زهرة : القرآن ص ٢٨ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١٠٧ ، محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٢١

والقراءة والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي [1].

وبدهي أن عملية جمع القرآن لم يقم بها زيد بن ثابت وحده، وإنما عاونه فيها الحفظة الكرام من صحابة النبي الاعلام، وأن زيداً سلك في سبيل الجمع الخطة المثلى، فما كان ليعتمد على حفظه ـ وإنه لحافظ ـ ولا على حفظ من استعان بهم ـ وانهم لحفاظ أمناء ـ ولكنه كان لا بد أن يعتمد على أمر مادي، يُرى بالحس ولا يحفظ بالقلب وحده، فكان لا بد أن يرى ما حفظه مكتوباً في عصر النبي، ﴿ﷺ﴾ وأن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب في عصر النبي، وبإملائه عليه الصلاة والسلام، وقد تتبع القرآن بذلك آية آية، لا يكتب إلا ما رآه مكتوباً عن النبي، ﴿ﷺ﴾، في عهده، ويشهد شاهدان أنهما رأيا ذلك المكتوب في عهد النبي ونقلاه، أو يرى ذلك المكتوب عند اثنين، فهو شهادة كاملة منهما [2]، ويروي ابن أبي داود ـ من طريق هشام بن عروة عن أبيه ـ أن أبا بكر قال لعمر وزيد: «أقعدا على باب المسجد، فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» [3].

وهكذا يمكننا القول أن زيداً إتبع طريقة في الجمع نستطيع أن نقول عنها في غير تردد، أنها طريقة فذة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، وأنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، وأن الصحابي الجليل قد إتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، وأن هذه الدقة في جمع القرآن، متصلة بايمان زيد بالله، فالقرآن كلام الله جل شأنه، فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه وزر ما كان أحرص زيداً ـ في حسن إسلامه وجميل صحبته لرسول الله ـ أن يتنزه عنه، ولقد شهد المنصفون من

---

(١) احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٧٥ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٥٠ ـ ٥١

(٢) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٣١ ـ ٣٢ ، الاتقان في علوم القرآن ١/ ٦٠

(٣) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١٠٦ ، الاتقان ١/ ٦٠

المستشرقين جميعا بهذه الدقة، حتى ليقول «سيروليم موير»، «والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل أربعة عشر قرناً كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته» [١].

ويعلق الاستاذ أبو زهرة على هذا العمل الجليل الذي اشترك فيه الشيخان - أبو بكر وعمر - وحمل عبئه زيد بن ثابت، مع جمع من المهاجرين والأنصار، بحقيقتين هامتين، تدلان على إجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له، ومحفوظ بحفظه، وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته، أما أولى الحقيقتين، فهي أن عمل زيد هذا لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه إعادة لمكتوب، فقد كتب القرآن كله في عهد النبي، ﴿ﷺ﴾ وعمل زيد الابتدائي هو البحث عما كتب عليه والتأكد من سلامته، بشهادة اثنين على الرقعة التي توجد فيها الآية أو الآيتان أو الآيات، وبحفظ زيد نفسه، وبالحافظين من الصحابة - وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير - فما كان لأحد أن يقول إن زيداً كتب من غير أصل مادي قائم، بل إنه أخذ من أصل قائم ثابت مادي، وأما الحقيقة الثانية، فهي أن عمل زيد لم يكن عملاً آحادياً، بل كان عملا جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله، ﴿ﷺ﴾، فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يجيء به إلى زيد، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة، وكل ما كتب أصحاب رسول الله، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولا يثبت آية إلا إذا إطمأن إلى اثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله، وإستمر الأمر كذلك، حتى إذا ما أتمَّ زيد ما

---

(١) محمد حسين هيكل: المرجع السابق ص ٣٢٣، وكذا *Sir William Muir, The Life of Mohammad and History of Islam, Edinburgh, 1923*

كتب، تذاكره الناس، وتعرفوه وأقروه، فكان المكتوب متواتراً بالكتابة، ومتواتراً بالحفظ في الصدور، وما تمَّ هذا لكتاب في الوجود غير القرآن، وتلك ـ ويم الله ـ عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم [1].

(٣) مصحف عثمان

وتمر الأيام، وتمضي السنون، وفي عهد ذي النورين ـ عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه ـ (٢٤ـ٣٥ هـ = ٦٤٤ـ٦٥٦م) تتسع الفتوحات الإسلامية، ويتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار، ويشرح الله صدر الخليفة الراشد إلى جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وذلك في العام الرابع والعشرين (أو أوائل الخامس والعشرين) من هجرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم كتب منه سبعة مصاحف [2]، وبعث منها إلى كل من مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، وحبس بالمدينة واحداً [3]، ويبدو أن عبدالله بن مسعود، قد خالطه شيء من غضب ـ كما سنوضح ذلك فيما بعد ـ ومن ثم فقد أمر أصحابه بغل مصاحفهم، لما أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام، غير أن الصحابي الجليل سرعان ما عاد إلى رأي جماعة المسلمين، ويروى أن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ قال: «لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا»، وهكذا يتفق الأئمة الأربعة (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي)، على أن ذلك العمل العظيم، إنما كان من

---

(١) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٣٣ ـ ٣٥ ، الصديق أبو بكر ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣

(٢) اختلف العلماء في عدد هذه المصاحف ، فمن قائل أنظر أربعة ، وأن الخليفة بعث بها إلى الكوفة والبصرة والشام ، وترك واحداً بالمدينة ، ومن قائل خمسة ، ومن قائل أنها سبعة (الاتقان ١/ ٦٢ ، البرهان ٢/ ٢٤٠ وكذا *T.Noeldeke, op-cit, P.234*)

(٣) كتاب المصاحف ص ٣٤

مصلحة الدين [1]

ويرى العلماء أن الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن الأول كان عبارة عن جمع القرآن وكتابته في مصحف واحد مرتب الآيات على ما وقفهم عليه النبي ﴿ﷺ﴾ خشية أن يذهب من القرآن شيء، بسبب موت كثير من الحفاظ بعد موقعة اليمامة، وأن الثاني كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلى البلاد الإسلامية، وأن السبب في ذلك، إنما هو إختلاف بعض القراء في قراءة آيات من القرآن الكريم، ذلك أن «خذيفة بن اليمان» - فيما يروي الإمام البخاري في باب فضل القرآن، عن أنس بن مالك - قدم علي على عثمان بن عفان، بعد غزوة في أذربيجان وأرمينية، رأى فيها القوم من أهل العراق والشام مختلفين على قراءة القرآن، فأخبره بالذي رأى، وطلب منه أن يدرك الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن إختلاف اليهود والنصارى في الكتب، ومن ثم فإن الخليفة سرعان ما يرسل في طلب المصحف الذي عند حفصة، ويأمر زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: «إذا إختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم»، ففعلوا ذلك حتى كتبت في المصاحف [2]، ويروى أن هناك خلافاً قد حدث على كتابة كلمة

---

(١) فضائل القرآن ص ١٨ - ١٩ البرهان ١/ ٢٣٠، تفسير القرطبي ١/ ٥٢ - ٥٥، فتاوى إبن تيميه ٤/ ٣٩٩ - ٤٠٠، محمد أبو زهرة: القرآن ص ٤٤ - ٤٦، وكذا *Schwally, Geschichte des Qurans, 1938, 2,P.92*

(٢) الإتقان ١/ ٦٠ - ٦٣، فتاوى إبن تيمية ١٥/ ٢٥١ - ٢٥٢، تفسير القرطبي ١/ ٦٠ - ٦٢، السجستاني ص ١٨ - ٢٦ صحيح البخاري ٦/ ٩٨، فضائل القرآن ص ١٩، مقدمتان في علوم القرآن ص ٥١ - ٥٢، فتاوى إبن تيمية ١٣/ ٣٩٦، قارن ١٣/ ٤٠٩ - ٤١٠، وكذا *R.Blachere, op-cit, P.53* وكذا *EI, P.1078* وكذا عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٢٥٠ - ٢٥٢

«التابوت» التي جاءت في قوله تعالى: «إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم»[1]، أيكتبونه بالتاء أو الهاء، فقال زيد: إنما هو «التابوه»، وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو «التابوت»، فتراجعوا إلى عثمان، فقال: إكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم»[2].

والقضية التي ينبغي أن نناقشها الآن - فيما يرى الدكتور عبد الصبور شاهين - هي أهمية عمل عثمان من الناحية القرائية، فإذا كان عمل غثمان مقتصراً على نسخ مصاحف عدة من المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر، فأية قيمة يمكن أن تكون لهذا العمل؟ وقد يزداد الأمر أهمية، إذا ما علمنا أن مصحف أبي بكر كان مكتوباً - كما هو المنطق - على حرف واحد، والأمر كذلك بالنسبة إلى كتاب الوحي على عهد رسول الله، وإذا كان زيد بن ثابت - طبقاً لما ورد في الأحاديث الصحيحة - من أكثر كتاب الوحي ملازمة لرسول الله، ﴿ﷺ﴾ ثم هو قد قام بكتابته على عهد أبي بكر، وعلى عهد عثمان، فان ذلك يدلنا على أن منهج الكتابة كان واحداً في المراحل الثلاثة تقريباً، إلا ما إرتآه عثمان من تجريد رسمه من الإعجام حتى يتسع الرسم لكثير من الوجوه التي صح نقلها عن النبي ﴿ﷺ﴾، أي إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون، ولها أصل نبوي مجمع عليه، ثم إن هدفاً آخر قد تحقق بعمل عثمان، هو التقريب اللغوي ما بين وجوه القراءة المتلوة آنذاك في الأمصار المختلفة، والقضاء على الخلاف الذي كاد أن يعصف

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٨ وانظر: وتفسير الطبري ٥/ ٣١٥ - ٣٢٨، تفسير الكشاف ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤ (دار الكاتب العربي - بيروت)، تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦، تفسير وجدي ص ٥١

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٥٤، فضائل القرآن ص ٢٠، البرهان ١/ ٣٧٦، الاتقان ١/ ٩٨، مدخل الى القرآن الكريم ص ٣٨ - ٣٩، مقدمتان في علوم القرآن ص ١٩، محمد أبو زهرة ص ٣٩

بوحدة الجماعة، أي أن عمل عثمان كان من مقاصده أساساً نشر النص القرآني بلسان قريش، وإرساء هذا التقليد اللغوي الذي سبقته مقدمات كثيرة في عهد أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ذلك لأن الخليفة الراشد إنما كان يعتبر التمارى في القرآن نوعاً من الكفر[1].

ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أنه قد يكون هناك غرض سياسي بقصد التقليل من نفوذ القراء الذي تزايد بسبب أنهم وحدهم الذين يعرفون مضمون القرآن، بأن يوجد له نصاً مقروءاً[2]، فما كان للسياسة دخل عند صحابة رسول الله في شئون القرآن الكريم.

وعلى أي حال، فلقد ساعد عثمان على تحقيق أهدافه من جمعه للقرآن، أنه قد أمر بإحراق كل ما غدا مصحفه من صحف أو مصاحف كان قيَّدها الصحابة والآخذون عنهم، وقد إنصاع الناس لأمره في سائر الأمصار، فيما عدا ما روي عن عبدالله بن مسعود من أنه عارض ذلك، وأمر الناس في الكوفة بالتمسك بمصحفه - كما أشرنا آنفاً - لشبهة اعترته، هي ظنه أن زيداً قد إنفرد بالعمل، وقد كان هو أولى من يقوم به، فلما علم بعد ذلك أن موقفه قائم على شبهة لا أكثر، وأن المصحف الذي أرسله عثمان هو نسخة من جمع أبي بكر، الذي أخذ عن صدور الرجال، وعن العسب واللخاف، التي كتبت على عهد رسول الله وبإملائه، وإن زيداً لم ينفرد بالعمل، بل شاركه فيه جمع كبير من الصحابة، وأجمع عليه المسلمون جميعاً، وافق إقتناعاً أولاً، وحفاظاً على وحدة الأمة ثانياً، وبذلك تمت موافقة الأمة كلها على مصحف عثمان، حتى قال مصعب بن

---

(١) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١١٦ - ١١٧ ، البرهان ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، البخاري ٣/ ١٩٦ - ١٩٧

(٢) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قارن R. Blachère, op-cit PP. 56-60

سعد: «أدركت الناس متوافرين حين أحرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد»، وقال الإمام علي - كرم الله وجهه - لرجل كوفي عاب عثمان بجمع الناس على المصحف، «اسكت، فعن ملأ منا فعل ذلك، فلو وليت منه ما وليٍّ عثمان لسلكت سبيله» (١).

ويقرر «نولدكه» أن ذلك كله يعد أقوى دليل على أن النص القرآني على أحسن صورة من الكمال والمطابقة(٢)،كما يؤكد «لوبلوا» أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير (٣)، وكان «سيروليم موير» قد أعلن من قبل: أن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر إنتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا (٤).

وهكذا يبدو واضحاً - من كل ما سبق - أنه ليس صحيحاً ما يزعمه البعض من أن جمع القرآن قد تأخر الى عهد الخليفة عثمان بن عفان (٥)،

---

(١) عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١١٧، كتاب المصاحف ص ١٣ - ١٨، فضائل القرآن ص ٢٢ - ٢٣، تفسير القرطبي ١/ ٥٢ - ٥٤، مقدمتان في علوم القرآن ص ٤٥ - ٤٦، إبن الاثير ٣/ ١١١ - ١١٢، محمد أبو زهرة: القرآن ص ٤٤، مدخل الى القرآن الكريم ص ٤٩ - ٥٠

(٢) *T.Noeldeke, op-cit, P.93*

(٣) مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤٠ وكذا *Leblois op_cit,*

(٤) محمد عبدالله دراز: المرجع السابق ص ٤٠، وكذا *B.St. Hilaire, Mahomet et le Koran, P.33* وكذا *W.Muir, The Life of Mohammad*

(٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٨، وكذا *A.Guillaume, Islam, P.P.55-59*

ذلك لأن القرآن الكريم كان كله مسجلا في صحف ـ وإن كانت مفرقة ـ وفي صدور الصحابة، قبل أن ينتقل الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى، وأنه قد جمع في مصحف واحد على أيام الصديق، وأن هذا المصحف قد أودع عنده، ثم عند الفاروق من بعده، ثم عند حفصة أم المؤمنين (١)، وفي عهد عثمان ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نسخت منه عدة نسخ أرسلت إلى الآفاق الإسلامية، بمشورة من حضره من صحابة رسول الله، ﴿ﷺ﴾، وأن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ قد إرتضى هذا العمل الجليل وحمد أثره (٢)، ومعنى هذا ببساطة أن المصحف الذي كتب على أيام أبي بكر ـ هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو نفسه الذي كتب على أيام عثمان (٣)، وبالتالي فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه، وأن الشك فيه كفر، وأن الزيادة عليه لا تجوز، وأنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة (٤).

(١) فضائل القرآن ص ١٥، كتاب المصاحف ص٥، مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٣، البرهان ١/ ٥٩

(٢) هناك رواية تنسب فضل السبق في جمع القرآن إلى الإمام علي كرم الله وجهه، إذ يروي أشعث عن إبن سيرين أنه لما توفي الرسول ﴿ﷺ﴾، أقسم على ألا يرتدي برداء إلا لجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل، فأرسل أبو بكر إليه بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أني أقسمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه ثم رجع، ويقول السجستاني: أن أحداً لم يذكر كلمة مصحف إلا أشعث، وهو لين الحديث، وانما رووا حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن، قد جمع القرآن (انظر: كتاب المصاحف ص ١٠، الاتقان ١/ ٥٩، تاريخ القرآن ص ١٠٤ ـ ١٠٥) والأمر كذلك بالنسبة الى جمع عمر بن الخطاب (كتاب المصاحف ص ١٠ ـ ١١) إلا إذا كان المراد أول من أشار بجمعه (الاتقان ١/ ٥٨)

(٣) للمقارنة بين تدوين القرآن الكريم وغيره من الكتب المقدسة، أنظر عن التوراة (كتابنا إسرائيل ص ٢٤ ـ ٤٥) وعن الانجيل (المدخل الى الكتاب المقدس، احمد شلبي: المسيحية ص ١٥٣ ـ ١٦٠)

(٤) محمد أبو زهرة: القرآن ص ٤٣، تفسير القرطبي ١/ ٨٠ ـ ٨٦، فتاوى إبن تيمية ١٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٥١ ـ ٥٥، وكذا *W.Muir, op-cit, P.XIV-XIXX*

(٤) القرآن كمصدر تاريخي

القرآن الكريم كمصدر تاريخي لا ريب أنه أصدق المصادر وأصحها على الاطلاق، فهو موثوق السند ـ كما بينّا آنفاً ـ ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[١]» ، ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه[٢] بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دون في البداية بإملاء الرسول، ﴿ﷺ﴾، وتلي فيما بعد وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته [٣]، ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية، لم تلتبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع [٤]، وأنه كما يقول سبحانه وتعالى «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل» [٥] ، ثم أن الله عز وجل قد تعهد ـ كما أشرنا من قبل ـ بحفظه دون تحريف أو تبديل.

ويرى الدكتور دراز أن تسمية القرآن الكريم، بالقرآن وبالكتاب، إنما تعني الأولى كونه متلوا بالألسن، بينما تعني الثانية كونه مدوناً بالأقلام، وأن في تسمية القرآن الكريم بهذين الإسمين، إشارة إلى أن الله سوف يحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر الأخرى، فلا ثقة لنا لحفظ حافظ، حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح

---

(١) سورة فصلت : آية ٤٢

(٢) طه حسين : في الأدب الجاهلي ـ القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٨

(٣) محمد عبدالله دراز : المرجع السابق ص ٤٩

(٤) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٢

(٥) سورة الإسراء : آية ١٠٥

المتواتر [1] .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها، بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه، حيث يقول «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» [2] ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: «والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله» [3] ، أي بما طلب إليهم حفظه، والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها ولم يكن شيء فيها يسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم [4] .

غير أني أودّ أن أنبه ـ بعد أن أستغفر ربي العظيم كثيراً ـ إلى أن القرآن الكريم لم يُنزَّل كتاباً في التاريخ، يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقوم [5]، أنزله الله، سبحانه وتعالى ـ ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون

---

(١) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ونظرات جديدة في القرآن من ١٢، ١٣
(٢) سورة الحجر : آية ٩
(٣) سورة المائدة: آية ٤٤
(٤) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١٣، ١٤
(٥) سورة الإسراء : آية ٩

عليه في حياتهم، يدعوهم إلى التوحيد [١] وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مبادىء للأخلاق [٢]، وميزان للعدالة في الحكم [٣]، واستنباط لبعض الأحكام [٤]، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية، فإنما للعبرة والعظة"[٥].

وفي الواقع إن في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة، ولكنها تراد كذلك لعبرتها، ولا تراد لأخبارها التاريخية، ومنها قصة يوسف، وقصة إسماعيل عليهما السلام، فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس منذ طفولته بآفات الطبائع البشرية، من حسد الأخوة، إلى غواية المرأة، إلى ظلم السجن، إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة، وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك، فيصاب بالغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت - في معظم مجتمعات الشرق القديم - لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، أن تنتمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام [٦].

(١) أنظر مثلا في قصة نوح (سورة نوح آية ٢ - ٢٠) وفي قصة يوسف (يوسف : آية ٣٧ - ٤٠) وفي قصة عيسى (النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ ، آل عمران : آية ٥٩ ، المائدة : آية ٧١ ، ٧٦)

(٢) أنظر مثلا (البقرة : آية ٤٤ ، الاعراف : آية ٨٥ - ٨٧ ، هود : آية ٨٤ - ٨٨)

(٣) أنظر مثلا في قصة داود (ص : آية ٢١ - ٢٦)

(٤) أنظر مثلا في قصة هابيل وقابيل (المائدة : آية ٢٧ - ٣٢ ، ٤٢ - ٥٠ ، البقرة : آية ١٧٨ - ١٧٩)

(٥) راجع عن أهداف القرآن ومقاصدة : تفسير المنار ١/ ٢٠٦ - ٢٩٣

(٦) عباس العقاد : الإسلام دعوة عالمية ص ٢١٨ - ٢١٩

وهكذا، وعن طريق القصص القرآني، يقدم لنا كتاب الله العزيز، معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد، فيقدم لنا - عن طريق قصة موسى - كثيراً من المعلومات عن الملكية الإلهية في مصر الفرعونية، وعن الأحوال السياسية والإقتصادية والاجتماعية فيها [1]، والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة إبراهيم، حيث تقدم لنا الكثير عن العراق القديم [2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم، إنما هما قصتا إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قصتان مسهبتان في أجزائه، ربما لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، ومن أجل ذلك كانت القصتان أوفى القصص بين جميع قصص الأنبياء، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم [3].

وأما عن بني إسرائيل، فليس هناك من شك في أنه ليس هناك كتاب سماوي - حتى التوراة نفسها - قد فصل الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض في وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم، وأبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون» [4].

---

(١) أنظر عن قصة موسى (البقرة : آية ٤٧ - ٧٤ ، الأعراف : آية ١٠٣ - ١٥٥ ، يونس : آية ٧٥-٩٣ ، طه : آية ٩-٩٩ ، الشعراء : آية ١٠-٦٨ ، القصص : آية ٣-٤٤ ، غافر : آية ٢٣ - ٥٤)

(٢) أنظر عن قصة إبراهيم (البقرة : آية ٢٥٨ ، الإنعام : آية ٧٤ - ٨٣ ، مريم : آية ٤١ - ٥٠ ، الأنبياء : آية ٥١ - ٧٣ ، الشعراء : آية ٦٩ - ٨٩ ، الصافات : آية ٨٣ - ١١٣

(٣) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٢١٨

(٤) سورة النمل : آية ٧٦

وأما عن بلاد العرب، فإنك تجد في كتاب الله الكريم سورة تحمل إسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام - وأعني بها سورة سبأ - هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد - دون غيره من الكتب المقدسة - بذكر أقوام عربية بادت، كقوم عاد [1] وثمود [2] ، فضلا عن قصة أصحاب الكهف [3] وسيل العرم [4] ، وقصة أصحاب الأخدود [5] إلى جانب قصة أصحاب الفيل [6] ، وهجرة الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك [7] ، وصدق الله العظيم، حيث يقول «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر ان العاقبة للمتقين» [8] ، ويقول: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» [9] ، ويقول: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون» [10]، ويقول: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا، ولكنا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً

---

(١) الاعراف: آية ٦٥، هود: آية ٥٠ - ٦٠، الشعراء: آية ١٢٣ - ١٤٠
(٢) الاعراف: آية ٧٣ - ٧٩، هود: آية ٦١ - ٦٨، الشعراء: آية ١٤١ - ١٥٩
(٣) سورة الكهف: آية ٩ - ٢٦
(٤) سورة سبأ: آية ١٥ - ١٩
(٥) سورة البروج: آية ٤ - ١٠
(٦) سورة الفيل
(٧) سورة البقرة: آية ١٢٤ - ١٣١، سورة ابراهيم: آية ٣٥ - ٤١
(٨) سورة هود: آية ٤٩
(٩) سورة يوسف آية ١٠٢
(١٠) سورة آل عمران: آية ٤٤

ماآتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» [1] ويقـول: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤ ادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤ منـين » [2] ويقـول «نحـن نقص عليك نبأهـم بالحـق» [3] ويقول «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفتري ولكن تصديق الـذي بـين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهـدى ورحمـة اقـوم يؤ منون» [4] .

وصـدق رسـول الله ﴿ﷺ﴾ حيـث يقـول فـي وصـف القرآن : « كتـاب الله تبـارك وتعـالى ، فيه نبـأ من قبلـكم ، وخبـر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا يزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنتبه الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجبـاً ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم [5] » .

على أنه يجب أن نلاحظ جيداً ، أن هدف القرآن من قصصه ، ليس التأريخ لهذا القصص ، وإنما عبراً تفرض الاستفادة بما حل بالسابقـين ،

---

(١) سورة القصص : آية ٤٤ ـ ٤٦

(٢) سورة هود : آية ١٢٠

(٣) سورة الكهف : آية ١٣

(٤) سورة يوسف : آية ١١١

(٥) الاتقان ٢/ ١٥١ ، سنن الترمذي ٢/ ١٤٩ ، مقومتان في علوم القرآن ص ٥٩ ، تفسير القرطبي ١/ ٥ ، محمد ابو زهرة : القرآن ص ١٥

وزجراً لخصوم الإسلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي ﴿ﷺ﴾ أمام أذى الكافرين، حيث شاءت رحمة الله بالمصطفى المختار، أن تخفف عنه الشدائد والآلام، عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، حيث يذكره الله - جل وعلا - بما لاقاه أخوة كرام له من عنت الضالين، وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا، وما ضعفوا وما تخاذلوا، ولكنهم صبروا وصابروا، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤ ادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤ منين» (1) ، كما أن في هذا القصص بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، والله من ورائهم محيط (2) ، ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا - دائماً وأبداً - أن هذا القصص إن هو إلا الحق الصراح، وصدق الله حيث يقول «ومن أصدق من الله حديثا» (3) ، ويقول «إن هذا لهو القصص الحق» (4) ، ويقول: «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين» (5) ، ويقول: «نزل عليك الكتاب بالحق» (6) ، ويقول: «نحن نقص عليك نبأهم بالحق» (7) ، ويقول: «والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق» (8) ، ويقول: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق» (9) ، ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، فبأي حديث بغير الله وآياته

---

(1) سورة هود : آية ١٢٠
(2) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٢٠٣
(3) سورة النساء : آية ٨٧
(4) سورة ال عمران : آية ٦٢
(5) سورة البقرة : آية ٢٥٢
(6) سورة آل عمران : آية ٣
(7) سورة الكهف : آية ١٣
(8) سورة فاطر : آية ٣١
(9) سورة الرمز : آية ٢ وأنظر الآية ٤١

يؤ منون» [1] ويقول «وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم» [2] .

ومن هنا فليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض، من أن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن الكريم، ومعنى هذا أن القصص التاريخي في القرآن، إنما هو قصص أدبي أولاً وأخيراً، وأن الأساس الذي كان يلحظه القرآن دائماً في نفوس المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو القدرة على التأثير [3] وأن مقابلة القصص القرآني وأحداثه وشخصياته بالحقائق التاريخية يكشف عن مفارقات كبيرة تفتح المجال لمن يريدون أن ينالوا من القرآن وأن يشككوا في صحته، وفي صدق النبي، وأنه تلقى القرآن من السماء [4]، ذلك لأنك إن قرأت ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم، فضلاً عن أن ما ذكره القرآن الكريم صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة [5] ومن عجب أن المستشرقين إنما قد سبقوا أصحاب هذا الإتجاه، إلى الشك فيما جاء في القرآن الكريم، وليس له نظير في التوراة ـ كقصة عاد وثمود ـ ثم سرعان ما تبينّ لهم أن عاداً وثمودا مذكورتان في جغرافية بطليموس، وأن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدث عن ثمود ـ كما سنرى فيما بعد ـ فضلاً عن أن الكتاب اليونان والرومان، إنما ذكروا اسم عاد مقروناً باسم إرم، كما جاء في القرآن الكريم [6] وصدق الله العظيم، حيث

---

(١) سورة الجاثية : آية٦ (٢) سورة محمد : آية٢

(٣) محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧

(٤) مقدمة كتاب الفن القصصي في القرآن ، وكذا ص ١٧٤ ـ ١٧٧ ، عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني ص ٢٩٥ ، ٣٢٠ ـ ٣٣٩ • وراجع : محمود شلوت : تفسير القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٥ ـ ٥٠ ، ٢٧٣ (رأيه في الأمثال المضروبة في القرآن) •
S.Tisdall, The Sources of the Koran, P.61FF

(٥) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٣

(٦) عباس العقاد : مطلع النور ، أو طوالع البعثة المحمدية ص ٦١

يقول : «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه»[1] ، وحيث يقول « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه »[2] ، وحيث يقول « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ، مصدقاً لما بين يديه »[3] .

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه البعض من أنه لا شك أن إشارات القرآن الكريم إلى كثير من القصص ، إنما هو دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائد الذي كان يتداوله الناس في بلاد العرب[4]، ذلك لأن العرب ما كانوا يعرفون شيئاً عن كثير من قصص القرآن ، وعلى سبيل المثال ، فإن القرآن الكريم يختم قصة نوح بقوله تعالى «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» ، فلو كان العرب يعرفون هذه القصة مثلاً ، وأنها كانت من قصصهم الشعبي الذي يتداولونه في أسمارهم ، أفكان العرب ـ وفيهم أشد أعداء النبي ـ من يسكت على قوله تعالى «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا»؟ أليس من المنطق أن أعداء المصطفى ، ﴿ﷺ﴾ ـ وقد كانوا دائماً على يقظة يتمنون أقل ثغرة ، ليوجهوا من خلالها ضرباتهم ، ويحولوها إلى سخرية وإستهزاء ـ سوف يجيبونه أنهم يعرفون القصة ، بل وأنها من أساطيرهم التي تفيض بها مجالسهم ونواديهم ، ولكن التاريخ لم يحدثنا عمن أنكر على الرسول هذه الآية الكريمة ، مما يدل على أن ما جاء به القرآن الكريم

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨ ، وأنظر تفسير أبي السعود ٣/ ٣٣ وتفسير الكشاف ١/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠، تفسير روح المعاني ٦/ ١٥١ ـ ١٥٥ ، تفسير الطبرسي ٦/ ١١٠ ـ ١١٣ ، في ظلال القرآن ٦/ ١٧٨ ـ ١٨٢ (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٦١) ، تفسير الطبري ١٠/ ٣٧٧ ـ ٣٩١ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٧)

(٢) سورة الإنعام : آية ٩٢

(٣) سورة فاطر : آية ٣١

(٤) الأدب العربي الحديث ص ٣٠٢ (من مقررات طلاب البكالوريا الأدبية السورية) ، محمد سعيد رمضان البوطي : من روائع القرآن ـ دمشق ١٩٧٢ ، ص ٢٣٧ .

من أخبار الأمم البائدة، كان شيئاً يكاد يجهله العرب جهلاً تاماً، وإن كان يعلم بعضاً منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة والأنجيل [1].

(٥) القصص القرآني والتوراة

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم، قد اعتمد إلى حد كبير في قصصه على التوراة والإنجيل [2]، وزاد بعض من تابعهم من الباحثين العرب على ذلك أن القرآن الكريم جعل هذه الأخبار مطابقة لما في الكتب السابقة، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية، ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة، أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار [3]، وذهب «مالك بن نبي» أن هناك تشابهاً عجيبا بين القرآن والكتاب المقدس (التوراة والانجيل)، وأن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا ويحيى ومريم والمسيح، فأحياناً نجد القرآن يكرر نفس القصة، وأحياناً يأتي بمادة تاريخية خاصة به مثل هود وصالح ولقمان وأهل الكهف وذي القرنين [4]، ومن عجب أن صاحب كتاب «من روائع القرآن» ينقل عنه ـ فيما يزعم ـ أن القرآن جاء بقصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة وتفصيلاً مع ما أثبتته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص، وأن ذلك دليل لا يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى [5]، ولكنه وحي من الله

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٢، ١٥، وكذا *Alfred Guillaume, Islam, (Pelican Books), 1964,* PP. 61-62

(٣) محمد أحمد خلف الله : المرجع السابق ص ٢٢، وأنظر ص ٢٧ ـ ٢٨، ٤٥، ١٧٤ ـ ١٧٧، ١٨٢

(٤) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص ٢٥١

(٥) محمد سعيد البوطي : المرجع السابق ص ٢٢١

عز وجل [١].

والحقيقة غير ذلك تماماً لأسباب كثيرة، منها (أولاً) أن الرسول ﴿ﷺ﴾ لم يغادر مكة، إلا في رحلة يحيط بها الشك، صاحب فيها عمه أبا طالب، وهو في التاسعة من عمره [٢]، وثانية وهو في الخامسة والعشرين في فترة قصيرة كان لا يكاد ينفك فيها عن قومه ورفاقه، وقد ذهب بعض المستشرقين - ومنهم جولد تسيهر - [٣] إلى أن لهذه الرحلة أثراً في نظام النبي الإصلاحي، غير أن بعضاً آخر، إنما يشك في ذلك لعدم وجود أية إشارة في القرآن الكريم عن المظاهر الخارجية للديانة المسيحية، وإن كان يتوسع في الحديث عن أعماق روح المسيحية الشرقيه [٤]، والواقع أن الرسول ﴿ﷺ﴾ حتى لو افترضنا جدلاً بأنه قد اتصل بالمسيحية في ذلك الوقت - وهذا ما نرفضه - فإنه سوف لا يجد - فيما يرى سال - إلا ما ينفره من المسيحية، بسبب أطماع رجال الدين، والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه الأسباب، وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم، قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بفضل جدالهم المستمر حول

---

(١) من عجب أن الدكتور البوطي ينقل كل ذلك دون تعليق، والمستشرقون المبغضون للقرآن لم يقولوا اكثر من ذلك، فضلا عن أن الجملة التي جاءت في كتاب « الظاهرة القرآنية » لا تعني ما ذهب إليه، وإن اقتربت منه

(٢) يتفق الباحثون الان على أن مقابلة بحيري الراهب - إن صحت - فهي لا تعدو نبوءة في مضمونها توقع بعثة هذا الشاب (أي محمد) رسولا في المستقبل (انظر : هيورات : مصدر جديد للقرآن، الجريدة الاسيوية، عدد يوليو - اغسطس ١٩٠٤)

(٣) Goldziher, le Dogme et la Loi de L'Islam, P.4

Sprenger, Cite Par Huart, Une Nouvelle Source du Koran, P.128

وكذا *T.Andrae, Mahomet, Sa vie et Sa Doctrine, P.P.37-8.*

طريقة فهمها [١] ، وهكذا - وكما يقول تايلور - إن كل ما كان يقابله محمد ﴿ﷺ﴾ وأتباعه في كل إتجاه، لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، بحيث شعر العرب ذو العقول النيرة، بأنهم رسل من قبل الله مكلفين بما ألم بالعالم من فساد، وعندما أراد «موشايم» وصف هذا العصر، رسم صورة مقارنة، أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر؛ وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع الميلادي، كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام، حتى إنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها [٢] ، وكما يقول الدكتور محمد عبدالله دراز، إن هذه الصفحات تبدو، وكأنها كتبت لتفسر الآية الكريمة [٣] «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم، فنسوا حظا مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون» [٤] ، ولعل كل هذه الأسباب هي التي دفعت «هوارت» إلى أن يقرر في النهاية، أنه مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب (يعني رسول الله ﴿ﷺ﴾) قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسورية، فإنه يتحتم استبعادها، نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة [٥] .

(١) *Georges Sale, Observations Historiques et Critiques sur le mahometisme, P.68-71.*

(٢) محمد عبدالله دراز : المرجع السابق ص ١٣٥ - ١٣٨

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٣٨

(٤) سورة المائدة : آية ١٤ وانظر : تفسير الطبري ١٠/ ١٣٥ - ١٤٠ (دار المعارف - القاهرة ١٩٥٧) ، تفسير الكشاف ١/ ٦١٦ - ٦١٧ (دار الكاتب العربي ، بيروت)، تفسير روح المعاني ٦/ ٩٥ - ٩٧ (دار احياء التراث العربي ، بيروت) ، تفسير مجمع البيان ٦/ ٥٤ - ٥٥ (دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١)، في ظلال القرآن ٦/ ١٠٤ ، ١٠٧ - ١٠٨ (دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٦١) ، تفسير الجواهر (طنطاوي جوهري) ٣/ ١٥١ (المكتبة الاسلامية - طبعة ثالثة ١٩٧٤)

(٥) محمد عبدالله دراز : المرجع السابق ص ١٣٨ وكذا *Huart, une nouvelle Source du Koran, 1904, P.129*

ومنها (ثانياً) أن النبي نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب [1]، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب حتى يعلم بالتلقين علمهم، والفئة القليلة المستضعفة التي وجدت في مكة منهم، تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة، وكانت تعد من أجهل سكان المدينة المقدسة وأحطهم مقاماً في المجتمع الانساني، يحترفون بدنيء الحرف، كخدمة بعض العرب، أو الاتجار في أشياء حقيرة، كبيع النبيذ، وغير ذلك مما يقوم به المستضعفون الذين يقطنون الأحياء المنزوية [2]، ثم إن هؤلاء المطمورين لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب، ولكن بصفة خاصة ـ وهنا تتركز حجة القرآن [3] كانت لغتهم الأجنبية حاجزا أمام النبي [4]، وفي نفس الوقت كان قوم محمد ﴿ﷺ﴾، أميين، لا يسود فيهم علم من أي طريق كان، إلا أن يكون علم الفطرة والبيان، ولم تكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها، ولا علماء يتلقونه عليهم، لقد كانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب، والمعرفة في أي باب من أبوابها، يقول سبحانه وتعالى «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين»[5]، وكانت رحلتا الصيف والشتاء إلى الشام واليمن تجاريتين لا تتصلان بالعلم في أي باب من أبوابه، ولا منزع من منازعه[6]

ومنها (ثالثاً) أنه لم يثبت أنه كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٨

(٢) مؤتمر سورة يوسف ٢/ ١٣١٠، مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٤ ، وكذا Huart, op-cit, P. 131 وكذا Masse, L'Islam, Paris, 1937,P.21

(٣) سورة النحل : آية ١٠٣

(٤) محمد عبدالله دراز : المرجع السابق ص ١٣٥ ، وكذا Pere Lammens, L'Islam, Croyance et Institution, 1926,P.28

(٥) سورة الجمعة : آية ٢

(٦) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٣٦٣

ديني ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن [1] ، ومنها (رابعاً) أنه لو كانت الفكرة اليهودية المسيحية قد تغلغلت حقاً في الثقافة والبيئة الجاهلية ، لكانت هناك ترجمة عربية للكتاب المقدس ، الأمر الذي لم يثبت على الإطلاق، بل إن الآية الكريمة «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» [2] ، نشير إلى أنه لم يكن بين العرب من يعرف العبرية ، فضلاً عن عدم وجود ترجمة عربية للتوراة [3] ، قبل عام ٧١٨م، وأما ترجمة الانجيل، فلم تكن هناك حاجة إليها، إلا في القرن التاسع والعاشر الميلادي، بل إن القس «شيدياك» ليصرح بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد (الانجيل) باللغة العبرية إلى أبعد من القرن الحادي عشر الميلادي[4] .

ومنها (خامساً) الخلاف الجوهري بين القرآن والانجيل في أمور

---

(١) مالك بن نبي : المرجع السابق ص ٣١٠

(٢) سورة آل عمران : آية ٩٣

(٣) مالك بن نبي : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢ ، راجع ترجمات التوراة في كتابنا « إسرائيل » ص ٤٨ - ٥١

(٤) انظر : شيدياك : دراسة عن الغزالي الفصل السابع ، مقاله «مس بادويك » عن أصل الترجمة العربية للكتاب المقدس ، مجلة « العالم الاسلامي » عدد ابريل ١٩٣٩ ، مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٨ - ١٤٢ ، وكذا *Leblois,op-cit,P.35* وكذا *S.Tisdll, op-cit,P.35*

رئيسية ـ كألوهية المسيح وصلبه وعقيدة التثليث [1] ـ فضلاً عما أشار إليه القرآن من تحريف النصارى لإنجيل المسيح عليه السلام، ومنها (سادساً) أن السور المكية ـ وهي التي نزلت قبل هجرة الرسول، ﴿ﷺ﴾، الى المدينة، حيث يوجد اليهود، هي التي تعرض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة [2] ،ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة إستخلاص الدروس منها وغالباً في تلميحات موجزة [3] ، ومنها (سابعاً) أن القرآن الكريم يختلف إختلافاً جوهرياً في أمور رئيسية مع التوراة كذلك، ومن ثم فإن الخلاف بين قصص القرآن وحكايات التوراة واضح الى حد كبير.

---

(١) أنظر : النساء : آية ١٧١ ، المائدة ١٧ ، ٧٢ ـ ٧٥ ، ١١٦ والتوبة: آية ٣٠ ـ ٣١ ، النساء : آية ١٥٧ وانظر عن هذه الآيات الكريمة :
تفسير الطبري ٩/ ٣٦٧ ـ ٣٧٧ ، ٤١٥ ـ ٤٢٤ ، ١٠/ ١٤٦ ـ ١٥٠ ، ٤٨٠ ـ ٤٨٦ ، ١٤/ ٢٠١ ـ ٢١٢ ، ١١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ (طبعة دار المعارف) تفسير روح المعاني ٦/ ١٠ ـ ١٢ ، ٢٤ ـ ٤٠ ، ٩٨ ـ ١٠٣ ، ٢٠٧ ـ ٢١١ ، ٧/ ٦٤ ـ ٦٩ ، تفسير البحر المحيط ٣/ ٥٣٦ ـ ٥٤٠ ، تفسير المنار ٦/ ٨١ ـ ٩٨ ، ٤٧٩ ـ ٤٨٧ ، ٧/ ٢٦٠ ـ ٢٧٦ ، تفسير الكشاف ١/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥ ، ٥٩٣ ـ ٥٩٤ ، ٦١٧ ـ ٦١٨ ، ٦٦٣ ـ ٦٦٤ ، ٦٩٤ ، تفسير مجمع البيان ٥/ ٢٧٩ ـ ٢٨٤ ، ٢٩٩ ـ ٣٠٣ ، ٦/ ٥٧ ـ ٦٠ ، ١٦١ ـ ١٦٨ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٨ ـ ٤٦١ ، ٦١٥ ـ ٦١٧ ، تفسير أبي السعود ٢/ ٤٩ ـ ٥١ ، تفسير القرطبي ٦/ ٢٠ ـ ٢٥ ، ٢٤٩ ـ ٢٥١ ، ٣٧٤ ـ ٣٧٧ (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٨)

(٢) انظر مثلا : الأعراف عن آدم (١١ ـ ٢٥) وموسى (١٠٢ ـ ١٧٦) يونس عن موسى (٧٥ ـ ٩٢) وهود عن نوح (٢٥ ـ ٤٩) وابراهيم ولوط (٦٩ ـ ٨٢) وسورة يوسف عن يوسف ، وسورة الحجر عن آدم وابراهيم ولوط (٢٦ ـ ٧٧) وسورة الإسراء عن بني اسرائيل (٤ ـ ٨) وسورة الكهف عن أهل الكهف (٩ ـ ٢٥) وموسى (٦٠ ـ ٨٢) وسورة مريم عن زكريا ويحيي ومريم وعيسى . . الخ (١ ـ ٣٣) وسورة طه عن موسى (٩ ـ ٩٨) وسورة الأنبياء عن ابراهيم (٥١ ـ ٧٠) وداود وسليمان (٧٨ ـ ٨٢) وسورة الشعراء عن موسى وابراهيم ونوح . . الخ (١٠ ـ ١٨٩) وسورة النمل عن موسى وداود وسليمان (٧ ـ ٤٤) وسورة القصص عن موسى (٣ ـ ٤٣) وقارون (٧٦ ـ ٨٢) وسورة العنكبوت عن نوح وابراهيم ولوط (١٤ ـ ٣٥) وسورة سبأ عن داود وسليمان (١٠ ـ ١٤) وسورة ص عن داود وسليمان وأيوب (١٧ ـ ١٤) وسورة الذاريات عن إبراهيم (٢٤ ـ ٣٧)

(٣) محمد عبدالله دراز: المرجع السابق ص ١٥٦ ـ ١٥٧

وأخيراً (ثامناً) فإن محمداً ﴿ﷺ﴾ ، لم يكن له معلم من قومه الأميين قط، بل لم يكن له - عليه الصلاة والسلام - معلم من غيرهم من أمم الأرض قاطبة، وحسب الباحث في ذلك أن نحيله على التاريخ، وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث، والإسلامي منه والعالمي، ثم نسأله: هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول: إن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء، فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين، ومن قصصه عن الأولين والآخرين [1] .

وأما الذين لقوه بعد النبوة، فقد سمع منهم وسمعوا منه، ولكنهم كانوا له سائلين، وعنه آخذين، وكان هولهم معلماً وواعظاً، ومنذراً ومبشراً [2] .

على أنه يجب أن نلاحظ أن قصص التوراة إن كانت تحمل أوجه شبه بالقصص القرآني، فربما يرجع ذلك إلى أن التوراة - في الأصل - كتاب مقدس، وأن الإسلام الحنيف، إنما يؤ من بموسى - كنبي وكرسول وككليم الله عز وجل - ثم يقرر بعد ذلك - دونما لبس أو غموض - أن موسى جاءته صحف وأنزلت عليه توراة، إلا أن توراة موسى هذه، سرعان ما إمتدت إليها أيد أثيمة، فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا - بعد كل هذا - أنها هي التوراة التي أنزلها الله على موسى [3] ، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً [4] .

والذي تولى هذا التصحيف والتأويل والتعمية، إنما هي طائفة

---

(١) محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ص ٥٦ - ٥٧

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٧

(٣) راجع كتابنا إسرائيل ص ٢١ - ٢٣

(٤) سورة الكهف: آية ٥

متخصصة من أحبارهم، بغية الحفاظ على مكانتها ومكاسبها، وعن هذا يقول القرآن الكريم «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» [1] ويقول « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»[2] ، ويقول : «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به»[3] .

هذا وقد عمد لفيف من رؤسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل - وهي التي عرفت بالأسفار الخفية [4] - ثم اختلفت نظرتهم إليها، إذ كان بعضها - فيما يعتقدون - غير مقدس ، بينما بعضها الآخر موحى به من عند الله ، وإن رأي الأحبار إخفاءه في الهيكل حتى لا يطلع عليه العامة من القوم، كما رأوا عدم إدراجه بين أسفار التوراة، ربما

---

(١) سورة النساء : آية ٤٦

(٢) سورة البقرة : آية ٧٩

(٣) سورة المائدة : آية ١٣

(٤) انظر عنها كتابنا إسرائيل ص ٩٥ - ٩٧

لأن ما بها من حقائق لا تتفق وأهواءهم، وربما لأن ما بها من بشارات لا يتلاءم وميولهم العنصرية وعن هذا يقول القرآن الكريم «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً»[1]، ومن ثم فقد كان حكم الإسلام على كتاب اليهود هذا، أنه يحمل بعض لمحات من توراة موسى، ذلك لأن اليهود، إنما قد أوتوا نصيباً منها، ونسوا نصيبا وحظا، فلم يحفظوها كلها، ولم يضيعوها كلها، وأنهم قد حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفاً لفظياً ومعنوياً[2].

(٦) مقارنة بين القصص القرآني وروايات التوراة

والرأي عندي أن خير ما نفعله لنثبت الخلاف الجوهري بين قصص القرآن وروايات التوراة، وأن المصدر الأول لم يعتمد على الثاني، بل إن محمدا ﷺ كما يؤكد الباحثون من المستشرقين - حتى المتعصبين منهم - لم يقرأ التوراة، أو أي كتاب آخر من كتب أهل الكتاب[3]، هو أن نقدم مقارنة بين بعض قصص القرآن، ونظائرها في التوراة.

وإذا بدأنا بقصة نوح - عليه السلام - وجدنا أنها في القرآن[4]، غيرها

---

(١) سورة الانعام : آية ٩١

(٢) تفسير المنار ١/ ٢١٣

(٣) *T.Noeldeke, op-cit,I, P.16*

(٤) ذكر القرآن قصة نوح في سور كثيرة منها الأعراف (٥٩ - ٦٤) ويونس (٧١ - ٧٣) وهود (٢٥ - ٤٩) والانبياء (٧٦ - ٧٧) والمؤمنون (٢٣ - ٣٠) والشعراء (١٠٥ - ١٢٢) والعنكبوت (١٤ - ١٥) والصافات (٧٥ - ٨٢) والقمر (٩ - ١٧) ثم سورة كاملة هي سورة نوح، كما ذكر في مواضع متفرقة من النساء والأنعام والتوبة وابراهيم والإسراء والاحزاب وص وغافر والشورى وق والذاريات والنجم والحديد والتحريم

في التوراة ، وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، فإن القرآن وحده هو الذي يذكر أن نوحا ـ عليه السلام ـ إنما كان رسولا من رب العالمين ، وأنه قد قضى من الوقت ـ ما شاء الله له أن يقضي ـ في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله ـ جل وعلاِ ـ لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في سبيل دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد ، وإلا بعد أن جرب النبي الكريم كل سبل الإقناع دونما أية نتيجة ، وإلا بعد أن يئس النبي من أن يؤ من به قومه[1] ، وإلا بعد أن أوحى إليه « أنه لن يؤ من من قومك إلا من قد آمن[2] »، وهكذا اتبع النبي الكريم كل ما يمكن اتباعه ، تصديقا لقوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[3] » ، والأمر غير ذلك تماما في التوراة[4] .

هذا فضلا عن أن القرآن الكريم هو وحده الذي يؤ كد ـ التأكيد كل التأكيد ـ أن الناجين من الطوفان ، إنما نجوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم ، بل إن القرآن ليقص علينا ـ من بين ما يقص من أحداث ـ ما وقع مع ابن النبي الكريم ، وكيف كان من الغارقين [5] ، عملا بالمبدأ الإسلامي العظيم ، «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلاّم للعبيد »[6] .

---

(١) سورة نوح: آية ١ ـ ٢٧

(٢) سورة هود: آية ٣٦

(٣) سورة الاسراء : آية ١٥

(٤) أنظر مقالنا «قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة» مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد الخامس ـ الرياض ١٩٧٥ ص ٤٤٨

(٥) سورة هود: آية ٢٥ ـ ٤٨

(٦) سورة فصلت: آية ٤٦

«ولا تزر وازرة وزر أخـرى[1]» ، «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وإن سعيه سوف يرى[2]» ، «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[3]» .

والقرآن الكريم وحده هو الـذي لا نجـد فيه نصـاً قطعياً على أن الطوفان قد شمل الأرض كلها ـ وهذا ما نميل إليه ونرجحه[4] ـ أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم ـ بعكس التوراة ـ إنما ينزه الله سبحانه وتعالى عن الندم على إحداث الطوفان ، بل أن التوراة لتذهب إلى أبعد من ذلك ، حين تزعم أن الله ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ قد عزم على ألا يحـدث طوفانا بعد ذلك وأنه قد وضع علامة ، هي القوس في السماء ، ليتذكر وعده ، فلا يكون طوفان يغـرق الأرض أبـدا[5] ، كما تذهـب التـوراة

(١) سورة فاطر : آية ١٨ وانظر : تفسير الطبري ٢٢/ ١٢٦ ـ ١٢٨ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٠ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٤ ـ ١٥ ، تفسير القرطبي ١٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ، تفسير روح المعاني ٢٢/ ١٨٦ ـ ١٨٥ ، تفسير مجمع البيان ٢٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، تفسير وجدي (وانظر نفس الآية : الأنعام : ١٦٤ ، الإسراء : ١٥)
وانظر قوله تعالى «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» من سورة البقرة : آية ١٤١ ، وانظر عنها : تفسير المنار ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠٤ ، تفسير القرطبي ص ٥٣١ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٩) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ (دار الشعب ـ ١٩٧١ م) ، تفسير الطبري ٣/ ١٢٨ ـ ١٢٩ (دار المعارف) الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ١٤٠ ـ ١٤١ ، تفسير أبي السعود ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ، في ظلال القرآن ١/ ١١٩ ، تفسير الكشـاف ١/ ٣١٦ ، تفسير روح المعاني ١/ ٤٠١ ، تفسير الفخر الرازي ٤/ ١٠٠ ، تفسير مجمع البيان ١/ ٤٩٨ ، تفسير القاسمي (محاسن التأويل لمحمد جمال الـدين القاسمي ـ طبعة الحلبي ١٩٥٧) ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، تفسير وجدي ص ٢٧ ، وانظر : محمود أبوريه : دين الله واحد ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٥ ـ ٦٧ .
(٢) سورة النجم : آية ٣٩ ـ ٤٠
(٣) سورة الزلزلة : آية ٧ ـ ٨
(٤) راجع مقالنا : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسـة ص ٣٨٣ ـ ٤٥٧ ، تفسـير المنـار ١٢/ ١٠٦ ـ ١٠٩
(٥) تكوين ٩ : ١ ـ ١٧

كذلك إلى أن نوحا إنما قدم الأضاحي للرب بعد نجاته ، وأن الرب ما لبث أن شمّ رائحة الشواء ، فسكن غضبه ، وتنسم رائحة الرضا[1] ، ويرد القرآن الكريم على فحش يهود هذا ، بقوله تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم »[2]، ويقول تعالى «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير[3] » ، وما أصدق القرآن الكريم حيث يختم هذه القصة بقوله تعالى «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين[4] » .

وفي قصة أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تفرد القرآن الكريم ـ دون غيره من الكتب المقدسة ـ بأن يقدم لنا الخليل ـ عليه السلام ـ في صورة المجاهد بنفسه وولده وماله لله ، والذي حطم الأصنام ، وتحدى الجبابرة الطغام، وألقى من أجل دعوته في النار ، فأنجاه الله في كفاح طويل وجهاد موصول ، كان للناس إماما ، وعلى مدارجه أو من نسله درج الأنبياء[5] ، ومن أسف أن إبراهيم العظيم هذا، لم تصوره التوراة إلا رجلا لا همّ له ، إلا جمع البقر والغنم ، والإتن والجمال ، والإماء والعبيد ، متخذا من الوسائل أحطها ، ومن الطرق أحقرها ، بل إن التوراة لم تجد وسيلة لجمع المال ، إلا أن تجعل أبا الأنبياء ـ وحاشاه أن يكون كذلك ـ وكأنما هو يتاجر بإمرأته سارة ، متنقلا بها من بلد إلى بلد[6] .

ومن الغريب المؤلم أن مفسري التوراة لم يحاولوا رد هذه الروايات

(١) تكوين ٨ : ٢٠ ـ ١٢ ، وأنظر عن رأى التوراة في نوح (تكوين ٩ : ٢٠ ـ ٢٧)
(٢) سورة الحج : آية ٣٧
(٣) سورة الحج : آية ٢٨
(٤) سورة هود : آية ٤٩
(٥) كمال عون : اليهود من كتابهم المقدس ص ١٠٧
(٦) تكوين ١٢ : ١٠ ـ ٢٠ ، ٢٠ : ١ ـ ١٨

الكذوب ، وإنما جهدوا ـ قدر طاقتهم ـ لأثباتها ، وهم أول من يعلم أن التوراة ـ أو العهد القديم ـ غير موثوقة السند ، وراح بعضهم يتطاول على المقام السامي ، دونما أي حذر أو حيطة ، إثباتا لصحة نصوص التوراة ، فيما يزعمون[1] ، وكأن التوراة لا تكون كتابا مقدسا ، إلا اذا صورت المصطفين الأخيار ، من أنبياء الله الكرام في صورة مشوهة[2] .

ويقدم لنا القرآن الكريم ـ بعكس التوراة تماما ـ خليل الرحمن ، وهو يترك موطنه الأصلي في حاران[3] ، مبشرا بدعوة التوحيد ، في مكان غير هذه الأرض ، التي لم تتقبل دعوته بقبول حسن ، وتقصّ علينا الآيات الكريمة من سورة مريم ، كيف بدأ ابراهيم دعوته مع أبيه ، يهديه بها صراطا مستقيما ، غير أن أباه قد رفض الدعوة ، بل وهدده إن لم ينته عنها ، ليرجمنه وليهجرنه مليا ، فما كان من الخليل ، تأدبا مع أبيه وحدبا عليه ، إلا أن يدعو له بالمغفرة ، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين ، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة : « وأذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله

(١) ف.ب. ماير: حياة ابراهيم ص ٦٥ ، ٢٢١ ، حبيب سعيد: خليل الله في اليهودية والمسيحية والاسلام ص ٤٧ ، القس منيس عبد النور : ابراهيم السائح الروحي ص ٢٦

(٢) انظر رحله في كتابنا اسرائيل ص ٦٩ ـ ٨٦

(٣) انظر وجهات نظر مختلفة عن موطن الخليل وهجراته ، في كتابنا «اسرائيل» ص ١٦٥ ـ ١٩٦

وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا[1] ».

وهذه الآيات الكريمة تدل بوضوح على أن هناك خلافا عميق الجذور بين إبراهيم وأبيه، تأدي بالوالد أن يأمر ابنه بالهجرة، حيث لا أمل في اتفاق، ولكن الأمور سرعان ما تتأزم كذلك بين إبراهيم وقومه، إلى الحد الذي لا يجد القوم مخرجا منها، إلا أن يلقوا بابراهيم في نار أوقدوها لإحراقه، وهنا يفقد إبراهيم الأمل في ايمان القوم، ويقرر الهجرة، «وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين »[2]، ولم يجد من القوم من يؤ من به إلا ابن أخيه لوط[3]، « فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم[4] »، وهكذا كتب الله لإبراهيم - وكذا لإبن أخيه - النجاة، بعد أن اعد القوم العدة لإحراقه، « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين[5] ».

ولعل من المفيد الأشارة هنا إلى رأي عالم يهودي، يعترف فيه صراحة، بأن التوراة لم تأت على السبب الصريح لمهاجرة إبراهيم أرض آبائه، وإنما يؤ خذ مما جاء فيها في مواضع مختلفة، أنه فضل ذلك كي يعبد الله عملا بما أنزل عليه من الوحي، وهذا يطابق ما جاء في القرآن من أنه إنما غادر أهله وبلاده، لأنهم كانوا عبدة أصنام، وكان يعبد الله فخاصمهم وارتحل عنهم إلى حيث يبيت في مأمن منهم، وحيث تتسنى له

(١) سورة مريم: آية ٤١ - ٤٨

(٢) سورة الصافات: آية ٩٩، وأنظر عن تفسير هذه الآيات: تفسير الطبري ٢٣/ ٧٥ - ٧٦، تفسير القرطبي ١٥/ ٩٧ - ٩٨، روح المعاني ٢٣/ ١٢٦ - ١٢٧

(٣) انظر عن رأي التوراة في لوط: تكوين ١٩: ٣٠ - ٣٨، كتابنا إسرائيل ص ٧٣ - ٧٤

(٤) سورة العنكبوت: آية ٢٦

(٥) سورة الأنبياء: آية ٦٨ - ٧١

عبادة الحق دون معارضة أو خصام[1] .

هذا ، وقد انفرد القرآن الكريم - دون غيره من الكتب المقدسة - بأخبار إبراهيم ورحلته إلى الحجاز ، وأنه ترك هناك ولده إسماعيل - وكذا زوجه هاجر - وإنه فعل ذلك امتثالا لأمر الله ، ورغبته في نشر الإيمان بالله ، في بيئة جديدة ، وفي مناخ جديد ، بعد أن قام بذلك في العراق وسورية ، وفلسطين ومصر ، ليربط ولده وبكره ، بما ارتبط به هو من قبل ، فإبراهيم الخليل يرجع في نسبه الأول إلى العرب البادية - كما يسميهم الاخباريون - والتي هاجرت في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين من بلاد العرب إلى الرافدين[2] .

وأخيرا ، فإن القرآن الكريم - بعكس التوراة - إنما ينظر إلى ابراهيم ، على أنه أبو الأنبياء، حيث أخرج الله من صلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية وتوارثوا المشعل[3] ، وهو خليل الله[4] ، وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين جميعا[5] ، إذ «كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم»[6] ، ومن ثم فقد أوحى الله إلى حبيبه ونبيه المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - «أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين[7] » ، ومن هنا فلا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه[8] ، ثم هو - أول من أعطى المسلمين اسمهم[9] ، وأول من

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ الأمة الاسرائيلية ص ١٥
(٢) أنظر : كتابنا اسرائيل ص ١٩٥ - ١٩٦
(٣) سورة الانعام : آية ٨٤ - ٨٧
(٤) سورة النساء : آية ١٢٥
(٥) سورة الممتحنة : آية ٤
(٦) سورة للنحل : آية ١٢٠ - ١٢١
(٧) سورة النحل : آية ١٢٣
(٨) سورة البقرة : آية ١٣٠
(٩) سور الحج : آية ٧٨

دعا لهم ربهم أن يبعث فيهم رسولا منهم يهديهم سواء السبيل[1]، وهو باني كعبتهم الشريفة ، وجاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة[2] ومن دعا لهم « رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات[3] »، وهو أول من أذن في الناس بالحج[4] ، وأخيرا ، فإلى الخليل يشرف بالانتساب كل أصحاب الديانات السماوية ـ اليهودية والمسيحية والإسلامية ـ وتلك مكانة ـ علم الله ـ ما استطاعت التوراة أن تصل إلى شيء منها ، بالنسبة إلى الخليل ـ عليه السلام ـ ولكنه القرآن ـ كتاب الله الكريم ـ يعطي كل ذي حق حقه[5] .

والأمر كذلك بالنسبة إلى بقية قصص الأنبياء الكرام ، كموسى وهارون ، وقد تحدثنا عن قصتهما مع بني إسرائيل بالتفصيل في كتابنا إسرائيل[6] ، ورأينا كيف لقي النبيان الكريمان من يهود عناءا ، ما بعده عناء ، وكيف تختم التوراة قصتهما برواية كذوب ، مؤداها أن موتهما إنما كان بسبب خيانتهما للرب ، « عند مريبة قادش في برية صين» ، «إذ لم يقدسا رب اسرائيل في وسط إسرائيل »، ومن ثم فقد حرم الله الأرض

(١) سورة البقرة : آية ١٢٩

(٢) سورة آل عمران آية ٩٦

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٦

(٤) سورة الحج : آية ٢٧

(٥) ذكر القرآن الكريم ابراهيم في عدة آيات من سورة، منها : البقرة (١٢٤ ـ ١٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠) وآل عمران (٦٧ ـ ٦٨ ، ٩٥ ـ ٩٧) والنساء (٥٤ ـ ١٦٣) والانعام (٧٤ ـ ٨٨) والتوبة (٧٠ ، ١١٤) وهود (٦٩ ـ ٧٦) ويوسف (٦ ، ٣٨) وابراهيم (٣٥ ـ ٤١) والحجر (٥١ ـ ٦٠) والنحل (١٢٠ ـ ١٢٣) ومريم (٤١ ـ ٥٠) والأنبياء (٥١ ـ ٧٣) والحج (٢٦ ـ ٣٣، ٧٨) والشعراء (٦٩ ـ ٨٩) والعنكبوت (١٦ ـ ٢٧ ، ٣١ ـ ٣٢) والاحزاب (٧) والصافات (٨٣ ـ ١١٣) وص (٤٥) والشورى (١٣) والزخرف (٢٦ ، ٢٧) والذاريات (٢٤ ـ ٣٠) والنجم (٣٧) والحديد (٢٦) والممتحنة (٤) والاعلى (١٩)

(٦) كتابنا إسرائيل ص ٢٥٤ ـ ٣٢٩

المقدسة عليها أبدا[1].

ولعل الذين يقولون بأن قصص القرآن ، قد اعتمد على التوراة ، يعلمون أن القرآن الكريم إنما يقدم لنا النبيين الكريمين وقد بذلا الجهد في تبليغ دعوة ربهما ، وأفنيا عمرهما من أجلها ، حتى لقيا ربهما مطمئنين إلى رضاه ، وهكذا نرى القرآن الكريم يكرمهما أمجد تكريم ، وذلك حين يقول ، « وأذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا[2] » ، وحين يقول « ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم[3] » ويقول « وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما في الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزي المحسنين[4] » ويقول «يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين[5] » ، ويقول « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب[6] » ويقول

---

(١) سفر التثنية ٣٢ : ٤٨ ـ ٥٢

(٢) سورة مريم : آية ٥١ ـ ٥٢ تفسير البيضاوي ٢/ ٣٦ ، تفسير روح المعاني ١٦/ ١٠٣ ـ ١٠٤ ، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٣١ ، تفسير الطبري ١٦/ ٩٤ ـ ٩٥ ، تفسير مجمع البيان ١٦/ ٤٤ ـ ٤٦ ، تفسير القاسمي ١١/ ٤١٤٩ ، تفسير القرطبي ص ٤١٥٢ ـ ٤١٥٣

(٣) سورة الصافات : آية ١١٤ ـ ١١٥ تفسير القرطبي ١٥/ ١١٤ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٥٩ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٩٠ ، تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٣٨ ، تفسير ابن كثير ٧/ ٣١ (دار الشعب ١٩٧٢) ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٨ ، تفسير وجدي ص ٥٩٣

(٤) سورة الصافات : آية ١١٨ ـ ١٢١ تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، و تفسير القرطبي ١٥/ ١١٤ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٩٠ ـ ٩١ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٥٩ ، تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٣٨ ، تفسير وجدي ص ٥٩٤ ، تفسير ابن كثير ٧/ ٣١

(٥) سورة الاعراف : آية ١٤٤ تفسير الطبري ١٣/ ١٠٥ (دار المعارف) ١٩٥٨ ، تفسير مجمع البيان ١٩/ ١٨ ـ ٢٠ ، تفسير القاسمي ٧/ ٢٧٥٤ ، تفسير المنار ٩/ ١٠٤ ـ ١١٣ (دار الشعب ١٩٧٤) ، تفسير القرطبي ص ٢٧١٦ (دار الشعب ١٩٧٠) ، تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧١ ، تفسير وجدى ص ٢١٤ .

(٦) سورة غافر : اية ٥٣ ـ ٥٤

« وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني[1] » ، ويقول « واصطنعتك لنفسي[2] » .

وهكذا يرفع القرآن الكريم هذين الرسولين الكريمين إلى الدرجة التي يستحقانها، ثم يطلب إلى المؤمنين به أن يرتفعوا إلى مستوى دينهم القويم ، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بني إسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام ، فيقول «يا أيها الذين آمنـوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها[3] » .

وتصور التوراة النبي الأواب داود عليه السلام ، الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وهو يقضي وقته في نزهة فوق قصره يتطلع إلى حرمات الناس، فإذا ما رأى امرأة أعجبه حسنها ، سرعان ما يأمر جنده بارسالها إلى فراشه ، وحين يقضي منها وطره ، وتثمر جريمته ، يرسل في طلب زوجها من ميدان القتال ، إيهاما له بأنه عنه راض ، ولقضاء وقت جميل مع صاحبته موافق ، وحين يتعفف الرجل من أن يكون بين أحضان امرأته ، بينما اخوة له يجندلون بسيوف العدو ، يدبر أمر قتله ، وما أن تنتهي المناحة

---

(١) سورة طه : آية ٣٩ تفسير روح المعاني ١٦/ ٩٣ ـ ٩٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٤٩ ـ ٥٠ تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٥٠ ، تفسير الطبري ١٦/ ١٦٢ ـ ١٦٧ ، تفسير الطبرسي ١٦/ ٩٨ ـ ١٠٠، تفسير القاسمي ١١/ ٤١٧٩ ، تفسير وجدي ص ٤٠٨ تفسير القرطبي ص ٤٢٣٥ ـ ٤٢٣٧ (دار الشعب ١٩٧٠) .

(٢) سورة طه : آية ٤١ تفسير القاسمي ١١/ ٤١٨١ ، تفسير الطبرسي ١٦/ ٩٨ ـ ١٠٤ ، تفسير الطبري ١٦/ ١٦٨ ـ ١٦٩ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٠ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/ ٥٠ ، تفسير روح المعاني ١٦/ ٩٥ ـ ٩٦ ، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٥٠ ، تفسير القرطبي ص ٤٢٣٥ ، ٤٢٣٨ ـ ٤٢٣٩ (دار الشعب ١٩٧٠)

(٣) سورة الاحزاب: آية ٦٩، وانظر كتاب: عبد الرحيم فودة: من معاني القرآن ص ٢١٤ تفسير البيضاوي ٢/ ٢٥٣ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/ ٢٥٣ ، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢ ، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٣٣ ، تفسير الطبري ٢٢/ ٥٠ ـ ٥٣ .

حتى يأمر بضم امرأته إلى حريمه[1]

والواقع أنه ليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما ، كالصورة التي تقدمها التوراة لنا عن داود ملك اليهود القدير ، فهو الشجاع قاتل جالوت الجبار بمقلاعه دون سيف في يده[2] ، وبذا يصبح مطاردا من الفلسطينيين ، ولكنه سرعان ما يشاركهم في محاربة عدو لهم ، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيهم اليهود ،[3] ، وهو يعمل حامل سلاح شاؤل الإسرائيلي يوما ما ، ثم حارسا لـ«أخيش» الفلسطيني يوما آخر[4] ، وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم تماما ، وهو عدو شاؤل اللدود ، ولكنه في نفس الوقت زوج ابنته ، وحبيب ابنه «يوناثان» ، وكثير من فتيات إسرائيل[5] ، وهو يعمل مغنيا في بلاط شاؤل ، لأنه يجيد الضرب على القيثار ، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار ، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه[6] .

وهو قاس غليظ القلب ـ كما كان الناس في وقته وكما كانت قبيلته ـ وهي صور مستحبة في اذهان اليهود ، خلعوها على إلههم «يهوه»، من بين ما خلعوا عليه من صفات ، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدا لأن

---

(١) صموئيل ثان ١١ : ٢ إلى ١٢ : ١٢ ، وأنظر عن تهم كذوب أخرى الصقتها التوراة بالنبي الأواب (صموئيل أول ٢١ : ٢ ، ١٨ : ٢٥ ، ٢٧ ، ملوك أول ٢ : ٨ ، ٩ ، صموئيل ثان ١٣ : ١ ـ ١٤ ، ١٤ : ٢٤ ، ٢٨ ، ملوك أول ١٥ : ٥ ، أخبار أول ٢٠ : ٣٠ ، صموئيل ثان ٢ : ٦ ـ ١٩ ، وراجع كتابنا إسرائيل ص ٧٩ ـ ٨٤)

(٢) صموئيل أول ١٧ : ٥٠

(٣) صموئيل أول ٢٩ : ٢ ـ ٢

(٤) صموئيل أول ٢٨ : ١ ـ ٢

(٥) صموئيل أول ١٨ : ١ ـ ٧

(٦) صموئيل أول ١٦ : ٢١ ـ ٢٣

يعفو عن أعدائه ، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين ، بل إنه ليبالغ حتى في النسوة ، حين يأمر بحرق المغلوبين وسلخ جلودهم ووشرهم بالمنشار[١]. وحين يطلب منه شاؤل مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لأبنته «ميكال»، إذا به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين[٢]، ويقدم غلفهم مهرا لأبنة شاؤل هذه[٣] ، وحين يوصي ولده سليمان ـ وهو على فراش الموت ـ بأن «يحدر بالدم إلى الهاوية[٤]» شيبة شمعي بن جبرا ، الذي لعنه منذ سنين طويلة.

وهو يأخذ النساء من ازواجهن قسرا ، مستغلا في ذلك جاهه وسلطانه ، فهو يشترط لمقابلة «أبنير قائد جيوش شاؤل ، أن يأتي له بميكال ابنة شاؤل ـ والتي دفع مهرها من قبل رؤوس مائتين من الفلسطينيين ـ من زوجها «فلطئيل بن لايش» ، الذي أدمى قلبه فراقها ، ثم سار وراءها وهو يبكي حتى «بحوريم»، ولم يرجع من ورائها ، إلا بأمر من أبنير ، وإلا خوفا منه[٥] ، ثم يأخذ امرأة « أوريا الحيثي» بين نسائه ، ويرسل بزوجها الى الصف الأول في ميدان القتال ليتخلص منه[٦] .

وهو يقبل زجر «ناثان» له في ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ بـ «بتشيع» الجميلة ، ويعفو عن صموئيل عدة مرات ، تكاد تبلغ اربعمائة وتسعين ، ولا يسلبه الا درعه ، حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته ، ويعفو عن

---

(١) صموئيل ثان ١٢ : ٢٩ ـ ٣١
(٢) كان الفلسطينيون ـ وهم غير ساميين ـ لا يختنون، ومن ثم فقد كان الاسرائيليون ـ بعد ان تعلموا الختان في مصر ـ يقطعون غلف القتلى من الفلسطينيين
(٣) صموئيل أول ١٨ : ٢٥ ـ ٢٧
(٤) ملوك أول ٢ : ٩
(٥) صموئيل ثان ٣ : ١٢ ـ ١٦
(٦) صموئيل ثان ١١ : ٢ ـ ٢٦

«مغيبوشت» ويساعده - رغم أنه حفيد شاؤ ل ، وقد يكون من المطالبين بعرش عمه وجده من قبله[1] - وهو يعفو عن ولده «أبشالوم» بعد أن قبض عليه في ثورة مسلحة ، وبعد أن دنس عرضه على ملأ من القوم[2] ، بل إنه ليعفو عن «شاؤ ل» الذي كان يسعى لقتله ، بعد أن تمكن منه عدة مرات ، وفي أمان مطلق ومناعة تامة[3] .

ويعلق المؤ رخ الأمريكي «ول ديورانت» على ذلك ، بأن هذا وصف رجل حقيقي ، لا رجل خيالي ، إكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوي على جميع بقايا الهمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة[4] .

وأما في القرآن الكريم ، فإن داود - عليه السلام - إنما هو «نعم العبد إنه أواب[5]» ، وقد «آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء[6]» ، «وآتينا داود زبوراً[7]» ، «ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عبادة المؤ منين[8]» ، «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد[9]» ، ثم يأمر الله نبيه الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه -

---

(١) صموئيل ثان ٤ : ٤ - ٥
(٢) صموئيل ثان ١٦ : ٢٣ ، ١٨ : ٣٣
(٣) صموئيل أول ٢٤ : ٢ - ٢٢
(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة - جـ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم جـ٣ ص ٣٦٢ - ٣٧٣
(٥) سورة ص : آية ٣٠
(٦) سورة البقرة : آية ٢٥١
(٧) سورة النساء : آية ١٦٣
(٨) سورة النمل : آية ١٥
(٩) سورة سبأ : آية ١٠ ، ١١

« اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »[1]، « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[2] وأخيراً ، وليس آخراً[3]، « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب »[4] .

وأما أعظم ملوك إسرائيل ، سليمان الحكيم ، فليس في نظر التوراة ، إلا ذلك الحاكم الذي يرتكب أبشع الجرائم في سبيل توطيد سلطانه ، فيقتل أخاه الأكبر «أدونيا» [5] صاحب الحق الشرعي في العرش - ثم يقتل «يوآب» قائد جيش أبيه[6] ، ثم هو - في نظر التوراة كذلك - ذلك الرجل الغارق في ملذاته ، والذي يجمع في بلاطه ألفا من النساء بين الزوجات والحظيات ، ومن كل بلد ولون[7] ، ويبدو أن كاتب سفر الملوك[8] لم يرضه كل ما ألصقه من تهم بسليمان ، فإذا به يحول النبي الكريم إلى كافر ، ويجعل الرسول الجليل - وحاشاه أن يكون كذلك - مشركا ، فإذا بغضب الرب يحل به ، واذا باللعنة تنزل عليه ،

(١) سورة ص : آية ١٧ - ٢٠

(٢) سورة ص : آية ٢٥

(٣) ذكر القرآن الكريم داود عليه السلام في عدة آيات من سورة ، منها البقرة (٢٥١) والمائدة (٧٨) والانعام (٨٤) والإسراء (٥٥) والانبياء (٧٨ - ٨٠) والنمل (١٥ - ١٦) وسبأ (١٠ - ١١) وص (١٧ - ٢٦)

(٤) سورة ص : آية ٣٠)

(٥) التوراة : ملوك أول ٢ : ١٣ - ٢٥

(٦) ملوك أول ٢ : ٢٨ - ٣٥

(٧) ملوك أول ١١ : ١ - ٣

(٨) التوراة : سفر الملوك الأول ١١ : ٤ - ١١ ، ثم قارن الاية الكريمة (١٠٢) من سورة البقرة ، وانظر : تفسير الطبري ٢/ ٤٠٥ - ٤٥٧ (دار المعارف) ، تفسير الكشاف ١/ ١٧١ - ١٧٣ (دار الكاتب العربي - بيروت) .

والنقمة تحل بنسله من بعده وينفذ رب اسرائيل وعيده، فيفتقد ذنوب تلآباء في اربناء ، ويمزق مملكته من بعده ليفوز عبده يربعام منها بنصيب الأسد ، ولم ينس كاتب التوراة أن يذكر لنا أن تأجيل انحلال المملكة ، ليس من أجل سليمان ، فقد عصي ربه واستحق وعيده ، وإنما من أجل داود عبده ، ومن أجل أورشليم مدينته التي إختارها[1] .

وأما سليمان في القرآن الكريم[2] ، فهو الملك النبي ، أعطاه الله العلم بلغة الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتي علم لغة النمل والطير ، يقول سبحانه وتعالى «ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود ، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادي النمل ، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين[3]» ويقول «ووهبنا لدواود سليمان ، نعم العبد إنه أواب[4]» وقد دعا سليمان ربه ، «رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين

(١) ملوك أول ١١ : ١ - ١٣ ، قارن أخبار أول ٢٢ : ٦ - ١٩ حيث التعارض الصارخ بين نصوص التوراة .

(٢) ذكر القرآن الكريم سليمان عليه السلام في سورة البقرة (١٠٢) والنساء (١٦٣) والانعام (٨٤) والأنبياء (٧٨ - ٨٢) والنمل (١٥ - ٤٤) وسبأ (١٢ - ١٤) وص (٣٠ - ٤٠).

(٣) سورة النمل : آية ١٥ - ١٩ ، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ١٤٠ - ١٤٣ ، تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٢ - ١٧٣

(٤) سورة ص : آية ٣٠

كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد، هذا عطاؤ نا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفي وحسن مآب[1]»

وفي قصة مريم البتول يشير القرآن الكريم إلى أحداث لم ترد في التوراة - فضلا عن الأنجيل وأعمال الرسل - فالقرآن الكريم[2] وحده هو الذي يشير إلى كفالة نبي الله زكريا لها، «ذلك من أنباء الغيب نوحيه

(١) سورة ص : آية ٣٥ - ٤٠ ، وانظر : تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٦ - ١٦٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٣٠٩ - ٣١١ ، تفسير القرطبي ١٥/ ١٩٨ - ٢٠٧ ، تفسير الالوسي ٢٣/ ٢٠٠ - ٢٠٥ ، وانظر موقف سليمان من ملكة سبأ في القرآن وفي توراة اليهود - كما بسطناه في مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، ١٩٧٦

(٢) ذكرت السيدة مريم في القرآن الكريم في عدة سور منها آل عمران (٣٥ - ٣٧ ، ٤٢ - ٤٨) مريم (١٦ - ٣٥) والأنبياء (٩١) والتحريم (١٢) ، وانظر : تفسير الطبري ٦/ ٣٢٨ - ٣٥٩ ، ٣٩٣ - ٤٢٣ (دار المعارف) ، ١٦/ ٥٩ - ٨٨ ، ٢٨/ ١٧٢ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٣٠ - ٣٤ ، ٤٤٨ ، تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٤ - ٩٥ ، ٢٨ / ١٦٤ - ١٦٥ ، تفسير الطبرسي ٣/ ٦٣ - ٦٩ ، ٧٦ - ٨٥ ، ١٦/ ٢٠ - ٣٩ ، ٢٨/ ١٢٥ - ١٣٠ ، تفسير القاسمي ١٦/ ٥٨٦٩ - ٥٨٧٣ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٣ - ٤٥٩ (دار الاندلس ، بيروت) ، ٨/ ١٩٩ - ٢٠٠ (دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٣) ، تفسير الكشاف ١/ ٣٥٤ - ٣٥٨ ، ٣٦١ - ٣٦٢ ، ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٩ ، ٤/ ١٣٢ ، الدرر المنثور ٤/ ٢٦٤ - ٢٧١ ، تفسير النسفي ٣/ ٣٢ - ٣٦ ، تفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٨ - ٢٨٢ ، تفسير القرطبي ١١/ ٨٩ - ١٠٩ (دار الكاتب العربي) ص ٦٦٨٢ - ٦٦٨٣ (دار الشعب ١٩٧٠) ، في ظلال القرآن ٦/ ٢٣٠٥ - ٢٣٠٩ وانظر : عبدالله محمود شحاته : من نور القرآن ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٦٣ - ١٦٥

وانظر الحديث الشريف : حيث يروى عن أنس بن مالك ، أن النبي (ﷺ) قال : « خير نساء العالمين أربع : مريم إبنة عمران ، وآسية إمرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله » (صحيح البخارى ٦/ ٣٢٠ ، ٧/ ٨٣ ، تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٦٠ ، وانظر : روايات اخرى للحديث الشريف في : تفسير الطبري ٦/ ٣٩٣ - ٣٩٨ ، صحيح مسلم ٢/ ٢٤٣ ، صحيح البخارى ٦/ ٣٣٩ ، ٧/ ١٠٠ - ٢٠١ ، سنن الترمذى ٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، مسند الإمام احمد ٣/ ١٣٥).

اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون[1] » ، والقرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى اصطفائها وفضلها على نساء العالمين ، «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين[2] » .

وأما قصة يوسف عليه السلام ، فقد آثرنا أن نؤخرها ـ رغم أن التسلسل التاريخي يحتم علينا أن نضعها بين قصة إبراهيم وقصة موسى ـ لأننا أردنا أن نناقشها بشيء من التفصيل ، وذلك بسبب الجدل الذي طال حولها . حتى زعم «الفرد جيوم» أنها إنما تدل على أن محمدا ﴿ﷺ﴾ لم يكن يعرف قصة الآباء الأول ـ كما جاءت في سفر التكوين من التوراة ـ فحسب، بل إنه يعرف كذلك التطور اليهودي المتأخر للقصة[3]، حيث تداخلت مصادر التوراة الثلاثة (اليهوي والألوهيي والكهنوتي) ، وكونت قصة لا تمثل واحدا من هذه المصادر ، وإنما تكوّن مزيجا عجيبا منها جميعا[4] .

ولعل افضل ما نفعله هنا للرد على مزاعم «جيوم» وغيره من المستشرقين ـ بل وبعض المسلمين للأسف ـ أن نعقد مقارنة بين القصتين ، ذلك لأن قصة التوراة ، وإن كانت تحمل بعض أوجه شبه من القصة القرآنية[5] فإن هناك خلافات جوهرية بين القصتين ، منها (أولا)

(١) سورة آل عمران : آية ٤٤

(٢) سورة آل عمران آية ٤٢

(٣) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص ٢٥١ وكذا *Alfred Guillaume, Islam, 1964, P.61*

(٤) راجع عن مصادر التوراة ، كتابنا إسرائيل ص ٤٥ ـ ٤٨ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ص ٢٨ ـ ٣١

(٥) جاءت قصة سيدنا يوسف في القرآن الكريم في سورة كاملة هي سورة يوسف ، وفي التوراة في الاصحاح ٣٧ ثم من ٣٩ إلى ٥٠ من سفر التكوين .

تلك الملامح الروحية التي تتميز بها القصة القرآنية ، فضلا عن أن شخصية يوسف النبي ، أكثر وضوحا في القصة القرآنية[1] ، منها في رواية التوراة ، ومنها (ثانيا) أن حب يعقوب ليوسف إنما تصوره التوراة ، على أن الصديق إنما كان يأتي لأبيه «بنميمة أخوته الرديئة »، ولأنه ابن شيخوخته ، في الدرجة الأولى ، ثم رؤ يا يوسف في الدرجة الثانية[2] ، وأما في القرآن الكريم ، فإن السبب إنما هو الرؤ يا الصادقة ، ثم احساس عميق من يعقوب النبي ، بما سوف يكون للصديق من مستقبل في عالم النبوة وتأويل الأحاديث[3] ، ومنها (ثالثا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن مؤ امرة اخوة يوسف عليه ، إنما بدأت قبل ان يذهب معهم ، فضلا عن توضيح رأي أبناء يعقوب في أبيهم ، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلي أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين ، إقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين[4]» .

ومنها (رابعا) إن قصة التوراة تذهب إلى أن يعقوب هو الذي طلب من يوسف أن يذهب إلى إخوته الذين يرعون أغنامهم عند شكيم[5] - والتي يحتمل أنها تل بلاطة شرق نابلس الحالية - بينما يرى القرآن الكريم أن

---

(1) راجع عن تفسير سورة يوسف : تفسير المنار ١٢/ ٢٥١ - ٣٢٤ ، ١٣/ ١ وما بعدها + تفسير سورة يوسف لرشيد رضا ، تفسير البيضاوي ١/ ٤٨٦ - ٥١١ ، تفسير الطبري ١٢/ ١٤٩ - ٢٣٨ ، ١٣/ ١ - ٩١ ، تفسير القرطبي ٩/ ١١٨ - ٢٧٧ ، تفسير الالوسي ١٢/ ١٧٠ - ٢٦١ ، ١٣/ ١ - ٨٤ مؤتمر تفسير سورة يوسف (جزءان) ، تفسير النسفي ٢/ ٢١٠ - ٢٤١

(2) تكوين ٣٧ : ٢ - ١١

(3) سورة يوسف : آية ٦

(4) سورة يوسف : آية ٧ - ٩

(5) تكوين ٣٧ : ١٢ - ١٦

أخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم ، لأن أباه إنما كان يخشى عليه من حقدهم ، «قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنّا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون[1]» ، ومنها (خامسا) أن القرآن الكريم إنما يشير إلى ارتياب يعقوب في بنيه عقب تنفيذ المؤ امرة - فضلا عن إرتيابهم في أنفسهم - «وما انت بمؤ من لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا[2]» ، بينما تشير رواية التوراة إلى سرعة تصديق يعقوب لفرية أولاده ، ويأسه عقب المؤ امرة[3] ، «فتحققه (أي قميص يوسف) وقال قميص ابني وحش رديء أكله ، افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه ، وناح على إبنه أياما كثيرة» ومنها (سادسا) أن الحيوان الذي الصقت به تهمة قتل يوسف ، إنما هو «تيس من المعزى» في التوراة [4] ، ولكنه الذئب في القرآن الكريم [5] .

ومنها (سابعاً) أن التوراة في عرضها لقصة يوسف مع امرأة العزيز ، لم تحاول أن تركز على براءة يوسف ، كما فعل القرآن الكريم الذي عرض البراءة في جلاء ووضوح ، ومنها (ثامنا) أن القرآن الكريم يصور لنا يوسف بعد حادث المراودة ، وهو يفر من أمام امرأة العزيز ، غير أنها سرعان ما تلحق به ، فتتعلق بقميصه ، ويتمزق منه ما علقت يدها به ، وهنا يصل العزيز ويفاجأ بما لا يتصوره ، فتبادر المرأة إلى دفع التهمة عن نفسها ، وترمي بها على يوسف في جرأة ، ثم لا تنتظر رأي العزيز في

(١) سورة يوسف : آية ١١ - ١٢

(٢) سورة يوسف : آية ١٧ - ١٨

(٣) مالك بن نبي : المرجع السابق ص ٣٠٢

(٤) تكوين ٣٧ : ٣٣ - ٣٤

(٥) تكوين ٣٧ : ٣١

(٦) سورة يوسف : آية ١٣ - ١٤ ، ١٧

صحة الاتهام ، فتغريه به وتعمل على توكيده في نفسه ، بأن تطلب إليه رأيه في الجــزاء الــذى يجزّى به هذا المتهم [1] ، يقول تعالى «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءإلا أن يسجن أو عذاب أليم [2]»، بينما تتجاهــل رواية التوراة حضور العزيز ، وتذهب إلى أن إمرأة العزيز قد اخبـرت أهـل البيت بأن الرجل العبراني قد حاول الاعتداء عليها ، وأنه لم يتركها إلا بعد أن استغاثت بمن في البيت ، ومن ثم فقد ترك ثوبه وخرج، وأبقت الثوب حتى إذا ما جاء بعلها أخبرته أن عبده العبراني حاول الإعتداء على شرفها ولما صرخت ترك ثوبه بجوارها وفر هاربا ، ولعـل من المفيد هنـا الإشارة إلى ما في النص التوراتي من اضطراب، فمرة لا يوجد أحد في البيت ، ومرة أخرى، فإن البيت مليء بأهله ، ومرة يوصف يوسف بأنه رجل عبراني ، وأخرى عبد عبراني وفرق بين العبارتين في مثل هذه الحالة النفسية [3].

ومنها (تاسعا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشـير إلى أن اللـه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أظهر براءة يوسف على يد شاهد من أهل إمرأة العزيز نفسها ، تروي كتب التفسير أنه صبي في المهد ، وذلك حين قال «إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قدّ من دبر ، قال إنه من

---

(١) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني ص ١٠٠

(٢) سورة يوسف : آية ٢٥

(٣) تكوين ٣٩ : ١١ ـ ١٨

كيدكن إن كيدكن عظيم[١]»، كما شهدت ببراءته النسوة الآتي قطعن أيديهن بقولهن «حاشا لله ما علمنا عليه من سوء[٢]»، بينما لم تذهب التوراة إلى أكثر من أن العزيز حين سمع بالقصة لم يزد عن «أن غضبه حمى، فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن[٣]».

ومنها (عاشرا) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن عزيز مصر، حينما عرف الحقيقة، فإذا به يطلب من يوسف كتمان الأمر، وعدم إذاعته بين الناس، وفي نفس الوقت فإنه يتجه إلى امرأته يأمرها ان تستغفر لذنبها وأن تتوب إلى ربها[٤]، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وأهل مصر - وإن كانوا وقت ذاك غير موحدين - إلا أنهم إنما كانوا يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤ خذ بها، إنما هو الله وحده، لا شريك له في ذلك[٥]، ومنها (حادي عشر) أن التوراة لم تتعرض لحادث النسوة اللآتي أخذن يرددن في المدينة، «إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا، إنا لنراها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا، وقالت أخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن حاشا لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم[٦]».

ومنها (ثاني عشر) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف - عليه السلام - قد فضل السجن، على أن يقترف الفاحشة، وذلك حين خيّر، بين ان تنال المرأة منه ما تريد، وإلا فان أبواب السجن

---

(١) سورة يوسف : آية ٢٦ - ٢٨

(٢) سورة يوسف : آية ٥١

(٣) تكوين ٣٩ : ١٩ - ٢٠

(٤) سورة يوسف : آية ٢٩

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٢٠٤ التفسير ٤/ ٢٢

(٦) سورة يوسف : آية ٣٠ - ٣١

مفتوحة على مصراعيها لاستقباله ، «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، فأستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم[1]» .

ومنها (ثالث عشر) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير إلى أن يعقوب ـ عليه السلام ـ حينما فقد في عاصفة هوجاء من عواصف الفتنة والحسد ، أعز فلذات كبده ـ يوسف الصديق ـ لم يغلبه الحزن الذي عصف بقلبه ، على الصبر الذي ملأ كيانه[2] ، فإذا به يتقبل المأساة بما يتفق ومكان النبوة السامي ، «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[3]» ، بينما تصوره التوراة في صورة لا نرتضيها للنبي الكريم ، «فأبى ان يتعزى ، وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية»[4] ، وحين تتكرر المأساة مرة أخرى ، ويفقد يعقوب بنيامين ـ كما فقد يوسف من قبل ـ فإن الجواب في القرآن الكريم ، «فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ، إنه هو العليم الحكيم[5]» ، وأما الجواب في التوراة ـ وحتى قبل وقوع الكارثة ـ «إذا أصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية[6]» ، بل إن القرآن الكريم ليشير بوضوح إلى أن مر السنين ، وكر الأيام ، لا يفقد الأمل في نفس النبي الكريم ، «يا بني أذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله ألا القوم الكافرون[7]» .

---

(١) سورة يوسف : آية ٣٣ ـ ٣٤

(٢) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٢١١

(٣) سورة يوسف : آية ١٨

(٤) تكوين ٣٧ : ٣٥

(٥) سورة يوسف : آية ٨٣

(٦) تكوين ٤٢ : ٣٦ ـ ٣٨ ، ٤٤ : ٢٩ ـ ٣١

(٧) سورة يوسف : آية ٨٧

ومنها (رابع عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير الى ان يوسف قد تنبأ بعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، بعد سبع سنوات من القحط[1] ، ومنها (خامس عشر) أن القرآن وحده هو الذي يشير إلى أن يوسف بعد أن فسر الحلم لملك مصر ، ورسم له الطريق الصحيح للخروج من الأزمة بسلام ، رفض في إباء وشمم أن يقبل المنصب الخطير الذي عرض عليه ، حتى يتحقق الملك ورجاله - بل والناس جميعا - من براءته ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه بشأن امرأة العزيز ، وكان سببا في أن يلبث في السجن بضع سنين ، «إرجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم[2] » ، والآية الكريمة تفيد أن يوسف لم يشأ أن يقال عنه مجرم سُرَّ منه الملك ، فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن ، وتجيء الشواهد كلها - بعد بحث دقيق - بعفة الصديق وطهارته ، وعندئذ يتقدم الصديق في ثقة وثبات ، «قال إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ، وهكذا يتحمل يوسف المسئولية كاملة في صدق وشجاعة ، وينجح آخر الأمر في ان يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة[3] ، والأمر عكس ذلك تماما في التوراة ، فما أن يفسر الصديق الحلم للملك ، وما أن يعرض الملك الأمر عليه ، حتى يقبله فورا[4]

ومنها (سادس عشر) أن قصة يوسف إنما تشير إلى ان المصريين ، ربما كانوا يعيشون في حرية شخصية إلى حد ما ، حتى مع نفس الملك القابض على السلطة في مصر ، وإن هذا الملك قد قبل أن يأمر بشيء في حق عبد دخيل ، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره ، إلا بعد إجراء

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٧ - ٤٩

(٢) سورة يوسف : آية ٥٠ ، وانظر : تفسير الطبري ١٦/ ١٣٣ - ١٣٧ .

(٣) سورة يوسف : آية ٤٦ - ٥٧

(٤) تكوين ٤١ : ٣٧ - ٤٦

التحقيق ، مع أنه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وأجراء التحقيق ، بأن يبادر يوسف بالخروج من السجن ، ثم يطلب من الملك التحقيق في قضيته[1] .

ومنها (سابع عشر) إن التوراة لم تشر إطلاقا إلى قيام يوسف - عليه السلام - بدعوة التوحيد ، بعكس القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الصديق قد انتهز الثقة المكينة التي اكتسبها بين السجناء، بسبب تفسير الرؤيا وتأويل الأحلام ، فيقوم بدعوته الدينية، شارحا عقيدة الأنبياء جميعا في وحدانية الله الخالق العظيم . وهاتفا بمستمعيه[2] ، «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون[3] » ، وذلك لأن يوسف لم يكن عالما يؤول الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا مصلحا ، أرسله الله هاديا للناس في دنياهم وآخرتهم ومعاشهم ومعادهم ، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته إلا انتهزها، ولا نُهْزة صالحة للدعوة إلا علق بها[4] ، ولهذا فإن الإشارة إلى الآخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن[5] دون التوراة .

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢/ ٨٣٩

(٢) محمد رجب البيومي : البيان القرآني ص ٢٢٥ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٤٠

(٣) سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠

(٤) محمد احمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص١٠٣

(٥) سورة يوسف : آية ٥٧

ومنها (ثامن عشر) إن القرآن الكريم هو وحده الذي يشير إلى إعلان امرأة العزيز براءة يوسف ، وأنها هي التي راودته عن نفسها ، «قالت إمرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم إني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين[1] » ،وهكذا تقدم لنا القصة القرآنية امرأة العزيز ، وهي تتحدث بلغة تليق بضمير انساني وخزه الندم وارغمته طهارة التضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق ، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها وتقر بخطيئتها[2] .

ومنها (تاسع عشر) إن يوسف عليه السلام قد وصف في القرآن الكريم بالصديق وبالعزيز[3] ، وفي التوراة بـ«صفنات فعنج» [4]» ، ومنها (عشرون) إن القرآن الكريم وحده هو الذي يتحدث عن نبوءة عزيز مصر الصادقة في يوسف الصديق ، «وقال الذي اشتراه من مصر لإمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون [5] » ، ومنها (واحد وعشرون) أن القرآن الكريم وحده هو الذي يشير في ختام قصة يوسف مع أبيه وأخوته إلى تحقيق حلمه الأول ، «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن

---

(١) سورة يوسف : آية ٥١ ـ ٥٢
(٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥
(٣) سورة يوسف : آية ٤٦ ، ٤٨
(٤) تكوين ٤١ : ٤٥
(٥) سورة يوسف : آية ٢١

وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما ، والحقني بالصالحين [1] » .

ومنها (عشرون) أن قصة التوراة تتحدث دائماً عن ملك مصر، على أنه فرعون مصر [2] ، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون [3] ، ويرى الأستاذ حبيب سعيد أن هذه كانت هي العادة المتبعة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م [4] ، والحقيقة غير ذلك تماماً، فمن المعروف تاريخياً أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية، «بر ـ عا» أو «بر ـ عو»، كانت تعني ـ بادىء ذي بدء ـ البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي ـ وليس إلى ساكنه ـ ثم سرعان ما تغيرت وغدت تعبيراً محترماً، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة [5] ، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون، فإن «سير ألن جاردنر» ـ العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة ـ يحدد ذلك بعهد الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م)، حيث بدىء في إطلاق الاصطلاح «أي فرعون) على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور «أخناتون» (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م)، مستنداً في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة

(١) سورة يوسف : آية ٩٩ ـ ١٠١ ، وانظر : تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٤ ـ ٢٧٧ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩)

(٢) تكوين ٤٠ : ٧ ـ ٤١ : ١٥ ، ٤٦ : ٣١ ـ ٥٠ : ٧

(٣) سورة يوسف : آية ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٦

(٤) حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ص ٧٦

(٥) *J.A.Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P.102*

(١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) وفيما بعد، في بعض الأحايين، كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: «خرج فرعون» و«قال فرعون. ... وهكذا[1].

ومن ثم، فإن القرآن الكريم - فيما يبدو لي - أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام يوسف الصديق في عهد الهكسوس[2] فأطلق عليه لقب «ملك»، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى - مثلاً - الذي أطلق عليه لقب «فرعون»، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد إخناتون، هذا فضلاً عن أن ذلك من إعجاز القرآن، الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ أنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ ق.م)، وفيما بعدها.

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة إلى أن هناك اشياء ذكرتها التوراة لم يذكرها القرآن الكريم، وهي في أمور تتفق في بعضها وخلق يهود - كاتبي التوراة - وتبتعد في بعضها الآخر عن الحقائق التاريخية، وأما هذه الأمور، فأهمها (أولاً) أن التوراة في عرضها لقصة الصديق - بعكس القرآن

---

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P.52

وكذا *A..H. Gandiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, P.75*

(٢) حوالي (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م.)، وانظر آراء أخرى في كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» دار المعارف ١٩٧٥ ص ١٣٧ - ١٣٨، وكذا *D.B.Redford, The Hyksos Invasion in History and Tradition, 1970, P.23* وكذا *J.Bottero, The Near East, The Arly Civilization, 1967, P.393* وكذا *J.A.Wilson, op- cit, P.159* وكذا *A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P.165*

الكريم ـ إنما تعطي تأكيداً يكشف عن مطامع يهود في مصر، ولنقرأ هذا النص «خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، وتأكلون دسم الأرض. . . خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالـوا، ولا تحـزن عيونـكم على أثاثـكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم» (١) ، كما لم تهمل التوراة كذلك أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجهدين الجياع إلى مصر، إنما كانت للقوت، ولكنهـا تؤكد أيضاً أنها لتحقيق مؤامرة على الأرض التي استضافتهم (٢) .

ومنها (ثانياً) أن التوراة تزعم أن يوسف قد اشترى كل أرض مصر ـ من عليها وما عليها ـ للفرعون (وهو اصطلاح لم يكن قد استعمل في مصر بعد، كما أشرنا آنفاً) بعد أن امتلأت الأرض جوعاً (٣) ، الأمر الذي لم يثبت تاريخياً، فضلاً عن أنني ـ علم الله ـ لست أدري: لماذا تريد التوراة ـ أو بالأحرى يريد كاتبوها ـ أن يصوروا النبي الكريم في صورة صوت عذاب على المصريين، يستغـل حاجتهـم للمعونات الضرورية للحياة نفسها، فيستولي على أرض مصر كلها ـ باستثناء أرض الكهانة ـ لمصلحة الملك الهكسوسي؟. ثم وهل كان ملك مصر على أيام الهكسوس ـ وهـو العصر الذي نرجح فيه دخول بني إسرائيل إلى أرض الكنانة(٤) ـ يسيطر على مصر كلهـا ، حتـى يستـولي له يوسف ـ عليه السـلام ـ على كل أراضيها ؟

إن جمهرة المؤرخين، إنما ترى أن الهكسوس لم يمدوا نفوذهم أبداً إلى أبعد من القوصية (٥) جنوباً، اللهم إلا في احتلال مؤقت قصير لإقليم (بي

(١) تكوين ٤٥ : ١٨ ـ ٢٠
(٢) تكوين ٤٦ : ١ ـ ٤
(٣) تكوين ٤٧ : ١٣ ـ ٢٦
(٤) راجع كتابنا «إسرائيل» ص ٢٣٧ ـ ٢٤٥ ، وانظر
(٥) *Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz, P.18FF*

حتحور)، قام به «أبو فيس» - ربما آخر من حمل هذا اللقب - وليس هناك من دليل حقيقي على أن غيره من الهكسوس قد تم له هذا الأمر [1]، أما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء، فموضع شك على الأقل، ذلك لأن وجهة النظر التي ترى إحتلال الهكسوس للبلاد كلها، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك «كاموزا» الذي يتضمن في وضوح أن الغزاة لم يتقدموا إطلاقاً فيما وراء جبلين، والذي يشير إلى أنهم إضطروا بعد قليل إلى إرساء حدهم عند «خمون» (الاشمونين مركز ملوي)[2].

ومنها (ثالثاً) أن التوراة تصور لنا شعور المصريين تجاه الاسرائيليين بأنه شعور عدائي، أو على الأقل غير ودي، منذ اللحظة الأولى التي قدم الاسرائيليون فيها بأخيهم بنيامين، إذ نرى يوسف يولم وليمة تكريم لأخيه، ولكنه يضطر إلى أن تكون له وليمة خاصة، وثانية لإخوته، وثالثة للمصريين، وذلك «لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين»[3]، وهكذا تبدو نظرة المصريين للعبرانيين واضحة لنا منذ أول لقاء بينهما، وفي ضيافة يوسف العبراني نفسه، وهي نظرة لا تدل بحال من الأحوال على احترام المصريين للعبرانيين، وإنما تدل على أنفة المصريين وتأبيهم عن مخالطة العبرانيين، وعدم إستعدادهم حتى للأكل معهم، رغم أنهم يعرفون أنهم إخوة يوسف عزيز مصر وقت ذاك، والأمين على خزائنها، والأثير عند مليكها، وليس من شك أن هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن القطيعة بين الفريقين كانت واضحة لا تحتاج إلى بيان [4].

(1) A.H.Gardiner, op-cit,P.168
(2) Ibid, P.168، وكذا كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» ص ١٤٣ - ١٤٥
(3) تكوين ٤٣ : ٣٢، قارن : الظاهرة القرآنية ص ٣٠٥
(4) كتابنا «اسرائيل» ص ٢٤٣

ومنها (رابعاً) أن التوراة قد حددت إسم من اشترى يوسف ووظيفته، وأنه «فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة»[1] وبدهي أن القرآن الكريم لم يفعل ذلك، لأنه - كما قلنا من قبل - ليس كتاب حوادث وتواريخ، وإنما قصصه للعبرة والعظة، وإن لقَّبه «بالعزيز»، ولا شأن للقرآن بروايات المفسرين عن اسمه واسم ملك مصر في عهده واسم امرأة العزيز، فتلك اجتهادات، وفوق كل ذي علم عليم[2].

وهنا لنا أن نتساءل عن وصف التوراة لفوطيفار بأنه «خصي فرعون[3]»؟ وهل يتزوج الخصيان؟ والحق أنني لست أدرى كيف دار في خلد كاتب التوراة أن رئيس الشرطة المصري كان خصياً[4]؟ أولم يكن شافعاً له في دحض هذه الفسرية بأنه كان زوج أجمل سيدة في البلاد، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرى أن حاشية القصر كلها من الخصيان، ومنهم رئيس السقاة ورئيس الخبازين[5]، وهو أمر ما اعتدناه في مصر الفراعنة، وما حدثنا به تاريخها، وإنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها - أو التي عاشوا في ظلالها - من ناحية، وبحقدهم الأعمى على مصر من ناحية أخرى، حتى أعماهم هذا الحقد عن حقائق التاريخ، فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان.

---

(١) تكوين ٣٩ : ١

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٧٤ - ١٧٦ تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير إبن كثير ٤/ ١٧

(٣) تكوين ٣٩ : ١

(٤) من عجب أن هذه الأكاذيب قد انتقلت إلى بعض كتب التفسير (الطبري ١٢/ ١٧٥، القرطبي ٩/ ١٦٠)، وان رفضتها جمهرة المفسرين (تفسير البيضاوي ١/ ٤٩١، تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير الألوسي ١٢/ ٢٠٧، مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/ ٤٣٤، ٥٠٣، ٥٠٤، قارن ١/ ٥٢٥، ٥٢٦، ٢/ ٨٧٣)

(٥) تكوين ٤٠ : ٢

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن الآية الكريمة «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» قد تفيد أن الرجل كان عقيماً، لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، ولكنها لن تفيد أنه كان خصياً [1].

ومنها (خامساً) ما تردده التوراة من أن يوسف إنما كان يتهم إخوته بأنهم «جواسيس جاءوا ليروا عورة الأرض،» فضلاً عن أن يوسف إنما كان يكرر القسم بحياة فرعون [2]، الأمر الذي لا يتفق ومكانه النبوة بحال من الأحوال.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الاضطراب الواضح في قصة التوراة، ففي سفر التكوين (٣٧: ٢٦-٢٨) نجد أن يهوذا هو صاحب الكلمة، وقد إقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف اللإسماعيليين بعشرين مثقالاً، في حين نرى في نفس السفر (٣٧: ٢١-٢٤) أن راوئين هو صاحب الصوت الأعلى، يقترح القاءه في الجب فيوافق الجميع، حيث يأخذه التجار المديانيون، كما في (تكوين ٣٧: ٢٨) والأمر كذلك بالنسبة إلى بيعه إلى فوطيفار، ففي أول القصة عن قوم من مدين [3]، بينما هم في آخرها من الإسماعيليين [4].

وبعد: فهذه نظرة سريعة إلى الفروق بين قصص القرآن وروايات التوراة، فإذا ما تذكرنا أن القرآن الكريم - كما هو معروف - جاء به محمد النبي الأمي، الذي لا يكتب ولا يقرأ، كما قال تعالى «وما كنت تتلوا من

(١) تفسير المنار ١٢/ ٢٧٢، تفسير البيضاوي ١/ ٤٩١، روح المعاني ١٢/ ٢٠٧، تفسير القرطبي ٩/ ١٦٠

(٢) تكوين ٤٢: ٩ - ١٦

(٣) تكوين ٣٧: ٣٦

(٤) تكوين ٣٩: ١

قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»[1]، مما يدل بوضوح لالبْس فيه ولا غموض ـ أن هذا القرآن من عند الله، وأنه وإن اتفق مع التوراة في القليل، فإنه يختلف معها في أكثر الكثير، كما يدل كذلك على أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب، وليس لهم به دراية، وأخيراً فهو يدل على أن هذا القرآن ليس حديثاً يفترى، وليس أساطير الأولين اكتتبها، ولا يمكن أن تملى عليه، وإذا كان بعض المشركين قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس في مكه ـ كما يقول بعض المستشرقين الآن ـ فهو لم يثبت اتصاله به، ولسانه أعجمي، وهذا كتاب عربي مبين، وفوق ذلك في القرآن من صادق الأخبار، ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة، ولا يأتيه الباطل فيما يقول[2]، ولست أدري إعجازاً بعد هذا الإعجاز[3].

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٨

(٢) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، الباقلاني : إعجاز القرآن ص ٥٣ ـ ٥٤

(٣) من إعجاز القرآن كذلك إخباره بأمور حدثت في المستقبل ، منها إخباره بانتصار الروم على الفرس بعد أن كانت الهزيمة من نصيب الأولين (الروم ١ ـ ٢) ومنها إخباره بنصر المسلمين في بدر قبل الموقعة الكبرى (الأنفال : آية ٧) وأن ذلك سوف يقع في نفس الوقت الذي سيهزم فيه الفرس امام الروم (الروم ٣ ـ ٥) ، وغير ذلك من أمور لا يمكن أن تكون حدساً أو تقديراً شخصياً ، وانما هي من عند علام الغيوب ، كقيام دولة الاسلام الفتية على الارض (النور ٥٥) وعجز كل القوى عن القضاء عليها (الانفال ٣٦) والانشقاق بين المسيحيين إلى يوم القيامة (المائدة ١٤) والشتات الاسرائيلي (آل عمران ١١٢) والتفوق المسيحي على اليهود حتى يوم القيامة (آل عمران ٥٥) [انظر : الباقلاني : إعجاز القرآن ص ٧٧ ـ ٧٩ ، تفسير القرطبي ١/ ٧٣ ـ ٧٨ ، الكشاف ٣/ ٢٥٢ ، ٤/ ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٢٧٣ ، تفسير الطبري ٢١/ ١٦ ـ ٢١ ، ٢٥/ ١١١ ـ ١١٥ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٤٣٩ ، تفسير الجلالين ص ٢١٥ ـ ٢١٦ (نسخة على هامش البيضاوي) تفسير الالوسي ٢١/ ١٦ ـ ٢٢ ، تفسير الطبرسي ٢١/ ٥ ـ ٩ ، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٩٥ ـ ٩٨ ، تفسير روح المعاني ٦/ ٩٥ ـ ٩٧ ، تفسير الطبري ٦/ ٤٤٥ ـ ٤٦٤ ، ٧/ ١١٦ ـ ١١٨ ، ١٠/ ١٣٥ ـ ١٤٠ ، ١٣/ ٣٩٨ ـ ٤٠٧ ، ٥٢٩ ـ ٥٣٤ (دار المعارف بمصر) ، تفسير مجمع البيان ٣/ ٩٤ ـ ٩٦ ، ٤/ ١٦٦ ـ ١٦٩ ، ٦/ ٥٤ ـ ٥٥ (دار مكتبة الحياة ،

وهكذا يبدو بوضوح أن القرآن الكريم مصدر لا يرقى إليه الشك بحال من الأحوال، يحدثنا عن أقوام بادت، وعن أحداث جرت في عصور ما قبل الإسلام، ثم إنه مرآة صادقة للحياة في الجاهلية، حيث يصور لنا الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أصدق تصوير [1]، ففي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز، وذكر لجدلهم مع الرسول ﴿ﷺ﴾ في الإسلام، وفي الحياة، وفي المثل الجاهلية، كما تعرض القرآن الكريم لنواح اقتصادية وسياسية عندهم فضلا عن أمور جاهلية، تتصل بمعارضة قريش للقرآن والإسلام.

وقد تعرض الإسلام للقانون الجاهلي، وبعبارة اخرى لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية، وأقر بعضاً، وأنكر بعضاً، وعدّل بعضاً، ومثال ما عدّله الإسلام بعض شريعة الجاهلية في الحج والزواج والطلاق والمهر والخلع والايلاء، وألغى نظام التبني المعروف في الجاهلية وغير ذلك [2]، وكل تلك أمور يستطيع المؤرخ عن طريق دراستها أن يتعرف ما كان عليه القوم في جاهليتهم، ومن ثم يستطيع التعرف على كثير من أحوالهم الاجتماعية.

وبدهي أننا لا نستطيع الافادة من القرآن الكريم على الوجه الصحيح،

بيروت ١٩٦١): في ظلال القرآن ٢١/ ٢٧٥٣ ـ ٢٧٥٩، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/ ١٥٠ ـ ١٥٣، تفسير النسفي ٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ (طبعة الحلبي)، تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠، تفسير الطبرسي ٢١/ ٥ ـ ٩، تيسير العلي القدير ٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦، تفسير المنار ٤/ ٤٧ ـ ٥٨، تفسير القرطبي ص ١٤١٦ ـ ١٤١٧ (دار الشعب) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٧ ـ ٨٦ (دار الشعب)، تفسير الكشاف ١/ ٣٦٦؛ ٤٠١ ـ ٤٠٢، ٦١٦ (دار الكاتب العربي ـ بيروت)، ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٥ مدخل الى القرآن الكريم ص ١٧٧ ـ ١٨١، القصص القرآني ص ٤٩ ـ ٥٠، التبيان في علوم القرآن ص ١٢١ ـ ١٢٧

(١) احمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص و ـ ط.

(٢) احمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٢٧

إلا إذا إستعنا بمصدرين أساسيين آخرين ، وأعني بهما : حديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتفسير القرآن الكريم .

الفَصْلُ الثَّاني

الحَديثُ

الحـديث هو ما ورد عن رسـول الله ﴿ﷺ﴾ من قول أو فعـل أو تقرير (١)، وللحديث الشريف مكانة كبرى في الدين تلي مرتبـة القـرآن الكريم مباشرة، وصدق رسول الله عليه الصـلاة والسـلام حيث يقـول «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبـدا، كتـاب الله وسنتي» (٢)، ذلك أن كثيراً من آيات القرآن الكريم مجملة أو مطلقة أو عامة، فجاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ فبيَّنها أو قيدها أو خصصها(٣)، قال تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (٤). وقال تعالى «لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٥)، وقال تعالى «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» (٦).

هذا وقد فرض الله على المؤمنـين طاعـة رسولـه ـ عليه الصـلاة والسلام ـ في غير آية من القرآن الكريم، يقول تعالى: «وما آتكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (٧) ويقول «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» (٨)، كما قرن سبحانـه وتعـالى طاعة النبي بطاعته عز وجل، يقول تعالى «من يطع الرسول فقد أطـاع الله» (٩) ويقول «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون

(١) أنظر تعريفات أخرى: مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع ص ٥٩ ـ ٦٠
(٢) الحديث رواه أصحاب السنن
(٣) فتاوى إبن تيمية ١٥/ ٤٤٣، ١٣/ ٢٩، ١٧/ ٤٣١ ـ ٤٣٢
(٤) سورة النحل: آية ٤٤
(٥) سورة آل عمران: آية ١٦٤
(٦) سورة الشورى: آية ٥٢
(٧) سورة الحشر: آية ٧
(٨) سورة النور: آية ٦٣
(٩) سورة النساء: آية ٨٠

لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبيناً» [1]، وذلك لأن السنة ـ كما يقول الامام احمد بن حنبل ـ تفسر الكتاب وتبيّنه [2]، ويقول الإمام الشافعي إن الله سبحانه وتعالى، يقول في كتابه الكريم: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» ويقول: «وأتموا الحج والعمرة لله»، ثم بينّ على لسان نبيه ـ ﴿ﷺ﴾ عدد ما فرض من الصلوات ومواقيتها وسننها، وعدد الزكاة ومواقيتها، وكيفية إداء الحج والعمرة... وهكذا [3]، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثاني للشريعة الاسلامية، ثم هو أصدق المصادر التاريخية ـ بعد القرآن الكريم ـ لمعرفة التاريخ العربي القديم فى عصوره القريبة من الإسلام بالذات.

غير أن الحديث الشريف لم يدون على أيام النبي ﴿ﷺ﴾ كما دون القرآن الكريم، حتى لا يتخذ المسلمون مع القرآن كتاباً يضاهى به، وحتى لا يعتمد الصحابة على الكتابة، فينصرفوا عن حفظ الحديث [4]، ومن ثم وجدنا أحاديث تنهى عن تدوين الحديث، منها ما رواه مسلم ـ عن أبي سعيد الخدري ـ من أن النبي، ﴿ﷺ﴾، قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني فلا حرج، ومن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار» [5].

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٦
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٩
(٣) محمد يوسف محمد: منزله السنة من الكتاب، ص ٢٠ ـ ٢٣ من كتاب دفاع عن الحديث النبوي
(٤) إبن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٨، وانظر: سنن الدرامي ٢/ ٩١ طبع الهند، تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٣، ٥، تقييد العلم ص ٢٧، محمود ابو رية: المرجع السابق ص ٤٦ ـ ٥٣
(٥) ابن كثير ١/ ٦، صحيح مسلم٤/ ٢٩٨، تفسير القرطبي ١/ ٨٠، فتاوى إبن تيمية ١٣/ ٣٦٦، قارن: تأويل مختلف الحديث ص ٤٩، مشكل الآثار للطحاوي ١/ ١٧١، إبن سعد ٢/ ٧٤، ٧٥، بحوث في تاريخ السنة ص ١٤٢، أبو رية: المرجع السابق ص٥٩ ـ ٦٥

ومع ذلك فهناك ما يدل على أن صحفاً من الحديث قد كتبت على عهد رسول الله، ﴿ﷺ﴾، منها ما كتبه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأهل نجران عندما صالحهم، وما كتبه لثقيف ولأهل دومة الجندل ولأهل هجر [1]، فضلا عن الرسائل التي ارسلها للملوك والأمراء، والوثيقة التي بينٌ فيها حقوق المسلمين والمشركين واليهود في المدينة عندما قدمها[2]، وما روى عن عبدالله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله ﴿ﷺ﴾ [3]، بل إن هناك من يذهب إلى أن أبا هريرة قد كتب كذلك، ورغم أنه نفسه لا يكتب، فإنهم يعللون ذلك بأنه قد تعلم الكتابة بعد ذلك [4]

هذا إلى جانب أن هناك ما يشير إلى أن عبدالله بن مسعود، وسعد بن عبادة كانا يكتبان [5]، فضلا عن خطبة النبي ﴿ﷺ﴾ التي كتبت لأبي شاه اليمني [6]، وما كتبه الرسول لبعض عماله من كتب حدد فيها مقادير الزكاة في الإبل والغنم، وأخيراً فإن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ كانت عنده صحيفة فيها أحكام الدية، كما كان عند أبي رافع مولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ كتاب فيه إستفتاح الصلاة، بالإضافة إلى صحف سمرة بن جندب، وجابر بن عبدالله [7]، ويعلل بعض العلماء لهذا الخلاف في أن

---

(١) أنظر : الأموال لأبي عبدالله ص ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧

(٢) نهاية الارب ١٨/ ١٥٩ ـ ١٦٩

(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٤ ، جامع بيان العلم ١/ ٧٠ ـ ٧١ ، ابن سعد ٧/ ١٨٩ أسد الغابة ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤

(٤) دفاع عن الحديث ص ١٦ ، فتح الباري ٢/ ١٦٧ ، جامع بيان العلم ١/ ٧٠.

(٥) إبن عبد البر ١/ ٧٢ ، مسند الإمام احمد ٥/ ٢٨٥ ، قارن : مقدمة إبن الصلاح ص ١٧٠ ، الباعث الحثيث ص ١٤٨ ، دفاع عن الحديث ص ١٥

(٦) صحيح البخاري ٣/ ١١٠

(٧) بحوث في تاريخ السنة ص ١٤٧ ، دفاع عن الحديث ص ٥٠

النهي عن الكتابة، إنما كان وقت نزول القرآن، خشية التباس القرآن بالحديث [1].

وهناك ما يشير إلى أن تدوين الحديث، إنما بدأ التفكير فيه على أيام الفاروق عمر بن الخطاب (١٣-٢٣ هـ = ٦٣٤-٦٤٤م)، ولكن الخليفة الراشد سرعان ما عدل عن ذلك، حتى لا ينصرف الناس عن كتاب الله [2]، ثم تجددت الفكرة على أيام عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ = ٧١٧-٧١٩م)، وكما يروي أبو نعيم - في تاريخ اصفهان - أن الخليفة قد كتب إلى أهل الآفاق: أنظروا إلى حديث رسول الله، ﴿ﷺ﴾، فأجمعوه، وطبقاً لرواية الإمام البخاري، فإن عمر قد كتب إلى أبي بكر بن حزم - نائبه في الامارة والقضاء على المدينة - أن «أنظر ما كان من سنة أو حديث فأكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»، غير أن الأمر لم يتم بسبب موت الخليفة، وتنحية ابن حزم عن إمارة المدينة، على أيام يزيد بن عبد الملك، وبقي الأمر كذلك إلى أن تولى هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ = ٧٢٤-٧٤٣م)، فجدّ في ذلك الأمر «ابن شهاب الزهري» (ت ١٢٤ هـ)، وإن كان هناك ما يشير الى أنه قد أكره على ذلك في أول الأمر، غير أن هذه الكراهية ما لبثت أن صارت رضا [3].

وبقي الأمر كذلك، حتى جاء أبو جعفر المنصور العباسي

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٠٩، قارن: تأويل مختلف الحديث ص ٣٩٦، وأنظر المسند ١٠/ ٧٦٦

(٢) إبن عبد البر ١/ ٦٤ - ٦٥، تقييد العلم ص ٥٢، أضواء على السنة المحمدية ص ٤٧

(٣) نفس المرجع السابق ص٢٥٨ - ٢٦٢، إرشاد الساري شرح القسطلاني ١/ ٧، تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ١٠٧، إبن عبد البر ١/ ٧٧، صحيح البخاري: باب العلم، الأحياء للغزالي ١/ ٧٩، مقدمة المصحح لكتاب معرفة علوم الحديث ص ي، صبحي الصالح: مباحث في علوم الحديث: ص ٣٨ - ٤٠، محمد الصباغ: الحديث النبوي ص ١٢٠ - ١٢٢

(١٣٦ـ١٥٨ هـ = ٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، الذي أراد أن ينسخ من موطأ مالك، الذي كتبه عام ١٤٨ هـ، نسخاً توزع على الأمصار، ليعمل الناس بها دون غيرها، إلا أن الأمام مالك قد رفض الفكرة من المنصور، كما رفضها من الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) من بعده، وذلك حين شاوره في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فأبى الإمام مالك، لأن أصحاب رسول الله، ﴿ﷺ﴾، قد اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل مصيب [١].

وعلى أي حال، فلقد تمّ تدوين الحديث في القرن الثاني الهجري، ويروي ابن حجر في شرح البخاري أن أول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (ت ١٦٠ هـ) وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦ هـ)، إلى أن انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة، من أمثال الإمام مالك (٩٣ـ١٧٩ هـ) بالمدينة، وعبد الملك بن جريح (ت ١٥٠ هـ) بمكة، والأوزاعي (ت ١٥٦ أو ١٥٧ هـ) بالشام، وسفيان بن الثوري (ت ١٦١ هـ) بالكوفة، وحماد بن سلمة بن دينار (ت ١٦٧ هـ) بالبصرة، والليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) بمصر، وهيثم (ت ١٨٨هـ) بواسط، ومعمر باليمن (ت ١٥٣ هـ) وابن المبارك (ت ١٨١ هـ) بخراسان، وجرير بن عبد الحميد بالري، وكل هؤلاء من رجال القرن الثاني، وكانت مجموعات الحديث لهم مختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم تلاهم كثير من الأئمة في التصنيف كل على حسب ما سنح له وانتهى إليه علمه [٢].

---

(١) احمد امين : المرجع السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، حياة محمد ص ٦٦ ـ ٦٧ ، محمود ابو رية : المرجع السابق ص ٢٩٨ ، الحافظ بن عبد البر : كتاب الإنتقاد ص ٤١ ، مباحث في تدوين السنة المطهرة ص ١٨٦

(٢) فجر الاسلام ص ٢٢٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠١ ، النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١ ، دفاع عن الحديث ص ٧٣ ـ ٧٤ ، كتاب معرفة علوم الحديث ص ي ـ يا

وعلى أي حال، فإنه من المتفق عليه - أو يكاد - تدوين الحديث إنما بصفة عامة ورسمية في نهاية القرن الأول الهجري، ولم يكد ينتهي القرن الثاث حتى كانت السنة كلها مدونة في الكتب من صحاح وسنن ومسانيد [1]، وأن بعض الصحابة والتابعين كانوا يدونون في القرن الأول الهجري، لا سيما بعد وفاة النبي، ﴿ﷺ﴾ . [2].

وقد اتبع المسلمون الدقة - كل الدقة - في تدوين الحديث، إذ كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة الحفاظ، أو ما يعرف «بالسند» أو «الإسناد» ، حتى تصل إلى النبي، ﴿ﷺ﴾ ، أو إلى السلف الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين [3]، هذا إلى جانب تقويم الرواة وتعديلهم أو تجريحهم، ووضعهم في درجات متفاوتة من الثقة فيما يروون [4]، ويروي الإمام مسلم في مقدمة صحيحه أنهم لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا «سموا لنا رجالكم» [5].

وقد أبدعت الثقافة الإسلامية في هذا فناً قائماً بذاته هو «الجرح

---

(١) المسانيد : هي كتب الحديث التي ألفت في القرن الثاني الهجري ، وأشهرها : مسند معمر بن راشد (ت ١٥٢ هـ) ومسند الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) ومسند الحميدي (ت ٢١٩ هـ) ومسند الإمام احمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) ومسند الديلمي والشافعي وغيرها .

(٢) دفاع عن الحديث ص ١٢٢ ، مفتاح السنة ص ١٨

(٣) مقدمة إبن خلدون ص ٤٥٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١/ ٤٢٣ ، مباحث في تدوين السنة ص ٨٨ - ١٠٣ ، النيسابوري : كتاب معرفة علوم الحديث ص ٥ - ١٢ ، وكذا *EI, 2,P.201*

(٤) عبد الستار الحلوجي : مقدمة لدراسة المراجع ص ٦٢ ، وانظر : النيسابوري : المرجع السابق ص ١٤ - ٢٧

(٥) احمد امين : فجر الإسلام ص ٢١٦ ، محمود أبورية : المرجع السابق ص ٧٢ - ٧٣ ، ٣٣٩ ، مباحث في تدوين السنة ص ٨٩ - ٩٢ ، وانظر صحيح مسلم ، سنن الترمذي

والتعـديل»(1)، لا نشك في أن من أعظـم ما مهـد لنشأتـه كذب الوضاعين(2)، وافتراء أهل الأهواء، ونسبتهم إلى القرآن والسنة أقـوالا يدعمون بها زيفهم ويحاربون بها الاتجاه الحق في العقيدة وفي الشريعة، وقد كان المسلمون يأخذون الأخبار من أفـواه الرجـال، ومما قيدوه في نسخهم، ناظرين دائماً إلى هيئـة الرجـل وصلاحـه، فهـم لم يكونـوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه، فالفرد - في نظرهم الصائب - وحـدة متكاملة، يؤثر فيها سلوكه على علمه، أو العكس، ولا مناص من بحث

(1) انظر عن الجرح والتعديل: فجر الاسلام ص ٢١٦ - ٢١٨، أضواء على السنة المحمدية ص ٣٣١ - ٣٤١، محمد الصباغ: الحديث النبوي ص ١٤٣ - ١٤٦، محب الدين الخطيب وآخرون: دفاع عن الحديث النبوي ص ٩٠ - ٩٦، مباحث في تدوين السنة المطهرة ص ١٢٣ - ١٦٠، النيسابوري: كتاب معرفة علوم الحديث ص ٥٢ - ٥٨.

(2) ترجع نشأة الاختراع في الرواية ووضع الحديث على رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى آخريات أيام الخليفة عثمان بن عفان، وبعد الفتنة التي أودت بحياته، ثم إشتد الاختراع واستفاض بعد ذلك، وأما أسباب الوضع فتتلخص في نقـاط، منهـا الخلافـات السياسية، ومنهـا نصرة المذاهب في أصول الدين وفروعه، ومنها الزنادقة اللابسون لبـاس الإسـلام غشـا ونفاقاً وقصدهم بذلك إفساد الدين وإيقاع الخلاف بين المسلمين، ومنهـا الغفلـة عن الحفـظ، إشتغالا عنه بالزهد والانقطاع للعبادة، ومنها التعصب للجنس والقبيلـة والبلـد، ومنهـا التقرب إلى أصحاب السلطان من الملوك والأمراء، ومنها الرغبة في إرضاء الناس وابتغـاء القبول عندهم، ومنها الوعاظ والقصاص الذين لا يهمهم إلا أن يبكي الناس في مجالسهم، ومنها الرغبة في الإتيان بغريب الحديث من متن وإسناد، ومنهـا الانتصـار للفتيا، ومنهـا الترويج لنوع من المأكل أو الطيب أو الثياب، ومنها غفلة المحدث واختلاط عقله في أخريات أيام حياته، ومنها الرغبة في الخبر، ولكن مع جهل بالدين [أنظر: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ٢/ ٢٣٢، ٣٤٦، الباعث الحثيث ص ٨٢، ٨٦، ٩٣، ٩٤ إقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٨، رسالة التوحيد ص ٧، ٨، تاريخ بغداد ٥/ ٣٠٨، ١٣/ ٣٣٥، مجلة المنار ٢٧/ ٧٤٧ - ٧٥٤، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/ ١٣، ٥/ ٧، فتـح البـاري ١/ ١٦١، ميزان الاعتـدال للذهبي ٣/ ٣٣٨، ٤٣٠، الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٤٢، وانظر امثلة للأحاديث الموضوعة في كتـب: الحـديث والمحدثون، تنزيه الشريعة لابن عراق، الاصابة في تمييز الصحابة، الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة، الاستيعاب في معرفة الأصحاب]

حاله بحثاً متقصياً، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليمكن قبول نقله أو رفضه، وما نظن أن ثقافة في الأرض قامت على مثل هذا الأساس النقدي المنهجي النزيه، فذلك شيء تفرد به المسلمون [1].

وليس من شك في أن كتب الحديث [2] وشروحها ـ رغم أنها مصدر فقهي أكثر منه تاريخي [3] ـ مورد غني من الموارد الأساسية لتدوين أخبار الجاهلية فيما قبيل الإسلام، على أن الغريب من الأمر، أن مؤرخي تلك الفترة قد تجاهلوا هذا المنهل الغزير، وبخاصة فيما يتصل بتاريخ عرب الحجاز، إلى حد كبير، ومن ثم فقد خسروا واحداً من أهم مصادر التاريخ العربي القديم.

---

(١) عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٨٢ ـ ٨٣

(٢) أشهر مجاميع الحديث: موطأ مالك ومسند إبن حنبل وسنن الدرامي (ت ٢٥٥ هـ) وصحيح البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (٢٠٤ ـ ٢٦٨ هـ) وسنن أبي داود (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) وسنن الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) وسنن النسائي (٢١٥ ـ ٣٠٣ هـ) وسنن ابن ماجه (٢٠٩ ـ ٢٧٣ أو ٢٧٥ هـ)

(٣) *R.Blachere, Le Probleme de Mahomet, Paris, 1952, P.7*

الفَصْلُ الثَّالِث

التفسير

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليب العرب وكلامهم [1]، يقول تعالى «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون[2]» ويقول «قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون[3]»، ويقول «إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» [4]، ويقول «وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين[5]»، وهذا طبيعي لأنه أتى يدعو العرب - باديء ذي بدء - ثم الناس كافة، إلى الإسلام، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها، تصديقا لقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»[6].

ورغم أن القرآن الكريم نزل بلنسان عربي، وفي بيئة عربية كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول، فإنه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعاً يستطيعون أن يفهموه - إجمالا وتفصيلا - بمجرد أن يسمعوه، لأن العرب - كما يقول ابن قتيبة[7] - لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض، ومن هنا فليس صحيحاً ما ذهب اليه «ابن خلدون» [8] من أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه،

---

(١) أنظر تأويل مشكلات القرآن لابن قتيبه ص ٦٢

(٢) سورة يوسف : آية ٢

(٣) سورة الزمر : آية ٢٨

(٤) سورة الزخرف : آية ٣

(٥) سورة الشعراء : آية ١٩٢ - ١٩٥ ، وانظر الرعد (٣٧) والنحل (١٠٢ - ١٠٣) وطه (١١٣) وفصلت (١ - ٣ ، ٤٤) والشورى (٧) والأحقاف (١٢)

(٦) سورة ابراهيم : آية ٤

(٧) إبن قتيبة : رسالة في المسائل والأجوبة ص ٨

(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦

ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه لأن نزول القرآن بلغة العرب، لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، وإنما كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي، بل إن ألفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها، كما لم يدع أحد أن كل فرد في كل أمة يعرف ألفاظ لغتها [1]. وليس أدل على ذلك، مما يروى عن أنس بن مالك، أن رجلا سأل الفاروق عمر عن قوله تعالى «وفاكهة وأبا» [2]، ما الأب؟ فقال عمر: نهينا عن التكلف والتعمق»، وروي عن عمر أيضاً، أنه كان على المنبر، فقرأ «أو يأخذهم على تخوف» [3]، ثم سأل عن معنى «التخوف»، فقال رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص [4].

وقريب من هذا، ما روي عن ابن عباس (٣ ق. هـ - ٦٨ هـ) أنه قال: ما كنت لأدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أحتكم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأت حفرها [5].

فإذا كان هذا شأن الفاروق، يلتبس عليه معنى «التخوف» إلى أن يفسره له شيخ من هذيل، لأن التخوف من لغة هذيل، وإذا كان هذا شأن ابن عباس - وهو حبر الأمة، وترجمان القرآن، ومن دعا له رسول الله ﴿ﷺ﴾ بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، ومن كان عنده أدق الفهم لإشارات القرآن ودقائق معانيه [6] - لا يدري معنى فاطر السموات

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٩٦

(٢) سورة عيسى : آية ٣١

(٣) سورة النحل : آية ٤٧

(٤) الموافقات ٢/ ٥٧ - ٥٨، فجر الاسلام ص ١٩٦

(٥) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، تفسير الطبري ١٤/ ٧٧

(٦) الاتقان ٢/ ١٧٩، ١٨٧، تفسير القرطبي ١/ ٣٣، فتاوى إبن تيميه ٤/ ٩٣، ٩٤، ١٣/ ٣٦٥، ١٧/ ٤٠٢، تفسير الطبري ١/ ٩٠، مقدمتان في علوم القرآن ص ٥٧ - ٥٨، ٢٦٤

والأرض، حتى يحتكم إليه أعرابيان في بئر، فيقول أحدهما أنا فطرتهـا، أي بدأت حفرها [1] ، بل ويروى عنه كذلك أنه قال: ما كنت أدري معنى قوله تعالى «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق»[2] حتى سمعت بنـت ذي يزن، تقول لزوجها: تعال أفاتحك: أي أحاكمـك [3] - إذا كان هذا شأن الفاروق وابن عباس، فحريّ بالعامة من العرب - ومن باب أولي حريّ بنا، وفينا العجمة التي غلبت في كل مكان - ألا يفهموا جميعاً لغة القرآن؛ لأنهم لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد في فهم اللغة العربية [4] فضلاً عن أن هناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم إلى أشياء في التوراة والانجيل، والرد عليها، وهي أمـور لا يكفـي في فهمهـا معرفـة اللغـة العربية [5] .

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول، بأن الصحابة على العموم كانـوا أقدر الناس على فهم القرآن، لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن، ومع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب إختلافهم في أدوات الفهم، وذلك لأسباب منها (أولا) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيا بينهم، وان كانت العربية لغتهم ومنها (ثانياً) ان منهم من كان يلازم النبي ﴿ﷺ﴾، ويقيم بجانبه، ويشاهد الأسباب التي دعت إلى نزول الآية، ومنهم من ليس كذلك، ومنها (ثالثاً) إختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم، فمن عرف عادات العرب في الحج في

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٤٤ ، التفسير والمفسرون ١/ ٣٥ ، أمـين مدنـي : التـاريخ العربـي ومصادره ص ٤٧ - ٤٨

(٢) سورة الاعراف : آية ٨٩

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٤٤

(٤) محمد أبو زهرة : القرآن ص ٥٨٤

(٥) احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٩٦ .

الجاهلية، إستطاع أن يعرف آيات الحج أكثر من غيره ممن لم يعرف [1].

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبره، ولتبيان ما أوجز فيه، أو ما أشير إليه فيه إشارات غامضة، أو لما غمض علينا نحن من تشابيهه واستعاراته وألفاظه أو لشرح أحكامه [2]، هذا وقد نشأ التفسير في عصر الرسول، ﴿ﷺ﴾، فكان النبي أول المفسرين له، ثم تابعه أصحابه من بعد [3]، على أساس أنهم الواقفون على أسراره، المهتدون بهدي النبي ﴿ﷺ﴾[4]، ولعل أشهر المفسرين من الصحابة، الإمام علي - كرم الله وجهه - وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود [5].

وجاء عصر التابعين، الذين أخذوا عن الصحابة، وأشهرهم تلاميذ ابن عباس في مكة، كمجاهد (٢١ - ١٠٣ هـ) وعطاء بن رباح (٢٧-١١٤ هـ) وعكرمة (٢٥-١٠٥ هـ) مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير (٤٥-٩٤ هـ)، ومن أهل المدينة عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ومحمد كعب القرضي (ت ١١٧ هـ) ورافع بن مهران، أو كما يكنى أبو العالية الرياحي (ت ٩٣ هـ)، وأما تلاميذ عبدالله بن مسعود في العراق، فمسروق بن الأجدع - وهو عربي من همدان - وقتادة أبو الخطاب السدوسي - وهو عربي كان يسكن البصرة - وعطاء الخراساني

(١) نفس المرجع السابق ص ١٩٧ - ١٩٨

(٢) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص ١٦ ، وانظر: البرهان ٢/ ١٣

(٣) فتاوى الإمام إبن تيميه ١٣/ ٣٣١ - ٣٣٣

(٤) إشتهر بتفسير القرآن عشرة من الصحابة، وهم الخلفاء الاربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الاشعري وعبد الله بن الزبير، وأما الخلفاء فأكثر ما روي عنه هو الإمام علي، والرواية عن الثلاثة نذرة جدا (كشف الظنون ١/ ١٧٨ ، الاتقان ٢/ ١٨٧ - ١٨٩ ، فتاوي إبن تيميه ١٣/ ٣٦٤ - ٣٦٦ ، ١٧/ ٤٠٢ ، فجر الاسلام ص ٢٠٢ - ٢٠٤)

(٥) راجع شروط المفسر وآدابه (الاتقان ٢/ ١٧٥ - ١٨٧ ، تفسير المنار ١/ ١٧ - ٢٦ ، التبيان في علوم القرآن ص ١٧٧ - ١٨١)

(٥٠-١٣٥ هـ)، فضلا عن الإمام الحسن البصري، ذلك العالم الزاهد، الذي ولد في المدينة المنورة، وشب في كنف الإمام علي بن أبي طالب، ثم استكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، فسكن البصرة، وتوفي بها عام ١١٠ هـ[١].

وفي هذا العصر - عصر التابعين - تضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات، لأسباب كثيرة، منها (أولاً) أن كثيرا من اليهود كان - إبان ظهور الإسلام وقبله - يقيمون في المدينة المنورة وفي مجاوراتها، كبني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، فضلا عن يهود خيبر وفدك وتيماء، وكان هؤلاء وأولئك قد حملوا معهم إلى بلاد العرب - يوم وفدوا إليها خلال القرنين، الأول والثاني بعد الميلاد، على ما نرجح[٢] - ما حملوا من ثقافات مستمدة من كتبهم الدينية، وما يتصل بها من شروح، وما تواوثوه جيلا بعد جيل عن أنبيائهم وأحبارهم، هذا وقد كان لليهود في بلاد العرب مواضع يقيمون فيها عبادتهم وشعائر دينهم، ويتدارسون فيها أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم وكتبهم وغير ذلك، عرفت عند الجاهليين «بالمدارس» أو «بيت

---

(١) الاتقان ٢/ ١٩٠، ٢٢٤، ٢٢٥، فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٢، ٣٤٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ١٥/ ٦٧، ٦٨، ٢٠١، مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦٣، ٢٦٤، فجر الاسلام ص ١٧٤، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٥، التبيان في علوم القرآن ص ١٦٠ - ١٧٠

(٢) يختلف المؤرخون في العصر الذي جاء فيه اليهود إلى بلاد العرب، ففريق يراه على أيام موسى (القرن ١٣ ق.م.) وفريق يراه على أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م.) وفريق يراه عقب استيلاء سرجون الثاني على السامرة عام ٧٢٢ ق.م.، وفريق يراه بعد إستيلاء نبوخذ نصر على أورشليم عام ٥٨٦ ق.م.، وأخيراً هناك من يراه بعد القضاء النهائي على اليهود في فلسطين على أيام تيتوس عام ٧٠ م، وعلى أيام هدريان فيما بين عامي ١٣٢، ١٣٥ م، وهذا ما نرجحه (أنظر التفصيلات في كتابنا «بلاد العرب»، وهو الجزء الخامس، من «دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم - تحت الطبع)

المدارس»[1]، ويروي أبو داود عن إبن عباس، أن هذا الحي من الأنصار كانوا ـ وهم أهل وثن ـ مع هذا الحي من اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يرون لهم فضلاً، ويقتدون بكثير من أفعالهم[2].

ومنها (ثانياً) أن العرب كانوا يقومون برحلات إلى الشام واليمن، وبدهي أنه كانت تتم بين العرب واليهود الذين كانوا يستوطنون هذه البلاد، لقاءات لا شك أنها كانت عاملا قوياً من عوامل تسرب الثقافة اليهودية إلى العرب الذين كانت ثقافتهم ـ بحكم بداوتهم وجاهليتهم ـ محدودة ضيقة، وزاد الطين بلة، أن اليهود الذين نقل العرب عنهم، كانوا في غالبيتهم بداة مثلهم، لا يعرفون من كتبهم، إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب[3].

ومنها (ثالثاً) دخول جماعات من علماء اليهود وأحبارهم في الإسلام، كعبدالله بن سلام، وعبدالله بن صوريا، وكعب الأحبار وغيرهم، ممن كانت لهم ثقافة يهودية واسعة، وكانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة ومركز ملحوظ، بهذا كله التحمت الثقافة الاسرائيلية بالثقافة الإسلامية، بصورة أوسع وعلى نطاق أرحب[4]، ومنها (رابعاً) ميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية[5]،ومنها(خامساً) أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما

(١) أنظر : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢/ ١٢٠ ، رمزي نعناعة : الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ١٠٧ ، صحيح البخارى ٩/ ١٣١ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٢) انظر : تفسير إبن كثير ١/ ٢٦١

(٣) محمد السيد الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ٢٤ ـ ٢٥ ، مقدمة إبن خلدون ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٤) محمد السيد الذهبي : المرجع السابق ص ٢٦

(٥) احمد امين : فجر الإسلام ص ٢٠٥

غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا ما تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم [1]، لأنهم - كما يقول إبن إسحاق - أهل العلم الأول [2]، وكانت التوراة - والتلمود - من بعدها - تشتمل على كثير مما يشتمل عليه القرآن الكريم من وقائع وأحداث تتصل بالمصطفين والأخيار، من أنبياء الله الكرام، ولكن بإسهاب وتفصيل، قد يغري، في كثير من الاحايين، عواطف العامة، اكثر مما يرضي عقول العلماء.

ومنها (سادساً) أن العرب لم يكونوا يعرفون العبرية - لغة التوراة - وكان أحبار يهود - كما يروي عن أبي هريرة - يقرءون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام [3]، ومن ثم فلم تكن هناك من وسيلة أمام المسلمين للتأكد من صدق يهود، فضلا عن أنهم كانوا أقل منهم دهاء ومكراً، ومن ثم فقد راجت بينهم سوق أكاذيب ما يسمونهم أهل العلم الأول، وتساهل المفسرون وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، والتي كانت إما من التوراة، أو مما يفتري أحبار التوراة، ولهذا حذر «النظام» من بعض المفسرين، فإن بعضاً منهم - وبخاصة عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل وابو بكر الأصم - يقول بغير رواية إلى غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عند العامة كان أحب اليهم [4].

ومنها (سابعاً) ما يرويه «إبن النديم» من أن «أحمد بن عبدالله بن

---

(١) مقدمة إبن خلدون ص ٤٣٩ - ٤٤٠، وانظر: تفسير الطبري ٦/ ٩، ١٠، ١٧/ ١٠، ٢٧/ ٣١، تفسير إبن كثير إبن كثير ٣/ ١٠٢

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٨

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٢٨٥

(٤) الحيوان للجاحظ ١/ ٣٤٣ - ٣٤٦

سلام» قد ترجم التوراة ترجمة دقيقة،[1] فاذا صح ذلك، فإن الرجل يكون قد قدم مادة جديدة خصبة من الاسرائيليات يضيفونها إلى تفسير القرآن الكريم، ومن ثم فقد توسع المفسرون والمؤ رخون في الاستعانة بهذه الترجمة - إن كانت قد وجدت حقاً - في تصوير أخبار ما قبل البعثة وكانوا أحياناً يزيدون في هذه الأخبار، كلما إستبد بالمفسر الميل إلى الإغراب والتقصي لجزئيات الأحداث، وقد جرأهم على ذلك ضعف ملكة النقد عند معاصريهم [2]، بل إن الأمر لم يقتصر على ضعف ملكة النقد هذه، وإنما تجاوزها إلى أن عدم معرفة العرب للغة العبرية جعلهم لا يعرفون مدى صحة هذه التوراة المترجمة، ثم إن اليهود أنفسهم - في دمشق وحلب مثلا - كانوا ينكرون على يهود بلاد العرب يهوديتهم، لأنهم لم يحافظوا على الديانة اليهودية التوحيدية [3]، كما أننا نعرف أن التوراة يصعب على رجل واحد القيام بترجمتها، فضلا عن أن تكون تلك الترجمة دقيقة [4] - وان بخاصة الذي قام بها، فيما يزعمون، من يهود بلاد العرب، وهم ليسوا أعلم من العرب بكثير - وعلى أي حال، فالمعروف أن التوراة، إنما ترجمت إلى اللغة العربية حوالي عام ٧١٨ م، وبالتأكيد أن أحمد هذا لم يكن واحداً ممن شاركوا فيها.

ومنها (ثامناً) أن معلومات العرب الجاهليين عن أسفار التوراة معلومات مشوهة، بل إن العربي الجاهلي كان ينظر إلى ما في أيدي الرهبان والأحبار، نظرة إحترام تمنعه من أن يجادل فيها، بل إن ما جاء في

---

(١) الفهرست ص ٣٢

(٢) رمزي نعناعة : المرجع السابق ١٩٨

(٣) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٣ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ١/ ٧٣ وكذا *D S Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. P.60* وكذا *Greatz. History of the Jews, III P.P.51,75*

(٤) واجع ترجمات التوراة في كتابنا اسرائيل ص ٤٨ - ٥١

«الفهرست» وفي «الطبقات» ليؤكد لنا أن حرص المسلمين على حرفية ما ينقلونه من الأسفار إلى اللغة العربية، ليس بأقل من حرصهم على ما يرويه الأحبار ونقله حرفياً، وهذا ما جعل القصص اليهودي ينتشر كما هو بين العامة، ويصدقه ضعاف المؤرخين [1]، بل لقد بلغ الأمر بالبعض - ومنهم كعب الأحبار ووهب بن منبه - إلى أن ينسب إلى التوراة، وغيرها من كتب الرسل، ما ليس فيها شيء منه، ولا حومت حوله [2].

ومنها (تاسعاً) ما يروي من أن عبدالله بن عمرو بن العاص، قد أصاب يوم اليرموك (١٥ هـ = ٦٣٦م) [3]، زاملتين من أهل الكتاب، فكان يحدث منهما، بعد ذلك، بقدر ما فهمه من حديث «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» [4]، ولعل هذا كله هو الذي دفع الإمام أحمد بن

---

(١) أمين مدني: المرجع السابق ص ٩٠

(٢) تفسير المنار ١/ ٩

(٣) انظر عن معركة اليرموك: ابن الاثير ٢/ ٤١٠ - ٤١٥ وكذا تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٤ - ٤١٤، فتوح البلدان ص ١٣٧، فتوح الشام ٢/ ١٢٠ - ١٢٤، ٢٣٧ - ٢٣٩، العقاد: معاوية في الميزان ص ٤١، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٨٤ - ١٨٨.

(٤) فتاوى إبن تيمية ١٣/ ٣٦٦، وانظر عن الحديث الشريف: صحيح البخارى ٦/ ٣١٩ - ٣٢٠، هذا وهناك ما يشير إلى النهي عن الأخذ عن بني إسرائيل (أنظر: صحيح البخارى ٣/ ١٨١، ٨/ ١٢٠، مسند الإمام احمد ٣/ ٣٨٧، فتح الباري ١٣/ ٢٥٩، ٤٠٤، تفسير إبن كثير ٤/ ٦ - ٨، البداية والنهاية ١/ ١٩٨، محمد السيد الذهبي: المرجع السابق ص ٦٨ - ٧١)، ويروي إبن حجر أن النهي كان قبل إستقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية خشية الفتنة، فلما زال المحظور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الإعتبار (فتح الباري ٦/ ٣٨٨)، فضلا عن الاحتياج الى الرد على المخالف، بدليل نقل الإئمة قديماً وحديثاً من التوراة، وإلزام اليهود بالتصديق لمحمد ﴿ﷺ﴾ بما يستخرجونه من كتابهم (فتح الباري ١٧/ ٣٠٩، وانظر وجهات نظر أخرى في: مقدمة من أصول التفسير ص ١٧ - ٢٠، ٤٥ - ٤٦، عمدة التفسير، تعليق احمد شاكر ١/ ١٥، تفسير إبن كثير ١/ ٤، محاسن التأويل للقاسمي ١/ ٤٤ - ٤٥، البداية والنهاية ١/ ٦ - ٧، تفسير البقاعي ص ٨٩ - ٩٠، محمد السيد الذهبي ص ٧١ - ٩٠).

حنبل إلى أن يقول كلمته المشهورة «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي، أي ليس لها إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل [1]، وإلى أن يقول إبن تيمية: «والموضوعات في كتب التفسير كثيرة» [2].

ومع ذلك كله، فإن الأمر لم يكن خطيراً على أيام الرسول ﴿ﷺ﴾ لأن صحابته كانوا أعرف الناس بأمور دينهم، إلا أن عصر التابعين كان جد مختلف، إذ كثر النقل فيه عن يهود، ومن ثم فقد وجدت أسفار يهود وأناجيل النصارى طريقها إلى كتب التفسير، وزاد الطين بلة أن وجد في تلك الفترة جماعة من المفسرين أرادوا ان يسدوا ما يرونه ثغرة قائمة في التفسير، بما وصل إليهم من الإسرائيليات، فجاء ما روي عنهم في التفسير مليئاً بقصص كله سخف ونكاره، كالذي نراه في كتب التفسير منسوباً إلى قتادة ومجاهد، ثم جاء في عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم، وإن كان لا يتصوره عقل، واستمر الشغف بالإسرائيليات، والولع بنقل الأخبار التي كان يعتبر الكثير منها نوعاً من الخرافة، إلى أن جاء عصر التدوين [3].

وعلى أي حال، وسواء أكانت هذه هي كل الأسباب، أم أن هناك أسباباً أخرى، فالذي لا شك فيه أن كثيراً من كتب التفسير قد إتسع لما قيل من ذلك وأكثر، حتى أصبح فيها مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة، التي ترامت إلى علم العرب [4]، وحتى حوت

(١) إبن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص ١٤ (طبعة دمشق)، تفسير المنار ١/ ٨، وأنظر: الأسرار المرفوعة ص ٣٣٩، كشف الخفاء ٢/ ٤٠٢، المقاصد الحسنة ص ٤٨١، تمييز الطيب من الخبيث ص ١٩٨.

(٢) ابن تيمية: المرجع السابق ص ١٩

(٣) محمد السيد الذهبي: المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧ مقدمة إبن خلدون ص ٤٩٠ - ٤٩١

(٤) أمين الخولي: التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم ص ١٠ - ١١، دائرة المعارف الاسلامية ٩/ ٤١٥، محمد السيد الذهبي: التفسير والمفسرون ١/ ٨٨

من الإسرائيليات كل عجيب وعجيبة، واستوت في ذلك تفاسير المتقدمين والمتأخرين، والمتساهلين والمتشددين[1]، على تفاوت بينهـا في ذلك قلـة وكثرة، وتعقيباً عليها، وسكوتاً عليها[2].

وأياً ما كان الأمر، ورغم هذه الشوائب، فالذي لا شك فيه، أنه في كتب التفسير[3] ثروة تاريخية قيمة، تفيد المؤ رخ في تدوين التاريخ العربي القديم، وتشرح ما جاء مجملاً في القرآن العظيم، وتبسط ما كان عالقاً بأذهان الناس عن الأيام التي سبقت عصر الإسلام، وتحكي ما سمعوه عن القبائل العربية البائدة، التي ذكرت على وجه الإجمال في القرآن الكريم، وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات

---

(١) لعل أشهر كتب التفسير التي روت كثيراً من الاسرائيليات هي : تفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) والطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) والثعلبي (ت ٤٢٧ هـ) والخازن (٦٧٨ - ٧٤١ هـ)، واما التي تحرجت عن التوسع فيها، فأشهرها : تفسير ابن كثير (٧٠٠ - ٧٧٤ هـ) والألوسي (١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ) ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ) [أنظر : دارة المعارف الإسلامية ٩/ ٤٥١ - ٤٥٢، محمد السيد الذهبي : الاسرائيليات في التفسير والحديث ص ١٦١ - ٢٤٩

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥٨، ٢٨٣

(٣) أشهر كتب التفسير : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وتفسير الثعلبي (الكشف عن بيان تفسير القرآن) (تفسير المرتضى) (أمالي الشريف) وتفسير المشكاة (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) وتفسير البغوي (معالم التنزيل) وتفسير الزمخشري (الكشاف على حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) وتفسير الطبرسي (مجمع البيان) وتفسير إبن العربي (أحكام القرآن) وتفسير إبن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) وتفسير الرازي (مفاتيح الغيب) وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) وتفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) وتفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وتفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) وتفسير أبي حيان (البحر المحيط) وتفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التنزيل) وتفسير الجواهر (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) لعبد الرحمن الثعالبي الجزائري وتفسير السيوطي

= (الدرر المنثور في التفسير بالمأثور) وتفسير الجلالين ، وتفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) وتفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وتفسير القاسمي (محاسن التأويل) وتفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) وتفسير وجدي (المصحف المفسر) وتفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) وتفسير طنطاوي جوهري (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) .

الفصل الرابع

ابراهيم الخليل

جد العرب

إبراهيم أبو الانبياء ، والجد الأعلى لرسول الله ، وأشدّ الناس شبهاً به ، خليل الله ، وإمام المتقين ، رمز الإيمان والأسوة الحسنة للمؤمنين جميعاً[1] ، وأول من أعطى المسلمين اسمهم[2] ، وأول من دعا لهم ربهم أن يبعث فيهم رسولا منهم ، يهديهم سواء السبيل[3] ، وصدق رسول الله ، ﴿ﷺ﴾ ، حيث يقول «أنا دعوة أبي ابراهيم[4]» .

وتاريخ الحجاز لن يكون مفهوماً إلا عن طريق دراسة تاريخ أبي الانبياء ـ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ فهو أبو العرب[5] ، وهو باني كعبتهم[6] ،وجاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة[7] ، وهو أول من أذن في الناس بالحج[8]، وأول من دعا لهذه الأرض الطيبة بالأمن والسكينة ، والخير والبركة[9] .

وهكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مهبط الوحي ، ومنزل القرآن ، تتجه إليه ملايين قلوب المسلمين ووجوههم في كل يوم خمس مرات[1]،

---

(١) سورة الممتحنة : آية ٤
(٢) سورة الحج : آية ٧٨
(٣) سورة البقرة : آية ١٢٩
(٤) تفسير القرطبي ٢/ ١٣١
(٥) سورة الحج : آية ٧٨
(٦) سورة البقرة : آية ١٢٧
(٧) سورة آل عمران : آية ٩٦ ، وانظر : تفسير الطبري ٣/ ٤٥
(٨) سورة الحج : آية ٢٧
(٩) سورة البقرة : آية ١٢٦

وتؤمه في كل سنة آلاف مؤلفة من الحجيج ، إستجابة لدعوة إبـراهيم ، وأداء للفريضة الخامسة من فرائض الإسلام[٢] .

وهكذا يبدو بوضوح أن الخليل عليه السلام ، لم يرتبط بدين من الأديان ، كما إرتبط بالإسلام، ولم يؤ من أصحـاب دين بالخليل ، كما آمن به المسلمون، ولم يتبـاه جنس بانتسابهـم إلى الخليل، كما تباهى العرب بعامة ـ وقريش بخاصـة ـ ولـم يتمسـك أصحـاب دين بدعـوة الخليل ، كما تمسك بها المسلمون ـ رغم دعاوى يهود ، ومزاعم النصارى ـ لأنهم ورثة الخليل في الإيمان والتوحيد الصحيح .

(١) مولد الخليل عليه السلام

تقدم لنا المصادر العربية عن مولد الخليل رواية مؤ داها أنه ولد في عصر ملك دعوه « نمرود بن كنعان بن كوش » والذي كان واحداً من ملوك أربعة ملكوا الأرض كلها (نمرود وبختنصر وهما كافران ، وسـليمان بن داود وذي القرنين وهما مؤمنان). وأن أصحاب النجـوم قد أخبـروه أن غلاماً ـ يقال له إبراهيم ـ سوف يولد في شهر كذا من سنة كذا من عهده ، وأنه سوف يفارق دين القوم ويحطم أصنامهم ، ومن ثم فإن الرجل قد أمر بقتل كل غلام يولد في تلك الفترة ، غير أن أم إبراهيم قد أخفت حملها ، فضلا عن أنها قد وضعته سراً في مغارة قريبة من المدينة ، ومن ثم فقد نجا من القتل ، ثم أعلمت زوجها بأن الغلام قد مات على زعم ، وأخبرته بالحقيقة على زعم آخر ، وعلى أي حال ، فإنها ـ طبقاً للرواية ـ قد أخذت تتردد على وليدها يوماً بعد آخر ، وأنها كانت تتعجب كثيراً ، حينما كانت

(١) سورة البقرة : آية ١٤٤

(٢) سورة آل عمران : آية ٩٧

تراه يشبه في اليوم ما يشبه غيره في الشهر [1] .

والرواية على هذا النحو مزيج عجيب من روايات مختلفة ، فضلا عن أن سهام الريب توجه إليها من كل جانب ، وليس بالوسع القول أنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات ، ولعل أهم ما يوجه إليها من شبهات يتلخص في نقاط : منها (أولا) أن تلك الأسطورة التي تتردد في المصادر العربية - دون غيرها من المصادر التاريخية - عن الملوك الاربعة الذين حكموا الدنيا بأسرها ، لا تتفق والحقائق التاريخية أبداً ، فأول هؤلاء الملوك - وأعني به نمرود - قد لا يعلم أصحاب هذه الأسطورة أن التاريخ البابلي لا يعرف ملكاً بهذا الإسم - حتى الآن على الأقل - ولست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤرخون الإسلاميون ، وأكبر الظن أنهم أخذوه من توراة يهود ، حيث جاء فيها «وكوش ولد نمرود الذي إبتدأ يكون جباراً في الأرض . . . وكان إبتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنه في أرض شنعار » [2] ، على أن التاريخ يعرف بلداً باسم « نمرود » - على مجرى الزاب الأعلى - وقد كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) ، وهي نفسها مدينة « كالح » في التوراة [3] ، وهكذا خلط كاتب سفر التكوين بين الملك والمدينة ، ثم جاء مؤرخونا ونقلوا ما في التوراة ، وكأنه التاريخ الذي يرقى فوق كل هواتف الريبة والشك .

وأما « نبوخذ نصر » - أو بختنصر كما يدعونه - (٦٠٥ - ٥٦٢

---

(١) ابن الأثير ١/ ٩٤ - ٩٥ ، الطبري ١/ ٢٣٣ - ٢٣٧ ، أبو الفداء ١/ ١٣ ، إبن كثير ١/ ١٤٨ ، المحبر ص ٣٩٢ - ٣٩٤ ، تفسير ابن كثير ٣/ ١٨١ ، ١٨٢ ، مروج الذهب ١/ ٥٦ ، تاريخ الخميس ص ٨٩ - ٩١ ، ١١٤ ، المقدسي ٣/ ٤٥ - ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤

(٢) تكوين ١٠ : ٨ - ١٠

(٣) تكوين ١٠ : ١١

ق.م.) ، فلم يكن ملكه يزيد ـ بحال من الأحوال ـ عن سورية بمعناها القديم ، فضلا عن العراق ، ومرة أخرى ، ربما تأثر الكتاب المسلمون بروايات التوراة عن « نبوخذ نصر » الذي كتب له القضاء على البقية الباقية من الكيان السياسي لليهود في فلسطين ، ثم القيام بالأسر البابلي المعروف في التاريخ[1] ، وهكذا بدأ كتابنا يتأثرون بكتابات اليهود عن الرجل ، حتى أنهم جعلوه يغزو بلاد العرب على أيام « عدنان » لسبب لا يخطر على بال مؤرخ ، ذلك السبب هو الغيرة على أنبياء الله الذين قتلهم العرب ، ولست أدري كيف قبل المؤرخون الإسلاميون هذه الاسطورة ، وهم يعتقدون ـ في نفس الوقت ـ أن الرجل إنما كان كافراً ، وقد يزول العجب حين ينسبون إصدار أمر الغزو إلى « برخيا » اليهودي ، وكأن مذلّ اليهود ، إنما يعمل بأمر اليهود[2] ، ثم قد يعود العجب مرة أخرى ، إذا علمنا أن توراة اليهود تخلو تماما من هذه الروايات ، وأن الفترة ما بين عهد « عدنان » وعهد نبوخذ نصر جد بعيدة[3] .

واما سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ فإن المصادر التاريخية جميعاً ، بما فيها التوراة ، تتفق ـ هذا إذا استثنينا المصادر العربية ـ على أن ملك

---

(١) انظر كتابنا اسرائيل ص ٥٢٩ ـ ٥٣٥ وكذا *W.Keller, The Bible as History,* **PP.280-284**, *A.Malamat, The Last Wars of the Kingdom of Judah.* **PP.223-225**, *M.Noth, The History of Israel.* **PP.285-288**, *S.Cook, in CHA, II, 1965,* **PP.399-402** *.Finegan, Light from the Ancient Past, P.226, W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel, P.233.*

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٥٥٨ ـ ٥٦٠ ، إبن الأثير ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ، المسعودي ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١ ، معجم البلدان ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣١ ، الإكليل ٢/ ٢٨٦

(٣) أنظر : كتابنا «بلاد العرب»

النبي الكريم لم يتجاوز فلسطين بحدودها المعروفة[1] ، بل إن التوراة نفسها ـ رغم المبالغات المعروفة عنها ، بخاصة إذا كان الأمر يتصل بملك سليمان ـ ترى أن مملكة إسرائيل ، في أقصى إتساع لها ، وفي أزهى العهود ، إنما كان « من دان إلى بئر سبع »[2] ، وهي حدود قد لا تشمل حتى فلسطين كلها .

وأما الإسكندر المقدوني (٣٣٦ ـ ٣٢٣ ق.م.) ـ إن كان هو المقصود بذي القرنين ، وهو أمر تحيط به الشكوك ـ فلعله أكثر الأربعة إتساعا في الملك ، ولكنه بالتأكيد لم يملك الدنيا بأسرها ، كما أنه لم يكن مؤمناً ، بل إن الرجل إنما كان يؤ له في كل بلد تضعه الأقدار تحت حكمه[3] .

ومنها (ثانياً) هذا التردد في معرفة آزر بمولد ولده ، ألا يدعو إلى التساؤ ل : كيف أخفت أم إبراهيم وليدها عن أبيه ؟ ثم مرة أخرى : آزر يخاف على وليده من الملك ، فأي الروايتين هي الصحيحة ؟ ومنها (ثالثاً) هذا الإصرار العجيب في المصادر العربية ، على ترديد رواية إعلام المنجمين للملوك بمولد الأنبياء ـ يحدث هذا في مولد إبراهيم ، كما يحدث في مولد الكليم والمسيح عليهما السلام ، بل لقد رآه البعض كذلك في مولد « زرادشت » نبي الفرس المزعوم ، وإن كانت الاسرائيليات تبلغ

---

(١) أنظر مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد السادس ، ١٩٧٦ ، ملوك أول ٩ : ١١ ، ١٦ ، وكذا

J.Breasted, A History of Egypt, from the Earliest Times to Persian Conquest, P.529, C.Roth, Ashort History of the Jewish People, P.21 H.G. Wells, A short History of the World, PP.76-77, A.Lods, Israel, From its Beginnings to the middle of the Eight Century, P.368, H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, P.433, M.Noth, op-cit, P.P.205-206

(٢) قضاة ٢٠ : ١ ، صموئيل أول ٣ : ٢٠ ، صموئيل ثان ٢٣ : ٢ ، أخبار أيام ثان ٢١ : ٣١

(٣) و.و. تارن : الإسكندر الأكبر ، ترجمة زكي علي ، ص ١٧٨ ـ ١٨٠

قمتها فيما يتصل بموسى عليه السلام ، بل إن بعض المؤ رخين إنما جعل بني اسرائيل انفسهم ـ وليس المنجمين ـ هم الذين كانوا يرددون هذه النبوءة ، وأن صاحبها هو الخليل نفسه(١) .

ولعل سؤ ال البداهة الآن : لم يصرّ هؤ لاء المؤ رخون على أن يجعلوا المنجمين يعلمون الغيب من الأمر ؟ حتى أنهم في قصة إبراهيم ، إنما يحددون مولده بالسنة ، بل والشهر كذلك ، وإن لم يقل لنا أصحابنا المؤ رخون : متى كان هذا الشهر ، وتلك السنة ، ثم ألا تبدو الصنعة واضحة في ولادة الخليل في مغارة ، ثم تركه وحيداً فيها ، ثم زيارة أمه له يوماً بعد يوم ، دون أن يدري الملك ـ أو حتى أبو الخليل نفسه ـ شيئاً عن ذلك ، ثم من أين اتى المؤ رخون بكل هذا القصص ؟

والرأي عندي أنه ربما صاحبت مولد الخليل عليه السلام بعض الخوارق ، فذلك أمر لا ننكره ، وما كان لنا أن ننكره ، ولكن أن تكون الخوارق بهذه الطريقة التي يذكرها مؤ رخونا ، وأن تتكرر مع بعض الأنبياء على نفس الوتيرة ، مع تغيرات طفيفة في السرد القصصي ، فذلك ما نراه أمر اختلاق ، لعبت الإسرائيليات فيه الدور الأول ، ثم شاء لمؤ رخينا علمهم أن يزيدوا فيها ، وهم يعلمون أن التوراة محرفة ، فما زادوا ـ والحال هذه ـ على أن نقلوا التحريف ، بل وربما في بعض الأحايين أن حرفوا التحريف نفسه ، فأتت كتاباتهم على هذا النحو أو ذاك .

---

(١) إبن الأثير ١/ ١٧٠ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧ ، ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ، إبن كثير ١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣ ، مروج الذهب ١/ ٥٦ ، متى ٢ : ١ ـ ٢٢ ، قارن : تفسير المنار ١/ ٣١٣ ، المقدسي ٣/ ٤٥ ، تفسير الطبري ١٢/ ٦٥ ـ ٦٧ ، قصة مشابهة عن قوم صالح عليه السلام .

(٢) موطن الخليل وعصره

تروي التوراة أن الخليل عليه السلام ، إنما هو « أبرام[١] بن تارح » ، ومن ثم فإن القرآن الكريم يختلف مع التوراة في إسم والد إبراهيم ، حيث يقول سبحانه وتعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة »[٢] .

ويبدو أن بعض المفسرين والمؤ رخين نظروا إلى رواية التوراة ، وكأنها السند الصحيح[٣] ، ومن ثم فقد حاولوا تأويل الآية الكريمة بما يخرجها عن صريح اللفظ ، محاولين بذلك أن يقضوا على التناقض بين ما جاء في القرآن ، وما ذهبت إليه التوراة ، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في كتابنا إسرائيل ، وذهبنا إلى أن إسم والد الخليل ، إنما هو « آزر » ، طبقاً لما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فضلا عن أن الأدلة العلمية كلها تقف إلى جانبه ، ومن ثم فإن تأويلات المفسرين والمؤ رخين لا معنى

---

(١) دعت التوراة الخليل أبرام حتى التاسعة والتسعين من عمره ، ثم ابراهيم بعد ذلك (انظر تكوين ١١ : ٢٧ - ٣١ ، ١٢: ٤، ٧، ٩، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ - ١٨ ، ١٣ : ١ - ٨ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٤ : ١٣ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥ : ١ - ٣ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٦ : ١ - ٦ ، ١٥ ، ١٧ : ١ - ٦

(٢) سورة الأنعام : آية ٧٤ وانظر : تفسير الطبري ١١/ ٤٦٥ - ٤٦٩ (دار الشعب - القاهرة ١٩٥٧) ، تفسير النسفي ٢/ ٥٣ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم (للشيخ طنطاوي جوهري) ٤/ ٥٦ (طبعة ثالثة ١٩٧٤)

(٣) إبن الأثير ١/ ٩٤ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٢٣ ، أبو الفداء ١/ ١٣ ، المقدسي ٣/ ٤٧ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣ - ٢٤ ، مروج الذهب ١/ ٥٦ ، إبن خلدون ٢/ ٣٣ ، تفسير روح المعاني ٧/ ١٩٤ ، تفسير القرطبي ص ٢٤٥٨ (طبعة الشعب) دائرة المعارف الاسلامية ١/ ٥٢ - ٥٥ ، تفسير الطبري ١١/ ٤٦٥ - ٤٦٦ ، ومع ذلك فهناك من يجمعون على أن «آزر» هو ابو ابراهيم طبقاً لتصريح القرآن (تفسير الطبري ١١/ ٤٦٨ - ٤٦٩ ، تفسير الفخر الرازي ٣/ ٧٢ ، تفسير البحر المحيط ٤/ ١٦٣ - ١٦٤ ، تفسير روح المعاني ٧/ ١٩٤ - ١٩٥ ، تفسير الجواهر ٤/ ٥٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٤٢ عباس العقاد : أبو الأنبياء ص ١٣٥ - ١٣٦)

لها[1] .

وأما قوم إبراهيم، فهناك من يجعلهم من المجموعة الآرامية التي تزوج منها إسحاق ويعقوب ، وسواء أصح هذا أم لا ، فأن قوم إبراهيم قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة ، ولعل في تفكير إبراهيم في إسكان زوجته المصرية ، وابنه إسماعيل منها في منطقة مكة المكرمة ، هرباً من ضرتها العجوز سارة ، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة ، ذلك لأن الصدفة لم يكن لها محل في تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين ، وإذا كان إبراهيم قد إختار هذه المنطقة ، فمما لا شك فيه أنه هو شخصياً كانت له صلات قرابة وصلات حلف وذمة مع سكانها ، وإلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته وابنه[2] .

وهكذا يمكن القول أن إبراهيم الخليل كان عربياً خالصاً من سلالة العرب العاربة التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح ، عليه السلام ، كما أنه سوف يكون أبا العرب العدنانية الذين هم أبناء ولده إسماعيل ، وهو بهذا جد العرب ، قبل أن يكون جد الاسرائيليين .

هذا ويقدم لنا المؤرخون وجهتي نظر ، فيما يتصل بأور موطن الخليل عليه السلام ، الواحدة تذهب إلى أنها إنما تقع في جنوب العراق[3] ، بينما تذهب الثانية إلى أن « أور» هذه ليست من بابل ، ولا تقع على الخليج العربي ، بل هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة و« الفرات » وأن هناك كثيراً من الأدلة التي تؤيد هذا

---

(١) كتابنا اسرائيل ص ١٦٠ ـ ١٦٤

(٢) حسن ظاظا : الصهيونية العالمية واسرائيل ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) تكوين ١١ : ٢٨ ، ٣١ ، ١٥ : ٧ ، نحميا ٩ : ٧ وكذا *W.Keller, op-cit, P.42*

الإتجاه ، موجودة في نصوص التوراة نفسها[1] ، إلى جانب أدلة أخرى ، سبق لنا مناقشتها في كتابنا إسرائيل[2] ، وكلها تؤ يد الفكرة القائلة أن « أور » ، إنما كانت من مجاورات « حاران » ، وبالذات إلى الشرق منها طبقاً لتقاليد محلية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي ، ولعل « إميانوس مركليوس » كان يعنيها في إشارة له من نفس التاريخ إلى قلعة تقع بين سنجار والدجلة [3] ، ومن ثم فقد ارتضينا الرأي الذي يجعل من حاران - وليس أور المشهورة في جنوب العراق[4] - موطنا للخليل[5] .

هذا وقد اختلف المؤ رخون كذلك في عصر الخليل[6] ، فبينما يذهب « يونجر » إلى أنه ربما كان في الفترة (١٢٦١ - ١٩٨٦ ق . م .)[7] ، بينما يرى « ويجال» أن الخليل إنما ولد في حوالي منتصف القرن الحادي والعشرين ق . م .[8] ، وأما أطلس وستمنستر ، فيحدد

---

(١) تكوين ٢٤ : ٧ ، ٤٠ ، ٢٧ : ٤٣ - ٤٤ ، ٢٨ : ١٠ ، يشوع ٢٤ : ٢ ، نجيب ميخائيل مصر والشرق الأدنى ٣/ ١٨٣ ، حسن محمود : حضارة مصر والشرق القديم : ص ٣٤٩ ، وكذا A. Lods, op-cit, P.166 وكذا J.Finegan, op-cit, P.70

(٢) راجع كتابنا إسرائيل ص ١٦٥ - ١٧١

(٣) A. Lods, op-cit, PP. 165-6

(٤) تذهب بعض الروايات الإسلامية إلى أن موطن الخليل ، إنما كان في كوثي من سواد العراق ، وتذهب روايات أخرى إلى أنه في بابل ، بينما تذهب رواية ثالثة إلى السوس من أرض الاهواز ، ورابعة الى حران ، غير سادسة تذهب إلى الوركاء ، بل ان رواية سابعة ترى أنه ولد بغوطة دمشق (تفسير الطبري ٢٠/ ١٤٢ ، ابن كثير ١/ ١٤٠ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٢٣ ، ياقوت ٢/ ٢٣٥ ، ٤/ ٤٨٧ ، أبو الفداء ١/ ١٣)

(٥) جون الدر : الاحجار تتكلم ص ٤٣ ، ٤٤ وكذا
I.Epstein, Judaism, P.P. 21-31, J.Finegan, op-cit, P.P. 70-71, L.Woolley, The Beginnings of Civilization, P.P. 492,514, A.Lods, op-cit, P.P. 165-6, J.Gray, op-cit, P 104

(٦) راجع كتابنا اسرائيل ص ١٧١ - ١٧٧

(٧) *M.Unger, op-cit P.P. 10-14*

(٨) *A.Weigall, A History of the* Pharaohs, *P.40*

عصر الخليل فيما بـين عامـي ٢٠٠٠، ١٧٠٠ ق.م. [١] ، بينما حددت موسوعة وستمنستر - إعتماداً على تقدير الأسقف يوشر - مولد الخليل بعام ١٩٩٦ ق.م. [٢] ، وأمـا السير « ليونـارد وولي » فـيراه معـاصراً لعصر « لارسا » ، أعني ما بين عامي ١٩٢٠ ، ١٨٠٠ ق.م. ، مستشهداً في ذلك بما دونه العهد القديم ، وبتحقيق كلمة « عابيرو » [٣] ، التي يرى أنها استعملت في ذلك الوقت للدلالة على العبرانيين [٤] .

ويذهـب « كيلـر » إلى أن الخليل قد عاش حوالي عام ١٩٠٠ ق.م. [٥] ، وأما « جورج روكس » فيرى أن الرحلـة التـي قام بهـا إلى كنعان ، قد تمت في حوالي عام ١٨٥٠ ق.م. ، أو بعد ذلك بقليل [٦] ، وهذا يعني أن الخليل قد ولد في الربع الأخير من القرن العشرين ق.م. ، ويحدد « جاك فينجان » عام ١٩٠٠ ق.م. ، كتاريخ لدخول إبـراهيم كنعان ، وأنه قد ترك ميزوبوتاميا في عصر الغزو الأموري والعيلامي ، وأن الاضطرابات التي حدثت هي التي إضطرته إلى الرحيل من موطنه الأصلي [٧] .

وهناك طائفة من العلماء حاولت الربط بين إبراهيم الخليل ، وبين حمورابي الملك البابلي الشهير ، بصلة من نوع ما عن طريق « امرافل ملك

(١) *W?stminester Historical Atlas to the Bible, P.234*

(٢) عباس العقاد إبراهيم أبو الأنبياء ص ٦٩ ، قاموس الكتاب المقدس ص ١٢

(٣) انظر عن كلمة عابيرو وصلتها بالعبرانيين ، كتابنا إسرائيل ص ١ - ٥ ، حسن ظاظا : السـاميون ولغاتهـم ص ٧١ ،
H.R.Hall, op-cit, P.406-7, W.O.Oesterley, op-cit, P.212, I.Epstein, op-cit, PP.13-14

(٤) *L.Wooley, op-cit, P.P.492, 512*

(٥) *W.Keller, op-cit, P.69*

(٦) *G.Roux, Ancient Iraq, P.215*

(٧) *J.Finegan, op-cit, P.P.72-3*

شنعار » الذي هزمه إبراهيم عند محاولته إنقاذ إبن أخيه لوط [1] ، ومن ثم فقد رأى البعض أن امرافل ، إنما هو « امرابل » والد حمورابي [2] ، أو أنه حمورابي نفسه على رأي آخر [3] ، أو على الأقل - فيما يرى فريق ثالث - أن إبراهيم كان يعيش في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه حمورابي في بابل [4] ، غير أن هناك من يرى ان عصر حمورابي متأخر عن عصر الوقائع التي تنسب إلى أمرافل بمائة سنة أو أكثر ، وأن أمرافل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد ، هذا فضلا عن أن الرأي قد إستقر بين العلماء ، على أن تاريخ حمورابي إنما كان في الفترة (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م.) فلو افترضنا جدلا أن إبراهيم كان يعاصر حمورابي على الأقل ، وطبقاً لنص التوراة - العبري أو السبعيني -فإن مدة إقامة آباء الاسرائيليين في كنعان قبل دخولهم مصر قدرت بـ ٢١٥ سنة ، وهذا يجعل دخولهم مصر في عام ١٥١٣ ق.م. ، وهذا تاريخ يقع في أخريات عهد الفرعون تحوتمس الأول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م.) ، وبعد طرد الهكسوس من مصر (في عام ١٥٧٥ ق.م.) ، بأكثر من نصف القرن ، والذين يفترض دخول الإسرائيليين مصر على أيامهم ، هذا فضلا عن أنه رغم ما يذهب إليه البعض من أن « أمرافل » قريب من اسم حمورابي ، فالأمر ما يزال مجال مناقشة واعتراض من جانب العلماء ، وأن إسم إمرافل هذا ما يزال حتى الآن يصعب تعيين صاحبه ، كما يصعب تعيين زملائه الآخرين الذين

---

(١) تكوين ١٤: ١ - ٢٣

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣٢٤ وكذا *W.F.Petrie, Egypt and Israel, P.17*

(٣) عباس العقاد: المرجع السابق ص ٦١ - ٦٤ ، وكذا S. smith, The Early History of Assyria, P. 70-71 وكذا انظر . H .Halley, The Backet Bible Handbook

(٤) J. Finegan, op-cit, P. 73 H.G. Wells, op-cit, P. 74

جاء ذكرهم في سفر التكوين (١٤ : ١)[١] .

وأخيراً فهناك من يوحّد إبراهيم بـ « دمقي اليشو » ، ذلك لأن « ديوتي » يترجم اسم « دمقي اليشو » بحبيب الله ، من المقة بمعنى الحب ، والإيل بمعنى الله ، وضمير الاضافة ، ثم جاء « جون فلبي » فظن أن هذا الإسم يطابق في الزمن والصفة إسم الخليل إبراهيم ، وأن الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج العربي ، لأن الأقوال متواترة لمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين ، ولأن إسم « دمشقي إليشو » ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطىء أو ملوك الأرض البحرية ، وهو إصطلاح يطلق على العرب من سكان تلك الجهات[٢] ، هذا وقد حدد « ديلابورت » لهذه الاسرة الفترة (١٩٢٥ - ١٧٦١ ق.م.)[٣] ، غير أن هناك عقبات تقف في وجه هذا الإتجاه ، منها ان واحداً من الكتب المقدسة - مصادرنا الأصلية عن الخليل عليه السلام - لم يقل بأنه كان ملكاً من الملوك ، ومنها ذلك الرأي الذي يجعل من حاران - وليس أور - موطناً للخليل ، والذي ارتضيناه من قبل ، وأخيراً فإن هذه الفكرة تجعل هجرة إبراهيم ، بسبب إستيلاء الكاشيين على بابل ، وليس من أجل دعوة التوحيد التي حمل لواءها طوال حياته .

ولهذا كله ، فليس أمامنا سوى أن نفترض - حدساً عن غير يقين - أن الرأي الذي يجعل الخليل يعيش حوالي عام ١٩٠٠ ق.م. ، أقرب إلى الصواب من غيره ، على أساس أن الاسرائيليين قد خرجوا من مصر في أخريات القرن الثالث عشر ق.م. ، في عصر مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤

(١) راجع كتابنا إسرائيل ص ١٧٥ - ١٧٦

(٢) J.B.Philby, *The Background of Islam*, Alexandria, 1947 وكذا :
عباس العقاد : المرجع السابق ص ٦٤ ، ١٣٤

(٣) ل.ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة محرم كمال ص ٧٤

ق.م.) ، وأنهم جاءوها على أيام الهكسوس ، حوالي عام ١٦٥٠ ق.م. ، ولما كانت مدة إقامتهم في مصر - كما يحددها سفر الخروج[١] - ٤٣٠ سنة ، فإن قدوم إبراهيم إلى كنعان يصبح حينئذ في حوالي عام ١٨٥٠ ق.م. ، ولما كان قد هاجر إلى كنعان ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره[٢] ، فهو قد ولد حوالي عام ١٩٤٠ ق.م. ، وبهذا يكون قد عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م.) ، على أساس أنه قد إنتقل إلى الرفيق الأعلى ، وعمره ١٧٥ عاماً[٣] .

(٣) هجراته

كانت أولى هجرات الخليل - طبقاً لرواية التوراة - من أور الكلدانيين ، على إعتبار أنها الموطن الأول له ، وهو أمر سبق أن ناقشناه ، وخلصنا منه إلى أن ذلك إنما كان في حاران ، وليس في أور ، وعلى أي حال ، فإن التوراة تنسب هذه الهجرة إلى تارح ، وليس إلى إبراهيم ، كما أنها تجعل كنعان هدف الرحلة من أور ، وأن حاران لم تكن أكثر من محطة وقوف يستريح فيها المهاجرون أياماً ، أو يقيمون سنين عدداً[٤] .

هذا ويرجح البعض أسباب هذه الهجرة إلى أن أور ، إنما كانت في زمن إبراهيم قد فقدت شهرتها وطغت عليها بابل ، فبارت تجارتها ، ورسب الطين في مرفئيها ، وباتت الحياة فيها قلقة غير مستقرة ، مما حمل أهلها على مغادرتها والارتحال شمالا ، ومن هنا رحل إبراهيم من أور إلى حاران[٥] ، وتقول تعليقات « أبنجدون » أنه ربما كان من أسباب هذه

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ٤٠

(٢) تكوين ١٢ : ٤

(٣) تكوين ٢٥ : ٧ ، (انظر ابن كثير ١/ ٥٦ - ٥٧ ، والمقدس ٣/ ٥٣

(٤) تكوين ١١ : ٣١

(٥) حبيب سعيد : المرجع السابق ص ٨ .

الهجرة إضطراب سياسي في جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة في أور[1] .

ويرى أستاذنا الدكتور الناضوري أن هجرة إبراهيم عليه السلام ، تتصل إتصالا وثيقاً بالأحداث التاريخية التي كانت سائدة في جنوب بلاد الرافدين في بداية الألف الثاني ق.م. ، حيث كان عصر الاختلال الاموري والعيلامي ، أو كما يطلق عليه أيضاً عصر إيسين ولارسا ، وهو المرحلة التاريخية التي حدثت أثناءها عدة تحركات بشرية مثل تحركات العناصر العيلامية من سوسة بعيلام ، وتحركات العناصر الآمورية من سورية بحذاء نهر الفرات ، مما أدى إلى ازدياد ظاهرة الصراع السياسي والحضاري بين حكومات المدن السومرية والأكدية ، وتلك العناصر الوافدة ، وكان ذلك من الأسباب المباشرة والتي أدت إلى هجرة إبراهيم عليه السلام وجماعته إلى حاران[2] ، وهكذا ترجع هجرة الخليل إلى الأسباب السياسية والإقتصادية في نفس الوقت ، كما أنها كانت من « أور » ، ولم تكن من حاران كذلك .

وليس هناك من شك ـ فيما نعتقد ـ في أهمية الأسباب الإقتصادية والسياسية في الهجرات بصفة عامة ، غير أن الأمر في حالة الخليل ـ عليه السلام ـ جد مختلف ، ومن ثم فعلينا أن نتذكر ـ بادىء ذي بدء ـ أن إبراهيم لم يكن ملكاً من الملوك ، وإنما كان نبياً رسولاً ، هذا إلى أن هجرة رجل بأسرته ، لا تعني في كل الأحوال إضطراب الأمور في البلد الذي هاجر منه ، إلا إذا كانت هناك هجرة جماعية ، ولهذا فالرأي عندي أن هجرة إبراهيم لم تكن لأسباب سياسية أو أقتصادية في الدرجة

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٦٢
(٢) رشيد الناضوري : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ص ١٧٣ ـ ١٧٤

الأولى ، وإنما كانت دينية ، كانت هجرة نبي يريد أن يبشر بدعوة التوحيد في مكان غير هذه الأرض التي لم تتقبل دعوته بقبول حسن .

ويقص علينا القرآن الكريم - في آيات كريمة من سورة مريم[1] - كيف بدأ إبراهيم دعوته مع أبيه يهديه بها صراطا مستقيماً - كما أشرنا من قبل - وكيف أن أباه قد رفض الدعوة ، وهدده إن لم ينته عنها ليرجمنه وليهجرنه ملياً ، فما كان من الخليل تأدباً مع أبيه وحدباً عليه ، إلا أن يدعو له بالمغفرة ، وإلا أن ينتظر إجابة دعوته إلى حين .

غير أن الأمور سرعان ما بدأت تتأزم بين الخليل وقومه ، حين بذل أبو الأنبياء الجهد - كل الجهد - لصرفهم عن عبادة الأوثان ، والإتجاه إلى عبادة الله الواحد القهار ، إلا أن القوم ظلوا في طغيانهم يعمهون ، مما دفع الخليل إلى أن يجرب معهم وسائل حسية ، ومن ثم فقد حطم الأصنام وترك كبيرهم ، لعل القوم يفكرون في الموقف الجديد ، أملا في أن يهديهم الله سواء السبيل ، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ، ولا تمنع عنها ضراً ، فضلا عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم ، إلا أن هذه العقول المتحجرة ، لم تزد على أن تلجأ إلى العنف لنصرة أصنامها ، ولم تجد لها مخرجاً من الموقف الجديد ، إلا أن تلقي بإبراهيم في نار ، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل ، وأنها الحل السعيد لمشكلتهم ، مع هذا الذي سفه عقولهم وحطم أصنامهم ، دون أن يفكروا مرة في مقابلة الحجة بالحجة ، ودون أن يرجعوا إلى الحق ، ما دام الحق مع إبراهيم ، وتلك - ويم الله - عادة من طمس الله على قلوبهم في كل زمان ومكان ، لا يعرفون إلا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة ، التي تبغي لهم الخير والفلاح .

---

(۱) سورة مريم : آية ٤١ - ٤٨

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الانبياء « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »[1] .

ويحاول بعض المؤرخين الإسلاميين أن يقدموا لنا قصصاً تدعو إلى العجب في هذه المواقف الجادة ، فيروون أن نمروداً أمر بجمع الحطب ، حتى أن المرأة العجوز كانت تحمل الحطب على ظهرها ، وتقول « اذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا» ، وحتى أن المرأة لتنذر إن بلغت ما تريد أن تحتطب لنار إبراهيم ، وأن أمه نظرت إليه في النار ، فطلبت أن تجيء إليه فيها ، على أن يدعو الله ألا يضرها شيء من حر النار ، ففعل ، وهكذا

(١) سورة الأنبياء : آية ٥١ ـ ٧٠ .

ذهبت إليه فاعتنقته وقبلته ثم عادت وقد اطمأنت على ولدها[1] ، ويتسابق البعض الآخر في رواية الأساطير ، فيذهب إلى أنها أنما كانت إبنة نمرود - وليست أم الخليل - وأن الخليل قد زوجها بعد ذلك من ولـده مدين ، فحملت منه عشرين بطناً ، أكرمهم الله بالنبوة[2] .

ولســت أدري كيف احتـاج نمـرود - وهـو في رأي هذا النفـر من المؤ رخين قد ملك الدنيا بأسرها - إلى أن تحمل المرأة العجوز ما لا تطيق ، وإلى أن ينتظر نذر النساء بجمع الحطب لناره ، وهل كان جمع الحطب يحتاج إلى فترة تمضي بين أن يتحقق للمرأة ما طلبت وبين أن توفي بنذرها حطبا للنار التي أعدها النمرود لإبراهيم ؟ . وأما قصـة أم ابـراهيم ، فأمرها عجب ، فكيف رأته في النار سليماً معافى ، ثم إعتنقته وقبلته ، ثم كيف سمح لها القوم بأن تذهب إليه ، أم أن أصحابنا المؤ رخين أرادوا لها أن تذهب خلسة - كما وضعته خلسة فيما يزعمون ؟ . وإن كان الأعجب من ذلك أن تكون هذه المرأة بنت النمرود ، وأن يزوجها إبراهيم من ولده مدين ، وأن تنجب له عشرين بطناً من الأنبياء ، وأخيراً ما الهدف من هذا القصص وأمثاله ، كقصة الميرة ، وقصة جيوش الذباب ، وقصة أفـراخ النور[3] .

وأما روايتهم بأن النمرود من الأنباط ، الـذين لم يستقلـوا بشـبر واحد من الأرض ، ومن ثم فإن النمرود كان عاملا للضحاك - وهو فارسي - على السواد وما اتصل به يمنة ويسرة[4] ، فليت الـذين كتبـوا كل هذا

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٤١ ، تفسير القرطبي ١٥/ ٩٨ إبن الأثير ١/ ٩٨ - ٩٩ ، إبن كثير ١/ ١٤٦
(٢) تاريخ الخميس ص ٩٣ - ٩٥
(٣) إبن الأثير ١/ ١١٥ - ١١٧ ، إبن كثير ١/ ١٤٩ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٨٨ - ٢٩٠ ، تاريخ الخميس ص ٩٥ - ٩٦ ، المقدسي ٣/ ٥٦ ، أخبار الرفان للمسعودي ص ١٠٤ - ١٠٩ ، تفسير مقاتل ١/ ١٢٣ - ١٢٤
(٤) تاريخ الطبري ١/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، إبن الأثير ١/ ١١٦ - ١١٧

يعرفون أن الأنباط لم يكونوا في العراق ، وإنما في شمال غرب الجزيرة العربية ، وأن عاصمتهم إنما كانت « البتراء » ، وأنهم أقاموا دولة مستقلة ، فيما بين القرن الثاني قبل الميلاد ، وأوائل الثاني الميلادي ، ثم استولى الرومان عليها في عام ١٠٦ م ، على أيام تراجان (٩٨ - ١١٧) م، ومن ثم فالفرق بين عهد الخليل ، عليه الصلاة والسلام - وبين عهد الأنباط ، جد كبير[١] .

وعوداً على بدء ، إلى الخليل وقومه ، حيث ترى أبا الأنبياء قد بدأ يفقد الأمل في إيمان القوم ، وبخاصة بعد المناظرة التي جرت بينه وبين الذي آتاه الله الملك[٢] ، فإن الله لا يهدي القوم الظالمين ، وهنا يقرر الخليل الهجرة ، « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين »[٣] ، ويعلن القرآن الكريم في وضوح - لا لبْس فيه ولا غموض - إيمان لوط عليه السلام ، « فآمن له لوط ، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم »[٤] ، ويبدو أن النبي الكريم قد تحمل بعض الأذى الذي تحمله أبو الأنبياء - عليه السلام - ومن ثم فقد ربط القرآن الكريم نجاة الواحد منهما بالآخر ، من عذاب هؤلاء القوم الظالمين ، يقول سبحانه وتعالى « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا ناركوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين »[٥] .

---

(١) راجع عن دولة الانباط ، كتابنا «بلاد العرب »

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨ وانظر : تفسير الطبري ٥/ ٤٢٩ - ٤٣٨ (دار المعارف بمصر) ، الكشاف ١/ ٣٠٤ - ٣٠٦ ، تفسير النسفي ١/ ١٣٠ - ١٣١ ، الدرر المنثور ١/ ٣٣٢ - ٣٣٣ ، تفسير القرطبي ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤ ، تفسير روح المعاني ٣/ ١٥ - ١٩

(٣) سورة الصافات : آية ٩٩

(٤) سورة العنكبوت : آية ٢٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٦٨ - ٧١

وبدهى أنه ليس في هذه الآيات الكريمة ما يشير إلى هجرة أبيه معه ، ولو كان أبوه آمن به وهاجر معه ، لكان ذلك حدثاً هاماً جديراً بالتنصيص عليه ، تكريماً له ولإبراهيم في نفس الوقت ، ولم يكن ابن أخيه لوط أقرب إليه من أبيه ، حتى ينال لوط وحده شرف الهجرة ومثوبة التوحيد [1] ، هذا فضلا عن أن الآيات الكريمة تشير إلى أن الهجرة إنما كانت « إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين [2] » ، وليست هذه الارض - بحال من الاحوال - حاران ، فإذا تذكرنا أن موطن الخليل كان في حاران ، لتبين لنا أن هجرة الخليل هذه إنما كانت من حاران إلى كنعان ، وبالتالي فلا صلة لها بأور .

ومن هنا فليست الهجرة لأسباب سياسية أو اقتصادية ، وإنما لأسباب دينية تتصل بدعوة التوحيد التي حمل لواءها جدنا الأكبر أبو الأنبياء إبراهيم الخليل - عليه السلام - بخاصة وأن حاران - وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٦٠ ميلا إلى الغرب من تل حلفا - كانت أثناء هذه الهجرة - حوالي عام ١٨٦٥ ق.م. - وطوال القرنين ١٩ ، ١٨ ق.م. مدينة مزدهرة ، وتقع على طريق التجارة القادمة إليها من الشرق والغرب ، أضف إلى ذلك أن الخليل كان يقيم المحاريب لله العلي القدير - كما سوف ترى - مما يدل على أن الأسباب الدينية لعبت أهم الأدوار في هجراته ، الأمر الذي يبدو واضحاً في آيات القرآن الكريم ، وكذا في بعض نصوص التوراة .

وأيا ما كان الأمر ، فان الرحلة قد بدأت من كنعان ، ولا تشير

---

(١) محمود عمارة : اليهود في الكتب المقدسة ص ٢١ ، ٢٣

(٢) أنظر عن تفسير الآية الكريمة : تفسير البيضاوي ٢/ ٧٦ - ٧٧ ، تفسير الجلالين ص ٧٧ (نسخة على هامش البيضاوي) .

التوراة من قريب أو بعيد إلى أماكن حط الخليل فيها ركبه ورحالهم أثناء هجرتهم هذه ، حتى وصلوا إلى شكيم ، وإن كان المؤ رخ اليهودي « يوسف بن متى » ، قد ذهب إلى أن ابراهيم كان « ملك دمشق » ، وأن « نقولا الدمشقي » يقول في الكتاب الرابع من تاريخه ، أن ابراميس (إبراهيم) حكم في دمشق ، وكان مغيرا قدم من أرض بابل من البلاد التي تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه طويل وقت حتى هجرها وقومه إلى كنعان ، وهو أمر لم يذكره القرآن من بعد ، ولا التوراة أو الإنجيل من بعد ، وإن ورد إسم « اليعاذر الدمشقي » في التوراة ـ وهو وكيل بيت إبراهيم ـ وإن أشار كذلك المؤ رخون الإسلاميون إلى رواية ابن عباس من أن الخليل قد ولد بغوطه دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون ، وقد صحح ذلك الحافظ بن عساكر ، فقال أنه ولد في بابل ، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه ، إذ جاء معيناً للوط عليه السلام[1] ، وكل ذلك يدل على أن هناك علاقة من نوع ما بين إبراهيم الخليل وبين دمشق ، وإن كانت وصلت إلينا من مصادر متأخرة .

وعلى أي حال ، فإن ابراهيم الخليل قد إختار ـ كما تشير التوراة ـ في ريادته الأولى لأرض كنعان ، الطريق الشاق والموحش ، إذ كان متجولا فوق التلال نحو الجنوب ، وهنا نجد حواف التلال المليئة بالأشجار ، تقدم ملجأ وملاذاً للغريب في الأرض الأجنبية بينما يقدم الخلاء الواسع المزعى الواسع لقطعانه ورعاته ، وعندما أراد الخليل أن يستقر في بادىء الأمر ، فضل ذلك أن يكون فوق هضبة ، ذلك لأنه ـ بأقواسه ومقاليعه ـ لم يكن في حالة تمكنه من أن يخاطر بالصدام مع الكنعانيين ، الذين كانوا ـ بسيوفهم وحرابهم ـ أكبر من ند له ، ولم يكن إبراهيم بعد مستعداً

---

(١) إبن كثير : قصص الأنبياء ١/ ١٦٨ ، البداية والنهاية ١/ ١٤٠

للمغامرة بعيداً عن الهضاب ، وأياما كان الأمر ، فقد نزل إبراهيم عند شكيم في مكان بلوطه مورة ، بين جبل عيبال وجرزيم ، وهناك بنى مذبحاً للرب ، وربما قد تحرش به الكنعانيون ، ولهذا نراه ينتقل إلى المنطقة الجبلية بين بيت إيل وعاي ، فيضرب خيامه هناك ، ويقيم مذبحاً للرب ، ثم يرتحل إرتحالاً متوالياً نحو الجنوب[1] .

ويقيم الخليل - ما شاء الله له أن يقيم - في أرض كنعان ، ثم يرحل عنها صوب أرض النيل الطيبة ، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان[2] ، ومصر كانت دائماً وأبداً ، للبدو والكنعانيين - وبخاصة في أوقات القحط - ملاذهم ، وغالباً منقذهم الوحيد ، فحينما كانت الأرض تجف في أوطانهم ، كانت أرض الكنانة الطيبة تقدم لهم المأوى والمرعى ، وكان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك[3] .

وتأبى التوراة أن تمر رحلة الخليل - عليه السلام - إلى أرض الكنانة بخير ، فتقول إن خليل الله قد هاجر بزوجته سارة إلى مصر ، بسبب قحط قد أصاب أرض كنعان ، وعندما أشرف على التخوم المصرية ، أتفق مع سارة على أن تقول أنها أخته ، وليست زوجته ، ذلك لأن المصريين إن علموا أنها زوجته قتلوه ، وأما إن كانت أخته فمن أجلها أكرموه ، وحدث ما توقعه ، وأبرت سارة بوعدها ، وأخذت إلى بيت فرعون ، ونال إبراهيم خيراً بسببها ، إذ أسبغ عليه فرعون وافر نعمته ، من غنم وبقر ، وحمير وإتن وجمال ، وعبيد وإماء ، إلا أن المصائب سرعان ما أخذت

(١) *M.F.Unger, op-cit, P.10.* وانظر : تكوين ١٢ : ٦ - ٩

(٢) تكوين ١٢ : ١٠

(٣) *W.Keller, op-cit, P.87*

تتوالى على فرعون وبيته ، مما اضطره أن يستدعي إبـراهيم ويؤ نبـه على فعلته هذه ، « لماذا لم تخبرني أنها أمرأتك ، لماذا قلت أنها أختي ، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي » ثم يصدر أمره بطرد إبراهيم وامرأتـه من مصر ، وإن سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه إياه من قبل[1] .

ويعلم الله ، وتشهد ملائكته ، أن نفسي تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التي يلصقها كاتب سفر التكوين بأبى الأنبياء ، فتلك فعلة لا يقبلها على نفسه ، ولا يرتضيها لعرضه أحط الناس ، فضلا عن أن يكون ذلك نبي الله وخليله العظيم ، ومع ذلك فإذا رجعنا إلى نصوص التوراة نفسها ، لعلمنا أن إبراهيم قد جاء إلى كنعان ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره ، وأن سارة كانت في الخامسة والستين[2] ، وأنهما أقاما في أرض كنعان ـ ما شاء الله لهما أن يقيما ـ ثم هاجر إلى مصر ، فهل كانت سارة ، وقـد جاوزت الخامسـة والستـين من عمرهـا بسنـين عدداً ، تفتن الرجال ، فضلا عن أن يكون فيها لملوك مصر المترفين إرباً ، ثم أليست هي نفسها قد وصفت في إصحاح قبل هذا الإصحاح من سفر التـكوين نفسـه ، بعـد أن بشرت بإسحـاق ، بأنهـا قد صكت وجههـا وضحكت وقالت : أيحدث هذا مع عجوز عقيم ، إنقطعت عنها عادة النساء ، وبعلها شيخ كبير[3] ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قولـه تعالى « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناهـا بإسحـاق ومـن وراء إسحـاق يعقوب، قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء

(١) تكوين ١٢ : ١٠ ـ ٢٠ ، وانظر قصة مشابهة لابراهيم مع سارة وملك جيرار في (تكوين ٢٠ : ١ ـ ١٨) غير أن سارة هنا قد جاوزت التسعين من عمرها

(٢) تكوين ١٢ : ٤ ، ١٧ : ١٧

(٣) تكوين ١٨ : ٩ ـ ١٥

عجيب[1] » ، أضف إلى ذلك أن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصباً ، ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أقسى العقوبات .

ومن عجب أن بعض المؤ رخين الإسلاميين قد تابعوا التوراة في مزاعمها ، فيروون القصة - كما جاءت في التوراة - وإن حاولوا صبغها بالصبغة الإسلامية ، فعندما يطلب إبراهيم من سارة أن تقول لفرعون أنها أخته ، إنما يفسرون ذلك لأنه ليس على وجه الأرض غيرهما مؤ من ، فهي إذن أخته في الإسلام ، ثم إن فرعون - وهو هنا سنان بن علوان - لم يستطع أن يقضي منها وطره[2] .

ولعل سائلاً يتساءل : هل عرفت مصر - حتى في أيام الهكسوس ، والذين يسميهم المؤ رخون المسلمون العماليق - ملكاً يحمل إسم « سنان بن علوان » - أو حتى « صاروف بن صاروف » سواء أكان أخو الضحاك أو كان غلاماً للنمرود - والجواب : أن التاريخ المصري كله لا يعرف هذه الأسماء ، ولست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤ رخون الإسلاميون ، على أن الأمر الذي يدعو إلى العجب حقاً ، ادعاء الرواة إن إبراهيم قال عن سارة أنها أخته ، لأنه لا يوجد على ظهر الارض غيرهما من المؤمنين ، والأعجب من ذلك أن تأتي الرواية من كبار المفسرين ، والقرآن الكريم لا يشير إلى ذلك ، وإنما هو يصرح - دونما لبس أو

---

(1) سورة هود : آية ٧١ - ٧٢

(2) أنظر : تاريخ الطبري ١/ ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ابن كثير ١/ ١٥٠ - ١٥٢ ، ابن الأثير ١/ ١٠٠ - ١٠١ ، المقدس ٣/ ٥٢ ، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٥ ، محمد احمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص ٥٣ - ٥٥ ، قارن : مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/ ١٣٦ - ١٣٩

غموض ـ أن الذي آمن بابراهيم ، إنما هو لوط ، يقول تعالى « فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم »[1] ويقول « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين »[2] ، بل إن هناك ما يشير إلى مؤمنين آخرين مع إبراهيم غير لوط ، يقول سبحانه وتعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده »[3] ، فماذا يقول هؤلاء الرواة في هذه الآيات الكريمة ، التي تتعارض ورواياتهم ، ولعل هذا هو الذي دعا الإمام إبن كثير إلى أن يرى أن إبراهيم إنما كان يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، لأن لوطا كان معهم وهو نبي عليه السلام[4] ، وكأن ابن كثير إنما يسلم بالقصة ، ولكنه يحاول أن يخفف من تعارضها مع القرآن الكريم بتفسيره هذا الذي يخالف إجماع رواة القصة التوراتية من المؤرخين المسلمين .

(٤) رحلة الخليل الى الحجاز

إنفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز ، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار ، وكأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٢٦

(٢) سورة الأنبياء : آية ٧١

(٣) سورة الممتحنة : آية ٤ وانظر : تفسير روح المعاني ٢٨/ ٦٩ ـ ٧٣ ، تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، تفسير الطبري ٢٨/ ٦٢ ـ ٦٣ ، تفسير الطبرسي ٢٨/ ٤٧ ـ ٤٩ ، تفسير الكشاف ٤/ ٩٠ ، تفسير القاسمي ١٦/ ٥٧٦٥ ـ ٥٧٦٦ ، تفسير ابن كثير ٨/ ١١٣ ، تفسير القرطبي ص ٦٥٣٥ (دار الشعب ١٩٧٠)

(٤) إبن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٥٢ (طبعة ١٩٦٦)

خوارق الفلك ، وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها ، وغير قابلة الوقوع . . . وواضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين ، وإنكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحجة حيث تكون ، فضلا عن الإجتهاد في طلب الحقيقة ، قبل أن يوجههم إليها المخالفون والمختلفون ، أما الواقع الغريب حقاً ، فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور ، ووقوفه دون الجنوب ، لغير سبب بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب ، ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ويستطرد الأستاذ العقاد[1] ـ طيب الله ثراه ـ مبيناً الأسباب التي تدعو الخليل إلى الاتجاه نحو الجنوب ـ نحو الحجاز ـ ذلك لأنه لم يكن صاحب وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى ، فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد هناك مدفناً لزوجه فاشتراه من عفرون الحثي[2] ، أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار « إيل عليون »وكان إبراهيم يقدم العشر أحياناً لأولئك الأحبار[3] ، ومن المعروف أن من كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى ، فلا بد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيداً عن المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان إبراهيم يعمل في أكثر أيامه ـ كما تواترت أبناؤه في سفر التكوين ـ فلا يزال متجهاً نحو الجنوب .

وهناك أسباب دينية غير الأسباب الدنيوية توحي إليه أن يجرب المسير الى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبني لعبادة الله هيكلا ، غير الهياكل التي كان يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين ، فقد بدا له أن

---

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٩١ ـ ١٩٣

(٢) تكوين ٢٣ : ٤ ـ ٢٠ ، وانظر مقالنا « قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة »

(٣) تكوين ١٤ : ١٨ ـ ٢٠

إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء ، هذا إلى جانب أن الأهمية الدينية لبيت المقدس جاءت متأخرة بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، حتى أستولى داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م.) على المدينة المقدسة في العام الثامن من حكمه ، ثم إتخذها عاصمة له[١] ، ثم جاء من بعده ولده سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م.) ، فأقام فيها هيكله المشهور[٢] ، وبقي أمرها كذلك حتى عهد « يوآش » (٨٠١ - ٧٨٦ ق.م.) ملك إسرائيل ، الذي حارب « أمصيا » (٨٠٠ - ٧٨٣ ق.م.) ملك يهوذا ، وهدم أسوار أورشليم من باب أفرايم[٣]

أما الجنوب المسكوت عنه ، فقد كان له شأن من القداسة الى أيام « أرمياء » وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهي تقابل كلمة « يمن » في اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الإشارة إلى الجنوب ، ففي سفر حبقوق « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران »[٤] ، وأوضح من ذلك قول إرمياء متسائلا « ألا حكمة بعد في تيمان ، هل بادت المشورة من الفهماء»[٥] ، وأيسر ما يستوجب طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هذا الجنوب موصداً أمام إبراهيم ، وكيف يطوف الأقطار جميعاً ولا ينفتح له الباب

---

(١) انظر كتابنا اسرائيل ص ٤٥٥ - ٤٦٤

(٢) انظر كتابنا اسرائيل ص ٤٦٤ - ٤٧١

(٣) ملوك ثان ١٣ : ١٣ - ١٤

(٤) حبقوق ٣ : ٣

(٥) إرمياء ٤٩ : ٧

الذي لا موصد عليه ؟ إن كان أحد الطرفين مفتوحاً أمامـه ، فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز .

ورغم ذلك كله ، يأتي المستشرق الإنجليزي « سير وليم موير » ، وينفي القصة من أساسها في كتابه « حياة محمد »[1] ويذهب ـ فيما يروي عنه الدكتور هيكل [2] ـ أنهـا بعض الإسرائيليات ابتدعهـا اليهـود قبـل الإسلام بأجيال ، ليربطوا بها بينهم وبين العـرب ، بالإشتـراك في أبـوة ابراهيم لهم جميعـاً ، فلئـن كان إسحـاق أبـا لليهـود ، وإذا كان أخـوه إسماعيل أبا للعرب ، فهم إذن أبناء عمومة توجب على العـرب حسـن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسر لتجارة اليهود في شبه الجـزيرة العربية .

ويستند المؤرخ الانجليزي في ذلك إلى أن أوضاع العبادة في بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم ، لأنها وثنية مغرقة في الوثنية ، وكان إبراهيم حنيفاً مسلماً ، غير أن وثنية العرب ـ فيما يرى الدكتور هيكل ـ بعد موت إبراهيم وأسماعيل بقرون كثيرة لا تدل أنهم كانوا كذلك ، حين جاء إبراهيم إلى الحجاز ، حين اشترك مع إسماعيل في بناء الكعبة ، ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيدّ ذلك رأي « موير » ، فقد كان قوم ابراهيم يعبدون الأصنام ، وحاول هو هدايتهم فلم ينجح ، فإذا دعا العرب الى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح وبقي العرب على عبادة الأوثان ، لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة ، بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ ، فابراهيم الذي خرج من العـراق فاراً من أهلـه إلى فلسطـين ومصر ، رجل ألف الإرتحال وألف إجتياز الصحارى ، والطريق ما بين

---

(1) *Sir William Muir, The Life of Mohammad, Edinburgh, 1923*

(2) محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٩٠ ـ ٩١ (طبعة ١٩٦٥)

فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور ، فلا محل إذن للريبة في واقعة تاريخية إنعقد الإجماع على جملتها[1] .

هذا فضلا عن أنه إن كانت وثنية العرب هي دليل « وليم موير » على عدم إنتسابهم إلى ابراهيم ، فإن الاسرائيليين لم يكونوا خيراً منهم في ذلك ، فقد بقيت عبادة الأوثان فيهم، بعد دعوة إبراهيم، وحتى ظهور الأنبياء من بعده ، حدث ذلك أثناء عهد يعقوب[2] - أو إسرائيل كما يكنى - وفي أثناء إقامتهم بمصر[3] ، وفي أثناء الخروج بقيادة موسى ، وفي التيه في صحراوات سيناء[4] ، بل إن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك ، على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء ، لم يكونوا كفؤا لعبء حمل التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة ، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الإعتبارات المادية ، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة ، أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية ، فإنهم أسفوا على ما تعـوده من المراسيم الدينية في مصر ، وودوا لو أنهم يعودون إليهـا ، أو يعبدونهـا ممسوخـة منسوخة في الصحراء[5] ، وأبلغ دليل على ذلك قصة عبادة العجل التي وردت في القرآن الكريم[6] - وكذا في التوراة[7] - إذ عبد القـوم عجـل الذهب ، وموسى ما يزال بين ظهرانيهم يتلقى الوحي من ربه على جبال سيناء .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ (طبعة ١٩٧١)
(٢) تكوين ٣٥ : ٢ ، ٤
(٣) لاويون ١٧ : ٧ ، يشوع ٢٤ : ١٤ ، حزقيال ٢٠ : ٧ - ٨ ، إرمياء ٤٤ : ٨ - ١٩
(٤) خروج ٢٢ : ٢٧ - ٢٨ ، ٩ : ١٥ ، ٢٠ : ٧ - ٢٦ ، تثنية ٩ : ٧
(٥) مطلع النور ص ١٠٧
(٦) سورة البقرة آية ٩٢ ، الاعراف : آية ١٤٢ - ١٥٢ ، طه : آية ٨٣ - ٩٨
(٧) خروج ٢٢ : ٧ - ٢٨

وليس من شك في أن هذا كان من نتيجة تأثير الديانة المصرية عليهم ، تلك الديانة التي تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر ، لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى ، إما خوفاً من فرعون ، وإما خوفاً من شيوخ بني إسرائيل ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم « فما آمن لموسى ، إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئيهم أن يفتنهم »[1] ، باعتبار الضمير في «ملئيهم» راجعاً إلى قوم موسى ، بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به ، وقالوا « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا »[2] .

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوبهم ، حتى بعد إنغلاق البحر لهم ، وحتى بعد أن جاوزوه على يبس[3] ، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى ، وحتى بعد أن إستسقوا موسى ، فضرب الحجر بعصاه فانبجست منه إثنتا عشرة عيناً لكل سبط من الأسباط مشربهم[4] ، حتى بعد أن نزلت عليهم شريعة السماء تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله ، حتى بعد هذا كله ، فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم ، وكفروا بالله الواحد الأحد ، « وصنعوا لهم عجلا مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر »[5] .

ولم تكن أيام يشوع ، بأفضل من أيام موسى ، بالنسبة للوثنية الاسرائيلية[6] ، هذا فضلا عن أن السمة المميزة لعصر القضاة ، إنما

---

(١) سورة يونس : آية ٨٣
(٢) الاعراف : آية ١٢٩
(٣) سورة البقرة : آية ٥٠ ، يونس : آية ٩١-٩٢ ، طه : آية ٧٧ ، الشعراء : آية ٦١-٦٨
(٤) سورة البقرة : آية ٦٠ - ٦١ ، الاعراف : آية ١٦٠ وطه : آية ٨٠-٨١
(٥) خروج ٣٢ : ٨
(٦) يشوع ٢٤ : ١٤ ، ٢٣

كانت هي الردة وعبادة الأوثان[1] ، كما بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين ، حتى إذا ما حدث الانقسام إلى مملكتين ، تبنى ملوك إسرائيل ديانات الشرك ، بالإضافة إلى دين يهوه وأقاموا عجولا من الذهب وضعوها في مبان كالمعابد[2] ، كما فعل يربعام الأول (٩٢٢ ـ ٩٠١ ق.م.) في مدينتي دان وبيت إيل[3] ، وكما فعل « أخاب » (٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق.م.) حين أقام الهياكل للبعل[4] ، وتروي التوراة ان « حزقيا » (٧١٥ ـ ٦٨٧ ق.م.) ملك يهوذا ، قد « أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوراي ، وسحق حية النحاس التي حملها موسى ، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها »[5] .

وهكذا بقي بنو إسرائيل ـ كالعرب تماماً ـ يعبدون الأصنام إلى ما بعد إبراهيم بمئات السنين ، ومن هنا فإن عبادة الأوثان لا تدل على إنتماء العرب أو اليهود إلى ابراهيم ، أو عدم إنتمائهم ، ثم أليس إبراهيم يرجع في أصوله الأولى إلى جزيرة العرب وأن أسلافه قدموا إلى منطقة الهلال الخصيب كغيرهم من الكتل البشرية السامية ، التي قذفت بها صحراء

---

(١) قضاة ٢ : ٨ ـ ٢٣ ، ٣ : ٥ ـ ٩ ، ٢ : ١٩ ، ٤ : ١ ، ٦ : ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٨ : ٢٤ ـ ٢٧ ، ٨ : ٣٣ ، ١٠ : ٦ ، ١٠ ، ١٣ ـ ١٦ ، ١٣ : ١ ، ١٧ : ٤ ـ ١٣ ، ١٨ : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٠ ، صموئيل ٣ ، ٤

(٢) عن الوثنية الاسرائيلية في عصر الملكية ، أنظر التوراة : صموئيل أول (١٥ : ٢٣) (٢٩ : ١٣) ملوك أول ١١ : ٤ ـ ٨ ، ٣٣) (١٤ : ٢٣ ، ٣٢)(١٥ : ٣ ، ١٢) ملوك ثان (٨ : ٣٦) (٢١ : ١١ ـ ١٢) (٢٣ : ١٠) (٢٤ : ١٨ ـ ٢١) (١٤ : ٤) (٢٥ : ١٤ ـ ١٦ ، ٢٠) (١٦ : ٣ ـ ٤) (٢٨ : ٢ ـ ٤ ، ٦) (٢٣ : ٢٥) (٢ : ٢ ـ ١٦) (٢١ : ٢١) (٢٢ : ٧) (٢٣ : ٤ ـ ٢٦ ، ٣٧) (٢٤ : ٢ ـ ٣) أخبار ثان (٣٣ : ٢ ـ ١١) (٣٤ : ٣ ـ ٧) (٢٦ : ١٢ ـ ١٧) حزقيال (١٤ : ٢٢ ـ ٢٣)

(٣) ملوك أول ١٢ : ٢٦ ـ ٣٦

(٤) ملوك أول ١٦ : ٣١ ـ ٣٣

(٥) ملوك ثان ١٨ : ٤

العرب إلى تلك المنطقة الخصيبة ، فما المانع إذن أن يكون إبراهيم قد فكر ، لا نقول في العودة إلى موطن الأجداد ، بل في زيارته فحسب ، وهو الرجل الذي قضى حياته وهو يعيش حياة أشبه بحياة البدو وأبناء الصحراء العربية .

ثم هناك البينة الكبرى التي تأتي من مباحث اللغة ، وهي التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين ، الذين ينتمون إلى « نبات بن إسماعيل بن ابراهيم ، ذلك لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة اليمنية مباشرة ، وإنما جاء التطور من العربية القديمة[1] إلى الأشورية إلى الارامية إلى النبطية إلى القرشية ، فتقارب لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الزمان والمكان ، أو في درجات التطور ، ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال ، وكانت هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء إسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من إختراع النسابين أو فقهاء الإسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة والثقافة ، واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة[2] ، ومما يدعو إلى

(١) راجع عن الصلات اللغوية بين العرب ومصر ، ومدى أثر الهيروغليفية المصرية في الكتابة السامية الجنوبية (مقالنا : العرب وعلاقاتهم الدولية ، وكذا *H.Jensen, Sign, Symbol and Script, an Account of Man's Efforts to* Write P. 350 وكذا *I.Leibovitch, les Inscriptions* Protosimaitiques, *MIE, 24, 1934, P.21FF* وكذا *M.Sprengling, The Alphabet, its Rise and Development from The* Sinali Inscrip*tions, P. 64*

وكذا : عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ص ١١٨ - ١٢٢

(٢) يتجه العلماء إلى أن الأنباط عرب ، بل وأقرب في عروبتهم إلى قريش وعرب الحجاز من عرب الجنوب ، لأن أسماءهم عربية ، ولأن أسماء ملوكهم وملكاتهم عربية كذلك ، ولأنهم يعبدون آلهة عربية ، ولأن لغتهم لم تكن أرامية وانما عربية ، وان استعملوا الأرامية في نقوشهم ، ولأن الكتاب الكلاسيكيين - وكذا اليهود - إنما كانوا يطلقون عليهم لفظ العرب (أنظر : كتابنا « بلاد العرب » ، بلاشير : تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي ص ٥٥ - ٥٦ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٨١ : وكذا CIS, PP. 242, 260 وكذا *Jaussen and Savignac, Mission Archeologique en Arabie,* PP. 172-6

احترام روايات النسابين في هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير ، فقال ابن عباس « نحن معاشر قريش من النبط »[1] .

هذا وقد أشار « مارتن شبرنجلنج » في العصر الحديث إلى ظاهرة إنتقال الكتابة النبطية إلى الحجاز ، والى تطور الخط العربي عن الخط النبطي[2] ، كما ذهب « سوزمين » إلى أن اليهود إنما كانوا ينظرون إلى العرب الذين يقطنون إلى الشرق من الحد العربي ، على أنهم من نسل إسماعيل بن ابراهيم .

ويضيف الدكتور « إسرائيل ولفنسون » إلى ذلك حججا ، منها أنه إذا وجد الميل عند بعض المستشرقين إلى إنكار وجود الآباء الأقدمين من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا وجود قبائل بني إسرائيل وبني إسماعيل ، لأن التوراة نصت على وجودها في طور سيناء والحجاز ، بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون إسماعيلية وأدومية وإسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سيناء والحجاز ، ثم يؤ يد ذلك بترجمة جديدة لنص سفر التكوين (٢٥ : ١٨) ، « ونزلت (بطون بني إسماعيل) مع نشأتها بين أخواتها ، واستوطنت البلاد من الحوله إلى

---

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٣٧ ، سفر التكوين ٢٥ : ١٣ ، اللسان ٧/ ٤١١ ، عبد الرحمن الانصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص ٨٩ ، مقالنا عن « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، ١٩٧٦ م ص ٣١٣ - ٣١٦ ، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١١٤ ، وانظر :

Martin Sprengling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, 1931, P.52

(٢) *Martin Sprengling, op-cit, P.52*

طريق القوافل بين مصر والعراق »[1] .

ومنها ما جاء في ترجمة التوراة السامرية[2] التي صدرت في ١٨٥١ م ، من أن إسماعيل قد « سكن برية فاران بالحجاز ، وأخذت له أمه إمرأة من أرض مصر » ، وأن سفر العدد يفرق بين سيناء وفاران ، إذ جاء فيه أن بني إسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة في برية فاران » ، ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء ، فيقال أن جبل فاران واقع إلى غربها ، وإنما تدل الشواهد القديمة جميعاً على وجود فاران في مكة ، أو هي أرض التلال التي بين مكة والمدينة ، ويذهب المؤ رخ جيروم واللاهوتي يوسبيوس إلى أن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيله[3] .

ومنها ما يراه علماء الإفرنج من أن علاقة بطون اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطور سيناء ، أقرب منها إلى قبائل بني إسرائيل الشمالية ، ومنها أن اليهود لو كانوا يريدون إستغلال هذه القرابة للتزلف إلى قريش أو العدنانيين ، لكان الأليق والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتاخمونهم ويشاركونهم في المواطن والمرافق ، ويرتبطون معهم برباط المعاملة والجوار ، ومنها أن التوراة قد ترجمت إلى اليونانية في عهد بطليموس الثاني (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق.م.) ، وفي صلبها كل النصوص التي تربط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود ، وذلك قبل رحيل يهود يثرب إلى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون[4] .

وهكذا فإن القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٥ ـ ٧٦

(٢) راجع الفرق بين التوراة السامرية والعبرية في كتابنا إسرائيل ص ٢٠

(٣) عباس العقاد : مطلع النور ص ١٤ ـ ١٦

(٤) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٧٦ ـ ٧٨

عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفـع الغرابـة عن رحلـة إبـراهيم إلى الحجاز ، وإنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية ، وقد جاء الإسلام مثبتا رحلة ابراهيم إلى الحجاز ، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن إنتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سَبق فيه التاريخ كل إختراع مفروض ، ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الإختراع فيه ، لأنكرت إسرائيل إنتساب العـرب إلى ابـراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الإختراع[1] .

ومع ذلك ، فهناك إتجاه آخر ، إنمـا ينسـب انتسـاب العـرب إلى ابراهيم ، لا إلى اليهود ، وإنما إلى رسول الله ﷺ فقد جاء في دائـرة المعـارف الاسـلامية ـ نقـلا عن فنسنـك ـ أن «شبـر نجـر» كـان أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم ـ كما في القرآن الـكريم ـ قد مرت بأطوارقبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة ، ثم جاء « هرجروني » وزعم أن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل[2] ، ولم يذكر لإسماعيل صلة به ، كما لم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت ، ولا أنه أول المسلمين ، أمـا السـور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك ، فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً ، وهو واضع ملة إبراهيم ، وقد رفع مع إسماعيل قواعد البيت المحرم (الكعبة) .

وأما سر هذا ـ في زعم هؤلاء المستشرقين ـ فهو أن محمداً ـ صلوات

---

(١) عباس العقاد : ابراهيم أبو الانبياء ص ١٩٦ ، مع ملاحظة أننا لا نوافق على أن هاجر جارية انظر كتابنا اسرائيل ص ٢١٠ ـ ٢١٣

(٢) يشير « هرجوني » هنا إلى الآيات الكريمة (الذاريات : آية ٢٤ ـ ٣٧ ، الحجر : آية ٥١ ـ ٥٩ ، سورة الصافات : آية ٨٣ ـ ١١٣ ، سورة الأنعام : آية ٧٤ ـ ٨٣ ، سورة هود : آية ٦٩ ـ ٧٦ سورة مريم : آية ٤١ ـ ٥٠ ، سورة الأنبياء : آية ٥١ ـ ٧٣ ، سورة العنكبوت : آية ١٦ ـ ٢٧) وهي آيات مكية تحدثت عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

الله وسلامه عليه ـ كان قد اعتمد على اليهود في مكة ، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ، فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصراً ، هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم ، وبذا إستطاع أن يخلص من يهودية عصره ، ليصل حبله بيهودية إبراهيم التي كانت ممهدة للإسلام ، ولما أخذت مكة تشغل جلّ تفكير الرسول ، أصبح ابـراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس ، رغم أنه لا يوجد أي دليل تاريخي على أن ابراهيم وإسماعيل كانا أبداً بمكة[1] .

هذه هي وجهة النظر الكذوب التي يقدمها المستشرقون من أعداء الإسلام ، وكان من الممكن أن نكتفي بما سبق أن ذكرنا من قبل ، إذ نسب الفكرة آخرون إلى اليهود ، وليس إلى رسول الله ، غير أننا سوف نقدم أدلة جديدة ضد هذا الإتجاه ؛ منها (أولا) أن القرآن الكريم لم يقل أبداً أن اليهود كانوا من مؤ يدي الإسلام ، بل إنه لينص صراحة أنهم أشـد أعدائه ، يقول سبحانه وتعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنـوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »[2] .

ومنها (ثانيا) روايات التوراة التي نصت على أن إسماعيل وإسحاق أخوان من أب واحد ، وإن اختلفت الأمهات ، فاسماعيل من هاجر ،

---

(١) *T.Andrae, Mahomet, Sa Vie et Sa Doctrine, Paris, 1945, P.P.137-9, Père Lammens, L'Islam, Croyance et Institutions, 1926, P.P. 28,33, Alfred Guillaume, Islam, P.P.61-2*

وأنظر : ج. ديمومبين : النظم الاسلامية ، ترجمة الشماع والسامر ، بغداد ١٩٥٢ ص ٦٦ - ٦٨ ، وكذا طه حسين : في الأدب الجاهلي ص ٢٦ ، ٢٩ ، مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، دائرة المعارف الاسلامية ١/ ١٤٦

(٢) سورة المائدة : آية ٨٢ وانظر : تفسير الطبرسي ٦/ ١٧١ ـ ١٧٦ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٠٢ ، تفسير الكشاف ١/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩ ، تفسير الطبـري ١٠/ ٤٩٨ ـ ٥٠٦ ، تفسير النسفي ٢/ ٣ ـ ٤ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢٣ ، في ظلال القرآن ٧/ ٩٥٩ ـ ٩٦٦

وإسحاق من سارة[1] ، ثم هناك رواية سفر التكوين ـ الآنفة الذكر ـ التي تجعل أبناء إسماعيل إنما يسكنون بين مصر والعراق ، « سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر »[2] ، وحويله هي خولان ، وخولان قبيلة يمنية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز ، مما يدل على أن مكة تشملها مساكن إسماعيل وبنيه ـ كما أشرنا من قبل ـ ومنها (ثالثاً) أن الإسلام لم يعتز قط بالإنتساب إلى يهودية إبراهيم ، بل إنه لينفي عنه اليهودية أصلا ، « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً »[3] .

ومنها (رابعاً) ، ففيما يختص بالكعبة ، فقد ثبت بنص القرآن الكريم ـ وكذا التوراة ـ أن إبراهيم قد أوصل ابنه إسماعيل إلى مكة ، وإذا كان من المتعين أن يقيم له فيها بنية يجعلها متعبداً على مثال الصوامع ، ولم ينازع أحد إلى اليوم إبراهيم في أنه باني ذلك المصلى ، حتى يصح أن يقال ، أن محمداً ﴿ﷺ﴾ نسبه إليه تعظيماً لشأنه ، ولم تختص الكعبة وحدها بأنها بيت الله ، فكل المساجد بيوت الله عند المسلمين ، وإنما عظمت الكعبة لأنها أول بيت لله وضع للناس ببكة ، ومما يدل على أن النبي ﴿ﷺ﴾ لم يتخذ بناء الكعبة أساساً من أسس دعوته أنه أمر أصحابه أن يولوا وجوههم في صلاتهم شطر بيت المقدس طوال مقامه بمكة[4] ، ثم ألم يؤمن أصحاب هذا الاتجاه ـ مسيحيون كانوا أم يهوداً ـ بما جاء في التوراة من أن إبراهيم قد أقام مذابح للرب عند شكيم

---

(١) تكوين ١٦ : ١٥ ـ ١٦ ، ٢١ : ٢١

(٢) تكوين ٢٥ : ١٨

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٧ وانظر : تفسير الكشاف / ٣٧٠ ـ ٣٧١ ، تفسير مجمع البيان ٣/ ١٠٩ ـ ١١١ ،تفسير العلى القدير ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٤ ـ ٥٥ ، في ظلال القرآن ٣/ ٤٠٧ ـ ٤١٢ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/ ٤١ ، تفسير القرطبي ٤/ ١٠٩ ، تفسير الطبري ٦/ ٤٩٣ ـ ٤٩٦ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧ .

وبيت إيل ، وعند بلوطات ممر التي في حبرون وغيرها[1] ، فاذا كانوا يؤمنون بذلك ، فلم ينكرون بناء إبراهيم للكعبة .

ومنها (خامساً) أن الاتجاه الذي يذهب إلى أن محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ظل بعيداً عن صلة العرب بابراهيم واسماعيل إلى أن هاجر إلى المدينة ، فبدت له فكرة أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إبراهيم وإسماعيل ، إنما هو اتجاه يهدم التوراة ، قبل أن يثير أي شكوك حول القرآن الكريم ، لأن التوراة ذكرت صلة ابراهيم بإسماعيل ، وأنه جدّ عدة قبائل في بلاد العرب[2] .

ومنها (سادساً) أن « فنسنك » حين عدّ السور المكية عمد إلى التي يُذكر فيها إبراهيم مجرداً عن الصلة باسماعيل والعرب ، ولذا فهو قد تخطى سورة أبراهيم ـ وهي مكية ـ وقد شهدت بعكس ما يقول ، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت ، وأنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية وأن يجنبهما وبنّيهما عبادة الأصنام ، وابراهيم يذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات ، ويحمد الله أن وهب له إسماعيل وإسحاق ، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة ، «وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه منى ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذى

---

(١) تكوين ١٢ : ٧ ـ ٨ ، ١٣ : ١٨

(٢) تكوين ٢٥ : ١٢ ـ ١٨ .

وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا إغفر لي ولوالدي وللمؤ منين يوم يقوم الحساب »[1] .

ومنها (سابعاً) أن القول بأن القرآن الكريم لم يذكر إلا في السور المدنية أن إبراهيم كان حنيفاً ، فذلك ـ مرة أخرى ـ غير صحيح ، ذلك لأن القرآن الكريم ، إنما ذكر ذلك في سورتي الأنعام والنحل ـ وهما مكيتان ـ ولنقرأ هذه الآيات الكريمة ، « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »[2] و« قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[3] و« إن إبراهيم كان أمةقانتاً للـهحنيفا ولم يك من المشركين »[4] ، « ثم أوحينا إليك أن إتبع مله ابراهيم حنيفاولم كان من المشركين»[5] ، وهكذا يتخطى فنسئك ـ كما يقول الأستاذ النجار ـ هذه الآيات عمداً ، غاضا النظر عما تقضي به الأمانة في سبيل تأييد نظريته[6] .

ومنها (ثامناً) تلك الدعوة التي تذهب إلى أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ جاء إلى المدينة ، وكله أمل أن يؤمن اليهود به ويظاهروه على أمره ، فلما أخلفوا ما أمله وكذبوه ، أراد أن يتصل بهم عن طريق إبراهيم ، وعبّر عن ذلك بيهودية إبراهيم ، فذلك غير صحيح كذلك ، ذلك لأن النبي ﴿ﷺ﴾ لم يكن يعتز باليهود أبداً ، وإنما كان يتوقع أن

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٥ ـ ٤١
(٢) سورة الإنعام : آية ٧٩
(٣) سورة الإنعام : آية ١٦١
(٤) سورة النحل : آية ١٢٠
(٥) سورة النحل : آية ١٢٣
(٦) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ٧٥

يؤ منوا به لأنهم أهل توحيد - في الأصل - يجانبون الاصنام ، ويعادون أهلها ، ولأن النبي مذكور في توراتهم ، ذلك لأن بني إسرائيل كانوا قد وعدوا في توراتهم - كما جاء في سفري التثنية وأشعياء[1] - بنبي يقوم من بين إخوتهم - وهم العرب الاسماعيلية ، فلما مجدوا ذلك كله كانوا عنده بمثابة غيرهم فقط .

ومنها (تاسعاً) أننا لا نعرف شعباً آخر له ما للعرب من شغف بالأنساب ، حيث يحرصون على الاحتفاظ في ذاكرتهم بسلسلة أجدادهم ، حتى يصلوا بها إلى الجيل العشرين[2] ، فهل من المحتمل أن يبقى هذا الشعب في جهالة تامة بأصله حتى آخر لحظة[3] ، ومنها (عاشراً) أن وجود الكعبة بينهم- وفيها بعض الأماكن المعروفة تحمل إسم ابراهيم واسماعيل - ألا يذكرهم ذلك كله بعلاقتهم بهذه الأسماء المجيدة[4] ، ومنها (حادي عشر) سكوت كفار قريش - وهم أعلم الناس بأنسابهم - عن قوله تعالى « ملة أبيكم إبراهيم »[5] ، فلو لم يكن العرب يعلمون قبل محمد أنهم من سلالة إبراهيم - عن طريق ولده إسماعيل - لما سكتوا لمحمد ، وفيهم أشد أعدائه ، وأكثر الناس حرصاً على تكذيب دعواه .

ومنها (ثاني عشر) ذكر « زيد بن عمرو بن نفيل » - وهو قبل

---

(١) سفر التثنية ١٨ : ١٥ - ١٩ ، سفر أشعياء ٤٢ : ١٠ - ١٣

(٢) ما زلنا نحتفظ بهذه العادة في قرانا بصعيد مصر ، حيث يعلم الآباء الأبناء سلسلة نسبهم حتى الجد الأعلى الذي يتشرفون بالإنتساب إليه

(٣) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٩١ ، محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٥٧ .

(٤) نفس المرجع السابق من ١٥٧

(٥) سورة الحج : آية ٧٨

المصطفى - لإبراهيم الخليل ، حيث يقول : « يا معشر قريش : والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيري »[1] ، وزيد هذا - كما هو معروف - من الحنفاء ، والذين كانوا على ملة إبراهيم ، ولم يكونوا يهودا ولا نصارى[2] ، وأن مجموعة من هؤلاء الحنفاء أو المتحنفين - ومنهم زيد بن عمرو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش - قد حضروا قريشاً عند وثن لهم ، فلما اجتمعوا خلا أولئك النفر إلى بعض ، فقال قائلهم : «تعلمون والله ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين أبيهم إبراهيم »[3] .

ومنها (ثالث عشر) ذكر ابراهيم الخليل في شعر عبد المطلب - جدّ النبي ﴿ﷺ﴾ إبان غزو الحبشة للكعبة ، - والمعروفة بغزوة الفيل[4] -

(١) إبن كثير ٢/ ٢٣٧ - ٢٤١ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ١/ ٥٤ ، الإشتقاق ص ٨٤ ، ١٠٣ ، جواد علي ٦/ ٤٧٢ - ٤٧٣

(٢) انظر عن الحنفاء : تفسير القرطبي ٢/ ١٣٩ - ١٤٠ ، تفسير المنار ١/ ٤٨٠ - ٤٨٢ ، تفسير الطبري ٣/ ١٠٤ - ١٠٨ ، مجمع البيان ١/ ٢١٥ وما بعدها ، التفسير الكبير للفخر الرازي ٤/ ٨٩ وما بعدها ، جواد علي ٦/ ٤٥٢ - ٤٥٣ ، مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣١ - ١٣٢ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص٦٨ وكذا *J.Halevy, JA, 1905, P.144* وكذا *C.Lyall, Thhe Word Hanif and Muslim, JRAS, 1903, P.773* وكذا *EI, II,P.259*

(٣) ابن كثير ٢/ ٢٣٨ ، مطلع النور ص ٦٨ ، جواد علي ٦/ ٤٧٦

(٤) أنظر عن غزوة الفيل : ابن الاثير ١/ ٤٤٢ - ٤٤٧ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠ - ١٣٩ ، تفسير الطبري ٢٠/ ١٨٨ ، ٣٠/ ١٩٣ - ١٩٤ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧ - ٧٢٩٠ (طبعة الشعب) ، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٣ - ٥١١ (طبعة الشعب) ، في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٤ - ٦٧٥ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٣٢ - ٢٣٧ ، البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٥٦ - ٥٧ ، صحيح الأخبار ٤/ ٢١ - ٢٢ ، البداية والنهاية ٢/ ١٧٠ - ١٧٦ ، تاريخ الخميس ص ٢١٢ - ٢١٧ نهاية الارب ١/ ٢٥١ - ٢٦٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٧٦ ، الكشاف ٣/ ٢٨٨ ، أعلام النبوة ص ١٤٩ ، احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٥٥ ، وكذا *S.Smith, Events in Arabia in the 6th Century A.D., P.435* وكذا *le Museon, 1953, 3-4, PP.277-79* وكذا *le Museon, 1964, 66, P.275* وكذا *Procopius, I,P.180*

حيث يقول (نحن أهل الله في بلدته : لم يزل ذاك عهد إبْرَهَـمْ)[1] ثم تلقيب عبد المطلب بعد فشل الحملة الغشوم بلقب « ابراهيم الثاني » ، نسبة إلى جده الأعظم إبراهيم الخليل ، عليه السلام[2] .

ومنهـا (رابـع عشر) صورة ابـراهيم الخليل التـي وجـدت على جدران الكعبة فيما قبل الإسـلام ، حيث صوره القـوم في يده الأزلام ، ويقابلها صورة إبنه على فرس يجيز الناس مقبضاً ، ثم مجموعة صور لكثير من أولادهما ، حتـى قصى بن كلاب[3] . وأخـيراً (خـامس عشر) فإن العرب كانوا ـ قبل أن يبعث محمد رسولا من رب العالمين ـ إنما يعتقدون أنهم من ولد إبراهيم وها هو أبو طالب عم النبي ﴿ﷺ﴾ يقول في خطبة له يوم زواج المصطفى ﴿ﷺ﴾ من خديجة : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبـراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبنيانـاً محَجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس » .

ثم (سادس عشر) ما عرف عند العرب القرشيين في الجاهلية بنظام (الحُمس) والذي كان شعاره « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقاطنوا مكة وساكنوها ، ليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا تعرف له العرب ما تعرف لنا » ، فضلا عن أن عبد المطلب يقول لرسول أبرهة حين جاء يعلمه ان القائد الحبشي لم يأت لحربهم وانما لهدم البيت ، يقول له « هذا بيت الله الحرام ، وبيت ابراهيم خليله »[4] .

(١) الازرقي ١/١٤٦ .

(٢) أنظر مقالنا : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية العدد السادس .

(٣) المسعودي ٢/ ٢٧٢ ، الازرقي ٢/ ١٦٨ ـ ١٧٠ .

(٤) تفسير الطبري ذ/ ١٨٨ ، محمد الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية ١/ ٥٦ ـ ٥٧ ، ابن هشام ١/ ٢٠١ ، وانظر مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد السادس ـ الرياض ١٩٧٦ ص ٤٠٨ الازرقي ١/ ٤٣ ، ١٧٦ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٣ .

وأخيراً منها (سابع عشر) ما أشار اليه المسعودي من أن العرب قبل الاسلام انما كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة ، ومنها التأريخ بوفاة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام[1]

(٥) اسكان اسماعيل الحجاز

وهكذا يبدو واضحاً أن رحلة الخليل ـ عليه السلام ـ إلى الحجاز أمر مؤكد ، وأنه ترك هناك ولده إسماعيل ، وزوجه هاجر ، ولعل السبب المباشر في إنتقال إسماعيل وأمه هاجر إلى الحجاز ، وسكناهم هناك ، يرجع إلى القصة المشهورة عن سارة التي أرادت أن تبعد إسماعيل عن أبيه ، بعد أن رأته يملأ حياة الشيخ الجليل ، والذي كان قد حرم الولد ، وقد قارب التسعين من عمره .

وهنا غضبت سارة واكتأبت، ولزمها همّ مقيم ، فلم تعد تطيق هاجر أو ولدها ، وأبدت رغبتها في التخلص منهما ، وارسالهما إلى مكان سحيق ، إذ لم يعد عيش يطيب بجوارهما ، ولم يبق للإسعاد من أثر في بيت يضمهما معاً ، وهذا أمر طبيعي ، فالغيرة بين النساء من ألصق الصفات بهن ، فليست هناك إمرأة ـ كائنة من كانت ـ لا تريد أن تكون صاحبة الحظوة وحدها عند بعلها ، وليست هناك إمرأة تقبل راضية ، أن تشاركها في حب زوجها ضرة لها ، وبخاصة إن كانت هذه الضرة في ريعان الشباب ، بينما هي على أبواب الشيخوخة ، وأن الضرة قد أعطت الزوج العظيم الولد ، بينما هي قد حُرمت منه ، وحرمت الزوج منه ،

---

(١) ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي: التنبه والاشراف، القاهرة ١٩٣٨ ص ١٧٢ ـ ١٨١، انظر كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم». المطابع الاهلية للأوفست، الرياض ١٩٧٧ ص ٢٨ ـ ٢٩ (جامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية) .

تلك أمور عادية تحدث في كل بيت تتعدد فيه الزوجـات ، أيا كان هذا البيت ، وسواء أكان صاحب هذا البيت ملكاً يحـكم النـاس ، أو زعيماً تصفق له الملايين ، أو حتى فقيراً يكد ليله ونهاره من أجل لقمة العيش ، بل إن ذلك أمر ، عرفناه في بيوت أنبياء بني إسرائيل وملوكهم من بعد ، عرفناه في بيت يعقوب بين زوجاته الأربعة ، كما عرفنـا آثـاره في قصـة يوسف عليه السـلام ، وعرفنـاه في بيت داود ، ممثلا في قصـة أمنـون وإبشالوم[1] ، وفي النزاع بين أدونيا وسليمان[2] ، كما عرفناه في بيت سليمان بين نسائه الكثيرات ، بل إن قصة غيرة السيدة عائشة من السيدة خديجة ـ رضي الله عنهما ـ وقد إنتقلـت الأخـيرة إلى جوار ربهـا الـكريم ، أمـر معروف .

ومن هنا فإن غيرة السيدة سارة ـ فيما أعتقد ـ ليسـت من خوارق العادات أو شواذ الأمور ، ومن ثم فإنّـا لا نوافـق رواية التـوراة من أن « سارة رأت إبن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمـزح ، فقالـت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها » ، ذلك لأن العداوة بين المرأتين بدأت حتى قبل أن ترزق هاجر بوليدها ، وذلك حين أذلتها سارة ، فهربت منها إلى الصحراء المقفرة ، ولم تعد إليها إلا بأمر ملاك الرب الذي بشرها بأنها ستلد إبنا تدعوه إسماعيل[3] .

وهكذا يبدو واضحاً أن تعليل التوراة لطرد هاجر بأن إسماعيل كان يمزح يوم فطام إسحـاق تعليل غـير كاف ، ففـي حديث البخـاري أن إسماعيل كان رضيعاً يوم أبعد هو وأمـه إلى مكة ، ومحـال أن يكون من رضيع مزح ولا غيره ، وإنما هي غيرة سارة من أن يكون لإبراهيم ولد من

(١) صموئيل ثان ١٣ : ١ ـ ٣٩
(٢) ملوك أول ١ : ٥ ـ ٥٣
(٣) تكوين ١٦ : ٥ ـ ١٥ ، ٢١ : ٩ ـ ١٠

غيرها تراه معهما في البيت ، وتحريف اليهود لكتابهم أشهر من نار على علم[٤] .

وهكذا يبدو بوضوح ما ذهبنا إليه ، وهو أن الأمر لم يكن مزاح صبي ، وإنما كان غيرة إمرأة من إبن ضرتها ، وخوفاً منها على مكانتها عند زوجها ، ورغبتها في أن لا ينصرف حبّ هذا الزوج إلى غيرها من النساء ، وفي أن لا ينال ابن ضرتها ـ وهو بكر أبيه[٢] ـ شيئاً من ميراث أبيه ، ذلك لأن حب المرأة لأبنائها أمر معلوم ، ومن هنا بدأت تفكر في إزاحة إسماعيل وأمه من مكانتهما ، فكان التبرير من كاتب التوراة أن إسماعيل كان يمزح في وليمة فطام إسحاق. كما أشرنا آنفاً ـ وإنطلاقاً من هذا فقد إستجاب إسماعيل وأمه لإبراهيم فيما إرتآه من أن يجنبهما النزاع الذي قد يتفاقم بين الزوجتين ، والغيرة التي قد تقتل سارة ، وتزعج أمن إبراهيم واستقراره .

وأيا ما كان الأمر ، فإن القرآن الكريم لم يشر الى سبب هذا الحادث ، وانما يروي البخارى عن ابن عباس أن هاجر سألت إبراهيم حين وضعها وابنها هناك في مكة عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، ثم قفى منطلقاً ، « أألله أمرك بهذا ؟ فقال نعم : قالت : إذا لا يضيعنا »[٣] .

---

(١) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ١٠٤

(٢) أنظر عن البكورية وأهميتها عند بني إسرائيل : مقالنا « قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة » وكذا : صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني ص ٦٧ ، تكوين ٢٥ : ٢٧ ـ ٣٣ ، كتابنا إسرائيل ص ٧٥

(٣) إبن كثير ١/ ١٥٤ ، تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٩ ، تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠ (طبعة ١٩٥٤) ، تفسير الألوسي ١٣/ ٢٣٦ ، المقدسي ٣/ ٦٠ ، الازرقي ١/ ٥٤ ، ٢/ ٣٩ ، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٦ ، تاريخ الخميس ص ١٠٦ ، إبن الأثير ١/ ١٠٣ ، شفاء الغرام ٢/ ٣ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥ .

ومن هذا المنطلق كان إعتقادنا ، أن الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أقدم على ما أقدم عليه من رحلته إلى الحجاز بزوجه وولده ، إمتثالا لأمر الله ، ورغبة في نشر الإيمان بالله في بيئة جديدة ، وفي مناخ جديد ، بعد أن قام بذلك في العراق وفي سورية وفي مصر ، وليربط ولده وبكره بما إرتبط به هو من قبل ، فإبراهيم ـ كما أشرنا من قبل ـ يرجع في نسبه الأول إلى العرب العاربة ، والتي هاجرت من جزيرة العرب ، وإبراهيم قد ولد ونشأ في العراق ، وابراهيم هاجر إلى الشام ثم إلى مصر ، ومن مصر إلى فلسطين ثانية ، ثم من فلسطين إلى الحجاز ، ومن الحجاز الى فلسطين ، وأما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد كان نصف مصري ، نصف عراقي ، واسماعيل قد ولد في الشام ، وعاش في الحجاز ، وتزوج من يمنية ـ أو مصرية طبقا لرواية التوراة[1] ـ وتخريجاً من هذا ، فإن إسماعيل رمز العروبة كلها ، رمز لعروبة العراق ، ورمز لعروبة الشام ، ورمز لعروبة مصر ، ورمز لعروبة الجزيرة العربية ، ولعل هذا ما يميزه على أخيه إسحاق ، الذي اقتصرت حياته ومماته على جزء من الشام فحسب ، ولم يتصل بقرابة من دم ، أو صلة من نسب ، بغير عشيرة أمه ، حيث تزوج من إبنة خاله لابان[2] .

(٦) قصة الذبيح

لم يترك الأب الحنون والشيخ الجليل إبنه في ذلك المكان الموحش القفر بصحراء مكة ، دون أن يحن إليه ويذكره ، ودون أن يزوره بين الحين والحين ، وفي إحدى هذه الزيارات ، وكان الغلام قد شبّ وارتحل ، وأطاق ما يفعله أبره من السعي والعمل ، رأى الخليل ـ عليه الصلاة

(١) تكوين ٢١ : ٢١

(٢) تكوين ٢٨ : ١ ـ ٢

والسلام - أنه يؤ مر بذبح ولده هذا ، ولما كانت أنبياء الله تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فإن « رؤ يا الأنبياء وحي »[1] ، ولهذا صمم الخليل على تنفيذ أمر ربه ، ولم يثنه عن عزمه هذا ، أن إسماعيل وحيده ، وأنه قد رزق به وهو شيخ كبير ، على رأس ست وثمانين سنة من عمره ، وبعد أن ظل يرجوه أعواماً وأعواماً ، رغم ذلك كله ، فإن خليل الله قد عقد العزم على إنجاز ما أمر به ، بإيمان المؤ منين ، واستسلام المسلمين لله وحده ، مما يدل على منتهى الطاعة والإمتثال لأمر الله ، وهذا هو الإسلام بعينه ، إذ أن الإسلام هو الطاعة والامتثال لله ، وهو دين الأولين والآخرين[2] ، ولهذا فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأمر بقوله تعالى « إن هذا لهو البلاء المبين »[3] ، على أن الخليل إنما رأى أن يعرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً[4] .

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة : « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إنى أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت إفعل ما تؤ مر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤ يا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٩ ، البداية والنهاية ١/ ١٥٧ ، قارن : تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧ روح المعاني ٢٣/ ١٢٨

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢/ ٥١٠ - ٥١١ ، ٣/ ٧٤ (طبعة دار المعارف)

(٣) سورة الصافات : آية ١٠٦

(٤) انظر : تفسير القرطبي ١٥/ ١٠١ - ١٠٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧ ، تفسير الطبري ١٥/ ٧٨ - ٧٩

المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين »[1]

ولعل سؤال البداهة الآن : من هو الذبيح من ولدي إبراهيم ؟ وهو في الواقع سؤال ، ما تزال الإجابة عنه موضع خلاف بين اليهود والنصارى من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى ، فضلا عن أن قصة الذبيح عند اليهود ، تحتل مكانة تختلف عنها عند المسلمين ، ولنحاول الآن أن نتعرف وجهات النظر المختلفة .

(أ) وجهة النظر اليهودية والمسيحية

يختلف اليهود والنصارى عن المسلمين في إسم الذبيح ، فبينما يرى المسلمون أنه إسماعيل ، يذهب اليهود والنصارى إلى أنه إسحاق ، فضلا عن أن قصة الذبيح هذه ، إنما تحتل في التاريخ اليهودي مكانة تختلف عنها عند المسلمين ، والذي يقرأ تاريخ اليهود ليرى أن هذا الإختلاف له جانب هام يفوق في أهميته جانب البحث التاريخي ، الذي يراد به معرفة إسم الذبيح من ولدي إبراهيم ، لأنه في الواقع إختلاف يتعلق به - في نظرهم - إختيار الشعب الموعود ، كما يتعلق به الحذف والإثبات في سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق ، وينقطع عن ذرية إسماعيل ، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل ، وينقطع منها كل ما يتصل بالعرب ، وأن هذا النزاع قد بدأ قديماً قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل - أثناء السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد - وواضح أن هذا النزاع في أوله ، لم يكن نزاعاً على العقيدة ، فإن التوراة[2] تروى أن ابراهيم قد قدّم العشر لملكي صادق ، كاهن الله العلي أو عليون ، الذي كان معبود

(١) سورة الصافات آية ٩٩ - ١٠٢

(٢) سفر التكوين ١٤ : ١٨ - ٢٠

السكان في فلسطين ، وما جاورها إلى الجنوب ، وقد زار « هيرودوت » (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م.) بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر ، وروى أنهم كانوا يعبدون الله تعالى ، واللات أو إيليلات ، منذ قرون سابقه للقرن الخامس ق.م. ، ومن ثم فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته ، إلا فرعاً من فروع التنازع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة إلا أنها تعزز دعواها في ذلك النزاع ، وتنفي عنه من ينازعها عليه[1] ، ومن هنا كانت الدعوى بأن الذبيح كان إسحاق ، رغبة في إغتصاب شرف عرف لإسماعيل جد العرب .

وهكذا تقول اليهود والنصارى أن الذبيح إنما هو إسحاق ، معتمدين في ذلك على عدة عوامل ، منها (أولا) ما جاء في التوراة « خذ إبنك وحيدك الذي تحبه إسحاق ، وأذهب إلى أرض المريا ، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك »[2] ، ومنها (ثانياً) ما جاء في الإنجيل « بالإيمان قدم إبراهيم إسحاق وهو مجرب ، قدم الذي قبل المواعيد وحيده ، الذي قيل له إنه باسحاق يدعى لك نسل ، إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً »[3] ، ومنها (ثالثاً) أن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة ، وأنه قد أعطي إسما قبل أن تحمل به أمه[4] ، ومنها (رابعاً) ما يذهب إليه الدكتور ماير من أن هناك فوارق عظمى بين الأخوين ، فقد كان إسماعيل إبن الجارية ، وإسحاق إبن الزوجة الشرعية ، بل إنه ليبلغ به الشطط والتعصب الأعمى إلى أبعد من ذلك ، حين يرى أن إسحاق أرفع قدراً من إسماعيل بدرجة لا تترك مجالا للمقارنة بينهما[5] ، ومنها (خامساً) بعض الروايات الإسلامية عن كعب الأحبار

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨٧
(٢) تكوين ٢٢ : ٢
(٣) الرسالة إلى العبرانيين ١١ : ١٧ - ١٩
(٤) حبيب سعيد : المرجع السابق ص ٩٣ ، تكوين ١٨ : ٩ - ١٥
(٥) ف. ب. ماير : حياة ابراهيم ص ٣٠٥ - ٣٠٦

من أن الذي امر إبراهيم بذبحه إنما كان إسحاقاً[1] .

وإذا أردنا مناقشة حجج اليهود والنصارى هذه ، فإننا نلاحظ عليها عدة نقاط ، منها (أولا) أنها تصف الذبيح بأنه ابن ابراهيم الوحيد ، وهو وصف لا يمكن - بحال من الأحوال - أن ينطبق على غير إسماعيل وحده في السنوات الأربعة عشرة الأولى من عمره ، والتي سبقت مولد إسحاق ، وانطلاقاً من هذا ، فإن إسحاق لم يكتب له في يوم من الأيام أن يكون وحيد إبراهيم ، ذلك لأن إسماعيل قد عاش حتى وفاة إبراهيم ، ثم اشترك مع إسحاق في دفنه بمغارة المكفيلة ، كنص التوراة نفسها[2] ، وهكذا لم يكن إسحاق أبداً وحيداً مع وجود إسماعيل ، أما إسماعيل فقد كان وحيداً قبل مولد إسحاق ، ومن هنا كانت لفظة إسحاق في نص التوراة « خذ إبنك وحيدك الذي تحبه إسحاق »[3] مقحمه ، لأنه لم يكن وحيداً ولا بكرا ، وإنما ذلك هو إسماعيل ، ولعل الذي حمل اليهود على ذلك هو حسد العرب[4] ، وحرصا منهم على أن يكون أبوهم إسحاق هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه ، وهو في حالة صغره ، هذا فضلا عن أن ذلك إنما يتعارض ونصوص أخرى من التوراة .

ومنها (ثانياً) أن ما جاء في الإنجيل - في الرسالة إلى العبرانيين - فقد كان الحل الذي إرتضاه فقهاء المسيحية للخروج من مشكلة : كيف يؤ مر إبراهيم بذبح إسحاق ، وهو إبنه الموعود الذي يخرج منه الشعب المختار ، طبقاً لرواية التوراة « باسحاق يدعى لك نسل »[5] ، إذ لو كان إسحاق

---

(١) الطبري ١/ ٢٦٥ ، إبن كثير ١/ ١٥٩ - ١٦٠ ، إبن الأثير ١/ ١٠٩ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧ ، تفسير الطبري ٢٣ / ٧٧ - ٨٣ ، تفسير القرطبي ١٥/ ١٠١

(٢) تكوين ١٦ : ١٦ ، ٢٥ : ٩

(٣) تكوين ٢٢ : ٢

(٤) ابن كثير ١/ ١٥٩ ، راجع فتاوى إبن تيمية ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢

(٥) تكوين ٢١ : ١٢

قد كبر وصار له ابن يحافظ على النسل في الأجيال القادمة لزالت العقبة ، ولكن كيف يتفق أن يموت إسحاق الذي لم يكن له ابن بعد ، وأن يتحقق الوعد الذي أعطي لإبراهيم ، بأن يكون له من إسحاق نسلا ، كرمل البحر وكنجوم السماء .

ومن هنا ـ وكما يقول الدكتور ماير [1] ـ كان الفكر الوحيد الذي ملأ قلب إبراهيم على أي حال ، هو « أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً » ، وحل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية ، لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين إعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت إسحاق ، وأنه أطاع الله ولم يطع قلبه ، ولم يحفل بحنانه على إبنه الموعود [2] ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذا الحل ، الذي ارتضاه فقهاء المسيحية ، إنما يقلل من قيمة تضحية إبراهيم وإذعانه لربه ، إن لم يذهب بقيمتها تماماً ، ما دام أنه كان على يقين من أن الله سوف يعيد الحياة إلى ولده ، بعد أن يقوم بذبحه بنفسه .

ومنها (ثالثاً) أن حجتهم من أن إسحاق قد ولد بطريقة خارقة للطبيعة ، وأنه قد أعطي إسمه قبل أن تحمل به أمه فلعلهم يقصدون بالولادة الخارقة للعادة ، أن إسحاق ولد لإبراهيم وهو شيخ في المائة ، وامرأته عجوز في التسعين من عمرها [3] ، فإذا كان ذلك كذلك ، فهو صحيح ، ولكن صحيح كذلك أن ولادة إسماعيل فيها نفس الأمر ، أو

---

(١) ف . ب . ماير : حياة ابراهيم ص ٢٥٦
(٢) تكوين ٢٢ : ١ ـ ١٨ ، وانظر : العقاد : المرجع السابق ص ٨٧
(٣) تكوين ١٧ : ١٧

قريب منه ، لأنه قد ولد وابراهيم في السادسة والثمانين من عمره[1] ، بل إن إبراهيم ـ فيما تروي التوراة نفسها ـ قد تزوج وهو في السابعة والثلاثين بعد المائة من قطورة ، ورزق منها بستة بنين[2] ، هذا فضلا عن أن الروايات الإسلامية ، إنما تضيف لإبراهيم زوجة رابعة ، بُني بها في الفترة ما بين زواجه بقطورة ، وبين وفاته وهو فى الخامسة والسبعين بعد المائة من عمره ، دعتها حجورة ولدت له خمسة بنين[3] ، أضف إلى ذلك أن قصة ولادة إسحاق ، بالطريقة التي روتها التوراة ، ليست فريدة في نوعها ، فهناك ولادة يحيى عليه السلام ـ والمعروف عند النصارى بيوحنا المعمدان ـ تكاد تكون تكراراً لولادة إسحاق ، ذلك إن أبا يحيى زكريا ـ عليه السلام ـ كان قد بلغ من الكبر عتياً ، وكانت إمرأته ـ اليصابات في الروايات المسيحية ـ عاقراً ، فسأل ربه أن يهبه غلاماً زكياً ، فكان يحيى[4] ، ثم هناك ولادة عيسى عليه السلام ، بدون أب ، ثم هناك كذلك آدم عليه السلام من غير أب ، حتى ولا أم ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم ، في قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون »[5] .

---

(١) تكوين ١٦ :١٦ ، هذا وتذهب بعض الروايات الاسلامية إلى أن أسماعيل ولد لابراهيم وهو إبن أربع وستين ، واسحاق لسبعين ، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن إسماعيل ولد لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين ، وولد له إسحاق وهو إبن مائة واثنتي عشرة سنة ، على أن رواية ثالثة ترى ان اسحاق ولد لإبراهيم وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة [أنظر تفسير الألوسي ١٣/ ٢٤٢ ، تفسير المنسقي ٢/ ٢٦٤ ، تفسير القرطبي ٩/ ٣٧٥ ، تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٥ ، تفسير البيضاوي ١/ ٥٣٣]

(٢) تكوين ٢٣ : ١ ـ ٢ ، ٢٥ : ١ ـ ٤ وانظر : الطبري ١/ ٣٠٩ ـ ٣١١ ، إبن كثير ١/ ١٧٥

(٣) الطبري ١/ ٣١١ ، إبن الاثير ١/ ١٢٣ ، إبن كثير ١/ ١٧٥ ، إبن سعد ١/ ٢١ ، تكوين ٢٥ : ٧

(٤) سورة آل عمران : آية ٣٧ ـ ٤١ ، سورة مريم : آية ٢ ـ ١٥ ، سورة الأنبياء : آية ٨٩ ـ ٩٠ ، انجيل لوقا ١ :٥ ـ ٨٠

(٥) سورة آل عمران : آية ٥٩

ومنها (رابعاً) أن حجتهم بأن إسحاق قد أعطى إسما قبل أن يولد ، فالرد على ذلك ، أن إسماعيل ـ وبنص التوراة ـ كذلك قد أعطى إسماً قبل أن يولد[1] ، فإذا كان في ذلك كرامة لإسحاق ـ وهذا ما نعتقده ـ فهو كرامة لإسماعيل كذلك ، بل ان إسماعيل قد سبق إسحاق في هذه الكرامة ، إذ أعطى إسمه قبله ، بل إن التوراة نفسها إنما تتحدث عن البشارة بإسماعيل قبل أن تتحدث عن البشارة بإسحاق[2] ، هذا إلى أن يحيى وعيسى قد أعطيا إسميهما قبل أن يولدا كذلك ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين »[3] ، ويقول « يا زكريا إنا نبشرك بغلام إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً »[4] ، ويقول « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه إسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين »[5] .

ومنها (خامساً) أن ما يزعمه الدكتور ماير من أن إسماعيل إبن الجارية ، وأن إسحاق إبن الحرة ، إنما هو يعتمد في ذلك على ما جاء في الإنجيل من « أنه مكتوب أنه كان لإبراهيم إبنان واحد من الجارية وآخر من الحرة ، لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذي من الحرة فبالموعد »[6] ، وهذا بدوره ليس إلا تكراراً لما جاء في التوراة[7] ، وقد سبق لنا مناقشته ، وإن كان لزاماً علينا أن نضيف جديداً هنا ، فهو

(١) تكوين ١٦ : ١١
(٢) تكوين ١٦ : ١٨
(٣) سورة آل عمران : آية ٣٩
(٤) سورة مريم : آية ٧
(٥) سورة آل عمران : آية ٤٥
(٦) الرسالة لأهل غلاطية ٤ : ٢٢ ـ ٢٣
(٧) تكوين ١٦ : ١ ـ ٩

أن القول بأن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة ، أمر يحتاج إلى إعادة نظر ، وقد سبق لنا مناقشته في كتابنا « إسرائيل » ، وخرجنا منه برأي جديد ـ تقدمنا به حَدْساً عن غير يقين ـ أنها ربما كانت إبنة واحد من كبار رجال الدين المصريين ، على أساس أنهم الطبقة المنتظر أن يكون الخليل أكثر اتصالاً بها[1]

ومنها (سادساً) أن مفسري التوراة من المسيحيين يريدون أن يصبغوا هذه النصوص بالصيغة المسيحية ، ذلك لأن المسيحية ـ فيما يرى آباء الكنيسة وفقاؤ ها ـ تحرم تعدد الزوجات ، فجعلوا من هاجر جارية ، وسارة زوجة شرعية ، وفاتهم أن الأسرة الإسرائيلية كانت تقوم على تعدد الزوجات ، كما كانت تساوي بين هؤلاء الزوجات في الحقوق والواجبات ، وأن كان عددهن يتفاوت قلة وكثرة ، حسب ثروة الزوج ومكانته ، ولو أن علماء التلمود يحددون للرجل أربع زوجات فقط ، وللملك ثماني عشرة زوجة ، كما أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة في إقتناء الزوجات « ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قبله »[2]، وقد استغل بعض الإسرائيليين هذا الحق ، فبالغوا فيه ، إذ « كان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه ، لأنه كانت له نساء كثيرات »[3]، وقد تزوج داود

---

(1) راجع كتابنا اسرائيل ص ٢١٠ ـ ٢١٣ مع ملاحظة أن هناك وجهات نظر أخرى ، منها أنها أميرة مصرية وقعت في أيدي العماليق ثم أهديت إلى ابراهيم ، ومنها أنها أخت زوج فرعون ، ومنها أنها إبنة أحد ملوك مصر . (انظر : حبيب سعيد : المرجع السابق ص ٨٢ ، ف . ب . ماير : المرجع السابق ص ١٣٦ ، ٢٣٦ ، عبد الحميد السحار : بنو اسماعيل ص ٩٣ ، عبد الحميد واكد : نهاية اسرائيل ص ٨٨ ، شفاء الغرام ص ١٥ ، تاريخ الخميس ص ١٦٥ ، ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٤٩ (بيروت ١٩٥٥) وكذا Cook, op-cit, P. 369 S.A.

(2) تثنية ١٧ : ١٧ ، وكذا فؤاد حسنين : إسرائيل عبر التاريخ ١/ ٩٩

(3) قضاة ٨ : ١٣

من نساء كثيرات ، فضلا عن الإماء والسراري[1] ، واقترن « رحبعام » بثماني عشرة إمرأة ؛ وستين سرية ، ولدن له ثمانية وعشرين إبناً وستين إبنة »[2] وتزوج « أبيا » أربع عشرة إمرأة وخلف إثنين وعشرين إبنا وست عشرة بنتاً[3] ، وفاق سليمان جميع أقرانه ، إذ « كانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري »[4] ، وإذا ما عدنا إلى عصر الآباء الأوائل ـ كما يسمونه ـ فإننا نجد أن الخليل نفسه يتبع هذا المبدأ ، فيجمع بين هاجر وسارة ، ثم بين قطورة وحجورة ، ثم ألم يجمع يعقوب ـ أبو الآباء ـ والذي حمل الإسرائيليون إسمه ، بين نساء أربعة ـ بين راحيل وليئة وزلفة وبلهة ـ وكان منهن أبناؤه الإثنا عشر[5] ، ثم ألم يجمع موسى ـ صاحب التوراة ـ بين صفورة إبنة كاهن مدين ، وبين المرأة الكوشية التي ثار عليه أخواه من أجلها[6] .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن مبدأ تعدد الزوجات ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ كان شائعاً كثيراً لدى بني إسرائيل على الدوام ، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه[7] ، سواء أكان ذلك للأنبياء أو غير الأنبياء ، وسواء أكان ذلك في عصر الآباء الأول أو عصر الملكية ، حتى حدده الربانيون بأربعة ، وان أطلقه القراءون ، وأن التفسير الذي قدمه صاحب « الرسالة إلى أهل غلاطية » ، إنما يقدم الصورة المسيحية ـ وليس اليهودية ـ للزواج ، وأنه لأمر مناف للعقل ـ فضلا عن المنطق والدين ـ أن

---

(١) صموئيل أول ٢٥ : ٣٩ ، ٤٣ ، ٢٨ : ٢٧ صموئيل ثان ٣ : ٣ ، ٤ ، ٥ : ١٣
(٢) أخبار أيام ثان ١١ : ٢١
(٣) أخبار أيام ثان ١٣ : ٢١
(٤) ملوك أول ١١ : ٣
(٥) تكوين ٣٥ : ٢٢ ـ ٢٦
(٦) خروج ٢ : ٢١ ، عدد ١٢ : ١
(٧) جوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٥٠

نطبق شريعة دين على شريعة دين سبقه .

وهكذا نستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أن هاجر وسارة ـ رضي الله عنهما ـ كانت كلتاهما زوجة فاضلة للخليل عليه السلام ، ولكل منهما من الحقوق والواجبات ما للأخرى ، وأن الأمر كذلك بالنسبة لابنيهما النبيين الكريمين ، واذا لم يقتنع علماء اليهود بما نقول ، فما رأيهم في أبناء يعقوب الاثني عشر ، وهم في نفس الوقت رؤوس الأسباط الأثني عشر ، فهم كما نعلم ـ وبنص التوراة نفسها [1] ـ من زوجاته الأربعة (الحرائر والجواري) ، ولم يقل واحد من العلماء أو رجال اللاهوت من اليهود والنصارى ، أن أبناء يعقوب من الجاريتين : بلهة وزلفة ، أقل مرتبة من أخوتهم أبناء السيدتين ، ليئة وراحيل ، هذا إذا سلمنا جدلا ، بأن أم إسماعيل كانت جارية لسارة ، أضف إلى ذلك كله أن إسماعيل إنما كان بكر ابراهيم ، وللبكورية في بني إسرائيل شأن عظيم ، وحقوق كثيره .

بقيت نقطة أخيرة ، تتصل بما يزعمه « ماير » من أن إسحاق كان أرفع قدراً من إسماعيل بدرجة لا تترك مجالاً للمقارنة بينهما ، فذلك تعصب أعمى ، وتلك دعوة الغرب وحقدهم على العرب أبناء إسماعيل ، نحتمي منه بقوله تعالى «لا نفرق بين أحد من رسله» [2] ، إيمانا منا بأن كلا من اسماعيل واسحاق ابن للخليل ، وقد وصف اسحاق في القرآن الكريم بانه كان «نبيا من الصالحين» [3] ، ووصف إسماعيل بأنه « كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » [4] ، فما كان لنا أن نفرق بين أحد من رسل

---

(١) تكوين ٣٥ : ٢٢ ـ ٢٦
(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٥
(٣) سورة الصافات : آية ١١٢
(٤) سورة مريم : آية ٥٤ .

الله ، فذلك شأنه سبحانه وتعالى ، ونحن نؤمن الإيمان ، كل الإيمان ، بأن إسماعيل و إسحاق عليهما السلام ، أفضل منا ملايين المرات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، سائلين الله الغفور الرحيم أن يغفر لنا ذلاتنا ، إن كنا قد أخطأنا فيما كتبنا عن أنبيائه الكرام ، وما أردنا من ذلك إلا أن نقول كلمة حق ـ قدر استطاعتنا ـ «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب »[1] .

ومنها (سابعاً) أن ما جاء في الروايات الإسلامية ، نقلا عن كعب الأحبار وغيره ، فذلك يرجع إلى أن المسلمين إنما يؤمنون بنبوة إسحاق ويعقوب ويوسف ، ومن هنا فقد إستغل ذلك بعض اليهود الذين أسلموا ـ ومنهم كعب الأحبار ووهب بن منبه[2] ـ ونقلوا أمثال هذه الروايات التي لم يبت القرآن الكريم فيها ، تحقيقاً لأغراض خاصة بهم ، ثم أن هذه الروايات الاسلامية مضطربة ، فبينما ينسبها أصحابها إلى ابن عباس ، فإنهم يرون رواية أخرى ـ عن ابن عباس كذلك ـ يذهبون فيها إلى أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام[3] .

(ب) وجهة النظر الاسلامية

يرى المسلمون أن الذبيح إنما كان إسماعيل عليه السلام ، إعتماداً على رواية إبن عباس في تفسيره لقوله تعالى « وفديناه بذبح عظيم »[4] ، على أنه إسماعيل ، وعلى أننا نجد في كتاب الله ـ عز وجل ـ في قصة الخبر عن إبراهيم ، وما أمر به من ذبح ابنه إسماعيل ، وذلك أن الله سبحانه

---

(1) سورة هود : آية ٨٨

(2) أنظر ما كتبناه من قبل عن الاسرائيليات في التفسير

(3) تفسير الطبري ٢٣/ ٨١ ـ ٨٤ ، تفسير القرطبي ١٥/ ٩٩ ـ ١٠٠

(4) سورة الصافات : آية ١٠٧

وتعالى ، حين فرغ من قصة المذبوح من إبني إبراهيم ، فإنه يقول « وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين »[1] ، فالإتيان بالبشرى بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه وعودة الضمير إلى الغلام الذبيح ، ثم ذكر إسم إسحاق معه صريحاً ، يقتضي التغاير بين إسحاق والذبيح[2] .

ويضيف الإمام ابن تيمية إلى ذلك ، أن قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات[3] تدل على أنه إسماعيل ، إذ يقول سبحانه وتعالى « فبشرناه بغلام حليم » ، فقد إنطوت البشارة هنا على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وعلى أنه يبلغ الحلم ، وعلى أنه يكون حليماً ، وأي حلم أعظم من أن يعرض عليه أبوه الذبح ، فيقول « ستجدني إن شاء الله من الصابرين » ، ثم إنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن الكريم ، إلا في هذا الموضع ، وفي سائر المواضع يذكر البشارة باسحاق خاصة - كما في سورة هود[4] - ثم إنه ذكر في البشارة في الصافات ، بأنه غلام حليم ، وحين ذكر البشارة باسحاق ، وصفه بأنه غلام عليم[5] ، والتخصيص لا بد له من حكمة ، وهذا مما يقوّي إقتران الوصفين ، والحلم هنا مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح ، هذا فضلا عن أن إسماعيل قد وصف بالصبر ، دون إسحاق ، في قوله تعالى « وإسماعيل وأدريس وذا الكفل كل من الصابرين »[6] ، وبصدق الوعد ، « إنه كان صادق الوعد »[7] ، لأنه

(١) سورة الصافات : آية ١١٢
(٢) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ١٠٢ ، فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٣٢ - ٣٣٣
(٣) سورة الصافات : آية ٩٩ - ١١٣
(٤) سورة هود : آية ٧١ - ٧٢
(٥) سورة الحجر : آية ٥٣ ، الذاريات : آية ٢٨
(٦) سورة الأنبياء : آية ٨٥
(٧) سورة مريم : آية ٥٤

وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفىّ به ، ثم إن البشارة باسحاق كانت معجزة ، لأن العجوز عقيم ، وأنها كانت مشتركة بين إبراهيم وإمرأته ، بينما البشارة بالذبيح فقد كانت لإبراهيم ، ثم إمتحاناً له ، دون الأم المبشرة به [1] .

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول « وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين » [2] ، فكيف يأمره الله بذبحه ، وقد وعده أن يكون نبياً [3] ، ثم إن البشارة باسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه ، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً [4] ، ومن هنا استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل ، وليس إسحاقاً ، حيث يقول سبحانه وتعالى « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » [5] ، فكيف تقع البشارة بإسحاق ، وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق ، وهو صغير قبل أن يولد له ، هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة ، وهناك ما روي من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي ، سأل رجلا من علماء اليهود ، كان قد أسلم وحسن إسلامه : أي إبنيّ ابراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٥ ، وانظر : روح المعاني ٢٣/ ١٣٤ تفسير الطبري ٢٣/ ٨٥

(٢) سورة الصافات : آية ١١٢

(٣) تفسير القرطبي ص ٥٥٤٥ (طبعة الشعب)

(٤) روح المعاني ٢٣/ ١٣٤ ، تاريخ الخميس ص ١٠٨

(٥) سورة هود : آية ٧١ ، وانظر : تفسير الطبري ١٥/ ٣٨٩ ـ ٣٩٧ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠)

إسحاق ، لأن إسحاق أبوهم[1] .

وهناك ما جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ « الحق أقول لكم ، أنكم إذا أمعنتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال يا ابراهيم : سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله ، فأجاب إبراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله ، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : خذ ابنك بكرك وأصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » ، فكيف يكون إسحاق البكر ، وهو لما ولد كان إسماعيل إبن سبع سنين[2] .

ثم أليس في شعائر الحج عند المسلمين كثيراً من الأدلة على أن الحادث إنما كان في مكة ـ وليس في فلسطين ـ وأنه مع إسماعيل ـ وليس مع إسحاق ـ وأن المسلمين ، بعكس اليهود ، كانوا ـ وما يزالون وسوف يظلون أبد الدهر ـ يحيون ذكرى الفداء الفذ هذا في كل عام ، عند حجهم إلى بيت الله الحرام ، في الأضحية يوم النحر ، وفي السعي بين الصفا والمروة ، وفي رمي الجمار ، وكل تلك أمور لا توجد عند يهود ، فإذا ما تذكرنا أن إسماعيل وأمه ـ وليس إسحاق وأمه ـ هما اللذان كانا بمكة ، وأن إسماعيل ، وليس إسحاق ، هو الذي شارك أباه الخليل في بناء البيت الحرام ، وأن النحر في منى ـ وليس في فلسطين ـ في يوم عيد الأضحى

---

(1) إبن كثير : قصص الأنبياء ١/ ٢١٥ ـ ٢١٧ ، البداية والنهاية ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠ ، تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٨ ـ ٣٠ ، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٨ ، إبن الأثير ١/ ١١٠ ـ ١١١ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٨٤ ـ ٨٥ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧ ، تفسير القرطبي ١٥/ ١٠١ ، روح المعاني ٢٣/ ١٣٣ ـ ١٣٥

(2) محمد حسني عبد الحميد : أبو الأنبياء ابراهيم الخليل ص ٨٦ ، علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة ص ٨٧ ـ ٨٨ ، مع ملاحظة مخالفة هذا النص لنصي التوراة (تكوين ١٦ : ١٦ ، ١٧ : ٣)

المبارك ، إنما هو من تمام سنن الحج إلى هذا البيت المعمور ، ومن هنا يبدو لنا بوضوح أن الذين زعموا من يهود ـ ومن تابعهم في زعمهم هذا من نصارى ومسلمين ـ أن الفداء إنما كان في الشام ، قد أخطأوا كثيراً ، إذ لو كان الأمر كما يزعمون ، لكانت كل الشعائر التي تتصل بعملية الفداء هذه في الشام ، وليس في مكة .

ويذهب الإمام السيوطي إلى أن البشارة بمولود ، إنما جاءت مرتين ، الواحدة في قوله تعالى «وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين »(1) ، فهذه الآيات الكريمة قاطعة في أن المبشر به هو الذبيح ، والأخرى في قوله تعالى « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء آسحاق يعقوب ، قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إنه هذا لشيء عجيب »(2) ، وفي هذه الآيات الكريمة ، إنما المبشر به إسحاق ، وقد وقعت هذه البشارة في فلسطين ، لما جاءت الملائكة بسبب قوم لوط ، وهو في آخر مرة ، ولم تكن بدعوة من إبراهيم ، فهو شيخ كبير ، وامرأته عجوز ، وأما البشارة الأولى فقد كانت عندما إنتقل الخليل عليه السلام من العراق إلى الشام ، وكانت بدعوة منه ، حيث كان في سن لا يستغرب منه الولد ، ومن ثم فقد سأل ربه أن يهبه غلاماً من الصالحين ، وينتهي السيوطي إلى أنهما بشارتان في وقتين مختلفين ، بغلامين مختلفين ، الواحد بغير سؤال ـ وهو إسحاق ـ وقد جاء إسمه صريحاً في الايات الكريمة ، والآخر بسؤال ، وقد ارتبط

---

(1) سورة الصافات : آية ٩٩ ـ ١٠٢

(2) سورة هود : آية ٧١ ـ ٧٢

بقصة الذبح ، وهو اسماعيل[1] ، فضلا عن أن البشارة باسحاق إنما كانت مقرونة بولادة يعقوب منه ، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً[2] .

أضف الى ذلك كله ، أن الاية الكريمة : «رب هب لي من الصالحين» ، تفيد أنه دعاء وقع من ابراهيم قبل أن يرزق بواحد من ابنائه ، اذ لو كان له ولد ما طلب الولد الواحد ، وكلمة «من» هنا للتبعيض ، وأقل درجات البعضية الواحد ، ومن ثم فان قوله تعالى من الصالحين لا تفيد الا طلب الواحد، وبهذا يكون الدعاء في وقت لم يكن للخليل فيه شيء من الذرية ، ومن المعروف أن هناك اجماعا بين علماء المسلمين ـ فضلا عن كتب اليهود والنصارى ـ ان اسماعيل انما هو ولد ابراهيم البكر ، ومن ثم فان الدعاء انما يراد به اسماعيل ، وحيث أن رؤيا البشري ثم رؤيا الذبح انما جاءت بعد ذلك ، فالذبيح اذن هو اسماعيل.[3] .

وهناك رواية تذهب إلى أن بعضاً من صحابة رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد رأوا بقايا رأس الكبش في بيت الله الحرام ، فعثمان بن طلحة يروي أنه رأى قرني الكبش ، وأنهما بقيا حتى إحتراق البيت أثناء حصار الحجاج لإبن

---

(١) تفسير القاسمي ١٤/ ٥٠٥٣ ، محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ص ١٦٥ ، شفاء الغرام ٢/ ١٠ ـ ١١ ، تفسير الألـوسي ١٢/ ٩٧ ـ ١٠١ ، ١٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦ ، ١٤/ ٦٠ ـ ٦١ ، تفسير المنار ١٢/ ١٢٧ ـ ١٣٠ ، تفسير القرطبي ٩/ ٦٢ ـ ٧١ ، ١٥/ ١٠٠ ـ ١٠٣ ، تفسير البيضاوي ١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥ ، ٢/ ٢٩٧ ، ١/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ، وانظر السيوطي في رسالته القول الفصيح في تعيين الذبيح ، فتاوى شيخ الإسلام إبن تيمية ٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، تفسير الطبري ١٢/ ٧١ ـ ٧٧ ، ١٤/ ٣٩ ـ ٤١ .

(٢) تاريخ الخميس ص ١٠٨ ، وانظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/ ١٥٤

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٥٤

الزبير[1] ، وإبن عباس يروي أنه رأى رأس الكبش[2] ما يزال معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس ، ويبدو أن قريشاً قد توارثت قرني الكبش ، خلفا عن سلف ، وأن ذلك إنما كان من دعاوى الفخر عندهم ، وبدهي أنهم لا يتفاخرون بهما ، إن كان الذبيح إسحاق ، وليس إسماعيل ، وكل تلك الروايات إنما تدل على أن الذبيح إنما كان إسماعيل ، فهو الذي كان - وليس إسحاق - في مكة المكرمة[3] .

وأخيراً فهناك رواية تذهب إلى أن رجلا جاء إلى الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - فقال : يا رسول الله ، عُدْ علي مما أفاء الله عليك يا إبن الذبيحين ، فتبسم ﴿ﷺ﴾ ، فقيل لمعاوية بن أبي سفيان - وكان حاضراً - وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب نذر إن سهل الله حفر زمزم أن يذبح أحد أولاده ، فخرج السهم على عبد الله أبي النبي ﴿ﷺ﴾ ففداه بمائة بعير ، وأما الذبيح الثاني فهو اسماعيل[4] .

---

(١) انظر عن هذا الحصار (٧٢/ ٧٣ هـ = ٦٩٢ م) : إبن الأثير ٤/ ٢٢ - ٢٤ ، العقد الفريد ٢/ ١٨٢ ، الازرقي ١/ ١٩٦ - ٢٠٠ ، مروج الذهب ٥/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، الاخبار الطوال ص ٣٠٤ وما بعدها

(٢) هناك من يرى ان الذبيح إنما فُدي بوعل (وهو التيس الجبلي) ، ومن يرى أنه تيس من الأروي ، ولكن الجمهور على أنه كبش ، ولذا يفضل العلماء الأضحية بالغنم عنها بالبقر والابل (تفسير الطبري ٢٣/ ٨٦ - ٨٧ ، تفسير القرطبي ١٥/ ١٠٧)

(٣) إبن كثير ١/ ١٥٨ ، شفاء الغرام ٢/ ٩ ، تاريخ الخميس ص ١٠٨ ، الازرقي ١/ ١٥٩ - ١٦٠ ، تفسير الألوسي ٢٣/ ١٣٤ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٨٣ - ٨٤ ، ٨٧ ، تفسير القرطبي ١٥/ ١٠٦ ، فتاوى إبن تيمية ٤/ ٣٣٥ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧

(٤) إبن كثير ١/ ١٦٠ ، إبن الأثير ١/ ١٨٠ ، إبن خلدون ٢/ ٣٣٧ ، شفاء الغرام ٢/ ١١ ، تفسير الألوسي ٢٣/ ١٣٤ ، ١٣٦ تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٧ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٨٥

(حـ) قصة الذبيح والتضحية البشرية

عرفت بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم نظام الضحايا البشرية التي كانت تقدم على مذابح الآلهة وعند دفن الملوك ، وتدلنا حفائر « أور» السومرية على قدم تلك العادة ، إذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزرائهم ، ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل أو الضرب العنيف ، ولهذا يعتقد « سير ليونارد وولي » أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم ، إيماناً منهم بالإنتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء ، كحالتهم في الحياة الأرضية ، هذا وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعاً يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الذي كان مقدمة للذبح الرمزي ، واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس في الإحتفالات العامة ، ولا سيما الإحتفال برأس السنة[1] .

وتدلنا مقبرة « زفا حعبي » - الحاكم المصري في كرمه بالسودان على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م.) - على إتباع نفس العادة ، إذ ضحى باكثر من مائتي شخص من خدمه وأتباعه ، ثم دفنوا في الممر المؤدي إلى قبره ، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه العادة ربما كانت معروفة في مصر في عهد ما قبل الأسرات ، وربما في الأسرة الأولى كذلك ، ولكنها إنقرضت بعد ذلك[2] .

ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى الكنعانيين والفينيقيين ، فقد كانت

(١) عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٧٢ ، وأنظر وكذا
L. woolley, ur of the chaldees, EXCAVATIONS AT UR, 1963 وكذا
Hooke, Origins of Early Semitic Ritual

(٢) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٣٢٠

التضحية بالطفل البكر عرفاً جارياً لدى الكنعانيين في العصر العتيق ، وفي حفريات « جازر » دليل قاطع في هذا الصدد ، فقد وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بين بين ، مودعة في أسس المنازل ، وقد إحتفظ الفينيقيون بهذه العادة إلى عصور قريبة ، حتى روى « فيلون » أن من عادات القوم في حالات الأخطار العامة ، أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم[(١)] ، وطبقا لرواية التوراة ، فإن المؤابيين إنما كانوا يفعلون كذلك ، وقد ضحى ملك مؤاب (ميشع) بإبنه البكر لالهه شمس ، لينقذه من قوات إسرائيل ويهوذا التي أحاطت به[(٢)] . هذا وقد تبينّ من مخلفات المدافن من « أم التار » في « أبو ظبي » أنها تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة في المدفن المشترك ، ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التي تواكب مراسم الدفن ، حيث توضع جثث الأشخاص الذين يضحى بهم خارج المبنى الذي يضم جثة المتوفي[(٣)] .

وهنا ـ فيما يبدو لي ـ تظهر أهمية قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام ، في التاريخ الإنساني ، إذ كتبت عليه ضريبة الفداء ، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان[(٤)] ، ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التي يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم ، فإن الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة ، ومثلا أعلى ، لأرفع صور الإيمان وأجلها في تاريخ الإنسانية ، وفي الوقت

---

(١) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ١٤٥

(٢) ملوك ثان ٣ : ٢٧

(٣) G. Bibby, Looking for Delmun, London, 1970, P. 212 وكذا
K. Thorvidsen, Kumal, 1962, PP. 217-218

(٤) عباس العقاد : الإسلام دعوة عالمية ص ٢١٨ ـ ٢١٩

ذاته ، فإنه ـ جل وعلا ـ قد أعطى الإنسانية نفسها ، مثلا حيّاً في إبراهيم وابنه إسماعيل ، تمهيداً لمنع هذه العادة البربرية ، فيأمره بذبح ولده ، ثم يفتديه بكبش عظيم ، ومن هنا كان ارتباط هذا الحادث إرتباطا وثيقاً ، بظاهرة التضحية البشرية ، التي كانت تمارس في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، والحث على إستبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية[1] .

ومن عجب ، أن ذرية إبراهيم من إسحاق ، لم يكونوا على مستوى الدعوة ، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى ونزول التوراة ، ويتضح هذا من رواية سفر الخروج[2] ، حيث يحرم الله على بني إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قرباناً إلى الله تعالى ، كما يتضح كذلك من سفر اللاويين[3] ، حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطي إبنه قرباناً لملكوم ـ إله العمونيين ـ وقد كانوا يقدمون له الذبائح البشرية ، لا سيما من الأطفال[4] .

ومع ذلك فقد ظل أمراء بني إسرائيل ينذرون أبناءهم ، محرقة على المذابح ، كما فعل « يفتاح الجلعادي » حين نذر للرب « إن دفعت بني عمون ليدي ، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون ، يكون للرب ، وأصعده محرقة »[5] ، وتشاء الأقدار أن تكون إبنته الوحيدة هي التي تهب للقائه عندما عاد من معركته هذه ، ومن ثم فقد إضطر أن يفي بنذره هذا بعد شهرين[6] .

---

(١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١٧٤

(٢) خروج ٢٢ : ٩

(٣) لاويون ١٨ : ٢١ ، ٢٠ : ٢

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٧٢١

(٥) قضاة ١١ : ٣٠ ـ ٣١

(٦) قضاة ١١ : ٣٤ ـ ٤٠

وهكذا بقي الاسرائيليون ، وحتى عصر القضاة ، يمارسون التضحية البشرية - تقليداً للكنعانيين والمؤابيين وغيرهم - رغم أنها ليست من شريعة موسى ، ورغم أنهم نهوا عنها مراراً ، بل إن الأمر قد بقي كذلك ، حتى عصر ارمياء النبي (٦٢٧ - ٥٧٧ ق.م.) الذي نعى عليهم أنهم « بنو المرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار » ، وحتى عصر أشعياء ، الذي يقول لهم : « يا بني الساحرة ، نسل الفاسق والزانية . . . المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل »[1] .

---

(١) أشعياء ٥٧ : ٣ - ٥

الفَصْلُ الخَامِسُ

الكَعْبَةُ الشَّرِيفَة

(١) بناء الكعبة

لا ريب في أن الكعبة، إنما قام ببنائها الخليل وولده إسماعيل - عليهما السلام - الأمر الذي يؤكده القرآن الكريم، ويرتضيه محققو المؤرخين، إلا أن نفراً من المؤرخين، إنما يحلو لهم أن يقدموا لنا روايات ترجع ببناء الكعبة إلى ما قبل عهد إبراهيم بآلاف السنين، بل أن البعض إنما يذهب إلى أنها قد بنيت قبل أن يبرأ الله الأرض نفسها، وهكذا وجدت لدينا روايات تنسب بناء الكعبة إلى الملائكة، وقبل أن يخلق آدم بألفي سنة، بل إن هذا النفر إنما يذهب إلى أن الملائكة قد خاطبت آدم عند حجه إلى البيت الحرام، وبلسان عربي مبين، قائلة: «برً حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» بينما تواضع بعض هؤلاء الرواة فنسب بناء الكعبة إلى آدم فحسب، وتواضع بعض آخر أكثر، فنسب بناءها إلى شيث بن آدم، وأن هذا البيت المقدس، إنما غرق في طوفان نوح، حتى أتى إبراهيم فأعاد بناءه [1].

على أن فريقاً آخر، إنما يذهب إلى أن الكعبة، إنما أقيمت في مكان معبد قديم للعماليق، إندثر واختفى قبل قدوم إبراهيم إلى الحجاز، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس، حتى أن المصريين القدامى، إنما كانوا يسمون بلاد الحجاز «البلاد المقدسة» [2]. بل إن البعض قد زاد، فأراد أن يطوّع

(١) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١/ ٩٣ - ٩٤، تفسير المنار ١/ ٤٦٦، تفسير البيضاوي ١/ ١٧٢، الكشاف ١/ ٣١١، تاريخ الخميس ص ١٠٠ - ١٠٤، ١٣٣، نهاية الأرب ١/ ٢٢٨ - ٢٣٠، ياقوت ٤/ ٤٦٣ - ٤٦٥، الازرقي ١/ ٣٢ - ٥٣، الحربي: كتاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة ص ٤٨١ - ٤٨٢، علي حسني الخربوطلي: الكعبة على مرّ العصور ص ٥ - ١٠

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠، مع ملاحظة أنه ليس هناك شيء مؤكد من الناحية التاريخية عن هذا الإسم

الآيتين الكريمتين، «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت» [1] و«إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل» [2]، لتتفق مع هذا الهدف، فرأى أنهما تلهمان أن هذه المنطقة كانت معروفة، وأن الكعبة ربما أقامت على أنقاض معبد قديم، جرت عليه أحداث تاريخية وجغرافية غيرت من طبيعة المكان وأهمل هذا المعبد، حتى هيىء لإبراهيم أن يرفع قواعده من جديد [3].

والرأي عندي أن الكعبة المشرفة، إنما ترجع في بنائها إلى الخليل وولده إسماعيل، عليهما السلام [4]، دون غيرهما من العالمين، يقول سبحانه وتعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» [5]، ويقول

---

(١) سورة الحج : آية ٢٦

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٧

(٣) احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص١٦٧ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٥٤ ، قارن : تفسير القرطبي ٢/ ١٢٠ ، الكشاف ١/ ٣١١

(٤) نلاحظ في الآية الكريمة « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » ، تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول ، إشارة إلى أن المأمور من الله إنما هو ابراهيم ، وإنما كان إسماعيل مساعداً له ، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة (تفسير المنار ١/ ٤٦٩ ، البداية والنهاية ١/ ١٥٦) ، ثم قارن تفسير الطبري ٣/ ٦٤ - ٦٧ ، ٧١ - ٧٢ ، حيث نرى أن النبيين الكريمين قد رفعا القواعد معا بدليل قوله تعالى « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمه مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » (البقرة : آية ١٢٧ - ١٢٨) .

(٥) سورة البقرة : آية ١٢٥ - ١٢٧

سبحانه وتعالى «أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» (١)، ويقول «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (٢).

ويرى الإمام إبن كثير وغيره من العلماء، أنه لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم ﴿ﷺ﴾ أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام (٣)، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت، فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء، موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، ولنعرف ذلك كله، فلنعد إلى القصة من أولها.

إستجابت هاجر لما إرتآه الخليل عليه السلام - كما أشرنا آنفاً - من أن يجنبها النزاع الذي قد يتفاقم بين سارة وهاجر، والغيرة التي قد تقتل سارة، وتزعج أمن إبراهيم واستقراره، ومن ثم فقد قام الخليل برحلته إلى الحجاز، ومعه هاجر وإسماعيل، إمتثالاً لأمر الله ورغبة في نشر الايمان في بيئة جديدة، وفي مناخ جديد، وإلا لو كان الأمر مجرد إبعاد هاجر وولدها إسماعيل عن سارة، لكان الأولى بإبراهيم - وهو الرحيم بولده، الحنون على زوجه - أن يذهب بهما إلى أرض الكنانة، فيحقق بذلك عدة أغراض، تستقر زوجه عند أهلها، ويطمئن على ولده عند خوؤلته، ولا

---

(١) سورة آل عمران : آية ٩٦ - ٩٧

(٢) سورة الحج : آية ٢٦ - ٢٧

(٣) إبن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٦٣ ، الكشاف ١/ ٤٤٦ ، تفسير المنار ١/ ٤٦٦ - ٤٦٧ ، تفسير الطبري ٣/ ٧٠ ، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٨ تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٧

نقول يرد المرأة إلى أهلها، بدل أن يقذف بها هناك في صحراء جرداء، لا زرع فيه ولا ماء.

ولكن الخليل ـ عليه السلام ـ لم يكن يفعل ما فعل بأمر من نفسه، أو بأمر من سارة ـ كما يحلوا للسطحيين من المؤرخين ـ وإنما كان يفعل ذلك كله بأمر من رب إبراهيم، تمهيداً لأعظم مهمة، خلدت ذكر إبراهيم، وهدت أقواماً إلى الإيمان بالواحد القهار، أعني أول بيت وضع للناس ـ بيت الله الحرام ـ وليعيش إسماعيل هناك، وحتى يخرج من ظهره أشرف الأولين والآخرين، رسول الله ﴿ﷺ﴾ وحتى تنشأ هناك خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وهكذا، فالرأي عندي أن هجرة أبي الأنبياء بولده الحبيب وأمه، إنما كانت لأمر أراده الله، وليست إنتقاماً من سارة، أرادت به أن يذهب الخليل بزوجه وولده إلى مكان سحيق، لا تعرف عنهم شيئاً، ثم يعود إليها الخليل وحده، ولهذا يتجه البعض أن هجرة إبراهيم بولده وزوجه إلى الأرض المقدسة في الحجاز إنما كانت بعد أن أمر الله إبراهيم ببناء البيت (١).

ومن هنا فإن الروايات التي ذهبت إلى أن سارة في قرارها الغاضب هذا أقسمت لتقطعنّ من هاجر ثلاثة أعضاء، ومن ثم فقد أمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها، فتبر بقسمها، وهكذا كانت هاجر أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنيها منهن (٢)، روايات لا تتفق ومكانة الخليل أبداً، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ.

وليت الذين يذكرون ذلك كله يعرفون أن المصريات كن يلبسن «الحلقان» في آذانهن قبل تلك الأيام بمئات السنين، وأن الختان عادة

(١) تفسير الطبري ٣/ ٦٨ ـ ٦٩

(٢) إبن كثير ١/ ١٥٤، العقد الفريد ١/ ١٣٥، تاريخ الخميس ص ١٠٥، شفاء الغرام ٢/ ١٥، المقدسي ٣/ ٥٣، قارن: مروج الذهب ٢/ ١٩ ـ ٢٠

مصرية متأصلة، تفرد بها المصريون دون شعوب المنطقة جميعاً، منذ أن كان فجر التاريخ، وأن اليهود لم يعرفوا هذه العادة إلا إبان إقامتهم في مصر، حتى أن التوراة نفسها لم تتحدث عن سنة الختان إلا بعد زيارة إبراهيم لمصر، وأنه لا يوجد شعب في حوض البحر المتوسط كان يتبع هذه السنة غير المصريين، ثم إنتقل بعد ذلك منهم إلى السوريين والفينيقيين، وأن هيرودت يروي أنه سألهم عن هذه العادة، فقالوا إنهم أخذوها من المصريين، الذين كانوا يتحرون بها النظافة والطهارة، وما يزال الختان حتى اليوم في عرف المصريين يسمى «الطهارة»، ولعل هذا هو السبب في أن المصريين كانوا يعتبرون أي قوم غير مختونين دنسين، ومن ثم فقد كانوا يقطعون غلف القتلى من هؤلاء القوم، الأمر الذي يبدو واضحاً في حروب مربنتاح (١٢٢٤-١٢١٤ ق.م) ورعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م)[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن الأسرة المباركة، سرعان ما تصل إلى الأرض الطيبة، حيث تبقى هاجر ووليدها العظيم، بينما يعود الخليل إلى فلسطين، وهنا تقدم لنا الروايات العربية منظراً فريداً في التاريخ، يقدم الخليل فيه ـ كما تقدم هاجر كذلك ـ دليلا ما بعده دليل على قوة الايمان بالخالق الأعظم.

تقول الروايات أن الله أوحى إلى إبراهيم أن يأتي مكة، وليس بمكة يومئذ بيت، وكان موضع البيت ربوة حمراء، وإن كانت هناك روايات تذهب إلى أن أناساً من العماليق كانوا وقت ذاك خارج مكة وما حولها،

(١) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٢٣٠، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦ ص ١٤ ـ ١٥، جوزيف لويس: الختان ص ٥٢ ـ ٥٤ وأنظر: أبكار السقاف: إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ـ القاهرة ١٩٦٧، تكوين ١٢: ١٠ ـ ٢٠، ١٧: ٩ ـ ٢٧.

وأن واديها قد اتخذ من قبل أن تبنى موئلاً للراحة من قبل رجال القوافل - سواء إبان قدومها من ناحية اليمن قاصدة فلسطين، أو متجهة من فلسطين إلى اليمن - ولكنه كان فيما خلا ذلك، من أشد الأماكن خلاء أو يكاد، وهناك في هذا المكان المقفر، يترك إبراهيم هاجر وإسماعيل، عند دوحة فوق زمزم، ويقفل راجعاً، فتناديه هاجر: يا إبراهيم إلى من تكلنا؟ فيقول: إلى الله، فتقول له: إنطلق فإنه لا يضيعنا، وينطلق إبراهيم حتى إذا ما كان عند الثنية حيث لا يرونه، يستقبل بوجهه البيت ثم يدعو بهذه الدعوات [1]، «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس [2] تهوي إليهم، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» [3].

وفرغ الطعام والماء فعطشت هاجر وعطش وليدها وراح يتلبط، ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها تتمزق، وكاد عقلها أن يطيش، وراحت تسعى بين الصفا والمروة تتلهف على رؤية أحد ينقذ ولدها من الموت عطشاً حتى إذا ما أتمت السعي سبع مرات،

---

(١) ابن كثير ١/ ١٥٤ - ١٥٥، إبن الأثير ١/ ١٠٣، تاريخ الطبري ١/ ٢٥٢ - ٢٥٣، تفسير الطبري ٣/ ٦٢، ١٣/ ٢٣٠ - ٢٣٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/ ١٣٦، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥، شفاء الغرام ٢/ ٣، تاريخ الخميس ص ١٠٦، تفسير الألوسي ١٣/ ٢٣٦، المقدسي ٣/ ٦٠، الازرقي ١/ ٥٤، ٢/ ٣٩، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٦، قصص القرآن ص ٥٧ - ٥٨، قصص الأنبياء ص ١٠٤ - ١٠٥، مروج الذهب ٢/ ١٨

(٢) يروي ابن عباس وغيره أن الله سبحانه وتعالى، لو قال «أفئدة الناس» ولم يقل «أفئدة من الناس»، لازدحم عليهم الفرس والروم والناس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «من الناس»، فاختص به المسلمون (تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٢، روح المعاني ١٣/ ٢٣٨، ٢٣٩، تفسير البيضاوي ١/ ٥٣٣، تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/ ١٣٧، تفسير القرطبي ٩/ ٣٧٣، تفسير النسفي ٢/ ٢٦٤)

(٣) سورة ابراهيم: آية ٣٧

عادت إلى إسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه في فرح وتغرف الماء في سقاتها وشربت وأرضعت وليدها، واذا بملك عند زمزم يقول لها: لا تخافي الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيّع أهله [1].

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل وأمه النجاة، وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله، وصدق عز من قال «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو إعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكر عليم» [2]، ويروي إبن عباس عن الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - قوله «فلذلك سعى الناس بينهما»، أي بين الصفا والمروة، ولست أدري: هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة أم إسماعيل - عليها السلام - أن ملايين المؤمنين على مرّ السنين سوف يسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان في ذلك السعي من خير وبركة [3].

ويمر نفر من جرهم - أو من العماليق على رواية أخرى بواد قريب من مكة، ويعرفوا بأمر زمزم، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى يعرضوا على هاجر

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٥٣ - ٢٥٨، إبن الاثير ١/ ١٠٣ - ١٠٥، إبن كثير ١/ ١٥٥، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥، ياقوت ٣/ ١٤٨ - ١٤٩، العقد الفريد ١/ ١٣٣، شفاء الغرام ٢/ ٣ - ٤، الحربي: المرجع السابق ص ٤٨٤ - ٤٨٥، تفسير الطبري ٣/ ٦٩؛ المقدسي ٣/ ٦٠ - ٦٢، روح المعاني ١٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧، مروج الذهب ٢/ ١٨، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٦ - ٣٧، قصص القرآن ص ٥٨ - ٥٩، قصص الأنبياء ص ١٠٥، حياة محمد ص ١٠٣ - ١٠٥، الازرقي ١/ ٥٤ - ٥٥، ٢/ ٣٩ - ٤٠

(٢) سورة البقرة: آية ١٥٨

(٣) محمود الشرقاوي: المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٦٧، قصص الأنبياء ص ١٠٥، الازرقي ٢/ ٤٠، مروج الذهب ٢/ ١٩، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/ ١٣٦، تاريخ الخميس ص ١٠٦، العقد الفريد ١/ ١٣٥، شفاء الغرام ٢/ ٣ - ٦، ١٦ مروج الذهب ٢/ ٤٦ - ٤٧، تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٠ - ٢٣٢، تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٩ - ٢٧٠ (طبعة ١٩٦٧)

أن يقيموا في جوارها، على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، وشب إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم، فضلاً عن الزواج بواحدة من بناتهم [1]، وإن كانت التوراة تذهب إلى أن أمه قد أخذت له زوجة من أهلها من مصر [2]، كما أن هناك من المؤرخين المسلمين أنفسهم من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش ولغة الجنوب - أي بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين - فلو كان إسماعيل قد تعلم العربية من جرهم لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغيرها ممن نزل مكة، فضلا عن أن منزلة يعرب عند الله ليست بأعلى من منزلة إسماعيل، كما أن منزلة قحطان ليست عند الله بأعلى من منزلة إبراهيم خليل الرحمن، فيمنع إسماعيل فضيلة اللسان العربي التي أعطيت ليعرب بن قحطان[3]، ولهذا ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين[4]، بل إن هناك من يذهب إلى أن قحطان نفسه من ولد إسماعيل[5].

وعلى أي حال، فإن صاحب الإكليل، إنما يذهب إلى أن سبأ بن يشجب

---

(١) إبن كثير ١/ ١٥٥، إبن الأثير ١/ ١٠٣ - ١٠٤، مروج الذهب ٢/ ٤٦ - ٤٧، تاريخ الطبري ١/ ٢٥٨، تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٠، تفسير البيضاوي ١/ ٥٣٣، تفسير الألوسي ١٣/ ٢٣٧، تفسير القرطبي ٩/ ٢٧٤، قصص القرآن ص ٦٣، الازرقي ١/ ٥٧، ٢/ ٤٠ - ٤١ العقد الفريد ١/ ١٣٣، شفاء الغرام ٢/ ٤، تاريخ الخميس ص ١١٠، الإكليل ١/ ٩٨ - ١٠٢، ١١٧، المعارف ص ١٦ - ١٧، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٧، ٢/ ٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) تكوين ٢١ : ٢١

(٣) مروج الذهب ٢/ ٤٦

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٦، تاريخ الخميس ص ١١٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢١، العقد الفريد ١/ ١٣٤، لسان العرب ٢/ ٧٥، تاج العروس ٢/ ٣٥٢، شفاء الغرام ص ١٣، قارن : ياقوت ٤/ ٩٨

(٥) الإكليل ١/ ١٠٣ - ١٠٥، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٤١ - ٢٤٢، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٣٩٦ - ٣٩٧

- أو ولده حمير - هو الذي سيرً جرهم إلى جبال الحرم والحجاز، ولاة على العماليق وعبد ضخم، فكانوا بنجد وكذا الطائف وأجبل الحرم، ووادي مكة يومئذ خاوٍ لا يدخلونه إلا رعاة، حتى إذا ما جاءت هاجر وولدها، أقاموا معهم وتزوج إسماعيل منهم (١).

وأياً كان الأمر، فإن الخليل لم يكن ليترك ولده الحبيب في ذلك المكان الموحش القفر بوادي مكة، دون أن يزوره، بين الحين والحين، فقد كان لا ينقطع عن زيارة هاجر وإسماعيل، ليشد الأواصر بين الأخوين، إسماعيل وإسحاق وربما ليزيل الجفوة بين هاجر وسارة، وإن كان المصادر العربية تتجه إتجاها عجيباً، فهي تروي أن الزيارة ما كانت تتم إلا برضى من سارة، وبشرط ألا ينزل عند هاجر، وحتى بعد وفاة هاجر، فإن سارة إنما كانت تفرض على إبراهيم ألا ينزل كذلك عند إسماعيل، وسار نفر من المؤرخين المحدثين في الركب، وزادوا أنها اشترطت كذلك ألا ينزل عن جواده (٢).

ولست أدري كيف نسي هؤلاء المؤرخون - أو تناسوا - أن هاجر كانت ما تزال زوجة للخليل، فما حدثنا مصدر قط عن فراق بينهما، وأن هاجر وسارة - رضي الله عنهما - كلتاهما زوجة فاضلة للخليل، عليه السلام، ولكل منهما من الحقوق وعليها من الواجبات، ما للأخرى وما عليها، وأن إسماعيل هو ولد إبراهيم البكر، وإذا كانت الروايات العربية على صواب فيما ذهبت إليه، من أنه كان ما يزال صغيراً عندما تركه، فهو إذن ليس البكر فحسب، ولكنه الوحيد كذلك، لأن الخليل لم يرزق

(١) الإكليل ١/ ١٠١

(٢) إبن الاثير ١/ ١٠٤، تاريخ الطبري ١/ ٢٥٨، تاريخ الخميس ص ١١١، تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٧، مروج الذهب ٢/ ١٩ - ٢١، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص ١٥، قارن: تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٦

باسحاق، إلا وكان إسماعيل في الرابعة عشرة من عمره، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف قبل هؤلاء المؤرخون أن لا يزور إبراهيم زوجه وولده، إلا بإذن من سارة، فأيهما صواب القوامة على الآخر، والله سبحانه وتعالى يقول «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض» [1]، ويقول «وللرجال عليهن درجة» [2]، ثم أليس لهاجر في إبراهيم حق كسارة تماماً، والعدل بين النساء أمر لا يحتاج إلى إيضاح، وليس من شك في أن الخليل عليه السلام، كان أعلم بذلك كله، وأحرص عليه، من هؤلاء الذين كتبوا ما كتبوا.

ثم ألم يكن إسماعيل ولده، وله فيه حق كإسحاق تماماً، إن لم يفق حق سارة في إبراهيم، أم أنه إبن الجارية - كما تزعم يهود، وكما يرد المؤرخون الإسلاميون مزاعم يهود في كتبهم - ومن ثم فليس له حق في أبيه، إلا أن تأذن سارة، وحتى هذه، فلست أعرف نوعين من الأبوة، نوع لإبن الحرة، وآخر لإبن الجارية، ثم وليقرأ هؤلاء صفات هذا وذاك في القرآن الكريم.

وأخيراً، فهل عرف هؤلاء المؤرخون أن الرحلة من فلسطين إلى مكة في هذه الصحراوات المقفرة، تحتاج إلى راحة، بعد عناء السفر، ومشقة الطريق، ثم كيف بعد كل هذا يرون أن إبراهيم قدم إلى مكة في إحدى زياراته لولده، فرفض أن ينزل من على دابته، رغم إلحاح زوج ولده، مما إضطرها إلى أن ترجل له شعره، وتغسله له، بل ويشرب لبناً، ويأكل

---

(1) سورة النساء: آية ٣٤، وانظر تفسير الكشاف ١/ ٥٠٥

(2) سورة البقرة: آية ٢٢٨ وانظر: تفسير الطبري ٤/ ٥٣٣، ٥٣٦ (دار المعارف بمصر)، تفسير الكشاف ١/ ٢٧٢

شرايح من لحم، وهو ما يزال على دابته، وأنه ترك آثار رجليه على حجر كان يتكىء عليه أثناء ترجيل شعره أو غسله [1]، وإذا قيل أن الأرض كانت تطوي له، وأنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فسؤال البداهة هنا: كيف قبل هؤلاء المؤرخون أن يسجلوا في كتبهم أن الخليل ـ عليه السلام ـ لم يزر إسماعيل ـ منذ أن تركه رضيعاً مع أمه هناك في واد قفر ـ إلا بعد أن تزوج إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكيف قبلوا أن يسجلوا على أنفسهم أن أبا الأنبياء تخلف كل هذه الفترة عن مطالعة أحوال ولده وزوجه، وهم في أشد الحاجة إليه، وهل هذا يتفق وخلق أبي الأنبياء، كما قدمه لنا القرآن الكريم [2].

ونحن لا ننكر أن تكون قدما الخليل عليه السلام، قد تركت أثراً في الحجر، فقد علمنا من القرآن معجزات للخليل أعظم من هذه وأكبر، ولكننا ننكر أن يكون السبب في ذلك أنه أبى أن ينزل عن دابته، لأن سارة إشترطت عليه ذلك، ومن ثم فإننا نشم رائحة الاسرائيليات في هذه الروايات.

وعلى أي حال، ففي إحدى زيارات الخليل لولده إسماعيل، عليهما السلام، وجده يصلح نبلاً له من وراء زمزم، فقال له: يا إسماعيل، إن الله قد أمرني أن أبني له بيتاً، فقال إسماعيل: فأطع ربك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني على بنائه، قال: إذن أفعل، فقام معه، فجعل إبراهيم يبنيه، وإسماعيل يناوله الحجارة، ثم قال إبراهيم لإسماعيل إئتني بحجر حسن أضعه على الركن، فيكون للناس علماً، وذهب إسماعيل يلتمس لأبيه حجراً، فأتاه به، ولكنه وجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه،

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٠ ـ ٢٢ ، إبن الأثير ١/ ١٠٤ ، الطبري ١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، الحربي : المرجع السابق ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ، تفسير الطبري ٣/ ٣٥

(٢) إبن كثير ١/ ١٥٧ ، تفسير القرطبي ٩/ ٣٧٠

فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر، فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء (١).

والحجر الأسود حجر صقيل بيضي غير منتظم، ولونه أسمر يميل إلى الإحمرار، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء، وقد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألأ نوراً، فأضاء شرقاً وغرباً، ويميناً وشمالاً، إلى منتهى أنصاب الحرم، وتلألؤه الموصوف دليل على أنه كان ذي لون غير السواد، وقد ثبت عن النبي (ص) أن الحجر الأسود كان ياقوتة بيضاء فاسود بذنوب العباد، وأنه (ص) قال: «نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم». وأما تقديس الحجر الأسود، فربما قد نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فهو إما أن يكون رمزاً للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده، بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمناً، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا البيت قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود، ولذا فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذي يبتدىء منه الطائفون، واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه، لذلك كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم، محترماً من ولده، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض (٢).

وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، «الكعبة المشرفة» بيتاً

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٥٠ - ٢٦٠ ، تفسير الطبري ٣/ ٦٦ - ٧٠ ، إبن الأثير ١/ ١٠٦ ، إبن كثير ١/ ١٥٦ ، ١٦٣ - ١٦٦ ، الأزرقي ١/ ٥٨ - ٦٥ ، تاريخ الخميس ص ١١٣ ، شفاء الغرام ٢/ ٤ - ٨ ، تفسير القرطبي ٢/ ١٢٢ ، قصص الأنبياء ص ١٠٦ ، قصص القرآن ص ٦٥ - ٦٧ ، مروج الذهب ٢/ ٢٢ ، قارن : اليعقوبي ١/ ٢٧

(٢) علي حسني الخربوطلي : المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠ ، لطفي جمعة : ثورة الاسلام ص ٥٩ ، الهجرسي : كتاب الحج ص ٢٥ ، وأنظر : العقد الثمين ١/ ٦٧ - ٦٨ .

لله تعالى، ليكون رمزاً للحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد، توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد، وتضرع خليل الله ودعا ربه، وأمن إسماعيل، أن يجعل الله افئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم[1]، «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من االثمرات لعلهم يشكرون»[2].

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل، عليه السلام، كان في الثلاثين من عمره، يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة[3]، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام ١٨٢٤ ق.م.، على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م، لأنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م)، ولما كان إسماعيل قد عاش مائة وسبع وثلاثين سنة، فإنه يكون قد إنتقل الى الرفيق الأعلى في حوالي عام ١٧١٧ ق.م[4].

وقد خلد القرآن الكريم بناء الكعبة، حيث يقول سبحانه وتعالى «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، ولله على الناس حج البيت من استطاع

---

(١) محمد الصادق عرجون : محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته ص ١٧

(٢) سورة ابراهيم : آية ٣٧ وانظر : تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٩ - ٢٣٥ ، تفسير الكشاف ٢/ ٣٨٠ ، تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ - ١٤٢ ، في ظلال القرآن ١٣/ ٢١٠٤ ، ٢١٠٩ - ٢١١٠ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٤/ ٨٦ - ٨٧ ، تفسير النسفي ٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ ، تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨ - ٣٧٤ .

(٣) مروج الذهب ٢/ ٢٢ ، علي حسني الخربوطلي : المرجع السابق ص ١٦

(٤) أنظر : كتابنا إسرائيل ص ١٧٧ ، ٢٠٢ ، مقالنا قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ص ٤٣٤ ، تكوين ١٢ : ٤ ، ١٦ : ٢٥ : ٧، ١٧

إليه سبيلاً[1] » ولعل في هذه الايات الكريمة إشارة إلى أن الحج الى البيت على المستطيع هو إستمرار لغرض إلهي قديم، معترف به من الناس، وممارس من بعضهم، فهو أول بيت وضع للناس [2]، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، وهو من بناء إبراهيم بما فيه من علامات هي مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً، ويلفت النظر هنا كلمة «الناس» فإنها إنما تدل على أن الحج، إنما كان على الناس كافة [3]، كما تدل كلمة «العالمين» على أن البيت الحرام، إنما هو هداية للبشرية جمعاء، وهكذا ما نرى إبراهيم يفرغ من بناء البيت، حتى يأمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج، «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» [4].

وهنا يروي إبن عباس أن إبراهيم قال: يا رب وما يبلغ صوتي، قال أذّن وعليّ البلاغ، فنادى: أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فسمعه ما بين السماء والأرض، وما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ممن سبق في علم الله ان يحج إلى يوم القيامة، فأجيب: لبيك لبيك، ثم خرج بإسماعيل معه إلى التروية، فنزل به منى ومن معه من المسلمين، فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الاخرة، ثم بات حتى أصبح فصلى بهم الفجر، ثم سار إلى عرفة فأقام بها هناك، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين، الظهر

(١) سورة آل عمران آية ٩٦ - ٩٧

(٢) هناك رواية تنسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه، مؤداها أن رجلا سأله: أهو أول بيت. فقال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس (أي الناس كافة) مباركا، فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم (الكشاف ١/ ٤٤٦، تفسير الطبري ٣/ ٦٩، ٧/ ١٩، قارن: ٧/ ٢٠، ٢٢، إبن كثير ٢/ ٢٩٩، قصص الأنبياء ١٠٦)

(٣) احمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ١٧٣، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٦٣١ - ٦٤٧ تفسير المنار ٤/ ٦ - ١٤

(٤) سورة الحج: آية ٢٧

والعصر، ثم راح إلى الموقف من عرفة، الذي يقف عليه الإمام، فوقف به على الأراك، فلما غربت الشمس دفع به ومن معه حتى أتى المزدلفة فجمع بين الصلاتين، المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بهما ومن معه، حتى إذا طلع الفجر صلى الغداة، ثم وقف على قزح حتى إذا أسفر دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمى الجمرة، وأراه المنحر، ثم نحر وحلق، وآراه كيف يطوف، ثم عاد به إلى منى ليريه كيف رمى الجمار، حتى فرغ من الحج، ويروى عن النبي ﴿ﷺ﴾، أن جبريل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحج (١).

(٢) الكعبة بعد ابراهيم واسماعيل

ظلت الكعبة بعد إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، حرماً آمناً، يقدسه العرب، على أنه البيت الحرام الذي بناه أبوهم ابـراهيم وولده إسماعيل، ثم ما لبثت هذه القداسة إن إمتدت إلى مكة ومجاوراتها، بل إن صاحب كتاب «الاصنام» ليرى أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن، إلا وقد حمل معه حجراً من حجارة الكعبة، تعظيماً لها، وصبابة بمكة، فحيثما حلو وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم وحب له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمـرون، على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار (٢).

ويروي الأخباريون أن المكيين كانوا يعظمون البيت ويقدسونه، حتى أنهم كانوا يرون أن من علا الكعبة من العبيد فهو حر، حتى لا يجمع بين

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٦٠ - ٢٦٢، تفسير الطبـري ٣/ ٧٦ - ٨٠، الأزرقي ١/ ٦٦ - ٧٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٧، ياقوت ٤/ ٤٦٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٢٨ - ١٣٠، إبـن الأثـير ١/ ١٠٧

(٢) راجع كتاب الأصنام لإبن الكلبي، وانظر كذلك العقـد الثمـين ١/ ١٣٦، نهـاية الأرب ١/ ٢٤٥، إبن هشام ١/ ٥١

عز علوها، وذل الرق [1]، على أن هذه القداسة للبيت الحرام، لم تكن مقصورة على المكيين وحدهم، وإنما إمتدت إلى سائر العرب الذين كانوا يشدون الرحال من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى مكة في مواسم معينة، ليحجوا إلى البيت الحرام وليشهدوا منافع لهم في الأسواق التجارية، التي كانت تعقد في موسم الحج من كل عام - هو الربيع على رأي، والخريف على رأي آخر [2].

ويرى «فلهاوزن» أن الشهر الحرام المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، والشهر الحرام» [3]، هو شهر الحج - وهو الشهر الأول من السنة، أي المحرم - بينما يرى المفسرون أنه رجب أو ذو القعدة أو ذو الحجة [4]، ويذهب المسعودي إلى أن الأشهر؛ إنما هي المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وأما شهور الحج فهي شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة [5]، وعلى أي حال، فلقد تحدث القرآن الكريم عن الأشهر الحرم، ورغم أنه لم يعلن عن أسمائها، ولم يزد عن أنها أربعة حرم [6]، فإن الروايات المتواترة، إنما تذهب إلى أنها: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم [7]، والأشهر الثلاثة الأخيرة هي أشهر الحج، فيما قبل الإسلام، أما رجب، فقد كان المكيون - فيما يرى البعض - يحتفلون فيه بعيد ديني، ربما كان خاصاً بقبائل مضر أو

(١) الثعالبي: ثمار القلوب ص ١٨

(٢) *SEI, P.124*

(٣) سورة المائدة: آية ٩٧

(٤) جواد علي ٦/ ٣٤٩ - ٣٥٠ وكذا *Shorter, Ency, of Islam, P.409*

(٥) مروج الذهب ٢/ ١٨٩، تفسير القرطبي ٢/ ٤٠٥، تفسير الطبري ٤/ ١١٥ - ١٢١ (طبعة دار المعارف)، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٨١

(٦) سورة البقرة: آية ١٩٧، سورة التوبة: آية ٥، ٣٦

(٧) صحيح البخاري ٦/ ٦٦، إبن سعد ٢/ ٢٧، السهيلي ٢/ ٦٠، إبن كثير ٥/ ١٩٥، مروج الذهب ٢/ ١٨٩، احمد ابراهيم الشريف: المرجع السابق ص ١٩٢

قبائل الحجاز أو بعضها، وربما كان هذا هو أصل حرمته، حتى يتمكن القوم من الذهاب والإياب، وأداء المناسك في ظل هدنة دينية مقدسة، حتى كان الرجل منهم اذا لقي قاتل أبيه أو أخيه أو ابن عمه، فلا يعرض له، ثم ما لبث في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين أن أصبح واحداً من الأشهر الحرم [1].

ويذهب الأخباريون بعيداً في تقديس الكعبة، فهو لم يكن - فيما يزعمون - مقصوراً على العرب، وإنما إمتد كذلك إلى الهند والفرس وإلى غيرهم، وهم يرون كذلك أن الهنود إنما كانوا يعتقدون أن روح «شبوه» - أحد آلهتهم - إنما تقمصت الحجر الأسود، عندما زار هو وزوجته أرض الحجاز، والأمر كذلك بالنسبة إلى الفرس الذين كانوا يعتقدون أن روح «هرمز» قد حلت في الكعبة، ويزيد المسعودي أنهم كانوا يعتقدون أنهم من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن ثم فقد كانوا يحجون إليها، وأن آخر من حج منهم إنما كان «ساسان بن بابك»، وانه كان إذا طاف بالبيت زمزم على بئر إسماعيل - كما كان أسلافه يفعلون - ومن ثم فقد سميت زمزم بإسمها هذا [2]، وهكذا نرى الأخباريين - كالعهد بهم يحولون الهنود والفرس إلى مقدسين للبيت الحرام، حاجين إليه، متبركين بماء زمزم، فضلاً عن أن الأخيرين منهم إنما كانوا من سلالة الخليل عليه السلام[3].

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٩٢، محمد عزة دروزه: عصر النبي ص ٢١٠ - ٢١١، تفسير الطبري ١١/ ٩٣٠

(٢) هناك رواية تنسب لابن عباس على أنها سميت زمزم لأنها من زمة جبريل، أنبطها مرتين، الأولى لآدم والثانية لإسماعيل (الحربي: المرجع السابق ص ٥٠٠، البكري ٢/ ٧٠١)

(٣) جواد علي ٦/ ٤٣٩، اللسان ١٢/ ٢٧٥، مروج الذهب ١/ ٢٦٥، تاريخ الخميس ص ١٢٥، ياقوت ٣/ ١٤٧ - ١٤٨ عمدة القارىء ٩/ ٢٧٧؛ البكري ٢/ ٧٠٠، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص ٢٥.

ويمضي حين من الدهر، ويؤ ول أمر الكعبة إلى جرهم، إلا أن العماليق فيما يرى الإخباريون قد نازعوهم في الأمر، ثم سرعان ما ينشب القتال بين الفريقين، ولا تضع الحرب أوزارها حتى تكون الغلبة للعماليق، غير أن «حرهم» ما لبثت إن إستعادت نفوذها من جديد، حيث بقي الأمر فيها قرابة قرنين - وربما ثلاثة - عاد بعدهما إلى بني إسماعيل، ثم إنتزعته منهم خزاعة، بعد حرب دارت رحاها بين إياد ومضر، وهكذا بقي الأمر في خزاعة إلى أيام «عمرو بن الحارث»، فانتزع منه «قصي بن كلاب» الملك وأمر الكعبة معاً [(1)].

وأياً ما كان نصيب هذه الروايات من صواب أو خطأ، فإن هناك إجماعاً على أن عمرو بن لحي، كان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة، ومن ثم فقد غيّر دين إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، ولهذا يروي أبو هريرة عن النبي ﴿ﷺ﴾، أنه قال: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة في النار، وكان أول من سيّب السوائب»، وتضيف رواية أخرى، «وهو أول من غيّر دين إبراهيم عليه السلام [(2)].

وهناك من يذهب الى أن ذلك، إنما حدث حين رحل عمرو بن لحي إلى مدينة البلقاء بالشام، ليستشفي من مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، وحين سألهم عنها أجابوه «هذه أصنام نعبدها، نستنصرها فتنصرنا، ونستسقي بها فنسقى»، فطلب واحداً منها ليضعه في الكعبة،

---

(1) مروج الذهب ٢/ ٢٢ - ٢٤، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٥، تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٤، الأزرقي ١/ ٨٢ - ٨٧، شفاء الغرام ٢/ ٤٨ - ٥٤

(2) صحيح البخاري ٤/ ١٨٤، ٦/ ٥٤ - ٥٥، فتح الباري ٦/ ٣٩٨ - ٤٠٠، ٨/ ٢١٣، إبن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٣ - ٢٣٥، العقد الثمين ١/ ١٣٦، شفاء الغرام ٢/ ٢١، ٤٦ - ٤٧، تاريخ الخميس ص ١٢٤، الإشتقاق ٢/ ٤٧٤، مروج الذهب ٢/ ٢٩ - ٣٠، روح المعاني ٧/ ١٩٧

فأعطوه صنماً يقال له «هبل»، فقدم به إلى مكة ووضعه عند الكعبة[1]، ويميل بعض المؤ رخين المحدثين إلى هذا الرأي، معتمدين في ذلك على أن إسم هبل، إنما هو مشتق من لفظ أرامي بمعنى الروح، هذا ويميل بعض المستشرقين إلى أن هبل إنما هو رمز إله القمر، وأن قريشاً من شدة تعظيمها له، إنما وضعته في جوف الكعبة [2]، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن صورة الحية أوتمثالها، إنما يشير إلى هبل، أو إلى هبل وود [3]، وأخيراً فهناك ما يشير إلى أن هبل إنما كان من معبودات العرب الشماليين، بدليل أن إسمه قد ورد ـ بجانب ذي الشري ومناة ـ في نقوش نبطيه من الحجر، كما أن هناك أشخاصاً من قبيلة كلب قد حملوا إسمه [4].

وأياً ما كان الأمر، فإذا صدقت الرواية التي تذهب إلى أن الذي جاء به إلى مكة، إنما هوعمرو بن لحي [5]، فربما كانت تلك وسيلة من وسائل عمرو هذا، لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال، وإيناسهم بها كلما دخلوا إلى الحجاز، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام، وهم جميعاً حريصون على تقريب هذه الشقة، وحماية روادها من كل قبيل، ومن ثم فقد عمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز عند الأنباط، فوضعوا في

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٩ ـ ٣٠، ٢٢٧، الأزرقي ١/ ٨٨، ١١٧ ـ ١١٨، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٤، تاريخ الخميس ص ١١٣، بلوغ الأرب ٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، إبن كثير ٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨، إبن هشام ١/ ٦٤، تاج العروس ٨/ ١٦٨

(٢) جواد علي ٦/ ٢٥٣ وكذا *A.Grohmann, Arabien, P.87*

(٣) *A.Grohmann, op-cit, P.87*

(٤) *J.Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, I, P.664*

(٥) هناك رواية تذهب إلى أن الذي جاء بهبل إنما هو «خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» ولذا قيل لهبل «هبل خزيمة» [أنظر: الأصنام ص ٢٨، ابن سعد ١/ ٣٩، نهاية الأرب ١٦/ ١٢]

الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبط، يعدّ منها الرواة [1] هبل واللات [2] ومناة، التي قيل أنها من المنية بمعنى «القدر المقدور» معبـود النبـطيين، وقولهم حانت منيته وحان قدره، بمعنى واحد عند عباد مناة [3]، وربما كان للكلمة صلة بالكلمة الأرامية «مناتا» والعبرية «منا»، وبكلمة «منية» وجمعها «منايا» في عربية القرآن الكريم، وهي بذلك تمثل الحظوظ الأماني - وبخاصة الموت - ومن ثم فهي آلهة القضاء والقدر [4]، أضف إلى ذلك أن إرتباط « مني meni » بـ « جد Gad » في العهد القديم ، قد يشير إلى ذلك أيضاً ، لأن كلاً منهما إنما يعني المستقبل ، وإن كان الأول إنما يعنيه بمعناه الضار في أغلب الأحايين ، على عكس الثاني ، الذي قد يعني الحظ السعيد والمستقبل المشرق[5].

---

(١) الازرقي ١/ ١٢٤ - ١٢٨ ، كتاب الأصنام ص ٢٨

(٢) اللات : من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب ، ويبدو أنها قد انتقلت إلى الحجاز على يد عمرو بن لحي من الأنباط والقبائل العربية الشمالية ، وقد كانت صخرة مربعة بيضاء بنت عليها ثقيف بيتاً تضاهي به الكعبة المشرفة ، وكانت تخصها بما تخص به قريش العزى ، كما كانت العرب كلها تعظمها كذلك وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها « غبغب » حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم ، ولما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ، ﴿ﷺ﴾ ، المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، ثم أخذ الأموال التي كانت بالغبغب ، وسلمها إلى أبي سفيان ، إمتثالا لأمر النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا وقد جاء ذكر اللات - بجانب العزى ومناة - في القرآن الكريم (سورة النجم : آية ١٩ - ٢٣ ، وأنظر : كتاب الأصنام ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ياقوت ٥/ ٤ ، تفسير إبن كثير ٤/ ٢٥٣ ، محمد عبد المعين خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١١٩ ، اللسان ٢/ ٣٨٨ ، جواد علي ٦/ ٢٢٩ ، تاريخ الطبري ٣/ ٩٩ ، البداية والنهاية ١/ ١٤٩ ، إبن هشام ٢/ ٣٢٦ ، موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ٣٦٠ ، تفسير الطبري ٢٣/ ٦٧ - ٦٩ ، روح المعاني ٢٣/ ١٣٥)

(٣) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٥٩

(٤) *J.Starcky, Palmyreniens, Nabatéens et Arabes du Nord avant l'Islam* P.P.214-215
J.Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, P.P.25-29

(٥) *J.Hastings, op-cit*, P.P.275,600

على أن هناك من يرى أن «مناة» لا تمثل القدر، الذي تمثله مناتو البابلية، و«منا» العبرية، ذلك لأن الدهر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل، لا إمرأة، وقد يفسر هذا إستقسام العرب عند هبل وذي الخلصة بالأزلام، وحلفهم فقط أمام مناة، ويؤكد صفة مناة كذلك أن سيفي الحارث الغساني (مخذوم ورسوب) عثر عليهما على بن أبي طالب رضي الله عنه عند مناة حينما هدمت، لأن السيف رمز العدالة، والإنصاف عند أهل البادية [1].

وأياً ما كان الأمر، فلقدلعبت أيدي الوثنية الخبيثة بدين إبراهيم الحنيف، وأصابت النكسة عقيدته السمحاء ـ التي قضى عمره يرفع لواءها في كفاح طويل وجهاد موصول، فحطم الأصنام وتحدى الجبابرة ـ وهكذا إنقلب القوم إلى عبادة الأصنام، وجهلوا سر الفداء، وسر البقاء، وبدأ عصر الوثنية وتقديس الأصنام، إلى درجة أن الرجل منهم كان يأخذ معه في أسفاره أي حجر من أحجار الكعبة، يصلي إليه، ويستأذنه في الإقامة والسفر، ويؤدي إليه كل ما يؤدي للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة، ومن ثم فقد إستقرت الوثنية وقدست التماثيل وقدم العرب لها القرابين [2].

ويروي الأخباريون أن الجاهليين كانوا قد وضعوا «أسافاً» و«نائلة» داخل المسجد الحرام، وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم به، وإن كانت هناك رواية أخرى تذهب إلى أنهما قد وضعا على الصفا والمروة، وأن عمرو بن لحي هو الذي نقلهما إلى الكعبة، ونصبهما على زمزم، وعلى أي حال، فيبدو أن

(٢) عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب ١/ ٦٤٠

(٢) ابن كثير ٢/ ١٩١ ـ ١٩٢ ، الازرقي ١/ ١٢٣ ، كتاب الاصنام ص ٣٢ ، حياة محمد ص ١٠٠

قداسة هذين الصنمين، إنما كانت مقصورة على قريش، وأن القبائل الأخرى لم تكن تشاركها في تقديسهما، وربما كان هذا هو السبب في الروايات التي دارت حولهما، وأنهما صنمان إستوردهما القوم من الشام، وإن ذهبت روايات إلى أنهما من اليمن، من جرهم، هذا وقد نصب القرشيون كذلك على جبل الصفا صنماً يقال له «مجاور الريح»، وآخر على جبل المروة، دعوه «مطعم الطير» (١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القوم لم يكونوا شديدي الإيمان بأصنامهم؛ حتى أن العرب كانت إذا حجت إلى الكعبة، سألت قريشاً عن تلك الأصنام، فكانوا يقولون لهم، إنما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «والذين إتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (٢)، وفي هذا إشارة إلى أن القوم إنما كانوا يعتقدون بوجود الله، ولكنهم يخلطون إيمانهم هذا بعبادة الأصنام وإتخاذ الأولياء والشفعاء لتقربهم إلى الله زلفى (٣)، هذا إلى أن قريشاً إنما كانت تلبيتها عند الكعبة «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» (٤)، هذا فضلاً عن قلة إحتفاء الجاهليين بتلك الأوثان والأصنام التي لا نجد لها ذكراً، إلا في مناسبات معينة، كما أنها لم تحل عند القوم محل الله، كما اتفق عند غير العرب، وعند غير الساميين على الأخص (٥).

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٣، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥ - تاريخ الطبري ٢/ ٢٤١، ٢٨٤، ياقوت ١/ ١٧٠، الازرقي ١/ ٨٨، ١١٩ - ١٢٢، إبن حبيب ص ٣١١، إبن كثير ٢/ ١٩١، تفسير القرطبي ٢/ ١٧٩ - ١٨٠، العقد الثمين ١/ ٢١٢، الروض الآنف ١/ ٦٤ - ٦٥، إبن هشام ١/ ٨٦، جواد علي ٦/ ٢٦٧

(٢) سورة الزمر: آية ٣.

(٣) أنظر: سورة الانعام: آية ١٤٨، سورة النحل: آية ٣٥، سورة الزمر: آية ٣

(٤) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٥، إبن حبيب ص ٣١١

(٥) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص ١٥٩

وأياً ما كان الأمر، فيبدو أن الأساس المهم الذي قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأصنام والأوثان التي إشتمل عليها، وربما إشتمل على الوثن تقدسه بعض القبائل، وتزدريه قبائل أخرى، فلا يغض ذلك من مكانة «البيت» عند المعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعاوى التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه، ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمكلفون بخدمته، فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنم معلوم، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير [1].

وعلى هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب، يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة، ولا يجتمع منها دين واحد يؤ من به متعبدان على نحو واحد، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله [2].

وظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة، حتى نجحت قريش آخر الأمر في أن تنتزع القيادة منها، وهنا يحلوا للأخباريين أن يقدموا لنا رواية غريبة وعجيبة في نفس الوقت، فيرون أن الاسكندر المقدوني خرج من السودان متجهاً نحو اليمن، وهناك قابله «تبع الأقرن» ملك اليمن، وقدم له الولاء والخضوع، وبعد أن أقام الاسكندر في صنعاء شهراً، إتجه إلى تهامه، وفي

---

(١) العقاد : مطلع النور ص ١١٥

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٦

مكة ـ حيث السيادة لخزاعة ـ قابله «النضر بن كنانة»، فأعجب به، ومن ثم فقد ساعده على إخراج خزاعة من مكة، وجعل السلطان فيها مقصوراً على النضر وبني أبيه، ثم حج الاسكندر، وفرق الهبات والهدايا في ولد «معد بن عدنان»، ثم عاد إلى الغرب [١].

وليس من شك في أن ذلك كله، ليس له نصيب من صواب، وأنه لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، لست أدري ما الذي دفع بصاحبها إلى القول بها، ولعل أهم ما يلاحظ عليها: (أولاً) أن الاسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ ق.م) لم يذهب إلى السودان أبداً، وبالتالي فلم يعبر البحر الأحمر إلى عدن، ثم اليمن، و(ثانياً) أن صنعاء لم تكن عاصمة اليمن في القرن الرابع قبل الميلاد [٢] ـ عصر الاسكندر ـ كما أن تبع الاقرن هذا لم يكن ملكاً بها، وأما (ثالثاً) فإن الاسكندر الأكبر لم يكن يؤمن بالبيت الحرام، حتى يحج إليه، فضلا عن أن يجعل أمر مكة بيد «النضر بن كنانة»، بدلا من خزاعة، و(رابعاً) فإن الاسكندر قد حاول السيطرة على الجزيرة العربية ـ أو على الأقل على شواطئها ـ ومن ثم السيطرة على طرق التجارة

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢) يرجع ظهور صنعاء (صنعو) إلى أيام الشرح يحضب ، أي إلى النصف الثاني من القرن الأول ق.م. — *(A.Jamme, op-cit, P.390)* وإن ذهب فلبي إلى أنها كانت في الفترة ١٢٥ ـ ١٠٥ ق.م. — *(J.B. Philby, op-cit, P.142)* ، وعلى أي حال ، فلقد تردد إسمها في النصوص التي ترجع إلى ذلك العهد ، مثل *(Jamme 575)* ، وفي أيام الحروب التي دارت رحاها بين الشرح يحضب وشمر ذي ريدان ، كما نعرف من نقش —*(Jamme 577)* ، وأن الرجل ـ كما يدلنا نقش —*RY .535* ـ قد بنى قصر غندان (غمدان) ، لما بنى « شعر أوتر » سورها (أي سور صنعاء) ، ثم بدأت المدينة تظهر بين المدن اليمنية القديمة من تلك الفترة ، حتى غدت آخر الأمر عاصمة اليمن ومقر الحكام حتى الآن (أنظر : جواد علي ٢/ ٤٤٢ ، اللسان ٣/ ٣٢٧ ، قارن : ياقوت ٣/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ، ٤/ ٢١٠ ، البكري ٣/ ٨٤٣ ، وانظر كذلك: *H.von Wissmann and: M.Höfner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien 1953, P.19, P.K.* **Hitti,** *History of the Arabs, 1960, P.57*

البحرية، وإنطلاقاً من هذا فقد أرسل حملات الاستكشاف من السويس ومن الخليج العربي، ولكن المحاولة قد توقفت بسبب وفاته في بابل، في الثامن عشر من يونية عام ٣٢٣ ق.م [١]، ويبدو أن هذه الحقيقة الأخيرة قد اختلطت بغيرها عند الأخباريين وكانت النتيجة تلك الأسطورة الآنفة الذكر.

على أنه ليس من الغريب على أصحابنا الأخباريين أن يجعلوا الاسكندر الأكبر يدخل مكة، فضلاً عن أن يكون رجلاً مؤمناً يحج إلى بيت الله الحرام ـ وهو الذي لم يكتف بتأليه نفسه عند الشرقيين، وإنما فعل ذلك في بلاد اليونان نفسها كأثينا وإسبرطه [٢] ـ ما داموا قد جعلوه من قبل أحد إثنين من المؤمنين حكموا الدنيا بأسرها [٣]، وما داموا قد جعلوا من أسلاف الفرس من حج إلى بيت الله الحرام، وما دام الخليل عليه السلام قد أصبح ـ في نظرهم ـ واحداً من أجدادهم، ومن ثم فقد ربطوا نسب الفرس بنسب العرب العدنانيين، وما دام «ساسان» قد جاء إلى الكعبة، وطاف بالبيت العتيق، وزمزم على بئر إسماعيل، ثم أهدى الكعبة غزالين من ذهب، وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً [٤].

وعلى أي حال، فمن المعروف أن أمر الكعبة قد آل إلى قريش مرة أخرى في عهد «قصي بن كلاب» ـ الجد الرابع لرسول الله ﷺ وأصبحت مكة مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية، بسبب وجود الكعبة فيها، وفي الواقع أنه رغم وجود «البيوت الحرام» في بلاد العرب،

---

(١) و.و. تارن: الاسكندر الاكبر ص ١٨٥ ـ ١٨٧، فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٥٥

(٢) ثاران: المرجع السابق ص ١٧٨ ـ ١٨٠

(٣) انظر: الطبري ١/ ٢٣٤، إبن كثير ١/ ١٤٨

(٤) مروج الذهب ١/ ٢٦٥، جواد علي ٤/ ١٦

كبيت الأقيصر وبيت ذي الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران، وغيرها من البيوت الحرام [1]، فإن واحداً من هذه البيوت لم يجتمع له ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطىء الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها، فليست في مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادي الصحراء، فمكة إذن مثابة عبادة وتجارة، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالي من عداه، وهي إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يشرون كل ما دخلها من تجارة [2].

أضف إلى ذلك أن مكة كانت عربية لجميع العرب، ولم تكن كسرية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية، كما عساها كانت تكون لو إستقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة، لا على حكم القهر والإكراه [3].

(1) ياقوت ١/ ٢٣٨، ٣/ ٤٢٧، ٤/ ٣٩٤-٣٩٥، ٥/ ٢٦٨-٢٦٩، بلوغ الأرب ١/ ٣٤٦-٣٤٧، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧-٢٠٩، ٢١٢، إبن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣، كتاب الاصنام ص ٣٨، البكري ٢/ ٦٠٣، الروض الآنف ١/ ٦٦، تاج العروس ٣/ ٣٩٧، إبن حبيب : كتاب المحبر ص ٣١٧

(2) العقاد : مطلع النور ص ١١٢-١١٣

(3) نفس المرجع السابق ص ١١٣

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في بيئة تغلي بالغارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناً، وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية، ولعل هذا هو السبب في أن تحافظ قريش على حرمة الأشهر الحرم في موسم الحج، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم.

ولم تكتف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج في منطقة يشح فيها الماء، ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الابار في منطقة مكة وأنشأت أماكن للسقاية، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القوية [1]، وهكذا غدت سقاية الحج - بجانب عمارة البيت وسدانته - عملا يراه القوم في قمة مفاخرهم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله» [2].

وكانت ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقايتهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالاتها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر في الوقت ذاته، قد أفاد قريشاً كثيراً، إذ كانت المؤاكلة في عرف العرب، إنما هي عقد جوار وحلف، فضلا عن أن الضيافة في ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلفاً مع كل القبائل العربية، تحمي به تجارتها، وتسبغ على رجالاتها نوعاً

---

(١) إبن هشام ١/ ١٥٩ - ١٦٢

(٢) سورة التوبة : آية ١٩، وانظر : تفسير الطبري ١٤/ ١٦٨ - ١٧٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٣/ ٢١٨، تفسير القرطبي ٨/ ٩١ - ٩٢، تفسير المنار ١٠/ ٢١٥ - ٢٢٠.

من التقدير والاحترام عند العرب، لا يتوفر لغيرهم [١].

وخطت قريش خطوة أخرى في إجتذاب القبائل العربية إلى مكة، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة، فكان لكل قبيلة أوثانها، تقدم في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وزاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلاثمائة صنم، فيها الكبير والصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات او النباتات، وكان أكبر الأصنام «هبل» في صورة انسان من عقيق أحمر [٢].

وهكذا تمضي الأيام وتزداد مكانة الكعبة عند العرب، حتى تصبح آخر الأمر المفخرة القومية والحرم الإلهي عندهم، ثم تغدو بعد حين من الدهر، الحوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة، عالية الرأس، غير مستكينة لأجنبي كائناً من كان، ذلك لأنهم كانوا يحسون أنهم من رعايا الروم في الشام، ومن رعايا الفرس في الحيرة، وأتباع للحبشة أو الفرس في اليمن، ولكنهم هنا - في مكة - عند بيت الله، في حرم الله، يقدسونه جميعاً، لأنه لهم جميعاً، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم، يلوذون به، ويأوون إليه، فكلهم من معبود وعابد في حمى الكعبة، لأنهم في بيت الله، وشعورهم هنا، بأنهم «عرب» لم يماثله شعور قط في أنحاء الجزيرة العربية، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه، على الرغم من سادته وحكامه، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيراً في أرضهم، لو كان شعب اليمن منصرفاً عنها، غير معتز بها، كإعتزاز البادية والصحراء [٣].

---

(١) ابن هشام ١/ ١٤٧، إبن سعد ١/ ٥٨

(٢) اليعقوبي ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥، الروض الانف ٢/ ٢٧٦، الأزرقي ١/ ١٢٠ - ١٢١، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ١/ ٣٧، جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٢٤، كتاب الأصنام ص ٢٧ - ٢٨، E.Gibbon ,op.cit,5, P.225.

(٣) العقاد: المرجع السابق ص ٥٦

(٣) محاولات هدم الكعبة

ولعل هذه المكانة الفريدة للكعبة عند العرب هي التي دفعت بأصحاب السلطان والقوة في تلك الأيام محاولة هدم الكعبة، أو على الأقل إنضوائها تحت لوائهم، وأول هذه المحاولات ـ طبقاً لرواية الأخباريين ـ ما كان من «تبان أسعد أبو كرب» حين قدم من المشرق إلى المدينة غازياً، فجاءه حبران من يهود بني قريظة، ونصحاه أن لا يفعل، فإن أبى حيل بينه وبين ما يريد، فضلاً عن عقاب سوف يناله، معللين ذلك بأن المدينة سوف تكون مهاجر نبي سوف يخرج من قريش، وهكذا صرف الحبران «تبع» عن تدمير المدينة ـ أو يثرب كما كانت تدعى ـ فضلاً عن إيمانه بدينهما، بل إن البعض إنما يذهب إلى أن الرجل ما أن سمع عن النبي، ﴿ﷺ﴾، من هذين الحبرين اليهوديين، إلا وقال فيه شعراً، يشهد فيه له بالنبوة، ويتمنى أن يعيش حتى يراه، فيكون له وزيراً وإبن عم، فضلاً عن القتال إلى جانبه وتفريج همومه، لأنه كان على علم بما سيلاقيه الحبيب المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ من قومه من أذى [(١)].

ويتجه «تبع» صوب مكة في طريقه إلى اليمن، حتى إذا ما كان بين «عسفان» و«أمج»، أتاه نفر من هذيل يغرونه بسلب البيت الحرام، ويستفتي تبع أحبار يهود في هذا الأمر، فيصدقونه النصح قائلين «ما نعلم بيتاً لله عز وجل إتخذه لنفسه في الأرض غيره»، وأنه إن قبل ذلك الأمر، كان فيه هلاكه، ويعلم «تبع» أن الصدق ما نصحا به الحبران اليهوديان، فينتقم من هذيل، ثم يمضي إلى مكة، فيطوف بالبيت العتيق، وينحر الذبائح عنده، ثم يقيم بمكة ستة أيام، يرى أثناءها ـ فيما يرى النائم ـ

(١) ابن كثير ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤، تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٢، جواد علي ٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥، بلوغ الأرب ٢/ ١٧٠، ٢٤٠ ـ ٢٤١، إبن خلدون ٢/ ٥٢، مروج الذهب ١/ ٨٢، اليعقوبي ١/ ١٩٧ ـ ١٩٨، الأزرقي ١/ ١٣٢ ـ ١٣٤

وكأنه يكسو البيت الحرام، وتتكرر الرؤ يا ثلاث ليال، ويفعل «تبع» ما أمر به في منامه، وهكذا كان الرجل - فيما يزعم الأخباريون - أول من كسا البيت ثم يعود إلى اليمن (١).

ولعل سائلاً يتساءل: أكان تبع يقول الشعر بلغة قريش - كما يقدمه لنا الأخباريون - ونحن نعرف أنها تختلف كثيراً عن لغة حمير، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية واللهجات العربية الأخرى من العربية، التي جعلوها مقصورة على العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وحتى قال بعضهم «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا» (٢).

ثم كيف فات هؤلاء الرواة ان يجعلوا «تبعاً» هذا، إبن عم المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - وهم الذين ملأوا صفحات كتبهم بأن العرب ليسوا جنساً واحداً، وإنما هم عرب عاربة - وهم القحطانيون ومنهم تبع - وعرب مستعربة - وهم العدنانيون، ومنهم رسول الله، ﴿ﷺ﴾.

ثم من أين عرف الحبران اليهوديان أن هناك نبياً سوف يبعث من قريش، ومبلغ علمي أن التوراة لم يرد فيها نص يفيد ذلك أبداً، صحيح أن هناك نصوصاً تؤكد مبعث نبي من العرب، ولكن صحيح كذلك أنها لم تشر إلى أنه من قريش، وأما هذه النصوص، فقد جاءت في سفر التثنية (١٨ : ١٥-١٩). وفي سفر أشعياء (٤٢ : ١٠-١٣)، يقول النص الأول

---

(١) إبن كثير ٢/ ١٦٤ - ١٦٧، تفسير الخازن ٤/ ١١٥، ١٧٥، اللسان ٨/ ٣١، اليعقوبي ١/ ١٩٨، إبن خلدون ٢/ ٥٢ - ٥٣، العقد الثمين ١/ ٧١، الازرقي ١/ ٢٤٩ - ٢٥٠، قارن: تفسير الطبري ٢٥/ ١٢٨ - ١٤٩، تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٦ - ٣٧٧، تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٥ - ١٤٦، المعارف لإبن قتيبه ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(٢) محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص ٤ وما بعدها

«ويقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون» ويقول «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وإجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه، ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه».

ثم أليس من المضحك المبكي أن يجعل أصحابنا الأخباريون اليهود أشد حرصاً على الحفاظ على الكعبة، وأكثر توقيراً لها من العرب أنفسهم، بل لا يتأنى هؤلاء الرواة في كتاباتهم حين يجعلون من اليهود بالذات هداة ملوك العرب إلى مكانة الكعبة المشرفة وأهميتها، وأن يصرحوا - كما يزعم الرواة بأن الله لم يتخذ له في الأرض بيتاً غيرها، فإذا كان ذلك كذلك، فلم لم يحج اليهود إليها، ثم ما هو الموقف بالنسبة إلى المسجد الأقصى، أو هيكل سليمان كما يسميه اليهود.

ثم من أين عرف «تبع» هذا، أن الرسول - صلوات الله عليه - سوف يسمى «أحمد»، ومبلغ علمي - مرة أخرى - أن ذلك لم يرد في النصوص العربية، وإنما كان ذلك في الإنجيل - وليس في توراة اليهود الذين أخذ عنهم تبع معلوماته عن النبي - حيث يخبرنا القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى - على لسان المسيح عليه السلام - «يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد»[1]، وكيف آمن «تبع» برسول الإسلام الأعظم، قبل مبعثه

(١) سورة الصف: آية ٦ وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٤٧٣ - ٤٧٤، تفسير الكشاف ٤/ ٩٨ - ٩٩، تفسير ابن كثير ٦/ ٦٤٦ - ٦٤٨ (دار الاندلس - بيروت)، تيسير العلي القدير ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠، تفسير الطبري ٢٨/ ٨٧، تفسير الطبرسي ٢٨/ ٦٠ - ٦٢ تفسير القرطبي ١٨/ ٨٣ - ٨٤، تفسير أبي السعود ٥/ ١٦١، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٢١٣ - ٢١٤، تفسير روح المعاني ٢٨/ ٨٥ - ٨٧، في ظلال القرآن ٢٨/ ٣٥٤٩، ٣٥٥٥ - ٣٥٥٨

بنحو من سبعمائة عام[١] ، كما يروي الأخباريون[٢] ، ألمجرد أن الحبرين اليهوديين أخبراه أن يثرب سوف تكون مهاجر نبي يخرج من قريش، لا أظن أن ذلك سبباً كافياً لإيمانه بنبي كان حتى تلك اللحظة في ضمير الغيب.

ومن ثم فأكبر الظن أن هناك ـ بجانب أثر الاسرائيليات في هذه الروايات ـ هدفاً من ورائها، وأن هذا الهدف، إنما هو رفع شأن القحطانيين إبان النزاع السياسي بينهم وبين العدنانيين، ومن ثم فإن هذه الروايات جد حريصة على أن تقدم لنا «تبعاً» وقومه، في صورة أفضل بكثير من صورة العدنانيين بصفة عامة ـ والقرشيين بصفة خاصة ـ فهم، أي القحطانيين، أول من قال الشعر في مدح المصطفى ﴿ﷺ﴾ ، فعل ذلك سبأ[٣]، ويفعله الآن «تبع» كما تقدمه لنا هذه الروايات، بل إن «تبع» ليزيد هنا عقده العزم، على أن يكون حرباً على من حاربه، وسلما لمن سالمه ، فضلاً عن أنيصبحله وزيراً وإبن عم، و(ثانياً) أن القحطانيين كانوا على علم باسم المصطفى، ﴿ﷺ﴾ أما كيف كان ذلك، فليس لدى الإخباريين من أصحاب هذه الروايات علم بذلك، فإن الهدف إنما كان أن القحطانيين، إنما كانوا يعرفون إسم النبي الأعظم قبل مولده بسبعة

---

(١) إختلف العلماء في فترة حكم « أبي كرب أسعد » فيراها نلسن في الفترة (٤٠٠ ـ ٤١٥ أو ٤٢٠ م) (D. Nielsen *op-cit, P.104* وكذا *J.B. Philby, op-cit, P.P.116, 143*)

ويراه هومل في الفترة ٣٨٥ ـ ٤٢٠ م [فريتز هومل : التاريخ العربي القديم ص ١٠٨] ، ويراه فلبي في الفترة ٣٧٨ ـ ٤١٥ م [*(J.B. Philby, note on the last Kings of Saba, P.269)*] ، ويذهب الدكتور جواد علي أن الرجل إستمر يحكم حتى عام ٤٣٠ م[جواد علي ٢/ ٥٧١ وكذا *(le MUSEON, 1964, 3-4, P.492*]

وهذا يعني أن الفترة بين موت أبي كرب أسعد ومولد الرسول ﴿ﷺ﴾ لا تصل حتى إلى قرنين من الزمان، وليست سبعة قرون

(٢) تفسير إبن كثير ٤/ ١٤٤

(٣) إبن كثير ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩

قرون، بينما لم يكن العدنانيون، على علم بذلك حتى قبيل مبعث المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - و(ثالثاً) تقديم القحطانيين في صورة قوم مؤمنين، كسوا البيت الحرام، وعمروه أكثر من مرة، ثم قدّروا مكانته قبل ظهور الإسلام بقرون - حتى إن كان اليهود هداتهم إلى ذلك.

وأخيراً، فإن هذا الإلحاح على أن التبابعة كانوا يؤمنون بإله واحد، وبرسالة محمد ﷺ ثم الإلحاح لذلك على عدم جواز سبهم، إنما قد يدل على أن هناك من كان يسب التبابعة ويلعنهم، ولعل هذا السبب، وذلك اللعن، لم يكن موجهاً بالذات إلى التبابعة، وإنما كان على اليمنيين بخاصة، والقحطانيين بعامة، ومن هنا كان هذا الإلحاح على عدم السب، بل ربما وضعت أحاديث للرد على هذه الحملة - ربما العدنانية - ضد القحطانيين [1].

وأما المحاولة الثانية، فهي التي قام بها «حسان بن عبد كلال»، وذلك حين أقبل من اليمن، «في حمير وقبائل من اليمن عظيمة، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن، ليجعل حج البيت عنده في بلاده»، وهناك عند «نخلة» خرج له القرشيون - بقيادة فهر بن مالك، ودارت بين الفريقين معركة ضارية، كان النصر فيها من نصيب قريش، والهزيمة - بل والأسر كذلك في مكة ثلاث سنوات - من نصيب حسان بن عبد كلال [2]، فإذا كان ذلك كذلك، فإن حملة أبرهة المشهور على مكة، كانت لها على الأقل سابقة يمنية من قبل، ثم إذا ما تذكرنا أن هناك من يرى أن عبد كلال، إنما قد إغتصب عرشه بعون من اكسوم[3]، فهل هذا يعني أن

---

(١) جواد علي ٢/ ٥١٥ - ٥١٦

(٢) الهمداني: الإكليل ٢/ ٣٥٧ - ٣٥٩، الطبري ٢/ ٢٦٢ - ٢٦٣

(٣) يرى «فلبي» أن الرجل كان كاهناً وشيخاً لقبيلة، وأنه إستطاع أن يغتصب العرش لمدة خمس سنين، بمساعدة الأحباش. [أنظر: J.B.Philby Arabian Highlands, P.260
وقارن: (J.B.Philby, The Background of Islam, P.143

الحبشة النصرانية كانت من وراء تلك الحملة ، لست أدري ، فتلك أخبار لا يوثق بها كثيرا ، ثم إن الهمداني يرفض القصة من أساسها ، وإن كان البعض يتهمه بأنه يمني متعصب ، لا يؤ يد حربا تنتصر فيها قريش على اليمن ، ثم يضع وزر نقل حجارة الكعبة من مكة الى اليمن على عاتق « هذيل بن مدركة » أحد سادات مكة[1]، وهو أمر لا نطمئن إليه كثيراً .

وسواء أصح هذا ، أم كان مجرد ظن من الأخباريين ، فهناك إشارات الى محاولة ثالثة حدثت في القرن الأول قبل الهجرة ، وذلك حين بنت غَطَفَان حرما كحرم مكة ، ثم حاولت أن تصرف العرب إليه ، غير أن سيداً من سادات العرب ، رفض ذلك ، وقال « لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حي » ، واتبعه قومه حين قال لهم « إن أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من غرضها » ، وقاتل غطفان وظفر بهم وأبطل حرمهم[2] .

وأما رابعة المحاولات ، فكانت تلك التي قام بها أبرهة الحبشي في حملته المشهورة على الكعبة المشرفة ، واليها يشير القرآن الكريم في سورة كاملة هي سورة الفيل ، يقول سبحانه وتعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » ، وفي هذا العصف المأكول كان أبرهة نفسه ، فضلا عن القضاء على جيشه ، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في دراستنا عن « العرب وعلاقاتهم الدولية

---

(١) الإكليل ٢/ ٣٥٩ ، جواد علي ٢/ ٥٨٥
(٢) محمد حسين هيكل : في منزل الوحي ص ٤١٥

في العصور القديمة »[1] .

وفكر الرومان - كمحاولة خامسة - في ضرب مكة من داخلها ، بعد أن فشلت كل جهودهم في الإستيلاء عليها ، وذلك أن الإمبراطورية الرومانية بعد أن انقسمت إلى شرقية وغربية ، سرعان ما تتخذ بيزنطة من المسيحية وسيلة لنشر نفوذها في بلاد العرب ، فتعمل على إرسال البعثات التبشيرية ، كما تنجح في تنصير الحبشة ، ومن ثم فإنها تستطيع ان تؤمّن تجارتها هناك ، فضلا عن بسط نفوذها عن طريق الأحباش أنفسهم ، إلا أنها لم تحاول ان تتدخل في شئون بلاد العرب بطريقة مباشرة ، و من ثم فقد كانت وراء حملة أبرهة على مكة[2] ، وحين فشلت هذه ، وطرد الأحباش من اليمن[3] ، لجأت إلى وسيلة أخرى ، تستطيع أن تحكم بها مكة ، ولكن عن طريق سيد من

(١) أنظر : مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية - العدد السادس - عام ١٩٧٥ ص ٤٠٠ - ٤١٢ (مقال للمؤلف عن « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ») وعن حملة أبرهة هذه : أنظر كذلك : إبن الأثير ١/ ٤٤٢ - ٤٤٧ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠ - ١٣٩ ، تفسير الطبري ٢/ ١٨٨ ، ٣٠/ ١٩٣ - ١٩٤ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧ - ٧٢٩٠ (طبعة الشعب) ، في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٤ - ٦٧٥ ، تفسير الالوسي ٣٠/ ٢٣٢ - ٢٣٧ ، نهاية الأرب ١/ ٢٥١ - ٢٦٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٧٦ ، البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٥٦ - ٥٧ ، الكشاف ٣/ ٢٨٨ ، إبن كثير ٢/ ١٧٠ - ١٧٦ ، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٣ - ٥١١ ، صحيح الأخبار ٤/ ٢١ - ٢٢ ، أعلام النبوة ص ١٤٩ وكذا

le Museon, 1953, 364, PP. 277 -279, 1964, 66, P. 275 وكذا *Procopuis, I, P.180* وكذا
S.Smith, Events in Arabia in the 6th Century A.D., P.435

(٢) احمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٥٥ ، جواد علي ٣/ ٥١٨ ، وكذا
O'Leary, Arabia before Muhammad, P.184 وكذا *Procopius, I, P.180*
R.Bell, The Origin of Islam in its Christian enviroment, P.40

(٣) ابن الاثير ١/ ٤٤٩ - ٤٥١ ، ابن كثير ٢/ ١٧٧ - ١٧٨ ، الدينوري : الأخبار الطوال ص ٦٤ ، إبن خلدون ٢/ ٦٣ ، الطبري ٢/ ١٤٦ - ١٤٨ ، اليعقوبي ١/ ٢٠٠ ، مروج الذهب ٢/ ٥٦ ، جواد علي ٣/ ٥٢١ - ٥٢٣ ، المقدسي ٣/ ١٩٠ - ١٩٥ ، قارن : المعارف ص ٢٧٨

العرب ، يدين بالولاء لدولة الروم .

وهكذا إختار قيصر ، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العـزى ، ليكون ملكا على مكة من قبله ، وكتب له رسالة يبلغها قومه ، ومن ثم فقد عاد عثمان إلى مكة ، فجمع القـوم إليه يرغبهـم في حسـن الجـزاء من قيصر ، وينذرهم بسوء العاقبة في الشام ، إذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك ان يغلق ابواب بلاده في وجوههم ، وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام[1] ، يقـول عثمان بن الحـويرث : « يا قوم ، إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده ، وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما أخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك كله ، ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك ، أن يمنع منكم الشـام ، فلا تتجـروا به وينقطـع مرفقكم منه[2] » .

وليس من شك في أن هذه المحاولة الرومية السياسية ، إنما غرضها ـ كما هو ظاهر ـ غرض تلك المحاولة الحبشية العسكرية ، وأن المحاولتين قد فشلتا ، وبقيت مكة ـ كما أراد الله ـ حرماً آمناً للعرب ، وغير العرب ، وبذلت قريش في المحاولتين جهدها ، لإخفاق الواحدة تلو الأخرى ، وليس من شك في أن الأولى كانت أشد خطراً ، وان دفعت في الثـانية ببعض رجالها ، يقضـون في سجون القيصر فترة لا تدري مداها على وجه التحقيق ، ثم سرعان ما عادت الأمور إلى سيرتها الأولى[3] .

---

(١) العقاد : المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٥ ، حياة محمد : ص ١٢٧ ـ ١٢٨

(٢) إبـن هشـام ١/ ٢٢٤ ، إبـن حزم : جمهـرة أنسـاب العـرب ص ١١٨ ، الـروض الآنف ١/ ١٤٦ ، الأغاني ٣/ ١١٢

(٣) احمد ابراهيم الشريف : المرجـع السابـق ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ، السـهيلي : الـروض الآنف ١/ ١٤٦ وكذا *Watt, W.M.MUhammad at Mecca, Oxford, 1953, P.16*

وهكذا يبدو وبوضوح ، أن كل هذه المحاولات : السياسية والعسكرية ـ تثبت قيام كعبة الحجاز على كره من ذوي السلطان في الجنوب والشمال ، وفي كل المحاولات استطاعت الكعبة أن تحفظ مكانها ، على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل إنها إنما إستطاعت ذلك لخلوها من العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص ، وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ، ومعبوداتهم ، دون أن يسخرهم المسخرون ، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة[1] .

وهكذا كان المكيون يشعرون بمكانة الكعبة عند العرب عامة ، ومن ثم فقد كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتطاول إليها غيرهم من العرب ، لأنها تتصل بكرامة البيت الحرام وحرمته ، فهم أهله وأولياؤه ، وهم سدنته والقائمون بالأمر فيه ، يسقون الحجيج ويطعمونهم ، ويوفرون لهم الأمن والراحة ، ومن ثم فقد نشأ عندهم ما يسمى بنظام « الحُمس » ، ويعنون به إبن البلد وابن الحرم والوطني المقيم ، والذي ينتمي إلى الكعبة والمقام ، فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت قطان مكة وساكنيها[2] ، ولهذا فقد نادوا بين الناس : « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقاطنو مكة وساكنوها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا تعرف له العرب ما تعرف لنا[3] » .

وكان الحمس إذا زوجوا إمرأة منهم لغريب عنهم ، إشترطوا أن يكون أبناؤها منهم ، ثم جعلوا لأنفسهم علامة ، وهي ألا يعظم الأحمس شيئاً

---

(١) العقاد : مطلع النور ص ١١٥ .

(٢) الخربوطلي : المرجع السابق ص ٥٠ ، قارن : شفاء الغرام ٢/ ٤٣ ، إبن هشام ١/ ١٩٩

(٣) الأزرقي ١/ ١٧٦ ، إبن هشام ١/ ٢١٦ ، تفسير الطبري ٤/ ١٨٨

من الحل - أي الأرض التي وراء الحرم - كما يعظم الحرم ، وقالوا : « إن فعلتم ذلك إستخفت العرب بحرمكم ، ولهذا فقد ترك الحمس الوقوف بعرفة ، لأنها خارج عن الحرم ، والإفاضة منها ، مع اقرارهم بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون أن لسائر الناس الوقوف عليها والإفاضة منها ، وأما هم فقد جعلوا موقفهم في طرف الحرم من « نمرة » ، يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في « الأراك من نمرة » ، ثم يفيضون منه إلى المزدلفة ، فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا ، وكانوا يقولون : « نحن أهل الحرم ، فليس لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها ، نحن الحمس » ، ومن ثم فإنهم بذلك يظهرون تعصبهم لبقعة من الأرض ، ويترفعون عن أن يخرجوا عنها ولو كان في خروجهم إتمام لمشاعر الحج ، كما كانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم وأمتعتهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها ، حتى يظهروا على السطح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب[1] .

وكانوا يقولون : لا ينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط ولا يسلأوا السمن ، ولا يدخلوا بيتا من الشعر ، ولا يستظلوا - إن استظلوا - إلا في بيوت الأدم ، ما كانوا حرما ، فهم إذن يحرمون على أنفسهم أشياء لم تكن العرب تحرمها ، كما أنهم اختصوا أنفسهم بالقباب الحمر - وهي علامة الشرف والرياسة - تضرب لهم من الأشهر الحرم ، كما فرضوا على العرب ألا يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم - إذا جاءوا حجاجاً

(١) ابن كثير ١/ ٢٣٣ ، ٢٩٣ ، البخاري ٢/ ١٦٣ إبن هشام ١/ ٢٠٢ ، الطبرسي ٢/ ٤١١ ، إبن كثير ٢/ ٣٠٥ ، العقد الثمين ١/ ١٤١ ، نهاية الأرب ١/ ٢٤٤ ، المقدسي ٤/ ٣٢ (طبعة بالأوفست من طبعة كليمان هوار عام ١٩٠٧) ، تفسير القرطبي ٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨ ، اليعقوبي ١/ ٢٥٦ ، الازرقي ١/ ١٧٦ - ١٨٠ ، جواد علي ٦/ ٣٦٢ ، احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٨٨ وكذا EI, II, P. 335

أو عماراً ـ ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم ، إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ، لم يجد ثياب الحمس ، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ، ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً ، وكانت العرب تسمي تلك الثياب « اللقى »[1] » .

(٤) الكعبة قبيل الاسلام

ولعل أهم ما يميز هذه الفترة من تاريخ الكعبة المشرفة أمران ، الواحد إعادة حفر زمزم ، والآخر إعادة بناء الكعبة نفسها . وأما الأمر الأول ، فإن المصادر العبرية انما تروي أن عبد المطلب ـ جد النبي ﴿ﷺ﴾ ـ قد لقي الكثير من العناء في توفير الماء للحجيج عندما تولى أمر السقاية والرفادة ، وذلك بسبب دفن زمزم ـ ربما منذ أيام جرهم ـ وزاد الأمر صعوبة أن مكة كانت إذ ذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الأمطار ، وجفت مياه الآ بار ، أو كادت ، في وقت كان موسم الحج فيه قد بدأت طلائعه ، وهنا رأى عبد المطلب ـ فيما يرى النائم ـ أنه يؤمر بحفر طيبة ، وحين يسأل عن طيبة هذه لا يلقى جوابا ، غير أن الرؤيا تتكرر ليال ثلاث ، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر « برة » ثم بحفر « المضنونة » ثم بحفر « زمزم » ، وفي المرة الأخيرة ، فإن الهاتف يجيبه حين يسأل عن زمزم ، بأنها « تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمنعم ، يكون ميراثا

---

(١) إبن كثير ٢/ ٣٠٥، البخارى ٢/ ١٦٣، تاج العروس ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣، روح المعاني ١/ ٢٤٤ ، المقدسي ٤/ ٣٢ ـ ٣٣ ، نهاية الأرب ١/ ٢٤٤ ، شفاء الغرام/ ٤١ ـ ٤٢ ، ياقوت ٥/ ١٨٤ ، المعارف ص ٢٦٩ ، الأزرقي ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢، اليعقوبي ٢٥٧/١ ، العقاد : المرجع السابق ص ١١٧ ، احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠، إبن هشام ١/ ٢١٩ ،

وعقدا محكم ، ليس كبعض ما قد تعلم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل » .

ويخرج عبد المطلب ومعه ولده الحارث ، فيحفر بن اساف ونائلة ، في الموضع الذي تنحر فيه قريش لأصنامها ، وقد رأى الغراب ينقرها هناك ، فلما بدا له الطوي كبّر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، وقالوا : إنها بئر أبينا إسماعيل ، وأن لنا فيها حقاً فأشركنا معك ، قال : ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به دونكم ، قالوا : فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها » ، غير أن المخاصمة سرعان ما تنتهي في جانب عبد المطلب [1] .

وتذهب المصادر العربية إلى أن عبد المطلب قد وجد غزالين من ذهب ، كانت «جرهم» قد دفنتهما في البئر ، فضلاً عن سيوف ودروع ، فضرب الأسياف بابا للكعبة ، وجعل فيه الغزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليت به الكعبة ، وإن ذهبت بعض الروايات إلى أن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه ، فتسللوا في جنح الظلام ، وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية [2] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد أقبل الحجاج على بئر زمزم تبركا بها ورغبة فيها ، وأعرضوا عمن سواها من الآبار ، وذلك لمكانة زمزم من المسجد

---

(١) الطبري ٢/ ٢٥١ ، إبن الأثير ٢/ ١٢ - ١٤ ، إبن كثير ٢/ ٢٤٤ - ٢٤٨ ، الروض الأنف ١/ ٨٠ ، ٩٨ ، الأزرقي ٢/ ٤٢ - ٤٧ ، الحربي : المرجع السابق ص ٤٨٥ ، المقدسي ٤/ ١١٤ ، إبن سعد ١/ ٤٩ - ٥٠ ، إبن هشام ١/ ١٤٢ - ١٥٠ ، حياة محمد ص ١١٦ - ١١٧ ، اليعقوبي ١/ ٢٤٦ - ٢٤٨ ، تاريخ الخميس ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، وكذا Shorter Ency. of Islam, P.657

(٢) مروج الذهب ٢/ ١٠٣ ، ياقوت ١/ ١٤٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٨ ، تاريخ الخميس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المقدسي ٤/ ١١٤ ، الأزرقي ٢/ ٤١ ، ٤٣ ، تاريخ الطبري ٢/ ٢٥١ ، الخربوطلي : المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨ الحربي : المرجع السابق ص ٤٨٥

الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر أبيهم إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام.

هذا وقد كان عبد المطلب قد نذر حين لقي من قريش العنت في حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر، وبلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم: أيهم ينحر؟، فطارت القرعة على عبدالله، وكان أحب الناس إليه، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل، على أن هناك من يذهب إلى أن هذا النذر، إنما كان حين عيرّه «عدي بن نوفل»، فقال له: أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك، فأجابه عبد المطلب جوابه الذي أثر عن ذلك اليوم: أبا لمقلة تعيرني فوالله: لئن أتاني الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة [1].

وأما الأمر الثاني، فهو إعادة بناء الكعبة، والذي يكاد يجمع المؤ رخون على أنه تمّ والمصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، فاذا كان ذلك كذلك، وإذا كان المولد النبوي

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٣، إبن الأثير ٢/ ٥ - ٧، إبن كثير ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، روح المعاني ٢٣/ ١٣٦، مروج الذهب ٢/ ١٠٤، المقدسي ٤/ ١١٤ - ١١٦، اليعقوبي ١/ ٢٥٠ - ٢٥٢، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٣٣٧، تاريخ الخميس ص ١٢٩، ٢٠٦، ٢٠٧، إبن سعد ١/ ٥٠، ٥٣ - ٥٤، إبن هشام ١/ ١٥٠ - ١٥٤، الأزرقي ٢/ ٤٣ - ٤٤، ٤٧ - ٤٩، حياة محمد ص ١١٧ - ١١٨

الشريف قد حدث في ٢٠ أبريل من عام ٥٧١م[1]، كما حدده المرحوم محمود باشا الفلكي، فإذا كان كذلك، فإن إعادة بناء الكعبة يكون قد حدث حوالي عام ٦٠٦ م، وإن كانت هناك عدة آراء تدور حول المولد النبوي الشريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ فليس هناك من شك في أنه ليس من بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من ولد في ضوء

---

(١) هناك عدة آراء بشأن مولد النبي ﷺ، فالرواية العربية تجعله في عام الفيل، وهو غير معروف على وجه التحديد (عام ٥٥٢ أو ٥٦٣، ٥٧٠ أو ٥٧١ م)، والأمر كذلك بالنسبة إلى من رأوه يتفق وموقعة ذي قار، لأن تاريخ الموقعة موضع خلاف (ياقوت ٤/ ٢٩٣ - ٢٩٤، ثم انظر وجهات نظر مختلفة في كتابنا بلاد العرب)، هذا وقد حاول بعض العلماء تحقيق تاريخ المولد النبوي الشريف، اعتماداً على تاريخين محققين من تاريخه العطر، وهما تاريخ الهجرة في عام ٦٢٢ م، وتاريخ الانتقال إلى الرفيق الأعلى في عام ٦٣٢ م، غير أنها تواريخ استنتاجية بمولد النبوي (انظر: عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦، وكذا *P.Lammens, Age de Mohammad, P.209F* وكذا *(R.Blachère, le Problème de Mahomet, P.15*)، وعلى أي حال، فإن جوستاف لوبون يراه في ٢٧ أغسطس ٥٧٠ م (حضارة العرب ص ١٢٩)، ويراه «كوسان دي برسيفال» في ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠ م (أنظر: *Caussin des Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes, I, P.283*

وأما المرحوم محمود باشا الفلكي، فقد حدد لمولد مولانا رسول الله ﷺ، يوم ٩ ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١م) (أنظر التقويم العربي قبل الإسلام ص ٣٨)، ولعل «سلفستر دي ساسي» إنما يتفق في تأريخه للمولد الشريف مع الفلكي باشا، على أن المترجمين لحياة الرسول ﷺ إنما يجمعون على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما ولد في يوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل، ويذكر العلماء أن هذا التاريخ يوافق العام الثالث والخمسين قبل الهجرة (أي عام ٥٧١ م) (راجع دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٢، ابن كثير ١/ ٢٥٩ - ٢٦٢ تاريخ الطبري ٢/ ١٥٥ - ١٥٧، إبن الأثير ١/ ٤٥٨ - ٤٥٩، المحبر ص ٨ - ٩ وأما إنتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فقد كان في يوم ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول عام ١١ هـ (٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢ م) بعد أن بلغ ٦٣ عاماً قمرياً بالكامل، أي اكثر من واحد وستين عاماً شمسياً (مدخل الى القرآن الكريم ص ٣١ - ٣٢)

التاريخ، غير نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه [1].

كانت قريش تفكر في أمر الكعبة التي كانت وقت ذاك بدون سقف، مخفضة الارتفاع، مما جعلها نهباً للصوص الذين أقدموا على سرقة بعض كنوزها، هذا فضلاً عن أن مكة نفسها كانت قد تعرضت لعدة سيول في أوقات متفاوتة، آخرها سيل جارف نزل من الجبال المحيطة بمكة، وانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها، وهكذا أصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على ما أفسدته السيول، وزاد من عزم قريش أن البحر كان قد ألقى بسفينة إلى «جدة» لأحد تجار الروم، كان قيصر قد بعث بها من مصر إلى الحبشة، ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك، ومن ثم فقد ذهب وفد من قريش ـ على رأسه الوليد بن المغيرة ـ واشترى السفينة[2].

وبدأت عمليات الهدم والبناء، وتذهب الروايات العربية إلى أن أول من بدأ الهدم، إنما كان الوليد بن المغيرة، بينما تذهب رواية منها إلى أنه أبو وهب بن عمرو المخزومي، وأياً كان الرجل، فالذي يهمنا هنا أن القرشيين، إنما كانوا يصرون على أن يبنوا بيت الله الحرام من كل طيب، ومن ثم فقد نسب إلى الوليد ـ أو إلى أبي وهب ـ انه قال: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، ولا تدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس».

وبدأ البنيان، حتى إذا ما بلغ موضع الركن ـ أي الحجر الأسود ـ اختلفت

---

(١) ابن هشام ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣، العمري ١/ ٦٤، المقدسي ٤/ ١٣٩، الفلكي: المرجع السابق ص ٣٨، الحربي: المرجع السابق ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ماجد: المرجع السابق ١/ ٩٥ ـ ٩٦، وكذا *P.31* CHI, I,1970 وكذا A.Guillaume, op-cit, P.23.

(٢) إبن الأثير ٢/ ٤٤، تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٧، المسعودي ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢، الأزرقي ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨، نهاية الأرب ١/ ٢٣٢، ياقوت ٤/ ٤٦٦، المقدس ١/ ١٣٩ ـ ١٤٠، الحربي: المرجع السابق ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧

بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، وإشتد الخلاف، وكاد القتال ان ينشب بين القوم، وقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسموا «علقة الدم» بذلك، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال، ثم تشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة، وكان أسن قريش: «إجعلوا بينكم حكماً أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينكم»، ففعلوا.

وكان النبي - صلوات الله وسلامه عليه - أول من دخل، فلما رأوه قالوا «هذا الأمين قد رضينا به» وأخبروه الخبر، فقال: هلموا إلى ثوبا، فأتى به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم إرفعوه جميعاً، ففعلوا، فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده، ثم بُني عليه، وهكذا نجح النبي الأعظم في حسم الخلاف وجنب قومه القتال، ومن عجب أنه سرعان ما قال قائل من قريش: واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول، عمدوا إلى أصغرهم سناً، وأقلهم مالاً، فجعلوه رئيساً وحاكماً، أما واللات والعزى: ليفوقهم سبقاً، وليقمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن وبناء عظيم»[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ذلك كله، إنما يدل على مكانة الحجر الأسود عند قريش، وعلى أنه إنما كان أقدس شيء عندهم، وإلا لما

---

(١) إبن الأثير ٢/ ٤٤ - ٤٥، تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠، إبن كثير ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٤، سيرة ابن هشام ١/ ١٩٥ - ١٩٩، إبن سعد ١/ ٥٠، ٩٣ - ٩٥، الأزرقي ١/ ١٥٧ - ١٦٤، تاريخ الخميس ص ١٢٦ - ١٣١، تفسير القرطبي ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، المقدسي ١/ ١٤٠، ياقوت ٤/ ٤٦٦، محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٥ - ٢٦، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ١١٧ - ١١٨، الحربي: المرجع السابق ص ٤٨٧، مروج الذهب ٢/ ٢٧٢، علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق ص ٦٧ - ٧١ وكذا
P.K. Hitti, opcit P. 100

اختلفوا كل هذا الإختلاف على وضعه في مكانه، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى غيره من مقتنيات الكعبة الشريفة، ويذهب «فلهاوزن» إلى أن قدسية البيت «لم تكن عند قريش بسبب ما فيه من أصنام، وإنما بسبب هذا الحجر الأسود، فهو إذن مقدس لذاته[1]» ، بل إن البعض ليذهب إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود، الذي كان أهم معبودات قريش في الجاهلية[2].

غير أننا نعرف أنه رغم شيوع عبادة الأوثان في سواد قبائل العرب، فإن التاريخ لم يحدثنا أبداً، أن القوم قد عبدوا هيكل الكعبة، أو أنهم قد عبدوا الحجر الأسود، مع إحترامهم له ذلك الاحترام الذي يفوق كل إحترام إذ كان القوم يلمسونه دائماً بغية التبرك به، كما كانت الجهة التي فيها هذا الأسود، إنما تسمى «بالركن»[3].

وقد بقيت هذه المكانة للحجر الأسود، حتى على أيام الإسلام الحنيف[4]، ويروى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين كان يطوف بالبيت الحرام، كان يستلم الحجر الأسود ويقبله، إلا أن مكانة

---

(١) جواد علي ٦/ ٤٣٧ ، وكذا أنظر: .J.Wellhausen, op-cit. P.74
(٢) المشرق، تموز ١٩٤١ ص ٢٤٧
(٣) جواد علي ٦/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨ ، احمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٦٨، محمد البتنوني: المرجع السابق ص ١٥٢ ـ ١٥٦
(٤) أنظر: الأزرقي ١/ ٣٢٢ ـ ٣٣٠، ٣٤٢ ـ ٣٤٤

الحجر الأسود في الإسلام غيرها في الجاهلية [1]، فقد روى الإمام أحمد والبخاري، أن الرسول ﷺ وقف عند الحجر الأسود، فقال: «إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر»، ثم قبله، وكذلك فعل أبو بكر عند حجه بالناس، ولما حج عمر بن الخطاب، وقف عند الحجر - فيما يروي الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم - قال: «إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يقبلك ما قبلتك»، ثم دنا وقبله [2].

وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تفسير إسم «الكعبة»، فرأى بعضهم أنها كلمة رومية، أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها - أو لتربيعها - وأن بناء من الروم عمل في بنائها وهندستها، فاستعير إسمها من اللغة الرومية، وقيل بل كان بناؤها في الحبشة التي عرف العرب عن طريقها

(١) أزيل الحجر الأسود من مكانه غير مرة، من جرهم وإياد والعمالقة وخزاعة، وآخر من أزاله القرامطة عام ٣١٧ هـ، فقد قلعوه وذهبوا به الى البحرين، عندما أقام أبو طاهر القرمطي في «هجر» داراً دعاها غار الهجرة، وأراد أن ينقل الحج إليها، فسار الى مكة ودخل الحرم ووضع السيف على لفتة من الناس في الطائفين والعاكفين والركع السجود، وقتل نحو ثلاثين الفا بمكة وشعابها، واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب، وبقي الحجر الأسود عند القرامطة، حتى أعاده الخليفة العباسي «المطيع لله» إلى مكانه في عام ٣٣٩ هـ، وصنع له طوقاً من فضة وفي عام ٣٦٣ هـ، حاول رجل رومي قلعه، إلا أنه قتل بيد رجل يماني، وقد حاول ذلك كذلك بعض الباطنية في عام ٤١٤ هـ، ورجل أعجمي في القرن العاشر، غير أنهم قتلوا، وفي محرم ١٣٥١ هـ، سرق رجل أفغاني قطعة من الحجر الأسود، وكذا قطعة من أستار الكعبة، فأعدم عقوبة له، ثم أعاد الملك عبد العزيز آل سعود القطعة المسروقة في ٢٨/ ٤/ ١٣٥١ هـ بعد أن وضع لها الأخصائيون المواد التي تمسكها والممزوجة بالمسك والعنبر، أما ما يدور على الحجر من الأطواق، فقد عملها السلطان عبد المجيد العثماني عام ١٢٦٨ هـ من ذهب، ثم غيرت إلى فضة عام ١٢٨١ هـ على أيام السلطان عبد العزيز، ثم في عام ١٣٣١ هـ، على أيام السلطان محمد رشاد العثماني (الازرقي ١/ ٣٤٦ هامش رقم ٤، انظر: في منزل الوحي ص ٤١٦)

(٢) الأزرقي ١/ ٣٢٢ - ٣٢٤، ٣٢٩ - ٣٣٠، تفسير المنار ١/ ٤٦٧، قارن: الخربوطلي: المرجع السابق ص ٢٠

بناء هذه المعابد وأمثالها ، لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء، وهؤلاء الباحثون وأمثالهم - فيما يرى الأستاذ العقاد - يتشبثون بالفروع ، ويغفلون الأصل، بجذوره وجذوعه عليه، فمهما يكن من لغة البناء الرومي أو الحبشي ، فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشىء لها بيتا يسمى «الكعبة» أو المكعبة في اللغة الرومية ، وإنما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام ، ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش ، لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التى تقدمت في هذه الصناعات[1] .

وقد بنى سليمان بن داود هيكله في وقت كان اليهود فيه ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وكان الإعتماد على الفينيقيين الأجانب، وعلى رأسهم حيرام الصوري - كما نقرأ في التوراة[2] - هو الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان ليرتفع هيكل الرب[3]، وكان المعبد في نهاية الأمر مزيجاً عجيباً من الفنون المصرية والبابلية والفينيقية، ورغم أن التوراة تشيد بإعجاب بالمساعدة الفينيقية، فإن المعلومات التي يقدمها لنا سفر الملوك الأول تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد الرافدين، وعلى أي حال، فإن سليمان كان مضطراً إلى أن يتطلع إلى نماذج خارج بلاده، فهو لم يكن لديه في إسرائيل إلا تقاليد يهودية قليلة، ما كانت لتفيده شيئاً في بناء المعبد، ومن ثم، فإنه - رغم ما كان ينظر إليه تجاه الفن المصري والبابلي، إلا أن

(١) عباس العقاد : مطلع النور ص ١١١ - ١١٢ ، وأنظر : تفسير الطبري ١١/ ٨٩ - ٩٠ (طبعة دار المعارف ١٩٥٧) ياقوت ٤/ ٤٦٣ - ٤٦٥ ، احمد حسن الباقوري : مع القرآن ، القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) ملوك أول ٧ : ١٣ - ١٤

(٣) حسن ظاظا : القدس ص ٣٦ - ٣٨

بناء المعبد دون الاعتماد عليها كان أمراً بالغ الصعوبة، وربما كان السبب في التأثير المصري، هو مصاهرة سليمان للبلاط الفرعوني، وإن كان الأمر بالنسبة إلى التأثير البابلي أصعب من أن يفسر، وعلى أي حال، فلقد كان للطابعين المصري والبابلي أثر كبير على الفينيقيين، الذين إختلطت فنونهم بفنون المصريين من ناحية، والبابليين من ناحية أخرى، وطالما تحدثت التقاليد الإسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأكيد [1]

وعلى أي حال، فالذي يهمنا هنا، أن العقيدة لم تقم تبعاً لعقيدة أصحاب تلك الصناعة، بل كان أصحاب الصناعة في الحالين ـ كعبة مكة وهيكل سليمان ـ ممن يخالفون تلك العقيدة، ويتسمون بسمة الكفر والانكار عند المعتقدين بها [2]

ولم نعرف أن معبداً سمي بشكله، أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة، وليست مادة «كعب» بالغريبة عن اللغةالعربية، لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعباً إذا كعب ثدياها، ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهي من القصب أو من الأقنية، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت في لغتهم إلى القانون وهو العصا التي تتخذ للقياس [3].

أما عن الحبشة، وأن العرب قد نقلوا عنها طريقة بناء المعابد وأمثالها،

(١) كتابنا إسرائيل ص ٤٦٤ ـ ٤٧٢، أندريه إيمار، جانين أوبوايه : الشرق واليونان القديمة ١/ ٢٦٧، وكذا *K.Kenyon, Archaeology in the Holy Land, P.247*
وكذا *R.A.S. Macalister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, 1965, P.348-9*

(٢) العقاد : مطلع النور ص ١١٢

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١٢

فربما كانت الأدلة تتجه إلى العكس من ذلك، فهناك في الحبشة ـ على سبيل المثال ـ بقايا أعمدة لمعبد سبىء، فضلاً عن مذبح سبىء للإله «سين»، إلى جانب كتابات أشياء أخرى من الفن العربي القديم، بل إن هناك من الباحثين من يرى ان نفوذ الفن العربي، إنما تجاوز تأثيره الحبشة إلى مجاوراتها، ومن ثم فإنهم إنما يذهبون إلى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وفي أوغنده، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد «أوام» (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبهاً كبيراً في طرز البناء وفي المساحة وفي الأبعاد كذلك [1].

وعوداً على بدء، إلى الكعبة، حيث نرى القرشيين وقد أعادوا إليها الأصنام، ويروي المسعودي أنه كان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة، منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ولده، على فرس يجيز الناس مغيضاً وبعد ذلك صور لكثير من أولادهما حتى «قصي بن كلاب» في نحو من ستين صورة مع كل واحدة من تلك الصور «إله» يصاحبها كيفية عبادته وما اشتهر من فعله [2]، هذا إلى جانب ما فيها من أصنام بلغ عددها ٣٦٠ صنماً [3]. بل ويرى البعض أن فيها صوراً للمسيح بن مريم وأمه [4]، فإذا كان ذلك كذلك، فلا بدّ أن تكون هذه الأخيرة من عمل نصارى الروم، وإن كان الدكتور جواد علي يعترض على وجود صور الأنبياء في الكعبة، فما للوثنية ـ

---

(١) أنظر : مقالنا «العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة»، جواد علي ٣/ ٤٥١ وكذا *Handbuch, I,P.34* موسكاني : المرجع السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ وكذا انظر *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit, P.28*

(٢) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢، الأزرقي ١/ ١٦٥ ـ ١٦٩

(٣) صحيح مسلم ٥/ ١٧٣، ارشاد الساري ٧/ ٢١٠، الازرقي ١/ ١٢٠ ـ ١٢٣، بلوغ الأرب ٢/ ٢١١، شفاء الغرام ٢/ ٢٨٠، العقد الثمين ١/ ٢١٢.

(٤) جواد علي ٦/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦، الأزرقي ١/ ١٦٥ ـ ١٦٨ .

في رأيه ـ والأنبياء، وما شأن الشرك بمريم وإبنها وببقية الرسل، حتى ترسم صورها على أعمدة أو جدران البيت الحرام [1].

والرأي عندي، أن صور الأنبياء يمكن ان نقسمها إلى قسمين، الواحد يتصل بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما جدا العرب، وبناة البيت الحرام، فوجود صور لهما في الكعبة ـ وقد إمتلأت بالأصنام ـ أمر لا يخالف المنطق، ما دام هؤلاء القرشيون يؤمنون بأبوة الخليل، وأنه هو ـ وإسماعيل ـ قد رفعا القواعد من البيت، وأما الشق الثاني، فيتصل بالمسيح وأمه البتول، وصورهما ـ فيما أظن ـ تتصل بأمرين، الواحد أن قريشاً إنما سمحت للناس كافة بالطواف حول البيت، ويضعون فيه أصناماً لمعبوداتهم، أضف إلى ذلك أن الأخباريين إنما يذهبون إلى أن «باقوم» الرومي، هو الذي أشرف على بناء الكعبة وهندستها، ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون الرجل ـ وهو نصراني ـ قد قام برسم تلك الصور بمفرده ـ أو بمساعدة أخوة له من نصارى الروم ممن كانوا معه ـ ولم يجد عمله هذا إعتراضاً من قريش، لأن ذلك لا يتنافى وعقيدتها في أن البيت لله، يتعبد فيه الناس لآلهتهم [2].

وأياً ما كان الأمر، فلقد بقي الحال في الكعبة، حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله رسوله والمؤمنين بفتح مكة [3]، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، ويروى أن النبي، صلوات الله وسلامه عليه ـ رأى

---

(١) جواد علي ٦/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩

(٢) جواد علي ٦/ ٤٣٩

(٣) أنظر عن فتح مكة (رمضان ٨ هـ = ديسمبر ٦٣٠ م) : إبن الأثير ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٥٥، تاريخ الطبري ٣/ ٣٨ ـ ٦٢، إبن خلدون ٢/ ٤١ ـ ٤٥، حياة محمد ص ٤١٦ ـ ٤٣١، الأنبياء في القرآن الكريم ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٢٢ ـ ١٢٣، إبن هشام ١/ ٨٠٢، ٨١٤ ـ ٨٢٢

صوراً لإبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، فقال «قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام»، هذا وقد حطم الرسول، ﷺ، كل التماثيل والصور [1]، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» [2].

ووقف المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ثاني يوم الفتح، وخطب خطبته المشهورة ،التي وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، ويا أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: إذهبوا فأنتم الطلقاء»، وهكذا أعتقهم رسول الله، ﷺ وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً - ومن ثم فقد سمي أهل مكة بالطلقاء، هذا ولم يحاول الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يقضي على نفوذ مكة المهزومة، فأعلن أنها سوف تبقى حرماً آمناً لا يقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى المشركون منهم [3].

وفي العام التاسع للهجرة (٦٣٠/ ٦٣١م) - عام الوفود - بقي المصطفى ﷺ في المدينة، يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرام - كما أشرنا آنفاً - ومن ثم فليبق الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذاً بالمدينة، حتى يتم الله

(١) السيرة الحلبية ١/ ١٤٤، ٣/ ٨٧، الروض الانف ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٦، نهاية الأرب ١٧/ ٣١٢ - ٣١٤، صحيح مسلم ٥/ ١٧٣، إرشاء الساري ٧/ ٢١٠، العقد الثمين ١/ ١٥٧، ٢١٢، الازرقي ١/ ١٦٨ - ١٦٩، كتاب الأصنام ص ٣١ وما بعدها

(٢) سورة الاسراء: آية ٨١

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٦١، البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢، النويري ١/ ٢٩٨، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٢٣، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٤ - ٤٥، مروج الذهب ٢/ ٢٩٠، إبن الأثير ٢/ ٢٥٥، حياة محمد ص ٤٢٦ - ٤٣٠ البداية والنهاية ٤/ ٣٠١

كلمته، وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته الحرام، وليخرج أبـو بكر في الناس حاجاً[1].

على أن الرسول - ﴿ﷺ﴾ سرعان ما أمر الإمام عـلي كرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجيج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليبلغهم بسورة نزل بها الوحي من السماء - والتي عرفت بسورة براءة - ويقوم الإمام علي بالمهمة خير قيام، ويبلـغ رسالـة النبي الأعظم إلى الناس في إجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر» - في منى وقبل الوقوف بعرفة - وقد جاء في هذه الرسالة، قوله سبحانه وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضلـه إن شاء إن الله عليم حكيم»[2].

ويعلن الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بأمـر رسـول الله، ﴿ﷺ﴾، «أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله، ﴿ﷺ﴾، عهد فهو إلى مدته»، وأجلّ على الناس أربعـة أشهـر بعـد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهـم، ومن يومئذ لـم يحج مشرك، ولـم يطف

---

(١) إبن الأثير ٢/ ٢٨٦ - ٢٩٢، المعارف ص ٨٢، إبن هشام ٢/ ٩١٩، هيكل: حياة محمد ص ٤٧٠ - ٤٧٦، الصديق أبو بكر ص ٥٣، أرفنج: حياة محمد ص ٢٢٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥١ - ٥٨، فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٦٤ - ١٦٥، تاريخ مكة ص ٥٤

(٢) سورة التوبة: آية ٢٨ وانظر: تفسير الطبـري ١٤/ ١٩٠ - ١٩٨ (دار المعـارف - القاهـرة ١٩٥٨)، تفسير البحر المحيط لابن حيان ٥/ ٢٧ - ٢٩، في ظلال القرآن ١٠/ ١٥٨٥، ١٦١٨ - ١٦١٩.

بالبيت عريان» [1] .

(١) إبن الأثير ٢/ ٢٩١ ، إبن هشام ٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٥ ، المسعودي : مروج الذهب ٢/ ٢٩٠ ، التنبيه والاشراف ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٣ ، تفسير الطبري ١٤/ ٩٥ ـ ١١٢ (طبعة دار المعارف ١٩٥٨)، تفسير البيضاوي ١/ ٣٨٣ ، الإمام محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ • الخربوطلي : المرجع السابق ص ٨٩ ، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ، محمد لبيب البتنوني: المرجع السابق ص ١٧ ، هيكل : حياة محمد ص ٤٧٦ ، تاريخ مكة ص ٥٤ ، تاريخ العرب ١/ ١٦٣ ـ ١٦٤ .

الفصل السادس

العاديون

قوم هود

(١) العاديون والعرب البائدة

ينظر الأخباريون إلى قوم عاد على أنهم أقدم الأقوام العربية البائدة[١]، حتى أصبحت كلمة « عادي » و« عادية » تستعملان صفتين للأشياء البالغة القدم[٢]، وحتى أصبح القوم إذا ما شاهدوا آثاراً قديمة لا يعرفون تاريخها، أطلقوا عليها صفة « عادية »[٣]، وربما كان السبب في ذلك قدم قوم عاد، أو أن عادا ـ ومن بعدها ثمود ـ قد ورد إسميهما في القرآن الكريم، ومن ثم فقد قدما على بقية الأقوام البائدة، رغم أننا لو جارينا الأخباريين في قوائم الأنساب، التي يقدمونها للشعوب البائدة، لكان علينا أن نقدم طسم وجديس وعمليق وأميم وغيرهم على عاد وثمود، ذلك لأن الأولين ـ في نظرهم ـ من أولاد شقيق « إرم »، وأن الآخرين من حفدة « إرم »، ولكنهم هم أنفسهم يقدمون عاداً على بقية الشعوب البائدة[٤].

وهنا لعل من الأفضل أن نشير ـ باديء ذي بدء ـ إلى أننا لا نعني بالعرب البائدة، والعرب الباقية، أن أقواماً قد انقرضوا فلم يبق منهم أحد، وأن أقواماً لم يكونوا ثم نشأوا من جديد، وانما ما نعنيه أن قوماً قد يقل عددهم بالكوارث أو بالذوبان في آخرين، لسبب أو لآخر، ومن ثم يتوقف تاريخهم وتبطل حضارتهم، مع أن بقاياهم ما تزال موجودة، ولكنها بدون قيمة حضارية، والتاريخ في حقيقته إنما هو تطور

(١) مروج الذهب ٢/ ١١

(٢) مقدمة إبن خلدون ص ٦١٣ ـ ٦١٤

(٣) مروج الذهب ٢/ ١٢ ـ ١٤

(٤) جواد علي ١/ ٢٩٩

الحضارة[1] .

وعلى أي حال ، فتلك تسمية إبتدعها الكتاب المسلمون ، لم يكن يعرفها العرب القدامى ، كما أن المصادر اليهودية - وعلى رأسها التوراة - وكذا المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية ، على غير علم بهذه التقسيمات[2] ، فضلا عن أنه من المعروف أن شيئاً لن يبيد ، ما دام قد ترك من الآثار ما يدل عليه ، وهي دون شك مصدرنا الأساسي لنعرف الحضارات السابقة[3] ، وربما كان المقصود بلفظ « بائد » عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤ رخين الإسلاميين لتاريخ ما قبل الإسلام .

ومن ثم فليس صحيحاً ، ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن ما يسمى « بالعرب البائدة » ، ليس من التاريخ الحقيقي في شيء ، وإنما هو جزء من الميثولوجيا العربية ، أو التاريخ الأسطوري ، الذي يسبق عادة التاريخ الحقيقي لكل أمة ، ومن ثم فإنهم إذا ما عالجوا تاريخ بعض القبائل العربية التي تسمى بالبائدة ، فإنما يعالجونها على هذا الأساس[4] ، وإن كانت غالبية المؤ رخين الأوربيين الآن قد عدلت عن هذا الإتجاه ، بعد أن ثبت لهم أن بعضاً من هذه القبائل البائدة قد تحدث عنه المؤ رخون القدامى من الأغارقة والرومان ، وبعد أن أثبتت الأحافير - إلى حد ما -

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤٩
(٢) جواد علي ١/ ٢٩٥
(٣) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٨٦
(٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ٣٠ - ٣١

صحة بعض ما ورد في المصادر الإسلامية عن هذه « القبائل البائدة »[1] .

أما العرب الباقية ، فلعلنا نعني بهم تلك الجماعات التي كانت تعيش في تلك المنطقة ، وما زالت تعيش حتى الآن ـ وسوف تظل تعيش إن شاء الله إلى أن يغيرّ الله هذه الأرض غير الأرض ـ وأن حضارتها مستمرة يتوراثها جيل عن جيل ، وأن كل جيل يضيف إليها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومن ثم فإن مهمتنا أن نقوم بدراسة حضارة تلك الجماعات متتبعين دورها في كل طور من أطوار التاريخ .

(٢) قصة عاد في القرآن الكريم

لقد إنفرد القرآن الكريم بذكر عاد ، ونبيهم هود عليه السلام ،

(١) يكاد يتفق الرواة وأهل الأخبار على تقسيم العرب من حيث القدم على طبقات : عرب بائدة وعاربة ومستعربة ، أو: عرب عاربة ومتعربة ومستعربة ، على أن هناك من يجعلهم طبقتين فقط : بائدة ، وهم الذين كانوا عرباً صرحاء خلصاً ذوي نسب عربي خالص ـ نظرياً على الأقل ـ ويتكونون من قبائل طسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضوراء ومدين وغيرهم ، وعرب باقية : ويسمون أيضاً متعربة ومستعربة ، وهم ليسوا عرباً خلصاً ، ويتكون من بني يعرب بن قحطان ، وبني معد بن عدنان . وهناك تقسيم ثالث يعتمد في الدرجة الأولى على النسب ، فهم قحطانية في اليمن ، وعدنانية في الحجاز ، وأما إبن خلدون ، فهو يقسم العرب ، طبقاً للتسلسل التاريخي ، إلى طبقات أربع ، فهم عرب عاربة قد بادت ، ثم مستعربة ، وهم القحطانيون ، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج ، ثم الغساسنة والمناذرة ، وأخيراً العرب المستعجمة ، وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية (أبو الفداء ١/ ٩٩ ، جواد علي ١/ ٢٩٤ ، صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ٤١ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤٤ ، طه حسين : من الأدب الجاهلي ص ٧٩ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٨٣ ، مقدمة إبن خلدون ص ٢٨ ، قارن : تاريخ إبن خلدون ٢/ ١٦ ـ ١٨ ، نهاية الأرب ١/ ٩ ـ ١١ (حيث يقسم العرب الى عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة) ، ثم انظر : عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٨ ، جواد علي ١/ ٣٠٦ .

فجاء ذكرهم في سور كثيرة من القرآن الكريم[١] ، بل إن هناك سورة كاملة تسمى سورة هود ، كما أن هناك في القرآن الكريم[٢] ما يشير إلى أن هناك عادا الأولى ، وعادا الثانية[٣] وأن عادا الأولى ، إنما هم « عاد إرم » الذين كانوا يسكنون الخيام[٤] ، وأن عادا الثانية إنما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع ، وربما كانوا هم قوم ثمود ، فيما يرى الأستاذ النجار[٥] ، الأمر الذي ما يزال موضع شك كبير .

وتدل الآيات الكريمة التي وردت عن هؤلاء القوم - وعن نبيهم الكريم - على أنهم قد إستكبروا في الأرض بغير الحق ، واغتروا بقوتهم ، ربما لأنهم كانوا أشداء أقوياء ، ولأن الله - جل وعلا - قد زادهم بسطة في الجسم ، وربما لأنهم كانوا قد بلغوا شأوا من الحضارة لم يبلغه قوم آخرون من معاصريهم في المنطقة التي كانوا فيها يسكنون ، وعلى أي حال ، فان أمرهم قد إنتهى إلى عبادة الأوثان ، وترك عبادة الله الواحد القهار ، ومن ثم فقد أرسل الله إليهم من ينهاهم عن عبادة هذه الأوثان ولينذرهم بعذاب يوم عظيم ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[٦] .

(١) أنظر : الأعراف (٦٥ - ٧٢) وهود (٥٠ - ٦٠) والمؤمنون (٣١ - ٤٢) والشعراء (١٢٣ - ١٤٠) وفصلت (١٥ - ١٦) والأحقاف (٢١ - ٢٦) والقمر (١٨ - ٢١) والحاقة (٢١ - ٢٦) والفجر (٦ - ٨)، وقد جاء ذكر عاد كذلك في التوبة (٧٠) وابراهيم (٩) والفرقان (٣٨) والعنكبوت (٣٨) وص (١٢) والذاريات (٤١ - ٤٢) وق (١٣)

(٢) سورة النجم : آية ٥٠ - ٥١ ، سورة الفجر : آية ٦ - ٧

(٣) مروج الذهب ٢/ ١١ وقارن : إبن كثير ١/ ١٣٠ ، حيث يرى أن ما جاء في الأحقاف كان عن عاد الثانية ، وغير ذلك كله عن عاد الأولى

(٤) إبن كثير ١/ ١٢٥

(٥) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٥٣

(٦) سورة النساء : آية ١٦٥ وانظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٠٧ - ٤٠٨ (دار المعارف بمصر) ، تفسير الطبرسي ٦/ ٢٩٣ - ٢٩٥ (دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦١)، تفسير روح المعاني ٦/ ١٨ - ١٩ ، تفسير الكشاف ١/ ٥٩٠ - ٥٩١ ، في ظلال القرآن ٦/ ٢٥ - ٢٩

غير أن القوم سرعان ما كذبوا هودا ، واغتروا بقوتهم ، « فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون »[١] ، ومن ثم فإن الله أنزل بهم العذاب الشديد ، وذلك بأن أرسل عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، يقول سبحانه وتعالى « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية »[٢] .

(٣) قصة عاد ومحاولة ربطها بالتوراة

وقصة عاد هذه ـ شأنها في ذلك شأن قصة ثمود ـ لم ترد في التوراة ، وإنما هي قرآنية صرفة ، كما أن شهرتها عند العرب في الجاهلية والإسلام ، كشهرة إبراهيم وقومه[٣] ، ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من المستشرقين قد تعجلوا الأمر ، فأنكروا عادا وثمودا ، وأنكروا الكوارث التي أصابتهم بغير حجة ، إلا أنهم يحسبون أن المنكر لا يطالب بحجة ، ولا يعاب على النفي الجزاف ، فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا Oditae وثمودا Thamudida مذكورتان في تاريخ بطليموس ، وأن أسم عاد ، مقرون باسم « إرم » في كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ، ويؤيدون تسمية القرآن الكريم لها بعاد إرم ذات العماد[٤]

إلا أن شأن المؤرخين الإسلاميين أغرب من شأن المستشرقين ، فرغم

---

(١) سورة فصلت : آية ١٥

(٢) سورة الحاقة : آية ٦ ـ ٨ ، وانظر سورة الأحقاف : آية ٢٤ ـ ٢٥

(٣) تاريخ الطبري ١/ ٢٣٢

(٤) عباس العقاد : مطلع النور ص ٦١

أن القصة ، كما قلنا ، قرآنية صرفة ، فحاولوا أن يربطوا بينها وبين التوراة ، ثم أوجدوا لها صلة ونسباً بأسماء أعيان وردت في التوراة ، فذهب بعضهم إلى أن عادا ، إنما هو « هدورام » التوراة[1] ، وربما كانت حجتهم في ذلك إقتران عاد بإرم في الكتب العبرية ، وأن بعض القراءات تقرأ الآية الكريمة « الم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد »[2] ، على الإضافة أو مفتوحتين ، أو بسكون الراء على التخفيف ، أو بإضافة إرم إلى ذات العماد ، وعلى ما بين « عادإرم » و« هدورام » من تشابه كبير في النطق ، إلا أن التوراة تشير إلى أن « هدورام » هذا ، إنما هو من نسل يقطان (قحطان في الروايات العربية) ، وهذا لا يستقيم مع الروايات ، ويعلل « جرجي زيدان » ذلك بأن كاتب سفر التكوين إما أنه رأى أن تلك القبيلة إنما تسكن اليمن ، فذهب إلى أنها من نسل قحطان ، لأن الروايات إنما تذهب إلى أن عادا في الأحقاف ، بين حضرموت واليمن ، الأمر الذي سوف نناقشه حالا ، وإما أنه أراد أن يسجل القبائل التي سكنت اليمن ـ وهي في نظره تنسب جميعاً إلى يقطان أو قحطان ـ ومن ثم فقد جعل عاد إرم في جملتها[3] .

ويذهب « تشارلس فورستر » إلى أن هناك صلة بين « عادة » زوجة « لامك » ، وبين « عاد » والد « يابال » الذي كان « أبا » لسكان الخيام ورعاة المواشي[4] ، ونسلها من الأعراب ، وقوم علد من الأعراب

(١) سفر التكوين ١٠ : ٢٧ ، أخبار أيام أول ١ : ٢١ ، وأنظر كذلك : الإكليل ٨/ ١٦٢ ، جواد علي ١/ ٣٠٠

(٢) سورة الفجر : آية ٦ ـ ٧

(٣) جرجي زيدان : مجلة الهلال ٢٣/ ٨٩٠ (أغسطس ١٨٩٠ م) ، جواد علي ١/ ٣٠٠ ، ياقوت ١/ ١١٥ ـ ١١٦ ، البكري ١/ ١١٩ ـ ١٢٠

(٤) تكوين ٤ : ٢٠

كذلك ، ولكنه إنما يذهب كذلك إلى أن القوم الذين ذكرهم بطليموس تحت إسم Oditae إنما كانوا يسكنون في شمال غرب شبه الجزيرة العربية[1] ، وربما عند موضع « بئر إرم » في منطقة « حسمى » ، على مقربة من جبل يعرف بهذا الإسم في ديار جذام ، بين إيله وتيه بني اسرائيل[2] ، وأن هذا الموقع ليس ببعيد عن ديار ثمود ، الذين إرتبط إسمهم بأسم عاد ، كما أن هناك كثيراً من الباحثين ـ ومنهم سبرنجر ـ يؤيدون هذا الرأي إلى حد كبير[3] .

وأخيراً ، فإن إختلاف النسابة في نسب هود عليه السلام ، ومكان دفنه ، قد شجع البعض إلى عقد مقارنة لغوية بين هود واليهود[4] ، وأن هناك شبهاً بين هود النبي ، وبين « هودا » الواردة في القرآن الكريم بمعنى « يهود »[5] ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا »[6] ، وأن « هودا » إنما تعني « التهود »[7] ، غير أنهم قد اختلفوا في النتيجة فبينما ذهب فريق ـ مستغلا في ذلك أن بعض النسابة يرى أن هودا ، إنما هو « عابر بن شالح بن أرفكشاد جد اليهود » ذهب إلى أن هودا لم يكن إسم رجل ، وإنما إسم جماعة من اليهود هاجرت إلى بلاد العرب ، وأقامت في الأحقاف ، وحاولت تهويد الوثنيين ، الذين عرفوا هناك بيهوذا ، ومنها جاءت كلمة « هود » ، وأنها استعملت من باب

---

(١) C.Forster, The Historical Geography of Arabia, 2, P.32

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٢٩ ، ياقوت ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥ ، وانظر : EI,I,P.121

(٣) A.Sprenger, Alte Geographie Arabiens, P.207

(٤) أنظر مناقشتنا الاصطلاح يهود في كتابنا إسرائيل ص ٩ ـ ١١

(٥) لسان العرب ٤/ ٤٥١ ، القاموس المحيط ١/ ٣٤٩ ، EI, 2, P.372

(٦) سورة البقرة : آية ١٣٥

(٧) جواد علي ١/ ٣١١

التجوز علما لشخص [1] ، وليس من شك في أن هذا الرأي متأثر بأفكار يهود إلى أقصى حد ، إن لم يكن رأياً يهودياً صرفاً ، ثم إن التاريخ لم يحدثنا أبداً عن هجرات يهودية إلى منطقة الاحقاف بالذات من بلاد العرب ، وإن حدثنا إلى مناطق أخرى منها .

(٤) موقع منطقة عاد

يذهب المؤ رخون المسلمون إلى أن منطقة عاد ، إنما تقع في الأحقاف ، إلى الشمال الشرقي من حضرموت في جنوب الربع الخالي [2] ، إستناداً إلى الآية الكريمة « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » [3] ، والحقف ـ كما في القاموس ـ المعوج من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف ، ولكن الحقف يمكن أن يوجد في أكثر من مكان في شبه الجزيرة العربية ، ولم يحدد القرآن الكريم موضع الأحقاف بالنسبة إلى شبه الجزيرة العربية ، كما أن القاموس العربي لم يحدد وجود الرمل فقط في جنوب الجزيرة ، كصفة من صفاته أكثر من كونه صفة لبقية أنحاء الجزيرة ، بل يمكن أن نقول أن الجزيرة العربية معظمها رمال [4]، أما الذي حدد ذلك ، فهم المفسرون ـ كما رأينا ـ ومن ثم فقد ذهبوا إلى أن الأحقاف بناحية الشحر في الجانب الجنوبي الغربي من الربع الخالي بناحية حضرموت اليمن ، وأن في الأحقاف هذه

---

(١) مجلة الهلال ٢٣/ ٨٩٤ ، جواد علي ١/ ٣١١ ، وكذا *EI, 2, P.328*

(٢) أبو الفداء ١/ ٩٧ ، إبن كثير ١/ ١٢٠ ، مروج الذهب ٢/ ١٢ ، إبن الأثير ١/ ٨٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٩ ، ياقوت ١/ ١١٥ ـ ١١٦

(٣) سورة الأحقاف : آية ٢١

(٤) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٨ وأنظر القاموس ٣/ ١٢٩

كانت منازل عاد[1] ، وزاد بعضهم فذهب إلى أنها إنما كانت فيما بين عمان إلى حضرموت فاليمن كله ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله[2] .

هذا وتتجه الآراء الحديثة إلى أن عادا ، إنما تقع في شمال الجزيرة العربية ، وليس في جنوبها ، وأنها ربما كانت تموج في المنطقة الممتدة من منطقة « حسمى » في سيناء ، حتى منطقة «أجأوسلمى » في منطقة قبيلة شمر[3] ، ولعل أهم ما يؤ يد وجهة النظر هذه ، ما سبق أن ذكرناه (أولا) من أن « فورستر » يرى أن القوم الذين ذكرهم بطليموس تحت إسم Oaditae كانوا يسكنون في شمال غرب الجزيرة العربية[4] ، وربما عند موضع « بئر إرم » في منطقةحسمى ، ومنها (ثانياً) أننا لو قمنا بمسح للوديان الموجودة في شمال الحجاز ، لوجدنا فعلا أن أحد هذه الوديان يسمى « وادي إرم » ، كما أثبتت الحفريات الأثرية وجود مكان يسمى « إرم » في منطقة جنوب الاردن[5]

ومنها (ثالثاً) أن عادا قد إقترن ذكرهابثمود ، « الذين جابوا الصخر

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٢٨ ياقوت ١/ ١١٥ - ١١٦ ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٣٢٨ ، المعارف ص ١٤ ، البكري ١/ ١١٩ - ١٢٠ ، ياقوت ٥/ ٤٤٢ ، قارن : القسطلاني (٥/ ٣٣٣) حيث يجعل قوم عاد يسكنون حضرموت على المحيط الهندي، ثم انظر : تفسير المنار (٨/ ٤٩٥ - ٤٩٦) حيث يضيف أن عادا إنما كانت بين الشام إلى اليمن ، وأنظر كذلك روح المعاني ٣٠/ ١٢٣ ، وانظر كذلك «أمين مدني » حيث يرى أن المعينيين إنما هم قوم عاد (العرب في أحقاب التاريخ ٢/ ١٢٨ - القاهرة ١٩٧١)

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٧ (دار المعارف) ، تفسير المنار ٨/ ٤٩٥

(٣) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٨٨

(٤) *C.Forster, op-cit, P.32*

(٥) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٨٨

بالواد »[1] ، ولعله ـ فيما يرى البعض ـ وادي القرى[2] ، أحد الأودية التي تتخلل سلسلة جبال حسمى ، ومن بينها جبل إرم ، والذي يسمى الآن «رَمّ » ، ويكوّن الحد الشمالي للحجاز ، وعنده يوجد الكثير من الماء[3] ، أضف إلى ذلك أن ياقوت قد ذكر جبلا سماه « جش إرم » ـ عند أجأ أحد جبلي طيء ـ أملس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل ، وفي ذروته مساكن لعاد وارم ، فيه صور منحوتة من الصخر[4] ، ورغم أن ياقوت قد فرق هنا بين عاد وإرم ، وجعلهما قومين ، إلا أن « الواو » هنا ربما كانت زيادة من الناسخ [5] ، ومنها (رابعاً) وجود أسماء محلات أخرى ، عثر فيها على نقوش وتماثيل ، وصفت في الكتب العربية بأنها مساكن قوم عاد [6] .

ومنها (خامساً) أن حفائر « هورسفيلد » في جبل « رم » ـ على مبعدة ٢٥ ميلا إلى الشرق من العقبة ـ وكذا حفائر « سافينياك » واكتشافات « جليدن » ، قد أثبتت أن هذا المكان هو موضع « إرم » ، الوارد ذكره في القرآن الكريم ، وقد حلّ به الخراب قبل الإسلام ، ومن ثم فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير « عين ماء » كان ينزل عليها التجار ورجال القوافل الذين كانوا يمرون بطريق « الشام ـ مصر ـ الحجاز » [7] ، بل قد يفهم من نص « لأبي شامة » ، أنه في الفترة التي كان الصليبيون يحتلون فيها حصن « الكرك والشويك » ، كان الجيش المصري يعسكر عند جبل

(١) سورة الفجر : آية ٩

(٢) انظر : ابن كثير ١/ ١٣٠ ، أبو الفداء ١/ ١٢ ، البكري ٢/ ٤٢٦ ، الطبري ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، إبن الأثير ١/ ٨٩ ، ياقوت ٢/ ٢٢١ ، المعارف ص ١٤ ، تاريخ الخميس ص ٨٤ ، روح المعاني ٨/ ١٦٢ ، ١٤/ ٧٦

(٣) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٥٧ ، ١٣٠

(٤) ياقوت ٢/ ١٤١

(٥) جواد علي ١/ ٣٠٦

(٦) جواد علي ١/ ٣٠٦

(٧) جواد علي ١/ ٣٠٦ ، وكذا *Revue Biblique, XLI, 1932, P.581, XLII, 1933, P.405, XLIII, 1934, P.572,*

« رم » ، أثناء مرور الحجيج من إيلة إلى مكة ، وذلك لحماية الحجاج من الهجمات التي كان الصليبيون يشنونها عليهم [1] .

ومنها (سادساً) أن بعضاً من الكتاب العرب أنفسهم ، إنما يرى أن الأحقاف - التي كانت منازل عاد - إنما هي جبل الشام ، أو هي حِشَافُ من « حسمى » ، والحشاف الحجارة في الموضع السهل [2] ، وأن إسم الأحقاف (حقاف) ما تزال تراه باقياً حتى الآن في المنطقة الجنوبية الغربية من البدع « مدين » [3] ، بل إن القلقشندي إنما يضع عاد في مدين [4] .

ومنها (سابعاً) أن هناك من يذهب إلى أن هودا ، قد يكون أحد الأنبياء الذين كانوا في منطقة فلسطين وشمال الحجاز ، وأنه قد ارسل إلى قوم عاد ، وإن كل هذه القرائن مجتمعة تجعلنا نعتقد أن عادا إنما كانت في شمال شبه الجزيرة العربية ، وليس في جنوبها [5] .

(٥) مبالغات عن العاديين

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن فريقاً من المؤ رخين والمفسرين ، قد أسرف كثيراً في الإستنتاج مما ورد في بعض آي الذكر الحكيم ، ففسر بعضهم قوله تعالى « وزادكم في الخلق بسطة »[6] ، إلى أن عادا إنما كانوا في هيئة النخل طولا ، وأن الواحد منهم قد يبلغ إثني

---

(١) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٥٧
(٢) البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ١/ ١١٩
(٣) الويس موسل : المرجع السابق ص ١٣٧
(٤) القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٩
(٥) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٨٨
(٦) سورة الأعراف : آية ٦٩

عشر ذراعاً ـ وربما الطويل منهم اربعمائة ذراع ، وربما خمسمائة[1] ـ كما كان الواحد منهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحي فيهلكهم ، وأن الرجل كان يتخذ المصراع من حجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه ، هذا فضلا عن أنهم كانوا في إتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك القدر[2] ، وفي هذا تحميل للاية الكريمة أكثر مما تحتمل ، يشبه ما كانت توصف به فراعنة مصر من الفخامة والطول ، مما كذبه الواقع بعد كشف مومياتهم ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة ، لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بيننا الآن من بسطة في الخلق[3] .

وأسرف خيال المؤرخين الإسلاميين كذلك في تفسير الآية الكريمة « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد »[4] ، فذهب بعضهم إلى أن « إرم ذات العماد » هذه مدينة وأن الذي بناها إنما هو « شداد بن عاد » في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة عام على رواية ! وخمسمائة عام على رواية أخرى وكان عمره تسعمائة عام ، وذلك لكي ينافس بها قصور الذهب والفضة من الجنة التي تجري من تحتها

---

(1) لاحظ تعارض ذلك مع حديث الرسول ﴿ﷺ﴾ « أن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء ، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن » (أنظر : تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٥ ، إبن كثير ١/ ١٤٤ ، مقالنا عن قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة)

(2) مروج الذهب ٢/ ١٢ ، تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٥ (طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٠) ، الفخر الرازي ، التفسير الكبير ٣١/ ١٦٨ ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٦ ، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣

(3) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٣

(4) سورة الفجر : آية ٦ ـ ٨ وانظر : تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١٦٦ ـ ١٦٩ ، تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٤ ـ ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠) ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٥ ـ ١٧٨ (طبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٥٥٧ (طبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٨)

الأنهار ، وأنه كتب إلى عماله ـ وكانوا فيما يصوره خيالهم في جميع ممالك العالم ـ أن يجمعوا له ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران ، فتوجهوا به إليه ، ثم إستخرج غواصو الجواهر فجمعوا أمثال الجبال ، وأنه أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ـ وكذا فعل بالفضة ـ ثم بنى المدينة بهما ، ثم زين حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ، ثم جعل لها غرفاً من فوقها غرف ، تعتمد على أساطين من الزبرجد والياقوت ، ثم أجرى تحت المدينة وادياً طليت حافته بالذهب الأحمر ، وجعل حصاه أنواع الجواهر ، وبنى في المدينة ثلاثمائة الف قصر ، وجعل على بابها مصراعين من ذهب ، مفصصين بأنواع الياقوت ، وجعل ارتفاع البيوت في المدينة ثلاثمائة ذراع ، وبنى خارج السور كما يدور ثلاثمائة ألف قنطرة بلبن الذهب لينزلها جنوده .

وأما مصير المدينة بعد ذلك ، فموضع خلاف بين هؤلاء القصاصين ، فمنهم من يذهب إلى أنها طارت بعد بنائها في السماء وأن بعض الناس يلمحونها وهي طائرة ، ومنهم من يذهب إلى أنه لا يراها إلا من كتب الله له ذلك ، بل ويروي بعضهم أن رجلا يدعى « عبد الله بن قِلاَبة » رآها على أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١ ـ ٦٠ هـ) ، وأنه حمل إلى الخليفة منها بعض الأحجارة الصغيرة ، فضلا عن المسك والكافور واللؤلؤ ، غير أن هذه الأشياء سرعان ما تحولت إلى تراب عندما تعرضت للهواء ، ومن ثم فقد إستدعى معاوية كعب الأحبار ، وسأله عن خبر هذه المدينة ، فأجاب كعب على الفور ـ كعادته ـ أنها إرم ذات العماد ، وسوف يدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر قصير على حاجبه خال ، وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر « إبن قلابة »

فقال : هذا والله ذاك الرجل[1]

وهكذا يبلغ الخيال ببعض المؤ رخين حداً لا نجد له مثيلا إلا في الأساطير ، وإلا في التوراة حين تتحدث عن عجائب « يهوه » لشعبه المختار ا ، ولست أدري من أين جاءوا بكل هذا ، ثم من أين جاء « كعب الأحبار » بأساطيره هذه ، والقصة ـ كما قلنا ـ قرآنية صرفة ، وليس في التوراة ـ على فرض أنه خبير بما في التوراة ـ أية إشارة من قريب أو بعيد عن هذه القصة ، ولعل الذي دفع المؤ رخين الإسلاميين إلى هذا الغلو في الوصف ، أن القوم بعد الفتوحات الإسلامية المجيدة ، رأوا آثار الفراعين على أرض الكنانة ، والأشوريين ثم البابليين في بلاد الرافدين فضلا عن آثار الرومان في الشام ، ومن ثم فقد أنفوا أن تكون مدينة عاد أقل من هذه الآثار ، إن لم تفقها إلى أقصى الحدود ، فكان الخيال ، وكان السخف الذي ينزل بكتاباتهم من مستوى حقائق التاريخ ، إلى مبالغات الأساطير .

وعلى أي حال ، فلقد اختلفوا في مكان مدينة « إرم » هذه ، فذهب بعضهم إلى أنها «تيه أبين» بين عدن وحضرموت ، وذهب فريق ثان إلى

---

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٦٤ ـ ٦٦ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ ، مروج الذهب ٢/ ١٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٩ ـ ٢١ ، ياقوت : معجم البلدان ١/ ١٥٥ ـ ١٥٧ (طبعة بيروت ١٩٥٥) ، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣ تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٧ ، محمود أبورية : أضواء على السنة المحمدية ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦ قارن : إبن كثير ١/ ١٢٥

أنها « دمشق »[1] ، وزعم فريق ثالث أنها الاسكندرية[2]] ، وهكذا وجد الأخباريون في دمشق وفي الاسكندرية كل ما تخيلوه عن « إرم ذات العماد » وبخاصة المباني الضخمة والمنشآت العظيمة ذات العمد ، فضلا عن تاريخ تليد مجيد ، للعاصمتين العظيمتين ، ومع ذلك فقد كان لكل من اختيار المدينتين الكبيرتين ، سبب يختلف عن إختيار الأخرى .

كانت دمشق من أهم مراكز الاراميين[3] ، ثم عاصمة لهم منذ القرن

---

(1) مروج الذهب ٢/ ١١٠ - ١١١ ، ياقوت ١/ ١٥٥ ، ٢ / ٤٦٤ ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٥ ، الفخر الرازي : التفسير الكبير ٣١/ ١٦٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٩ ، البكري ١/ ١٤٠ ، ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ١٢٣ ، الهمداني : المرجع السابق ص ٨٠ ، الإكليل ٨/ ٣٣

(2) مروج الذهب ٢/ ٤١٠ ، البكري ٢/ ٤٠٩ ، ياقوت ١/ ١٥٥ ، ١٨٣ ، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣ ، تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٦ ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٥ ، التفسير الكبير ٣١/ ١٦٧ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٠ ، إبن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٦٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١/ ٣٧ ، وكذا *H.W.Glidden, Koranic Iram, Legendary and Historical*

(3) يمثل الآراميون الموجة الثالثة من موجات الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية - بعد موجة الآراميين والكنعانيين - وكانوا في بادىء الأمر يجوبون أنحاء وادي الجزيرة من ناحية الشمال ، ويتحركون إلى الشرق من ناحية العراق ، وإلى الغرب من ناحية سورية ، حتى بدأوا يستقرون في العراق الأوسط ، وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الآراميين يرجعون إلى أزمنة موغلة في القدم ، إذ يذكر نقش من عهد الملك البابلي « نرام سن » ، ويرجع إلى القرن ٢٣ ق. م. . إقليماً يدعى « أرام » يقع في أعالي بلاد الرافدين ، ثم على لوحة تجارية ترجع إلى عام ٢٠٠٠ ق. م. ، والتي تشير إلى مدينة أو دولة « أرام » بالقرب من «اشنونا» (تل الأحمر الحالية) في وادي الدجلة الأسفل ، ثم يتكرر إسم « أرام» في عام ١٧٠٠ ق. م. في نصوص ماري ، وكذا حوالي عام ١٤٠٠ق. م. في نصوص أوجاريت. ويستدل من نصوص بلاد النهرين على أن جماعات آرامية قد إجتاحت قسماً كبيراً من هذه البلاد وشمال سورية ووسطها في القرنين ١٤، ١٣ق. م. ، وقد سادت العناصر الآرامية فيها باستثناء بعض الجيوب القليلة التي كان يسيطر عليها الحيثيون ، ثم بلغ الآراميون ذروة سلطانهم السياسي في القرنين ١١ ، ١٠ ق. م. ، بسبب ضعف الأمبراطوريات الكبرى (مصر والعراق) في تلك الفترة ، فغزت قبائلهم الجزء الشمالي من أرض الرافدين ، وأسست هناك سلسلة من الدويلات ، مثل =

الحادي عشر ق.م. ، وحتى احتلال الأشوريين لها في عام ٧٢٢ ق.م. ، وأن « عاد إرم » ، إنما تعني « عاد أرام » ، فضلا عن الاراميين - كما نعرف ، وكما توصل إلى ذلك « مورتز » بعد دراسة لأسمائهم - لم يكونوا إلا عرباً ، هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب[1] ، ومن ثم فقد التبس الأمر على المؤرخين المسلمين بين عادإرم ، وعادأرام ، وظنوا أن ذات العماد صفة ، فزعموا أنها مدينة بناها عاد ، أو شداد بن عاد[2] ، كما أنه ليس هناك من دليل حتى الآن يثبت أن « إرم » هنا ، إنما تعني « أرام »[3] ، وإن كان من الممكن هنا أن تكون « إرم ذات العماد » هي التي أوحت إلى النسابين فكرة جعل « عاد » من نسل « عوص بن إرم » ، لتشابه الأسمين ، ومن ثم فقد كان « عاد » من الأراميين في رأي البعض[4] ، على أساس أن « ذات العماد » صفة لدمشق ، وأن « جبرون بن سعد بن عاد » نزل بها ، وابتنى مدينة تحليها

= « بيت أديني » ومركزها «تل برسب» ومثل «بيت بخياني» ومركزها «جوزانا» (تل حلاف) ، ثم استولى المغتصب الأرامي «أدد - أبل - أدن» على عرش بابل في أول القرن الحادي عشر ق.م. ، وفي الغرب نشأت في « كليكيا » دولة « سمأل » ، وفي سورية نشأت حول أرفد وحلب دولة «بيت أجوشي» وتحدثنا التوراة عن سبع دويلات آرامية في سورية وشرق الأردن ، فهناك دويلة أرام النهرين ودولة أرام دمشق ودويلة أرام صوبة وإمارة معكة وإمارة جشور وإمارة بيت رحوب وإمارة طوب (انظر: كتابنا إسرائيل ص ٣٣٧ - ٣٤٢ ، صموئيل ثان ١٠ : ١٦ ، ١٥ : ٨ ، ١٣ : ٣٧ ، يشوع ١٢ : ٥ ، ١٣ : ١١ ، تثنية ٣ : ١٤ ، عدد ١٣ : ١٢ ، قضاة ١٨ : ٢٨ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٧٨ ، ، احمد فخري : المرجع السابق ص ١٠٣ ، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٢ - ٤٣ وكذا

G.Roux, op. cit, P.P.247-49

R.H. *Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, P.687*

(١) *R.A. Bowman, Arameans, Aramaic and the Bible, JNES, 7, 1948, P.P.66-67*

(٢) البكري ١/ ١٤٠ ، إبن سعد ١/ ١٩ ، ياقوت ١/ ١٥٥ - ١٥٧ ، جواد علي ... ٣٠٠

(٣) *Ency. of Islam, I, P.121*

(٤) جواد علي ١/ ٣٠٣

عمد من الرخام ، وقد إستغل «لوث» هذه الرواية في تدعيم رأيه القائل بأن إسم « إرم » لا يتصل إلا بالروايات الارامية[1] ، بخاصة وأن هناك إتجاهاً يذهب إلى أن عاداً ، إنما كانت في شمال بلاد العرب وليس في جنوبها - كما أشرنا آنفاً - على أن « دمشق » وكذا الاسكندرية - ليستا من بلد الأحقاف والرمال[2] .

وأما إختيار الاسكندرية ، فقد كان - فيما يرى المستشرقون - بسبب إنتشار قصص الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.) في الأساطير العربية الجنوبية ، وبخاصة في كتابات وهب بن منبه ، ومن ثم فقد غدا « شداد بن عاد » بانياً للإسكندرية وأصبح الاسكندر المقدوني ليس إلا مكتشفاً لها[3] ، ويروي المسعودي أن الاسكندر المقدوني إنما اكتشف في موقع الاسكندرية أثراً لكتابة بخط المسند يسجل فيها « شداد بن عاد » أنه كان يبغي أن يبني هنا مدينة كمدينة إرم ، غير أنه كان في عجلة من أمره ، ولعل هذا يفيد أن الأسكندرية ليست إرم ، وإنما مجرد مدينة أراد شداد أن تكون كإرم[4] .

على أن هناك من يرى أنه ليست هناك مدينة في الأصل إسمها « إرم » ، وأن كل ذلك لا يعدو أن يكون أثراً من خيال القصص الذي لعب دوراً هاماً في ضعاف المفسرين ، ومن ثم فإن « إرم » هي الأمة - وربما القبيلة - ولكنها ليست المدينة[5] .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٥

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٨ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ١٢٣ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١٦٧

(٣) *BASOR, 73, 1939, P.13*

(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٦ - ٤٧ ، تفسير الألوسي ٨/ ١٥٦ - ١٥٧ ، دائرة المعارف الاسلامية ٣/ ١٥ - ١٦ ، مروج الذهب ١/ ٤١٠ ، ياقوت ١/ ١٨٤ - ١٨٥

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٥ ، قارن : تفسير القرطبي ٢٠/ ٤٥ - ٤٦ ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٧٥ - ١٧٧ ، الفخر الرازي : التفسير الكبير ٣١/ ١٦٧ - ١٦٨

(٦) هود عليه السلام

إختلف المفسرون في إسم النبي الكريم - هود عليه السلام - وفي نسبه كذلك ، فهو « هودبن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» على رأي،وهو « هود بن خالد بن الخلود بن العيص بن عمليق بن عاد » على رأي ثان ، وهو « عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح » على رأي ثالث (١) ، وربما كان الرأي الأول - حدسا عن غير يقين - أقرب إلى الصواب ، لأن الرأي الثاني يجعله من العماليق ، ولأن الرأي الثالث يجعله ذا صلة قريبة بيهود ، لأن « عابر » إنما هو جد اليهود (٢) - طبقاً لرواية التوراة (٣) - فضلا عن أن الأثر الإسرائيلي يبدو واضحاً في هذا الرأي .

والأمر كذلك بالنسبة إلى مكان دفنه ، فهناك رواية تذهب إلى أنه إنما كان في دمشق (٤) ، غير أن هذه الرواية - كما يبدو - متأثرة بالعلاقة التي أشرنا إليها بين « إرم » و« أرام » ، وربما بالظروف السياسية وقت كتابتها ، ذلك لأن أصحاب هذه الرواية قد حددوا المسجد الأموي مكاناً للدفن ، بل لقد ذهب البعض إلى أن هودا قد بنى الحائط القبلي للجامع ، ولعل السبب في ذلك الاسرائيليات التي انتشرت بين المفسرين - على أيام

---

(١) المقدسي ٣/ ٣٢، روح المعاني ٨/ ١٥٤، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢، الأخبار الطوال ص ٤ - ٥، المعارف ص ١٦، نهاية الأزب للقلتشندي ص ٣٢٩، ابن حبيب: المحبر ص ٣٨٥، تفسير المنار ٨/ ٤٩٥ - ٤٩٧، تاريخ الخميس ص ٨٤، الإكليل ١/ ٨٧، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٤٩

(٢) انظر كلمة عبري: وصلتها بعابر في كتابنا إسرائيل ص ١ - ٦

(٣) تكوين ١٠: ١، ٢١

(٤) إبن كثير ١/ ١٣٠ تفسير الألوسي ٨/ ١٦١، رحلة إبن بطوطة ١/ ٢٠٥، ٢/ ٢٠٣، ياقوت ١/ ١٥٦، ٢/ ٤٦٣ - ٤٦٥، جواد علي ١/ ٣١٣

بني أمية ـ بهدف تفضيل الشام على بقية المناطق الإسلامية ، حتى جعلوا « دمشق » واحدة من مدائن أربعة ، زعموا أنها من مدائن الجنة[1] ، وربما كان ذلك تمجيداً للمسجد الأموي ، في وقت كان فيه « عبد الله بن الزبير » يتحصن بالمسجد الحرام في مكة المكرمة ، وكان أهل الحجاز في شبه تحزب عام ضد بني أمية[2] ، وربما أن المسجد الأموي كان في بادىء أمره كنيسة بها قبور بعض قديسي أهل دمشق ، فلما تحولت إلى مسجد ، تحولت قبور قديسيها بعواطف الناس إلى قبور للأنبياء[3] ، وهنا لعبت السياسة دورها ، فاستغلت عواطف الناس ـ أو قل عواطف السذج منهم ـ وضعاف الكتاب الأخباريين ، فجعلت منه شيئاً يرجع في قداسته إلى أبعد العهود ، وما أكثر ما لعبت السياسة هذا الدور في تاريخ الشرق الأدنى في كثير من عصوره .

وهناك رواية أخرى تذهب إلى أن اليمن ، إنما كانت مكان دفن النبي الكريم[4] ، بينما تذهب رواية ثالثة إلى أنه قد دفن في حضرموت ، في كثيب أحمر ، عند رأسه سمرة[5] ، وأن هناك قرية تسمى حتى الآن « قبر هود »[6] ، أو في « وادي برهوت » على مقربة من مدينة « تريم » ، غير

(١) فتح الباري ١٣/ ٦٩ ، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣ ، تاريخ ابن عساكر ١/ ١٤ ، ٥٧ ، وأنظر: أضواء على السنة المحمدية ص ١٢٩ ـ ١٣٥ ، ١٧٠ ـ ١٧٢

(٢) أنظر: عبد المنعم ماجد ٢/ ٧٩ ـ ٩١ ، ابن الاثير ٣/ ٢٦٥ ـ ٣١٦ ، الأزرقي ١/ ١٩٦ ـ ٢٠٠ ، التنبيه والاشراف ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤ ، الأخبار الطوال ص ٢٦٠

(٣) جواد علي ١/ ٣١٣

(٤) ابن كثير ١/ ١٣٠

(٥) نهاية الأرب للنويري ١٣/ ٦٠ ، تفسير المنار ٨/ ٤٩٦ ، روح المعاني ٨/ ١٦١ ، تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٧ (دار المعارف) ، ابن سعد ١/ ٢٥ ، ياقوت ٢/ ٢٧٠ ، وكذا *C.Forster, op.cit, P.374* وكذا: تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٧٠ ، صفة جزيرة العرب ص ٨٧ ، ياقوت ١/ ١١٦ ، قصص القرآن ص ٢٧

(٦) مبروك نافع: المرجع السابق ص ٣٣

بعيد عن « بئر برهوت »[1] ، التي إشتهرت في الجاهلية بأنها شر بئر في الأرض ، ماؤ ها أسود ، ورائحتها كريهة ، حتى ذهب الخيال بالبعض إلى أنها موضع تتعذب فيه أرواح الكافرين ، وأنها تقذف بألوان من الحمم ، يسمع لها أزيز راعب[2] ، وهكذا نشأت قصة قبر هود ، وهكذا حيكت الروايات الساذجة عن عذاب عاد[3] .

وهناك رواية رابعة تذهب إلى أن النبي الكريم إنما دفن في فلسطين [4] ، بينما تذهب رواية خامسة إلى أن هودا قد ذهب مع من آمن به إلى مكة - وعددهم ثلاثة آلاف على زعم ، وأربعة على زعم آخر - وأنه أقام هناك ، ودفن بالحجر من مكة ، فقبره إذن بمكة ، بجوار قبور ثمانية وتسعين نبياً [5] .

هذا ويقدم لنا الأخباريون رواية ، مؤداها : أن وفداً من سبعين رجلا من عاد ، يذهب إلى مكة ليستسقي لهم ، وأن هذا الوفد قد نزل عند معاوية بن بكر - وكان بظاهر مكة خارجاً عن الحرم - وأنه أقام عنده شهراً ، يشرب الرجال فيه الخمر ، وتغنيهم الجواري ، وأن معاوية حين رأى طول مقامهم عنده ، أوعز إلى جاريته أن تغنيهم شعراً يذكرهم بمأساة قومهم ، وحين فعلت الجاريتان تذكر القوم مهمتهم [6] .

---

(١) ياقوت ١/ ٤٠٥ ، روح المعاني ٨/ ١٥٦ ، تاريخ حضرموت السياسي ١/ ٦٥

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٧ ، ياقوت ٢/ ٢٧٠ ، لسان العرب ١/ ١٤٣ ، ٢/ ٣١٤ ، جواد على ١/ ٣١٢

(٣) أنظر *Von Kramer, uber die Suedarabische Sage, P.21* وكذا : صفة جزيرة العرب ص ٧٠

(٤) الصابوني : النبوة والأنبياء ص ٢٤٠ ، النجار : قصص الأنبياء ص ٥٣

(٥) روح المعاني ٨/ ١٦١ ، أبو الفداء ١/ ١٢ ، جواد علي ١/ ٣١٣ ، وكذا *Ency. of Islam, 2, P.327*

(٦) تاريخ الطبري ١/ ٢١٧ - ٢٢٦ تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٢٦ - ١٢٨

وليس يهمنا هنا أن تكون الرواية صحيحة ، أو لا تكون ، فذلك شأن من يعتقدون أن لهذا القصص نصيباً من صواب ، وإنما الذي يهمنا هنا أن الذين يروون هذا القصص هم أنفسهم الذين يضعون هودا وقومه في مرحلة تاريخية سابقة لعهد الخليل عليه السلام ، وهم في الوقت نفسه يرون أن مكة لم تعمر إلا منذ عهد إبراهيم ، وربما بعده ، « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[1] ، فضلا عن أن الشعر الذي يرونه في هذه المناسبة ، لا يمكن أن يكون من ذلك العهد الغابر ، ولعله في أغلب الظن شعر منحول .

وأما قصة قبره عليه السلام في فلسطين ، فربما كانت ترتبط بالروايات التي تجعل قوم عاد من شمال شبه الجزيرة العربية ، وليس من جنوبها ، فإذا كان ذلك كذلك ، فربما كانت تحمل نصيباً من صواب .

(٧) عصر قوم هود

لا شك أن الحديث عن تحديد عصر لقوم هود ، إنما هو أمر بالغ الصعوبة ، فالقصة ـ كما قلنا ـ قرآنية صرفة ، وليس في القرآن الكريم ـ أو في السنة النبوية الشريفة ـ إشارة صريحة إلى ذلك ، والآثار صامتة تماماً في هذا المجال ، وليس هناك أي نوع من الوثائق التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في الوصول إلى نتيجة يظن أنها الصواب ، أو

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧ ، وانظر تفسير النسفي ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨ ـ ٣٧٤ ، تفسير الكشاف ٢/ ٣٨٠ ، تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ ـ ١٤٢ ، تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٥ ، الدرر المنثور ٤/ ٨٦ ـ ٨٧ .

حتى قريباً من الصواب ، ومن ثم فإن المحاولة لا تعدو أن تكون حدساً عن غير يقين .

على أننا ربما نستطيع أن نحدد ذلك العصر بالألف الثانية قبل الميلاد ، على وجه التقريب ، ذلك لأن القرآن الكريم إنما يذكر عاداً بعد ثمود ـ وهي دون شك أوضح تاريخاً من عاد ـ هذا إلى جانب أنه إنما يذكر عادا كذلك بعد قوم لوط أما ثمود ، فهي واحدة من القبائل العربية التي جاء ذكرها في الكتابات الآشورية ، على أنها كانت تعيش في شمال شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وأما قوم لوط ، فقد كانوا معاصرين للخليل عليه السلام ، وهو الذي حددنا لعهده من قبل ـ وكما جاء في كتابنا اسرائيل[1] ـ الفترة (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق.م.) ، على وجه التقريب ، ومن ثم فإننا ربما نستطيع أن نقول ، أن عادا إنما كانت في الفترة ما بين عهد إبراهيم الخليل ، وبين عهد ثمود ، ومن هنا فربما لو وضعنا قوم عاد في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، لما تجاوزنا الصواب بكثير .

على أن الأمر ، قد يختلف كثيراً ، إذا ما كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض الباحثين ـ كما أشرنا من قبل ـ من الربط بين « إرم » و« أرام » ، وأن « إرم » إنما تتصل بالأراميين ، وبمعنى آخر أن هناك صلة بين قوم عاد وبين الأراميين عن طريق « عاد إرم » ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن قوم عاد إنما يرجعون إلى ما قبل ظهور الأراميين في العراق القديم في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، كما أشرنا من قبل ـ وهذا يتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين من أن عادا إنما أتوا قبل ابراهيم عليه السلام ، أي قبل القرن العشرين قبل الميلاد .

---

(١) أنظر ما سبق « عصر إبراهيم » ، وكذا كتابنا إسرائيل ص ١٧١ ـ ١٧٦

وإذا صدقت وجهة النظر هذه ، فإننا نستطيع أن ندعمها بعدة أدلة ، منها تلك الآيات الكريمة التي جعلتهم خلفاء لقوم نوح[1] ، ومنها ورود قصة هود بعد قصة نوح ، عليهما السلام ، في كثير من المرات في القرآن الكريم[2] ، هذا فضلا عن ذكر عاد وثمود ، بين قوم نوح وقوم إبراهيم[3] ، ومنها قوله تعالى « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم عاد وثمود، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »[4] ، وقد إتخذ البعض من هذه الآية الكريمة ، والتي قبلها ، دليلا على أن هذه الأقوام ، إنما سبقت عهد موسى ـ أي القرن الثالث عشر ق.م.[5] ـ على أساس أن الخطاب هنا موجه إلى قوم موسى[6] .

غير أن إبن كثير ، إنما يرى أن الخبر مستأنف من الله لهذه الأمة ـ أي أمة محمد ﴿ﷺ﴾ ـ لأن قصة عاد وثمودليست في التوراة ، فلو كان هذا من قول موسى لقومه وقصصه عليهم ، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة[7] ، وتوسط البيضاوي بين أن يكون من كلام موسى ، أو كلام مبتدأ من الله[8] ، أضف إلى ذلك أننا نرى الترتيب يختلف في سورة الشعراء ، إذ تسبق قصة موسى (١٠ ـ ٦٨) قصة إبراهيم (٦٩ ـ ٨٩) ثم تأتي بعد ذلك قصة نوح (١٠٥ ـ ١٢١) فقصة هود (١٢٤ ـ ١٤٠) ثم قصة صالح (١٤١ ـ ١٥٩) فقصة لوط (١٦٠ ـ ١٧٥) ثم قصة شعيب

(١) سورة الأعراف : آية ٦٩ ، سورة إبراهيم : آية٩ ، سورة غافر : آية ٣١
(٢) أنظر مثلا سور : هود والأعراف والمؤمنون والشعراء
(٣) سورة التوبة : آية ٧٠
(٤) سورة إبراهيم : آية ٩ ، وانظر سورة غافر : آية ٣١
(٥) راجع عن عصر موسى : كتابنا إسرائيل ص ٢٦٨ ـ ٣٠٣
(٦) تفسير الطبري ١٣/ ١٨٧ (طبعة الحلبي ١٩٥٤)
(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ١١١
(٨) تفسير البيضاوي ١ / ٥٢٥ ـ ٥٢٦

(١٧٦ - ١٩١)، بل إن ثمودا إنما تتقدم عاد في سورة «ق» حيث يقول سبحانه وتعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ،وعاد وفرعون وإخوان لوط » [1] .

---

(١) سورة ق: آية ١٢ - ١٣

الفصل السابع

الثموديون

"قوم صالح"

(١) أصل الثموديين

ينسب الثموديون إلى « ثمودبن جاثر بن إرم بن سام[١] » ، ويذهب البعض إلى أن ثمودا ، إنما هو أخو «جديس وطسم» وأنهم أبناء «عابر بن إرم بن سام بن نوح[٢] » ، ويكتفي البعض بارجاع نسبهم إلى عاد ، على أنهم بقية من عاد[٣]

وأما النبي الكريم ، صالح عليه السلام ، فهو في رأي البعض - « صالح بن عبيد بن آسف بن ماسخ (أو ماشج) بن عبيد بن حاذر (أو حاجر) بن ثمود » وهو - في رأي البعض الآخر - صالح بن آسف بن كماشج بن إرم بن ثمود ، وهو - في رأي فريق ثالث - صالح بن عيد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود ، إلى غير ذلك من سلسلة أنساب[٤] .

ويجمع المؤ رخون الإسلاميون على أن الثموديين عرب ، بل ويكادون يتفقون على أنهم من العرب العاربة[٥] ، ثم يذهبون بعد ذلك مذاهب شتى ، حيث يرى فريق منهم أنهم بقية من قوم عاد ، ومن ثم فإنهم يرون

(١) إبن الأثير ١/ ٨٩ ، صبح الأعشى ١/ ٣١٣، المحبر ص ٣٩٥، المعارف ص ١٣، المقدسي ٣/ ٣٧، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٢٠٠ ، تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٤ (دار المعارف)

(٢) إبن كثير ١/ ١٣٠، مروج الذهب ٢/ ١٤ ، قارن: تفسير المنار ٨/ ٥٠١، تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٤

(٣) تاج العروس ٢/ ٣١٢، لسان العرب ٣/ ١٠٥

(٤) تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، ابن كثير ١/ ١٣٠ - ١٣١، أبو الفداء ١/ ١٢، إبن الأثير ١/ ٨٩، تفسير المنار ٨/ ٥٠١، روح المعاني ٨/ ١٦٢، المحبر ص ٣٨٥ ، المعارف ص ١٤، الاكليل ٢/ ٢٩١، المقدسي ٣/ ٣٧، قصص الأنبياء ص ٥٨

(٥) إبن كثير ١/ ١٣:

أنهم إنما نشأوا في اليمن ، ثم غلبهم الحميريون فأجلوهم إلى الشمال ، فسكنوا منطقة الحجر[1] ، وتلك رواية يناقضها (أولا) ما ذهبنا إليه من قبل ، من أن عادا إنما كانت في شمال شبه الجزيرة العربية وليس في جنوبها ويناقضها (ثانيا) دعواهم بأنهم من العرب العاربة ، وأنهم كانوا قبل عهد إبراهيم عليه السلام ، والخليل - كما أشرنا من قبل - إنما كان يعيش في الفترة (حوالي ١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م.) ، بينما بدأ الحميريون - كما هو معروف - سيادتهم في اليمن في فترة تقرب من الميلاد بقليل أو كثير[2] ، ومن ثم فالفرق بينهما جد شاسع .

وهناك فريق آخر ، يذهب إلى أنهم بقية من العماليق ، ولعل هذا هو الذي دفع بعضا من المؤرخين المحدثين إلى القول بأن ثمودا ، إنما هم شرذمة من الهكسوس ، الذين طردهم احمس الأول في حوالي عام ١٥٧٥ ق.م. ، من مصر[3] ، وأنهم سكنوا منطقة الحجر ، حيث نحتوا من الجبال بيوتا على غرار المقابر المصرية القديمة التي شاهدوها أثناء إقامتهم في مصر[4] .

وليس لهذا الرأي من دليل ، سوى أن أصحابه قد إفترضوا أن الهكسوس من العماليق - الأمر الذي رفضناه في دراستنا عن الهكسوس [5] - وأن الثموديين بقية من هؤلاء العماليق ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف سكت «احمس» عليهم ، وهو الذي حاصر الهكسوس في «شاروهين» - وهو موقع في

---

(١) أبو الفداء ١/ ٧٠، اللسان ٣/ ١٠٥ ، تاج العروس ٢/ ٣١٢

(٢) عن مبدأ التقويم الحميري: أنظر *Le Museon, 1964, 3-4, P.P.407-429 F*
F.Hommel, Geschichte Sudarabiens, I, 1937, P.96 *G.Ryckmans, Chronologie Sabeenne*

(٣) أنظر كتابنا «حركات التحرير في مصر القديمة» - الباب الثاني -

(٤) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٦

(٥) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٣١ - ١٣٧

جنوب غرب فلسطين ـ ثلاثة أعوام ، حتى أجلاهم عنها[1] ، بل كيف يترك أحمس بقية منهم يقيمون دويلة ـ أو حتى إمارة صغيرة ـ على تخوم دولته ، وهو الرجل الذي حدثتنا النصوص التاريخية من أيامه ، على أنه قد طارد الهكسوس حتى «زاهي» ، ومعنى هذا أنه لم يطهر مصر منهم فحسب بل طهر كذلك فلسطين ولبنان ، ثم كيف سكت الفراعين على أيام الامبراطورية المصرية (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق.م.) على هذه الجيوب المعادية في جنوب الأمبراطورية على حدود فلسطين ـ أو قل على حدود الإمبراطورية مباشرة ـ وفي منطقة تسيطر على طريق القوافل بين مصر وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وهي جد هامة .

وأما النحت الذي تعلموه من مصر ، فلا أظن أن ذلك يستدعي اقامتهم في أرض الكنانة ، فوسائل الإتصال بينهم وبين مصر جد كثيرة ، ولعلها قد تسربت عبر البحر الأحمر ضمن المؤثرات المصرية في الحضارة العربية القديمة[2]

وهناك فريق ثالث يذهب إلى أن الثموديين عرب جنوبيون[3] ، هاجروا إلى شمال غرب الجزيرة العربية ، كدأب كثير من القبائل الجنوبية التي إشتهرت بكثرة تنقلاتها[4] ، ولا أظن أن هذا الفريق من المؤرخين المحدثين قد أصاب كثيرا في رأيه هذا ، لأن العادة أن يهاجر الناس من

---

(١) أنظر : نفس المرجع السابق ، احمد فخري : مصر الفرعونية ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ وكذا
G.Steindorff and K.Seele, When Egypt Ruled the East, P.32

(٢) أنظر مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة »

(٣) أنظر
E.Glaser, Skizze der Geschichte und Georgraphie Arabiens von den altesten Zeiten bis zum Propheten Muhammed, 2, P.123F R. Dussaud, la Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, P.132

O.Blau, ZDMG, 22, 1868, P.P.639-673

مواطن القحط إلى الخصب والنماء ، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى اليمن وشمال غرب الجزيرة العربية ، ثم إن الهجرات العربية الجنوبية ، إنما حدثت في وقت متأخر عن ذلك ، ولعل أشهرها تلك الهجرات التي حدثت بعد التصدع الخطير الذي أصاب سد مأرب في القرن السادس الميلادي ، وأن كنا نعرف هجرات يمنية متعددة إلى السواحل الإفريقية ، بدأت منذ الألف الثاني ق.م. ، واستمرت حتى القرن الثالث الميلادي ، بل إن بعض الباحثين يرى أن الأحباش أنفسهم ، إنما كانوا من غرب اليمن[1] .

وأيا ما كان الأمر ، فهناك ما يدل على أن الثموديين إنما كانوا من القبائل العربية التي سكنت شمال شبه الجزيرة العربية ، هذا فضلا عن أن قبيلة ثمود هذه لم تكن مملكة بالمفهوم الحضاري ، ولم تتوطن بشكل دائم في منطقة من المناطق إلا اذا اخذنا في الإعتبار ما يقوله بعض المؤ رخين من أن النبطيين واللحيانيين أصولهم ثمودية ، وعندئذ يمكن أن نقول أن هذه الممالك ممالك ثمودية باعتبار أصولها ، وإن كانت قد إتخذت إسما جديدا[2] .

(٢) ثمود في الكتابات القديمة

ليس من شك في أن قصة ثمود اوضح بكثير من قصة عاد ، فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد ، والكتابات الأشورية تتحدث عن الثموديين هؤ لاء ،

---

(١) راجع مقالنا الآنف الذكر، ثم أنظر: فضلو حوراني: المرجع السابق ص ٥٤، موسكاتي: المرجع السابق ص ٢١٣، *C.Peters, The Eldorado of the Ancient, P.P.271-74* وكذا *Die Araber, P.126* وكذا *A.Grohmann, op-cit, P.25*

(٢) عبد الرحمن الانصاري: المرجع السابق ص ٨٩

فالملك سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) يتحدث عنهم ، من بين من تحدث عنهم من قبائل خاض غمار الحرب ضدها ، وقد دعاهم بأسم «تامودي Tamudi (Thamudi)» [١] ، بل إنه ليذكر كذلك أنه هجرهم إلى السامرة من بين من هجر من شعوب[٢] ، يقول العاهل الأشوري في حوليات السنة السابعة «طبقا لوحي صادق من آشور إلهي ، قضيت على قبائل تامودي ومرسيمانوا وخيابا[٣] ، والعرب الذين يعيشون بعيدا في الصحراء ، والذين لا يعترفون برؤساء أو موظفين ، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم لأي ملك ، سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة [٤]» .

وقصة التهجير هذه بدأت بعد أن كتب للملك الأشوري نجحا بعيد المدى في القضاء على اسرائيل ، وإحتلال العاصمة (السامرة) في أخريات عام ٧٢٢ ق.م. ، ثم تهجير سكانها - وربما النبلاء والأغنياء فحسب - إلى أنحاء مختلفة من الامبراطورية الأشورية - وهو ما عرف في التاريخ بالسبي الأشوري - وسرعان ما أتى بقوم آخرين من بلاد كان قد إستولى عليها [٥] ، ومن بين هؤلاء الآخرين بعض من ثمود .

وأيا ما كان السبب في هذه التهجيرات التي شملت الثموديين ، وسواء أكان الأشوريون يهدفون من ورائها إلى كسر التحالفات القديمة بإدخال أجانب في البلاد ، كبداية لظروف جديدة أكثر ملائمة للإمبراطورية

---

(١) *Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, I, Pl. 36* **A.L. Oppenheim**, *in ANET, P.286*
A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The annals, 1929, P.5

(٢) *A.Musil, Northern Hegaz, P.289* *A.Musil,* **In** *the Arabian Desert, P.479*

(٣) راجع عن هذه الشعوب : الويس موسل : شمال الحجاز ص ٨٩ - ٩٥

(٤) *A.L. Oppenheim, in* **ANET**, *P.286*

(٥) أنظر كتابنا اسرائيل ص ٥٠٩ - ٥١٢ ، وكذا
J.Finegan, Light from the Ancient Past, I, P.P.208-210
A.T *Olmstead, Western Asia in the days of Sargon of Assyria, P.45*
P.282

الأشورية الطموح ، أو أن الهدف لا يعدو أن يكون تعمير مناطق مر بها الاشوريون إلى السامرة ، إنما قد عادوا في زمن لاحق لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، وأنهم قد أسكنوا في مدين(١) .

هذا وقد جاء ذكر الثموديين في النقوش السبئية ، ومن ذلك نقش ، يرجع إلى نهاية القرن السادس أو بداية القرن الخامس ق.م. ، ويحكي قصة إثنين من قبيلة ثمود كانا يباشران العمل في ري نخيلهما ، ورغم أننا لا نعرف من أي مكان جاء هذا النقش ، على وجه اليقين ، فأغلب الظن أنه من بلاد سبأ(٢) . هذا وقد عثر في «نجران» على نقشين سبئيين كذلك، ورد فيهما إسم الإله (صلم)، الذي كان معبودا ثموديا في منطقة تيماء في العقد الذي استوطن فيه الملك البابلي «بنونيد» هذه المدينة - أي في الفترة (٥٥٥ - ٥٤٦ ق.م.)، بعد حملته المشهورة التي احتل فيها تيماء وديدان وخيبر ويثرب(٣) ، ويبدو - على أي حال - أن النقش ، الآنف الذكر، من عمل مهاجرين ثموديين(٤) والأمر كذلك بالنسبة إلى نقشين سبئيين يذكران كذلك أسم ثمود ، وقد عثر على الواحد منها في وادي «ثوبا» - على مبعدة ٢٠٠ كيلومتر إلى الشمال الشرقي من عدن ، بينما عثر على الآخر في سابق ، بوادي ميفعة جنوب عدن(٥) .

وقد تحدث الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان عن الثموديين كذلك ، فقد جاء في «استرابو» (٦٦ - ٢٤م) أن

(١) *E.Glaser, op-cit, P.102*

(٢) *Repertoire d'Epigraphie Semitique, 3902, bis, N.130* وكذا
Van den Branden, Histoire de Thamoud, P.16

(٣) *A.R. Burn, Persia and The Greeks, P.38* — *A.Gardiner, op-cit, p. 363*
R.P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzor, P.107

(٤) *J.B. Philby, and A.S. Tritton, Najran Inscriptions, JRAS, 1944, P.P.119-29,*

(٥) *Repertoire d'Epigraphie Semitique, 5054*

«ERATOSTHENES» (٢٧٦ - ١٩٤ ق.م.) قـد قسم بلاد العـرب إلى قسمـين ، الواحـد شمالي ويسكنـه الأنبـاط ، والآخـر جنوبي ، ويسكنه المعينيون والفيتانيون والحضارمة ، وبين الاثنين منطقة وسط ـ هي الحجاز وعسير ـ يسكنها «عرب يقتفون الأثر ويرعون الإبل»[١]» ، وأكبر الظن أن الرجل قد قصد بذلك الثموديين الـذين شاهدهـم «ارستـون» الذي قام برحلته على سواحل البحر الأحمـر الشرقية على أيام بطليمـوس الثاني (٢٨٤ ـ ٢٤٦ ق.م.) وأنهم كانوا ـ طبقا لتقريره ـ يسكنون أراض من الحجاز تقع إلى الجنوب من الأنباط[٢] .

وفي القرن الثانـي الميلادي نرى « اجاثـرشيدس « Agatharchiedes » (١٢٠ م) يشـير إلى أن الثموديين إنما كانوا يحتلون وقت ذاك شواطـيء البحر الأحمر، بين الوجه المويلح ، ويصف «ديودور» هذه الشواطيء بأنها تمتد مائة ستاد ، وأنهـا صخـرية شديدة الإنحـدار ، وأمـا «أورانيوس» فثمود ، إنما تقع في رأية على حدود المقاطعة النبطية[٣] .

ويبدو أن صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأرتيري[٤]» كان يعتمد على موارد أكثـر قدمـا ، فهـو يرى أن « Thamundeni » كانـوا يقيمـون على ساحل صخري طويل ، لا يصلح للملاحة ، فلا خلجان تأوي إليه القوارب إتقاء العواصف من الرياح ، ولا موانيء ترسوا فيها ، أو جزر

(١) *A.Van den Branden, Essai de Solution du Probleme Thamoudeens, BIOR, IS, P.P.7-8*

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٣ ـ ٥٤ ، إبراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر ص ١٢١ وكذا *W.Tarn, In JEA, IS, P.14*

(٣) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٢ ، وكذا

W.Vincent, The Periplus of the Erythraean Sea, II, P.262

(٤) يحدد البعض تاريخ هذا الكتاب بالفترة (٥٠ ـ ٦٠م) (فضلو حوراني ص ٥٤)، ويحـدده آخرون لعام ٧٥ م (موسكاتي ص ٧٨)، أما جاكلين بيرين فتحدده بعام ١٠٦ م

(le Royaume Sud-Arabe de Qataban et sa dation PP. 167— 193)

تحتمي بها من الأخطار ، ومن ثم فربما كان ما يعنيه أن مواطن الثموديين ، إنما كانت في الحجاز على سواحل البحر الأحمر[١] .

أما موسوعة «Historia Naturalis» - ل «بليني الأكبر» (٢٣ - ٧٩ م) فتضع «Tamudaei» بين «Domata» و«Haegra» ومدينة دعتها «Badanatha» (Bachanza)[٢] ، أما الحجر ، فهي الخريبة الحالية (العلا) على رأي ، ومدائن صالح ، على رأي آخر ، وأما « دوماتا » فهي دومة الجندل في الجوف جنوب وادي السرحان ، أما المدينة الثالثة ، فيعتقد « ادوارد جلازر » أنها «بيشة» الحالية في عسير[٣] ، وهكذا نرى « بليني » إنما أسكن الثموديين في الداخل ، فربما لأن الساحل في ذلك الوقت إنما كان يحتله اللحيانيون ، الذين يعتبرون فرعا من الثموديين[٤] ، كما أشرنا آنفا .

ولعل «كلوديوس بتولمايس» (١٣٨ - ١٦٥ م) ، أقرب إلى المصادر العربية منه إلى المصادر الكلاسيكية ، فهو يضع الثموديين بين أل «Sarakenai» وبين «APATAE» ، أي في الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب[٥] ، على شواطىء مدين ، وربما إمتد نفوذهم إلى ما وراء

---

(١) جواد علي ١/ ٣٢٥، وكذا «وكذا «كتابنا بلاد العرب» ، وكذا

A.Musil, op-cit, P.302 *W.Vkncent, op-cit, P.262*

(٢) *Pling, Natural History (Translated by, H.Rackham), 2, P.P. 456-57, 6, P.32*

(٣) *E.Glaser. op-cit, P.126*

(٤) *E.Glaser, op-cit, P.104*

(٥) الويس موسل: شمال الحجاز ص ٩٢، جواد علي ١/ ٣٢٥، وكذا

Ptolemy, VI, 7:4, VI, 7:2, V, 19:7 *J.Hastings, op-cit, P.360*

خليج العقبة[1] ، بل إن نفس المؤلف ليشير إلى أنهم إنما سكنوا في المناطق الداخلية كذلك ، وبخاصة حول جبل «زاماتوس» ، والذي يرى فيه «جلازر» جبل عريض[2] .

وهكذا يبدو من جغرافية بطليموس أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار عاد ، لا يفصل بينهما إلا ديار « Sarakenoi » وكلها في أعالي الحجاز ، في منطقة الطرق التجارية التي تصل بين الشام ومصر من ناحية ، واليمن والحجاز من ناحية أخرى ، فإذا كانت «الحجر» وما والاها مواطن ثمود ، وجب أن تكون ديار عاد على مقربة منها[3] .

وعلى أي حال ، فإن المصادر الكلاسيكية ، إنما تدلنا على أن الثموديين قد إحتلوا المناطق التي سبق للجيوش الآشورية أن احتلتها منذ قرون مضت ، وهي مناطق الجوف وموصري[4] ، حتى «بادا ناثا » Badanatha في الجنوب ، إذا صح ما افترضه « جلازر » ، ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الأماكن التي خصصتها المصادر المختلفة كمواطن لقبيلة ثمود ، إنما كانت عرضة للإحتلال أو الإخلاء من جانب الثموديين ، تبعا للظروف السياسية السائدة في ذلك الوقت ، غير أنه يجب

---

(١) *J.Hastings, op-cit, P.360* ، ويشير الزميل الدكتور خالد الدسوقي في بحثه (قوم ثمود: بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش) (في مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - العدد السادس - ١٩٧٦ ص ٢٥١ - ٢٩٦) إلى أن النقوش والرسومات التي عثر عليها في النقب تؤكد المعلومات التي أوردها بطليموس ، قارن

E. Anati, *Ancient Rock-Drawings in the Central Negev, PEQ, 1955, P.P.49-57*

(٢) *E.Glaser, op-cit, P.108*

(٣) جواد علي ١/ ٣٢٥

(٤) أنظر ما كتبناه عن «موصري» هذه ، في كتابنا «بلاد العرب» ، ثم في كتابنا «إسرائيل» ص ٢٢٥ - ٢٣٧ ، وانظر كذلك : *A.Lods, op-cit, P.P.197-199*

H.Winckler, op-cit, P.5 *W.O.E. Oesterley, op-cit, P 228* *A.Musill, op-cit, P.295* *The Jewish Encyclopeadia* في *Exodus* وكذا مادة

ألا نطبق ذلك كحقيقة مطلقة على الثموديين ، آخذين في الإعتبار طبيعتهم كقبيلة بدوية ، كما يجب ألا نأخذ كذلك المعلومات التي امدتنا بها المصادر الكلاسيكية كما هي ، لأن الصورة التي ترسمها لمواطن الثموديين ليست كاملة ، ففي الوقت الذي يتجاهل فيه «استرابون» - إعتمادا على مصدر من القرن الثالث ق.م. - وجود قبيلة ثمود ، فإن معاصره «ديودور الصقلي» يذهب إلى أن ثمود، إنما كانت تسكن شواطىء البحر الأحمر ، ثم يأتي «بليني» فيذهب إلى أن الثموديين إنما اتخذوا مواطنهم في الداخل، وليس على ساحل البحر الأحمر ، ذلك لأن الرجل لم يكن - فيما يبدو - على علم باللحيانيين الذين كانوا يقطنون وقت ذاك سواحل مدين ، والذين إعتبروا فرعا من ثمود ، وتمضي ثلاثة أرباع القرن، ويأتي بطليموس فيجدد مواضع ثمود على شاطىء مدين ، ثم يمتد بها حتى داخل الحجاز (١) .

وهكذا يمكن القول بأن الثموديين إنما كانوا يسكنون في القرن الثاني ق.م. ، وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي في بلاد مدين، فضلا عن أننا نجدهم منذ بداية القرن الأول الميلادي في الحجاز والجوف ووسط الجزيرة العربية ، وأنهم قد بقوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلادي ، فاذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن إستنتاجه من المصادر الأشورية وإشارات المؤرخين العرب ، لأمكن القول، أنه منذ بداية القرن الثاني الميلادي ، فإن المنطقة التي سكنها الثموديون قد إتسعت تدريجيا حتى شملت بلاد العرب الشمالية والوسطى، من الحدود السورية شمالا ، إلى مسافة قريبة

---

(١) خالد الدسوقي : المرجع السابق ص ٢٦٩ - ٢٧٠

من حدود سبأ جنوبا[1]

وأما المصادر العربية، فتكاد تجمع على أن ثمودا إنما كان مقامها بالحجر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام[2] . على أن ارتباطها بعاد[3] إنما يقتضي تقاربهما في المكان، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن ثمودا إنما كانت بين الشام والحجاز، إلى ساحل البحر الحبشي (البحر الأحمر)، وديارهم بفج الناقة، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال، وأن رممهم كانت حتى أيامه (توفي ٣٤٦هـ) باقية، وآثارهم بادية، وذلك في طريق الحج لمن ورد الشام في وادي القرى[4]

وعلى أي حال، فوفقاً للنقوش الموجودة على معبد الغوافة الذي بنته قبيلة ثمود، فيما بين نهاية عام ١٦٦ م، وبداية عام ١٦٩[5] ، فإن ثمود كانت

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٨١ ـ ٢٨٢

(٢) إبن كثير ١/ ١٣٠، أبو الفداء ١/ ١٢، البكري ٢/ ٤٢٦، الطبري ١/ ٢٢٦، ـ ٢٢٧، إبن الاثير ١/ ٨٩، تفسير المنار ٨/ ٥٠١، ١٢/ ١٢٠، تفسير الألوسي ٨/ ١٦٢، ١٤/ ٧٦، تفسير البيضاوي ١/ ٥٤٥، تفسير إبن كثير ٤/ ١٧١، تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٤، ٥٢٨ (دار المعارف)، روح المعاني ٣٠/ ١٢٤، تفسير القرطبي ١٠/ ٤٦ (دار الكاتب العربي ١٩٦٧)، ٢٠/ ٤٨ (دار الكتب المصرية ١٩٥٠)، تفسير النسفي ٢/ ٢٧٧، تفسير الطبري ١٤/ ٤٩ ـ ٥٠ (دار المعارف)، تفسير الجلالين ١/ ٥٤٥ (نسخة على هامش البيضاوي)، تاريخ الخميس ص ٨٤، ياقوت ٢/ ٢٢١، المعارف ص ١٤، المحبر ص ٣٨٤، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ١٩، ٢٠٠، قصص الأنبياء ص ٥٨ ـ ٥٩

(٣) كثيراً ما يقرن القرآن الكريم ذكر عاد بثمود، كما في التوبة وابراهيم والفرقان وق والنجم والفجر، بل ان هناك تشابها بين القصتين في الوقائع وفي المصير، بل وفي كثير من التعابير

(٤) مروج الذهب ٢/ ١٤، نهاية الأرب ١٣/ ٧١، جواد علي ١/ ٣٢٤، جرجي زيدان: المرجع السابق ص ٦٧، ميرول نافع ص ٣٦

(٥)

J.B. Philby, The Land of Midian, MEJ, 9, 1955, P.127F, Van den Branden, BIOR, 15, 1958, P.P 8-9, Histoire de Thamoud, P.15, M.H. Seyring, in Syria, 34, 1957, P.260

في منتصف القرن الثاني الميلادي تملك حرة العـوارض وحـرة الرحـا[1] (الأرحاء) ، وإن كان «دوتي» يذهب إلى أن الحجـر التـي كان يسكنهـا الثموديون ، إنما هي في موضع الخريبة (العلا) ، وليس في مدائن صالح ، التي يرى أنها حجر الانبـاط ، والتـي تقـع على مبعـدة عشرة أميال من الخريبة[2]

هذا وليس هناك في المصادر الإسلامية ما يفيد بوجود قبائل ثمودية عنـد ظهور الإسلام ، أوحتى قبيل ظهوره ، وكل ما نعرفه هو محاولة البعض نسب «ثقيف» إلى **ثمـود** ، ربمـا نكاية في الحجـاج الثقفـي[3] ، ورواية «دوتي» التي يذهب **فيها** إلى أن بدو «نجد» يذكرون أن قبيلة بني هلال من نسل عاد وثمود[4] .

ويروى أن رسـول الله ـ صلـوات الله وسلامـه عليه ـ مرّ بقرية ثمـود ـ وهو في طريقه إلى تبوك ـ وأنـه قال لأصحابـه « لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم» ثم أراهم مرتقي الفصيل في الجبل ، والفج الذي كانت الناقة تردمنه ، وأنه ـ ﷺ ـ قال لهم : لا تدخلن على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلـوا عليهم ، أن يصيبكم ما أصابهم[5]

---

(١) A.Musil, the Northern Hegaz, P.291

(٢) C.M.Doughty, Travels in Arabia Deserta, P.229

(٣) جواد علي ١/ ٣٢٦، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٤ ، ياقوت ٣/ ٥٤ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ١٩٨ ، ٢٠٠ ، وكذا J.Montgomery, op-cit,P.137

(٤) C.M.Doughty, op-cit, P.63 .

(٥) إبن الاثير ١/ ٩٣، إبن كثير ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩ ، تفسير ابن كثير ٤/ ١٧١ ، تاريخ الطبري ١/ ٢٣١ ، تفسير الطبـري ١٢/ ٥٢٤ ، ٥٣٩ ، روح المعانـي ٨/ ١٦٨ ، ١٤/ ٧٦ ، تفسير القرطبي ١٠/ ٤٦ ـ ٤٨ ، تفسير المنـار ٨/ ٥٠٣ ، صحيح البخـارى ٦/ ٢٧٠ ، ٨/ ٩٥، صحيح مسلم ١٨/ ١١١ تفسير الطبري ١٤/ ٥٠

(٣) ثمود في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم في كثير من سوره عن قوم ثمود[١] ، هذا إلى جانب أن كثيرا ما يقرن الله في كتابه العزيز بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة التوبة وإبراهيم والفرقان وص وق والنجم والفجر[٢] - كما أشرنا من قبل - وفي كل هذه الآيات الكريمة نرى قوم ثمود[٣] يعبدون آلهة غير الله ، ويعيثون في الأرض فسادا ، وينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا ، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، وينهاهم عن عبادة الأوثان ، وينذرهم عذاب يوم عظيم ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[٤] .

ونجح صالح عليه السلام في دعوته مع نفر قليل من قومه ، إلا أن الغالبية العظمى منهم قد كفروا برسالته ، وعتوا في طغيانهم عتوا كبيرا ، وطلبوا منه أن يجيء بآية ، إن كان من الصادقين ، فقال لهم : «هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء، فيأخذكم عذاب إليم[٥]» .

غير أن النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة ،

---

(١) سورة الأعراف (٧٣ - ٧٩) وهود (٦١ - ٦٨) والحجر (٨٠ - ٨٤) والاسراء (٥٩) والشعراء (١٤١ - ١٥٩) والنمل (٤٥ - ٥٣) وص (١٣) وفصلت (١٧ - ١٨) والذاريات (٤٣ - ٤٥) والنجم (٥٠ - ٥١) والقمر (٢٣ - ٣٢) (٤ - ٥) والفجر (٩) والشمس (١١ - ١٥)

(٢) إبن كثير ١/ ١٣٢ ، وانظر: التوبة (٧٠) وابراهيم (٩) والفرقان (٣٨) وق (١٢ - ١٣) والنجم (٥٠ - ٥١) والفجر (٦ - ٩)

(٣) هناك خلاف في النسبة إلى ثمود، فهي إما إلى جد القبيلة ثمود، وإما لقلة مائهم، فهو من ثمد الماء إذا قلّ ، والثمد الماء القليل (تفسير روح المعاني ٨/ ١٦٢ ، تفسير المنار ٨/ ٥٠١)

(٤) سورة النساء: آية ١٦٥

(٥) سورة الأعراف : آية ٧٣

والتي قد أعماها حب التمرد والطغيان، وأصم آذانها عن قبول دعوة الله، قد أبت إلا الإجرام، فاقدموا على عقر الناقية بغيًا وعتوا[1]، «فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين»[2]، وهكذا هلك الكافرون بصالح، إلا رجلا واحدا ـ دعوه أبارغال ـ كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله[3]، وإن أضافت رواية أخرى، أنه ما أن خرج من الحرم حتى أصابه ما أصاب قومه[4].

هذه عجالة نلخص بها قصة ثمود ـ كما اوردها ربي جل جلاله في القرآن الكريم ـ إلا أن المؤرخين والمفسرين قد اضافوا إليها كثيرا من أخبار تتعلق بمصير الذين آمنوا مع صالح، عليه السلام، فذهب فريق إلى أنهم إنما سكنوا ناحية الرفلة من فلسطين، لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، والعربي إنما يطلب الكلأ لرعي ماشيته، والأرض ذات الماء، وذهب فريق آخر إلى أنهم إنما سكنوا مكة، وأن صالحا إنما توفي بها، وهو أبن ثمان وخمسين سنة، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن موطن المؤمنين الجديد، إنما كان في حضرموت، بل وزعم هذا الفريق أن قبر النبي الكريم هناك كذلك[5].

وهناك من يرى ان ثمودا، إنما أصيبوا بكارثة عظيمة، من ثوران براكين، أو من هزات أرضية، معتمدا في ذلك على ما ورد في القرآن

(٦) محمد علي الصابوني: المرجع السابق ص ٢٤٥، تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٨ ـ ٥٣٤ (دار المعارف)، مروج الذهب ٢/ ١٥ ـ ١٨

(٢) سورة الأعراف: آية ٧٧ ـ ٧٨

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٦٨، ١٤/ ٥٠

(٤) تفسير المنار ٨/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦، تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٨، البداية والنهاية ١/ ١٣٧

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٦، روح المعاني ٨/ ١٦٢، ١٦٨، المقدس ٣/ ٤١، مبروك نافع: المرجع السابق ص ٣٦، تاريخ الطبري ١/ ٢٣٢

الكريم من كلمات «رجفة» و«صيحة» ، وربما كان الأمر كذلك ، فمنطقة إقامتهم ، إنما هي واحدة من مناطق الحرار في شبه الجزيرة العربية[1] .

ولعل مصير عاد وثمود ، كثيرا ما يشبه مصير سدوم وعمورة ، وبقية مدن الدائرة الخمس في عمق السديم[2] ، والتي تقع - فيما يرى علماء التوراة - في جنوب البحر الميت ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل على هذه المدن كبريتا ونارا ، وأنه جعل عاليها سافلها[3] ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل[4]» ، فإذا ما تذكرنا أن سكان هذه المدن هم قوم[5] لوط - عليه السلام - سهل علينا أن نفهم السبب في أن الله ، جل وعلا ، قد ربط بين هذه الأقوام جميعا في القرآن الكريم ، حيث يقول سبحانه وتعالى «وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة اولئك الأحزاب[6]

---

(١) انظر : تفسير المنار ٨/ ٥٠٦ - ٥٠٧ ، روح المعاني ٨/ ١٦٥ ، ١٢/ ٩٢ ، ١٤/ ٧٦ ، تفسير الطبري ١٢/ ٥٤٤ - ٥٤٦ وكذا

J.Hastings, op-cit, P.734 J.A. Montgomery, op-cit, P.91 Ency of Islam, ***I, P*** *736*

(٢) جواد علي ١/ ٣٣٢ ، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٥٥١ ، ٢/ ١١٩ ، ٣٠٠ ، وكذا

B.Moritz, Arabien, 1923, P.28

EB, I, 1899, P.3790 J.Hastings, op-cit, P.734 J.A.Montgomery, op-cit, P.91

(٣) تكوين ١٩ : ٢٣ - ٢٦

(٤) سورة الحجر: آية ٧٣ - ٧٤

(٥) جاء ذكر قوم لوط في سور كثيرة من القرآن الكريم (أنظر: الاعراف (٨٠ - ٨٤) وهود (٧٧ - ٨٣) والحجر (٦١ - ٧٥) والشعراء (١٦٠ - ١٧٥) والنمل (٥٤ - ٥٨) والتحريم (١٠)، ثم أنظر القصة في: تاريخ الطبري ١/ ٢٩٢ - ٣٠٧، إبن الأثير ١/ ١١٨ - ١٢٢، إبن كثير ١/ ١٧٥ - ١٨٣ ، مروج الذهب ١/ ٥٧ - ٥٨، اليعقوبي ١/ ٢٥ - ٢٦ ، قصص الأنبياء للنجار: ص ١١٢ - ١١٨ ، قصص الأنبياء للثعالبي ص ١٠٣ وما بعدها .

(٦) سورة ص: آية ١٣

هذا ويرى «دي برسيفال» أن هناك ثمة تقارب بين الثموديين، وبين الحوريين[1] سكان بلاد سعير، حتى برية فاران، وأن الخلط في الأخبار بينهما، يرجع إلى أن الثموديين، إنما كانوا يسكنون في مجاورات الحوريين[2].

(٤) عصر قوم صالح عليه السلام

يتجه بعض المؤرخين الاسلاميين إلى أن عصر صالح عليه السلام، إنما كان على أيام إبراهيم عليه السلام، وأن الفترة بين هلاك عاد وهلاك ثمود كانت خمسمائة عام[3]، غير أن هناك من يرى أن عادا إنما هلكوا بعد عهد إبراهيم الخليل وبناء الكعبة، وقبل زمن موسى عليه السلام[4]، وإذا كان صحيحا ما ذهبنا إليه في كتابنا إسرائيل ـ وسبق أن اشرنا إليه هنا ـ من أن إبراهيم الخليل قد عاش في الفترة (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق. م.)، وأن

---

(١) اختلف المؤرخون في الحوريين، فمنهم من يرى أنهم شعب ما زال أصله مجهولا، ومن يرى أنهم شعب هندوأوربي، ولكنهم يجمعون على أنهم جاءوا من المرتفعات الواقعة بين بحيرة أورمية وجبال زاجروس، وقد غزوا شمال بلاد النهرين وسورية الشمالية، ثم كونوا مملكة «ميتاني» التي امتد سلطانها من مرتفعات ميديا الى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها «واشوكاني» التي يظن أنها مكان «الفخارية» على الخابور شرق تل حلف وحاران، وقد عرفت في النصوص المصرية باسم «تهارينا»)، ثم انتشر الحوريون في سورية المخفضة الخصيبة، ووصلوا الى فلسطين فنزلوا البقاع الواسعة بين نهر الحسا وخليج العقبة، وقد بلغ انتشارهم في بلاد الشام درجة دعت المصريين إلى أن يطلقوا اسم «خورو» (خارو) على بلاد كنعان، ويبدو أنهم هم الحويين حكام شكيم على أيام يعقوب (أنظر كتابنا إسرائيل ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٦١ ـ ١٦٥)

(٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٩٥ ـ ٩٦، وكذا

Caussin de Perceval, Essai, sur l'Histoire des Arabes, Paris, 1847, P.26

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٧

(٤) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٥٠، ٥٩

موسى قد خرج باليهود من مصر ، حوالى عام ١٢١٦ ق.م. ، أو عام ١٢١٤ ق.م. ، (أي في القرن الثالث عشر ق.م.)[١] ، فإن صالحا - طبقا لهذا الرأي - قد عاش فيما بين القرن الثامن عشر ق.م. ، والقرن الثالث عشر ق.م. ، غير أن صاحب هذا الرأي نفسه - الاستاذ النجار - لا يستبعد أن يكون قوم عاد أقدم من قوم إبراهيم ، وأن قوم ثمود كانوا يتلون قوم عاد في الوجود والظهور[٢] - الأمر الذي سبق ان ناقشناه هنا من قبل - وخرجنا منه أن هناك آيات كريمة يسبق فيها الثموديون قوم عاد[٣] ، وأخرى تسبق فيها قصة موسى قصة إبراهيم ، ثم تأتي قصة نوح فقصة هود وصالح ولوط وشعيب[٤] .

أضف إلى هذا كله ، أننا لا نملك أدلة علمية مؤكدة نستطيع ان نستند إليها في التأريخ لقوم ثمود ، ومن ثم فإننا يمكننا القول - حدسا عن غير يقين - ان الثموديين - بصفة عامة - ربما كانوا يشغلون صفحات في التاريخ ، منذ أوائل الألف الاول ق.م. ، وأنهم إستمروا كذلك حتى القرن الخامس الميلادي ، نقول منذ الألف الأول قبل الميلاد ، لأن لدينا كتابات آشورية تتحدث عن الثموديين صراحة منذ القرن الثامن ق.م. - وبالتحديد منذ عهد سرجون الآشوري (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.)[٥] -

---

(١) راجع التأريخ لعصر ابراهيم ، وكذا الاراء المختلفة التي دارت حول تاريخ خروج اليهود من مصر في « كتابنا اسرائيل » ص ١٧١ - ١٧٧ ، ص ٢٦٨ - ٣٠٣ .

(٢) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ٤٨

(٣) انظر : سورة ق : آية ١٢ - ١٣

(٤) انظر : سورة الشعراء ، حيث تسبق قصة موسى (١٠ - ٦٨) قصة إبراهيم (٦٩ - ٨٩) ثم تأتي بعد ذلك قصة نوح (١٠٥ - ١٢١) فقصة هود (١٢٤ - ١٤٠) ثم قصة صالح (١٤١ - ١٥٩) فقصة لوط (١٦٠ - ١٧٥) فقصة شعيب (١٧٦ - ١٩١)

(٥) *ANET, P.286*

وبدهي أن هؤلاء الذين حاربوا العاهل الآشوري لم يظهروا فجأة في التاريخ ، وإنما لهم أسلاف عاشوا قبل ذلك بقرون لا ندري مداها على وجه التحقيق ، ونقول القرن الخامس الميلادي ، لأن لدينا نقشا يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي (وبالتحديد إلى عام ٢٦٧ م)[١] ، وبدهي ـ مرة أخرى ـ كما أنهم لم يبدأوا فجأة، فإنهم لم يختفوا فجأة كذلك، ومن هنا قلنا إنهم أستمروا حتى القرن الخامس الميلادي ، بل أن هناك ما يدل على أنهم كانوا في ذلك القرن فرسانا في جيش الروم ، وأنهم كانوا يعسكرون في مصر، وكذا في فلسطين[٢] .

(٥) النقوش الثمودية

لقد عثر الاثريون على نقوش ثمودية في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، تمتد من الجوف شمالا ، إلى الطائف جنوبا ، ومن الأحساء شرقا إلى يثرب فأرض مدين غربا ، وفي المسالك المؤدية إلى العقبة والاردن وسورية ، وحتى في ارض حضرموت من جنوب الجزيرة العربية ، وأن ذلك ـ كما يقول الاستاذ شرف الدين ـ لدليل حي على أن الثموديين كانوا في يوم ما السكان الأصليين لشمال الجزيرة العربية ، ولهذا فإن القرآن الكريم ذكر الثموديين في أكثر من آية دون غيرهم من شعوب المنطقة ممن كانوا أكثر منهم قوة ، سواء في مجال المدنية أو التجارة كالديدانيين واللحيانيين والأنباط ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على توافق تام وتطابق محكم بين نصوص القرآن الكريم ومعلومات

---

(١) *A.Van den Branden, les Inscriptions Thamoudeennes, 1950, P.410*

(٢) *C.M. Doughty, op-cit, P.229*

Encyclopedie de Pauly - Wissowa, IA.2, article Saraka, Col. 2387-2390

A.Sprenger, op-cit,P.28

النقوش[1] ، وإن كنت أميل إلى أن ذكر القرآن الكريم لقوم ثمود في اكثر من أية ، ليس بسبب أنهم السكان الاصليون لشمال بلاد العرب ، وإنما بسبب نبي الله صالح ودعوته التي ما آمن بها إلا نفر قليل من ثمود ، ومن ثم فالغرض من الذكر هنا ، إنما هو العظة والعبرة ، بقوم كفروا بربهم ، وأنكروا دعوة نبيهم ، فكان جزاؤهم العقاب الشديد ، وليس أدل على ذلك من أن قوم ثمود - كما يرى صاحب الرأي نفسه - لم يبلغوا في ميزان القوة أو المدنية ، أو حتى التجارة - ما بلغه آخرون من نفس المنطقة ، كما أن الثموديين - كما أشرنا من قبل - لم يستطيعوا تكوين مملكة بالمفهوم الحضاري في يوم من الأيام ، بل إنهم حتى فشلوا في أن يفرضوا سلطتهم الإدارية على المناطق التي وقعت تحت سلطتهم يوما ما ، لسبب او لآخر .

وعلى أي حال ، فإن نقوشا ثمودية كثيرة جاءت إلينا من شمال شبه الجزيرة العربية ، من تبوك وتيماء والعلا ومدائن صالح ولقط وجبل مرير ، ومن المدينة المنورة ووادي الأب - الذي يبعد عنها بحوالي ٧٠ كم - ومن مكة المكرمة والطائف وريع الزلالة في الطريق بينهما ، ومن السواحل الحجازية الشمالية للبحر الأحمر عند الوجه[2] ، وأما في وسط الجزيرة العربية ، فقد عثر على نقوش ثمودية في حائل وسدير والقصيم وفارينا في ضواحي الرياض[3] ، أما في جنوب الجزيرة العربية ، فقد جاءتنا نقوش ثمودية من اليمن وقرب عدن ومن حجر المعقاب عند جبل خليل ، ومن طريق النجور بين حضرموت ومكة ، ومن منطقة شواديف في اليمن

---

(١) احمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الاسلام ص ٦١

(٢) جواد علي ١/ ٣٢٩ ، خالد الدسوقي : المرجع السابق ص ٢٧٤ - ٢٧٥

(٣) *Ency. of Ency of Islam, 4, P.736 A.Musil, Northern Nejd, P.104 Jausen - Savegnac, op-cit, I-4, H.Grimme, Entzifferung Thamudenischer Inschriften, 1904*
C.Huber, Inscriptions Recueillies dans l'Arabie Centrale, 1878-1882 Bull.Soc. Geogr., 5, P.P.289-303

الجنوبية[1] .

هذا وتشير النقوش الثمودية إلى الحياة المستقرة التي كان يحياها القوم ، ومن ثم فقد رأينا رسما يصور لنا عملية حرث الأرض ، وهو عمل كثيرا ما تتحدث عنه النقوش ، كما كان البعض يوصف بأنه «اكّار » أي فلاح كما وردت كلمة «عيّان» بمعنى سكة المحراث، ، وكل تلك ألفاظ تشير ألى مهنة الزارعة ، أضف إلى ذلك أن الإسم «رال» الذي يعني قش ، إنما يدل على زراعة أنواع مختلفة من الحبوب ، والأمر كذلك إلى لفظة «زرأ» بمعنى بذر[2] .

وهناك ما يشير إلى أن القوم قد عرفوا زراعة العنب ، بدليل وجود الإسم «عنّاب» أي تاجر العنب ، ولعل هذا يجعلنا نميل إلى أن الرأي القائل بأن زراعة الكروم لم تعرف في بلاد العرب ، إلا في القرن الرابع الميلادي ، إنما هو بعيد عن الصواب إلى حد كبير[3] .

هذا وتشير الرسوم المتعددة لشجرة النخيل إلى أن ثمارها ربما كانت الغذاء الرئيسي للثموديين[4] ، وعلى أي حال فلا شك في أن شجرة النخيل إنما هي ملكة عالم النبات في شبه الجزيرة العربية ، ورغم تدهور قيمة التمور في السنوات الأخيرة ، فهذا لا يجعلنا ننسى أن ثمار النخيل إنما كانت إداما للعرب ، وطبا يستطبون به لمعالجة عدد من الأمراض ،

---

(١) خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية من جنوب بلاد العرب وشرحها ـ القاهرة ١٩٤٣ ص ١٠٩ ، جواد علي ١/ ٣٢٩

J.Ryckmans, Graffites Thamoudéens du Yamen Septentrional, le Museon, 72, 1959, P.P.177-189

J.B. Philby, Sheba's Daughters, London, 1939, P.441

A.Van den Branden, les Textes Thamoudeens de Philby, Louvain, 1956

(٢) خالد الدسوقي : المرجع السابق ص ٢٩١ وكذا

Van den Branden, les Inscriptions Thamoudeennes, P.590

(٣) خالد الدسوقي : المرجع السابق ص ٢٩١ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٣

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٢ ـ ٢٣

ومادة يستخرجون منها دبسا وخمرا وشرابا[1] ، بل لقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك ، حين حلوا بها مشكلة الصراع بين الحرارة والملوحة ، ذلك أن الاشعاع الشمسي الهائل يرفع البخر إلى درجة تهدد الموارد الباطنية بالنفاد وسط التربة الزراعية بالاستملاح المتزايد ، ولهذا لجأ القوم إلى النخيل ، لا كغذاء فقط، وإنما لتستظل به الزراعة[2] ، وعلى أي حال ، فإن ملكة الأشجار العربية هذه ، غير عربية الأصل ، نقلت إلى شبه الجزيرة من الشمال ، من بابل ، حيث كانت شجرة النخيل أعظم العوامل التي جذبت الأنسان القديم إلى التوطن هناك[3] .

وهناك ما يشير إلى ان الثموديين قد عرفوا زراعة القطن كذلك ، بدليل وجود الإسم «برس» أي شعر القطن ، والإسم «هلق» أي حلاج القطن ، الذي يشير الى صناعته كذلك ، كما أن هناك ما يشير كذلك إلى معرفة القوم لزراعة البصل والبخور والورود[4] .

هذا ولم تقتصر النقوش الثمودية على بلاد العرب ، وإنما وجدت كذلك في سيناء وفي دلتا مصر وفي وادي الحمامات بين القصير وقفط ، وفي الصفا شرق دمشق وفي شمال غرب تدمر وفي صيدا وجبل الرام وأم الرصص قرب ديبان في شرق الاردن ، وفي النقب[1] . ولعل من الأهمية

(١) جواد علي ١/ ٢٠٧

(٢) جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٩٥ - ٩٦

(٣) لاويون ٢٣ : ٤٠ ، نحميا ١٨ : ١٥ ، مكابيين أول ١٣ : ٥١

وكذا *J.Hastings, op-cit, P.675*

(٤) خالد الدسوقي : قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش - مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - العدد السادس - ١٩٧٦ ص ٢٩٢

E.N. Kensdale, Three Thamudic Inscriptions from the Nile Delta, le Museon, 65, P.P. 285-288

G.Harding, Some Thamudic Inscriptions from Hashmite Kingdom of the Jordan, 1952

W.M. Petrie, Hyksos and Israelite Cities, P.54　*E.Littmann, Thamud und Safa, PP.6,95*

S.Horsfield, le Temple de Ramm, Rev.Bibl, 44, 1935, PP. 245-278

H.A. Winckler, Rock. Drawings of Southern upper Egypt, London, 1938, P.P.5,10

بمكان الإشارة إلى ان هذه النقوش الثمودية - في غالبيتها - من ذلك النوع القصير الذي يكتب في مناسبات شخصية مختلفة[1] ، كما أنها ليست ذات فائدة تاريخية كبيرة ، وان كان بعضها يدلنا على علاقات من نوع ما بين الثموديين والأنباط وغيرهم ، فضلا عما تفيده من الناحية اللغوية ، وفي معرفة أسماء الثموديين ولهجاتهم ، بخاصة إذا علمنا أنها كتابة متطورة من خط المسند ، وإن الدكتور الأنصاري يرى أن نطلق على الخط الثمودي «خط البادية» ، لأنه كثيرا ما يكون من ذلك النوع الذي يسمى «مخربشات» ، وليس من الكتابات المنمقة ، التي وجدت بكثرة في كتابات السبئيين والمعينيين والقتبانيين والحضارمة والحميريين ، وبعض كتابات الديدانيين واللحيانيين في منطقة العلا ومدائن صالح[2] .

(٦) المجتمع الثمودي

تدلنا الكتابات الثمودية على أن أصحابها إنما كانوا - في معظمهم - يعرفون القراءة والكتابة إلى حد ما ، وقد سميت إحدى النساء «سحف» أي التي تخطىء عند القراءة ، كما أن هناك نصا يعرف منه أن فتاة صغيرة كتبت إسمها على الصخر ، بينما كان والدها يراقبها عن قرب ، فضلا عن أن هناك من احترف مهنة الكتابة ، بدليل وجود الإسم «كتب» أي كاتب[3] ، هذا وقد كان القوم زراعا ، أقرب إلى الحضر منهم إلى أهل الوبر ، وأن لهم مواطن إستقرار ومعابد، وأن من بينهم من اشتغلوا بالتجارة فضلا عن الصيد الذي مارسه الثموديون سكان مدين بصفة خاصة ، وقد عثر على ثلاث رسومات في الجبال الداخلية لسفن كان

---

(١) جواد علي ١/ ٣٢٩ وكذا
Van den Branden. les Inscriptions Thamoudeennes. Louvain, 1956

(٢) عبد الرحمن الانصاري : المرجع السابق ص ٨٩

(٣) *Van den Branden, Histoire de Thamoud, P.57F*

يستعملها القوم في صيد الأسماك ، ولعل من المفيد هنا الأشارة إلى أنه قد عثر على سفن من نفس الطراز في صخور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية ، بجوار بعض النقوش الثمودية ، الأمر الذي يحمل على الظن بأنها مراكب إستعملها القوم في عبور البحر الأحمر[1] ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن فريقا من المجتمع الثمودي ، إنما كان بدوا رحلا ، ومن بينهم من كان يعمل في تجارة القوافل ، أو من أهل «أهل العير» على حد تعبير النقوش[2] .

وتصور النقوش الثمودية رجالا ذوي قامة عادية ، ويبدو أنهم كانوا من العنصر ذوي الرؤوس المستطيلة - مثلهم في ذلك مثل سكان بلاد العرب الشمالية ، وكان الرجال ذوي شعور قصيرة ، ويلبسون ازارا وحزاما في الوسط ، والرأس عادة عارية ، وإن كان الرجال - في بعض الأحيان - يلبسون غطاء رأس من القش ، كما أن هناك من يلبس ثوبا ، وعلى رأسه عمامة ، ومن يرتدي قميصا ينزل حتى الركبة ، أما النساء فكانت شعورهن طويلة ، هذا وهناك بعض المناظر التي تبدو فيها المرأة وقد حملت سلة فوق رأسها ، وارتدت ثوباً طويلاً ينزل حتى العرقوب ، وارتدت خماراً ، هذا وتدل مناظر النساء على أن المرأة الثمودية إنما كانت شديدة الرغبة في التزين بالحلي والأساور ، فضلاً عن العقود التي كانت على هيئة الهلال أو الجعل ، حتى أن المرأة التي لم تكن ترتدي حلياً في جيدها إنما تسمى « آتل » ، أضف إلى أن استعمال الدهون كان شائعاً بينهن[3] .

---

(١) *Van den Branden, op-cit, P.40F, les Textes Thamoudeens, de Philby, 1956, PP.275-9*
F.M.Green, Notes Some Inscriptions in Etbay District, **PSBA** *35, 1909, Pl. XXXVI*

(٢) *Van den Branden, Histoire de Thamoud, P.42F*

(٣) *Van den Branden, les Textes Thamoudeens de Philby, P.P.156-164, 268*

وأما معبودات الثموديين - طبقا لروايات نصوصهم - فلعل أهمها «صلم Salm » ، وقد رمزوا له برأس الثور ، وكانت «تيماء»، حوالى عام ٦٠٠ ق.م. ، من أهم مراكز عبادته ، هذا فضلا عن معبودات أخرى ، منها «ود» - وهو أحد المعبودات العربية القديمة - ومنها «حدد - هدد» وشمس ومناة وكاهل وبعل وبعلة ويهو ورضو وعثيرة وهبل ويغوث وسين وغيرها ، كما كان لهذه المعبودات سدنه يخدمونها ، يعرف الواحد منهم باسم « قسو » أي « قس »[1] .

بقي أن نشير إلى أن هذه الكتابات الثمودية ، إنما يرجع بعضها إلى القرن السابع قبل الميلاد ، بينما يرجع البعض الآخر منها إلى ما بعد الميلاد - أي إلى عام ٢٦٧م[2] - ومن هنا فقد ورد في بعضها (وهو النص رقم ٤٧٦) ذكر للسيد المسيح عليه السلام ، إننا لا نعرف تاريخ هذا النص على وجه التحديد ، فإنه - فيما يرى ليتمان - أقدم دليل على انتشار المسيحية في شمال شبه الجزيرة العربية[3] .

(١) جواد على ١/ ٣٢٩ - ٣٣١ وكذا

A.Van den Branden, op-cit, P.10

J.Welhausen, op-cit, P.P.14, 146

(٢) *C.M. Doughty, Documents Epigraphiques Recueillis dans le Nord de l'Arabie, 1891*

Enno Littmann, Jesus in Pre-Islamic Arabic Inscriptions, in the Muslim World, Vol. **XI**, *1950*

(٣) *Van den Branden, une Inscriptions Thamoudéennes, le Museon, LXIII, 1950. 1-2,* **PP. 47-51**

الفصل الثامن

المديانيون

قوم شعيب

(١) قصة مدين في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن أهل مدين، وعن نبيهم الكريم، شعيب عليه السلام، في مواطن متفرقة من سوره [١]، ووفقاً لما جاء في القرآن الكريم، فإن شعيباً أتى مدين [٢] أو أصحاب الأيكة، فنهاهم عن عبادة الأوثان، كما أمرهم أن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان [٣].

ويروى عن إبن عباس أن الايكة المذكورة في القرآن، إنما كان يسكنها قوم شعيب، وأنها إنما تقع من مدين [٤] إلى «شغب» و«بدا»، أو أنها من ساحل البحر إلى مدين، وكان شجرهم المقل (الدوم) [٥]، وأسفل أرض مدين - حتى وقتنا الحالي - فإن الوادي فيما بين البدع وساحل البحر تغطيه الأحراش الكثيفة التي يتميز من بينها نخيل الدوم، ولكن الطريق من مدين إلى بدا يمر خلال واحات عدة غزيرة المياه تملؤها الخضرة، وكانت

---

(١) أنظر: سورة الأعراف (٨٥-٩٣) والتوبة (٧٠) وهود (٨٤-٩٥) والحجر (٧٨-٧٩) والحج (٤٤) والشعراء (١٧٦-١٩١) والقصص (٢٢، ٢٥، ٤٥) والعنكبوت (٣٦-٣٧) وق (١٤) وغيرها

(٢) اختلف المفسرون في إسم مدين، فذهب البعض إلى أنه إسم رجل في الأصل، ثم كانت له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وذهب آخرون إلى أنه إسم ماء نسب القوم إليه، والأول أصح، لأن الله أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى « ولما ورد ماء مدين »، ولو كان إسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقية، والأصل في الإضافة التغاير حقيقة (تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٦٤)، ياقوت ٥/ ٧٧-٧٨)

(٣) أنظر: الاعراف (٨٥) وهود (٨٤-٨٥) والشعراء (١٨١-١٨٣)

(٤) يقول ياقوت في معجمه أنها تقع على بحر القلزم محازية لتبوك، وبها البئر التي إستقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب (ياقوت ٥/ ٧٧-٧٨، البكري ٤/ ١٢٠١)

(٥) ياقوت ١/ ٢٩١، ٢/ ١٤، البكري ١/ ٢١٥-٢١٦، تفسير إبن كثير ٤/ ١٧٠، تفسير البيضاوي ١/ ٥٤٥، تفسير الطبري ١٤/ ٤٨-٤٩، تاج العروس ٧/ ١٠٤ (طبعة بولاق ١٣٠٧/ ١٣٠٨)

هذه الواحات تابعة لأهل مدين، وهنـاك نص طريف لإبـن منظـور في «لسان العرب» عن سبب تسميتها بالأيكة، وهـو أن لفـظ الأيكة يعنـي الشجر الملتف أو الغيضة، كما يعنـي كذلك إسـم «ليكة» وهـي البلـد حولها[1]، أو هي بلدة كانوا يسكنونها، وإطلاقها على ما ذكر، إما بطريق النقل أو تسمية المحل باسم الحال فيه، ثم غلب عليه حتى صار علماً[2]، وعلى أي حال، فإن «ليكة» تذكرنـا بالكلمـة اليونـانية « Leuke » ومعناها الأبيض، والجزء من أطلال مدين الواقع على حافة الغيضة لا زال يعرف بالحوراء، وهو يعني كذلك البياض[3].

على أن هناك من يرى أن أصحـاب الأيكة غـير مدين، بدليل وصف «شعيب» في الآية (٨٥) من سورة الأعراف، بأنه أخـو مدين، وعـدم وصفـه بذلك في الآيتـين (١٧٦، ١٧٧) من سورة الشعـراء، وبـدليل الحديث الذي رواه إبن عساكر مرفوعاً إلى عبدالله بن عمرو بن العاص مـن «أن مـديـن وأصـحـاب الأيكـة أمتـان بـعـث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام» وأن شعيباً إنما أرسل إلى قومه أهل مدين، وكذا أصحاب الأيكة، وأنه كان ينذرهم متنقلاً بينهم في زمن واحد، ومن ثم فربمـا كان عقابهـا واحـداً في زمـن واحـد أو في وقتـين متقاربين، أهل مدين بالرجفة والصيحة المصاحبة لها، وأصحاب الأيكة بالسموم وشدة الحر الذي إنتهى بظلة من السحاب فزعوا إليها يبتـردون بظلها فأطبقت عليهم، حتى إختنقوا بها أجمعين[4]، هكذا يروي السدي وعكرمة «ما بعث الله تعالى نبياً مرتين إلا شعيباً»، مرة إلى مدين، فأخذهم

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٢٧٤ (طبعة بولاق ١٣٠٠/ ١٣٠٧)، شمال الحجاز ص ٧٢

(٢) روح المعاني ١٤/ ٧٥

(٣) شمال الحجاز ص ٧٢

(٤) تفسير المنار ٩/ ١١ - ١٢

الله تعالى بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة [١]، وأخيرا فهناك فريق ثالث زعم أن شعيباً إنما أرسل إلى أمم ثلاث، حيث أضافوا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، أصحاب الرس [٢].

والرأي عندي أن الأمر غير ذلك تماما، لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن الأنبياء إنما تبعث في أقوامها، لأن القوم سيكونون أفهم لقول النبي من قول غيره، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله [٣]، ومنها (ثانياً) لمعرفة النبي بلسان قومه، تصديقاً لقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» [٤]، ومنها (ثالثاً) أن ما جاء في سورة الشعراء من وصف لأصحاب الأيكة [٥]، إنما يتفق وما جاء في غيرها من وصف لأهل مدين، مما يدل على أن أهل مدين، إنما هم أنفسهم أصحاب الأيكة [٦]، ومنها (رابعاً) أن أنواع العقاب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى بالقوم، لا تعني أنهم أقوام عدة، وإنما تعني أن الله قد أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ففي سورة الأعراف رجف القوم نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم، فقال تعالى «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» [٧]، فقابل الإرجاف بالرجفة، وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة

---

(١) تفسير روح المعاني ٨/ ١٧٥، ٩/ ٦، وأنظر ١٤/ ٧٥
(٢) تفسير روح المعاني ٨/ ١٧٦
(٣) تفسير روح المعاني ٨/ ١٥٤
(٤) سورة إبراهيم : آية ٤
(٥) سورة الشعراء : آية ١٧٦ - ١٩١
(٦) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ص ٢٧٢
(٧) سورة الأعراف : آية ٩١

فأصبحوا في ديارهم جاثمين [١]، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء «أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤ نا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد» [٢]، فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن قول ما قالوا، ومن ثم فقد جاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم، وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، حيث قالوا «فاسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين» [٣]، ومن ثم يقول سبحانه وتعالى: «فكذبوه بأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم» [٤].

ومنها (خامساً) أن وصف شعيب في سورة الأعراف بأنه أخو مدين، وعدم وصفه بذلك في سورة الشعراء عند الحديث عن أصحاب الأيكة، فالرأي عند إبن كثير أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله تعالى «كذب أصحاب الأيكة المرسلين» [٥]، لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة هنا، وحين نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، ومنها (سادساً) أن الحديث الذي رواه إبن عساكر في ترجمة النبي شعيب، مرفوعاً إلى عبدالله بن عمرو، من أن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي، إنما هو حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه، وربما كان من كلام عبدالله بن عمرو من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك، وفيهما أخبار بني إسرائيل [٦].

ومنها (سابعاً) أن نبي أصحاب الرس إنما هو ـ طبقاً لروايات

(١) أنظر الآية ٩٤ من سورة هود
(٢) سورة هود : آية ٨٧
(٣) سورة الشعراء : آية ١٨٧
(٤) سورة الشعراء : آية ١٨٩
(٥) سورة الشعراء : آية ١٧٦
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٨٩ ـ ١٩١

الأخباريين - «حنظلة بن صفوان»[1]، فضلاً عن أن الآيات الكريمة (١٢-١٤) من سورة «ق» إنما تؤكد أنهما أمتان مختلفتان، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى «كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد».

وعلى أي حال، فلقد كان ذكر قصة شعيب مع قومه من الميديانيين في القرآن الكريم، سبباً في أن يهتم المفسرون بالنبي الكريم وبقومه، إلا أنهم بالغوا في الأمر أحياناً، وابتكروا أشياء من عندهم في أحايين أخرى، ومن ثم فقد أصبح شعيب عندهم، هو «شعيب بن ميكيل بن يشجن أو يشجر بن مدين بن إبراهيم» مرة، وهو «شعيب بن نويب أونويت بن عيفا بن مدين بن إبراهيم» مرة أخرى[2]، وهو «شعيب بن نوبت أو نويل بن رعويل، بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم» مرة ثالثة[3]، وهو «يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم» مرة رابعة[4]، وهكذا يختلف المفسرون والمؤرخون

(١) يروي الأخباريون أن أصحاب الرس من ولد إسماعيل- وكذا نبيهم حنظلة بن صفوان - وأنهما قبيلتان، يقال لإحداهما «أدمان» أوقدمان، وللأخرى «يامن» أو رعويل، وأنهما كانا في اليمن، ومن ثم فقد زعم فريق أنهم من حمير أو من أهل عدن، وأن القوم كانوا قد قتلوا نبيهم، فسلط عليهم «بختنصر» (نبوخذ نصر ٦٠٥-٥٦٢ ق.م.) بأمر من واحد من أنبياء بني إسرائيل (انظر: مروج الذهب ١/ ٧٨، ٢/ ٢٥، ياقوت ٣/ ٤٣، البكري ٢/ ٦٥٢، ٣/ ٨٤٩، الروض الأنف ١/ ٩، تاج العروس ١/ ٤١٠، اللسان ١٢/ ١٤٩) وليس من شك أن هذه القصص قد اختلطت فيها الحقائق بالاساطير، وقد ناقشنا ذلك في كتابنا «بلاد العرب»

(٢) إبن كثير ١/ ١٨٥، روح المعاني ٨/ ١٧٥، تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤، مروج الذهب ١/ ٦١

(٣) مروج الذهب ٢/ ١٢٨، قصص الأنبياء للثعالبي ص ١١٥، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤١٦.

(٤) إبن الأثير ١/ ١٥٧

الإسلاميون في نسب النبي الكريم، والغريب من الأمر، أن واحداً منهم لم يقدم لنا دليلاً على أن رأيه هو الصحيح، وأن من خالفه كان على غير صواب.

هذا وقد وصل الخلاف كذلك إلى إسم النبي ذاته - وليس نسبه فقط، ومن ثم فقد رأيناه - فيما يزعم أصحابنا الإخباريون - شعيباً مرة، ولكنه مرة أخرى «يثرون» أو «يثروب» أو حتى «يثرو»، ومرة ثالثة «يزون» أو حتى «بنزون»، وهو من أبناء إبراهيم مرة، وممن آمنوا به يوم ألقي به في النار، ثم هاجر معه إلى الشام مرة أخرى، ثم هو من أبناء بعض من آمن به مرة ثالثة، وهو حفيد لوط من جهة أمه مرة رابعة [1].

ولكن أغرب ما في الأمر، أن يصل إدعاء العلم عند البعض إلى أن يحول النبي العربي إلى يهودي، فيزعم أنه «شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب»، أو خبري بن يشجر بن لاوي بن يعقوب» [2]، ومن عجب أن «لاوي بن يعقوب» هذا، ليس له إبناً يحمل إسم يشجر أو يشخر، وإنما إسماء أولاده - كما جاءت في التوراة - «جرشون وقهات ومراري» [3]،

وأخيراً، فإن البعض إنما يزعم أن النبي الكريم قد ذهب مع المؤمنين به - بعد هلاك الكافرين به - إلى مكة، حيث ماتوا هناك، وأن قبورهم غربي الكعبة [4]، وإن زعم آخرون أن النبي الكريم إنما كان على مقربة من «حطين» في موقع سماه ياقوت «خباره»، أو «خربة مدين» فيما يزعم

---

(١) إبن كثير ١/ ١٨٥، أبو الفداء ١/ ١٨، الطبري ١/ ٣٢٥ - ٣٢٩، إبن الأثير ١/ ١٥٧

(٢) تفسير المنار ٨/ ٥٢٣ - ٥٢٤، تفسير روح المعاني ٨/ ١٧٥، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤١٦، إبن كثير ١/ ١٨٥

(٣) تكوين ٤٦ : ١١

(٤) تفسير روح المعاني ٩/ ٨، إبن كثير ١/ ١٩١

آخرون [1].

وليس من شك في أن قصة موسى ـ عليه السلام ـ وصلته بكاهن مدين ـ كما جاءت في التوراة [2] ـ لعبت أخطر الأدوار في تلْوين قصة النبي العربي باللون الإسرائيلي ـ ولا نقول كادت أن تجعل بعضها مسخاً إسرائيلياً ـ حيث إعتمد الإخباريون على مدعي العلم ممن أسلم من يهود، فنقلوا عنهم كل ما جاءت به قرائحهم من غث وسمين، وهكذا وضعت له سلسلة من نسب، ليس لها نصيب من صواب، وأن ذلك كله لم يكن معروفاً ـ فيما يرى البعض ـ في صدر الإسلام، وإنما حدث بعد فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق [3].

(٢) موطن المديانيين

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط [4]، هذا وقد كانت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطورسيناء [5].

ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، والظاهر أن القوم قد توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، وسرعان ما إتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمداً طويلاً حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة، وقد ذكر بطليموس موضعاً يقال له «مودينا

---

(١) ياقوت ٣/ ٢٩٩ ، وكذا *Ency. of Islam, 4, P.389*

(٢) خروج ٢ : ١٥ ـ ٢٥

(٣) أنظر :

J.Horovitz, Koranische untersuchungen, Berlin, 1916, P.119F   *Ei, 4, P.*

(٤) إبن كثير ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥ ، ياقوت ٥/ ٧٧ ـ ٧٨ ، ١٥٣ ـ ١٥٤ ، تفسير المنار ٨/ ٥٢٤

(٥) قاموس الكتاب المقدس ص ٨٥٠

« Modiana » على ساحل البحر الأحمر ، يرى العلماء أنه موضع مدين ، وهو يتفق وحدود أرض مدين المعروفة في الكتب الغربية[1] .

ويقول المؤرخ اليهودي « يوسف بن متى » أن موسى قد فرّ الى مدينة « Modiana » المواجهة للبحر الأحمر[2] ، وهذا يدل على أن مدينة مدين إنما كانت معروفة بصفة عامة في أوائل التاريخ المسيحي، ومدينة الحوراء ـ مدينة أهل مدين القديمة ، وتقع على مقربة من واحة البدع ـ لم يكن الأنباط، حتى القرن الأول قبل الميلاد، قد قاموا بعد بتحصينها وتوسيعها، ولعل هذا هو السبب في أن الكتاب الذين عاشوا قبل هذه الفترة، لم يعنوا بذكرها، على الرغم من معرفتهم بالإقليم الذي كانت تقع فيه[3] .

وأما «يوسبيوس» فيذكر مدينة «مدْيم « Madiam » ، ويقول أنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم من زوجته قطورة ، وهي تقع وراء المقاطعة العربية « Arabia » في الجنوب، في بادية العرب الرحل « saracens » إلى الشرق من البحر الأحمر، وهكذا فان «يوسبيوس» ـ وكذا سان جيروم ـ يضعان مدينة مدين فيما وراء حدود المقاطعة العربية ، التي كانت حدودها الثابتة من ناحية الجنوب تطابق دائماً الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة ؛ عند السفح الجنوبي لجبل الشراة[4].

وأما لويس موسل فيرى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من مكان العقبة الحالية المعروفة قديماً باسم «إيلات»،

---

(١) جواد علي ١/ ٤٥٥ وكذا T.K. Cheyne, op-cit, P.3081 *Ency. of Islam, 3, P.104*
J.Hastings, op-cit, P.616 *Ptolemy, Geography, Vi, 7, 27*

(٢) *A-Musil, op-cit, P.278* *Josephus, Archaeologia, II, 257*

(٣) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٦٩

(٤) نفس المرجع السابق ص ٦٩

فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب، وكان المركز الرئيسي لهذه الحاميات يقع في ديدان (العلا) وفي معون (معان) [1].

ويظهر من التوراة أن المديانيين قد غيروا مواضعهم مراراً بدليل ما يرد فيها من إختلاطهم ببني قدم والعمالقة والكوشيين والإسماعيليين، ويظهر أنهم إستقروا في القرون الأخيرة قبل الميلاد في « Madiana » والتي يرى « موسل » - كما أشرنا من قبل - أنها تقع في جنوب وادي العربة، وإلى شرق وجنوب شرق العقبة[2].

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أمرين: الواحد يتصل بما جاء في الذكر الحكيم، من أن الله سبحانه وتعالى قد عاقب الذين كفروا بشعيب عليه السلام بالرجفة، «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» [3]، وهذا يعني أن هزة أرضية أو هياج حرة قد أصابهم، وهو أمر يتفق وطبيعة المنطقة، لأن أرض مدين إنما هي من مناطق الزلازل والحرار [4].

وأما الأمر الثاني، فيتصل بالموقع الإستراتيجي لمنطقة مدين، ذلك لأنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها، عبر مكة ويثرب والساحل الشرقي للبحر المتوسط وحول خليج العقبة الى مصر، ويبدأ هذا الطريق من عدن وقنا في بلاد اليمن، متجهاً نحو الشمال إلى مأرب فنجران، ثم الطائف فمكة والمدينة وخيبر فالعلا ومدائن صالح، وهنا ينفصل الطريق فيتجه فرع منه إلى تيماء صوب العراق، وأما

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٤

(٢) تكوين ٢٥ : ٦، ٣٧ : ٢٥، ٢٨، عدد ١٢ : ١، حبقوق ٣ : ٧، جواد علي ١/ ٤٥٦، وكذا *A.Musil, The Northern Hegaz, P.287*، وفي النسخة العربية ص ٨٤.

(٣) سورة الأعراف : آية ٩١

(٤) جواد علي ١/ ٤٥٢

الفرع الثاني فيستمر في نفس الإتجاه حتى البتراء، فغزة فبلاد الشام ومصر [1].

وهكذا كانت مدين تقع على أهم طريق من طرق النقل التجاري،ومن ثم فقد كانت آفة مدين، إنما هي آفة كل المدن على مدرجة الطرق، ومن ثم فقد كانت قصتها في القرآن الكريم، إنما هي قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان، وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق، وهكذا كانت رسالة شعيب عليه السلام، رسالة خلاص من شرور الإحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم [2].

ومن هنا كان التركيز في دعوة النبي الكريم على أن يقيم القوم الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط،ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين» [3]، ويقول «كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول الله أمين،فأتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل ولا

---

(١) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ـ الجزءان الثالث والرابع ص ١٢٧ ، عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ـ مجلة الدارة ، العدد الأول ، ص ٧٨ ، وكذا
A.Amer, The Ancient Trans -Peninsular Routes of Arabia, le Cairo, 1925 PP.126-140

(٢) عباس محمود العقاد : مطلع النور ص ٩٣ ـ ٩٤ ، تفسير روح المعاني ٨/ ١٧٦ ـ ١٧٧ ، تفسير المنار ٨/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦ ، تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥

(٣) سورة هود : آية ٨٤ ـ ٨٥

تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين»[1].

(٣) عصر المديانيين

يرجح بعض الباحثين ان عصر شعيب عليه السلام، إنما كان قبل عصر موسى عليه السلام، معتمداً في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيباً بعد نوح وهود وصالح ولوط، عليهم السلام، وقبل موسى[2]، كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت، ولكن الآيات في سورة يونس إنما تتحدث عن قصة نوح في الآيات (٧١-٧٢) ثم آية (٧٣) وهي مجملة لا تذكر أمماً بعينها، ثم تأتي بعد ذلك قصة موسى عليه السلام، أضف إلى ذلك أن الآيات الكريمة (١٢-١٤) من سورة «ق»، إنما تذكر قوم نوح ثم أصحاب الرس فثمود، ثم عاد وفرعون وإخوان لوط، ثم يأتي أصحاب الأيكة فقوم تبع.

هذا ويجب علينا أن نلاحظ أن قصة شعيب إنما ترد بعد قصة لوط مباشرة في سورة الأعراف وهود والحجر والشعراء، بل إن الآية الكريمة (٨٩) من سورة هود، إنما تصرح دون لبس أو غموض بقرب قوم شعيب من قوم لوط مكاناً أو زماناً لا أستطيع القول على وجه اليقين، يقول سبحانه وتعالى «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد»[3].

وإذا ما إعتبرنا هذا القرب في الزمان، وعدنا إلى عصر الخليل عليه

---

(١) سورة الشعراء : آية ١٧٦ - ١٨٣، وأنظر : سورة الأعراف : آية ٨٥، تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ - ٥٥٦ (دار المعارف - القاهرة ١٩٥٧)

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٤٩

(٣) سورة هود : آية ٨٩

السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م)، وتذكرنا أن قوم لوط إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء - عليه الصلاة والسلام [١] - لأمكننا القول أن شعيباً وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بخاصة إذا ما كان صحيحاً ما ذهبت إليه نصوص التوراة من أن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى مدين - أو حتى مديان - ولد الخليل إبراهيم من زوجه الكنعانية قطورة [٢].

على أننا نستطيع أن نقول من ناحية أخرى - حدساً عن غير يقين - أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر ق.م، إذا ما كان صحيحاً ما ذهبت إليه بعض الروايات من أن «يثرون» كاهن مدين، وصهر موسى [٣]، إنما هو شعيب نبي مدين العربي [٤]، وذلك لأن رحلة موسى إلى مدين بعد فراره من مصر - وكذا لقاءه مع كاهن مدين بعد قيادته للخروج من مصر - إنما تمّ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد [٥].

---

(١) أنظر في ذلك : سورة الحجر : آية ٥١ - ٧٧ ، سورة العنكبوت : آية ٢٦ - ٣٥ ، سورة الذاريات : آية ٢٤ - ٣٧ ، وانظر كذلك : تكوين ١٤ : ١ - ٢٤ ، ١٨ : ١ - ٣٣

(٢) تكوين ٢٥ : ١ - ٢ ، أخبار أيام أول ١ : ٣٢

(٣) لاحظ التناقض العجيب في التوراة بشأن صهر موسى هذا ، فهو في سفر الخروج (٣ : ١) يثرون كاهن مديان ، وهو في سفر العدد (١٠ : ٢٩) حوبات بن رعوئيل ، بل إنه مرة ثالثة في سفر الخروج (٢ : ١٦ - ١٨) رعوئيل نفسه ، والأمر كذلك بالنسبة إلى القبيلة التي صاهرها موسى ، فهي مرة قبيلة مديانية ، كما رأينا ، وهي مرة أخرى - كما في سفر القضاة (١ : ١٦) قينيه ، ثم يعود نفس السفر فيؤكد ذلك في (١٤ : ١١) وذلك في ثنايا قصة دبورة حين تتعرض لنسب « حابر القيني » فتقرر أنه من بني حوباب حمى موسى ، ومن ثم فربما كان بنو القيني فرعا من المديانيين (انظر كتابنا إسرائيل ص ١٠٠ - ١٠١ وكذا (J.Hastings, op-cit, P.616 وكذا EB, P.3080

(٤) انظر : ياقوت ٥/ ٧٧ - ٧٨ ، البكري ٤/ ١٢٠١ ، مروج الذهب ١/ ٦١ ، إبن خلدون ٢/ ٤٣ ، ٨٢ ، عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٨٠

(٥) أنظر كتابنا إسرائيل ص ٢٦٨ - ٣٠٣ عن تاريخ الخروج والآراء التي دارت حوله

(٤) المديانيون وبنو اسرائيل

تنسب التوراة المديانيين إلى الخليل عليه السلام - كما أشرنا من قبل - ومن ثم فهم أبناء عمومة للعرب والاسرائيليين سواء بسواء، فالكل أبناء إبراهيم، وإن إختلفت الأمهات، فالعرب أبناء إسماعيل ولد إبراهيم من هاجر، والاسرائيليون أبناء إسحاق ولد إبـراهيم من سارة، والمديانيون أبناء مديان ولد إبراهيم من قطورة [1].

هذا ويظهر المديانيون في التوراة على أنهم كانوا في رفقة الإسماعيليين- أبناء عمومتهم - حين بيع الصديق لهم. وإن موسى قد هرب إليهم من مصر، حيث وجد عندهم المأوى - فضلاً عن الزوج والولد - وبقي كليم الله هناك في ضيافة صهره كاهن مدين أربعين عاماً [2]، وحين خرج من مصر ببني إسرائيل إلتقاه صهره في سيناء، حيث كان له الناصح الأمين، إذ أن أمور القوم - كما تصورها التوراة - كانت إلى فوضى واختلال، لو ترك موسى وشأنه، فيما كان قد إتبع من وسائل تدبير، ولم تكن بالأسلوب القويم، إنما الفضل لحميه يثرون كاهن مديان، يلقنه كيف يكون تنظيم بني إسرائيل في هيكل من تسلسل قيادي، فيختـار من ذوي القـدرة

(١) تكوين ١٦ : ١٥ - ١٦ ، ٢١ : ٢ - ٣ ، ٢٥ : ١ - ٢ ، أخبار أيام أول : ١ : ٢٨ - ٣٤

(٢) لاحظ الخلاف بين التوراة والقرآن في المدة التي قضاها موسى في مدين ، فالقرآن الكريم يرى انها ثماني حجج أو عشر يقول تعالى « قال إني أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل » (سورة القصص : آية ٢٧ - ٢٨) ، وتذهب التقاليد اليهودية والنصرانية على ان موسى أقام في مدين أربعين عاماً (اعمال الرسل ٧ : ٣٠ ، شاهين مكاريوس ، المرجع السابق ص ٤٠) وانه حين خرج من مصر لاجئاً إلى مدين كان في الأربعين من عمره (خروج ٧ : ٦ ، أعمال الرسل ٧ : ٢٣) وأنه مكث في التيه اربعين عاماً (عدد ١٤ : ٣٣ ، أعمال الرسل ٧ : ٣٠٦ ، ٤٢) وأنه مات وهو ابن مائة وعشرون سنة (تثنية ٣٤ : ٧) ، وانظر تاريخ ابن خلدون ٢ / ٤٣ ، ٨٢

«رؤساء على الشعب رؤساء الوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات»، لينظروا في القضايا الثانوية، ويبقى موسى المرجع الأعلى للأمور الخطيرة، وبهذا تستقر الأمور، وينجح موسى في قيادتهم، ويصل بهم إلى الأرض المباركة بسلام (١).

هذا إلى جانب أن يثرون ـ وهو شعيب نبي مدين العربي على الأرجح، كما أشرنا من قبل ـ كان يقرب القرابين إلى الله يتبعه في ذلك موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل (٢)، ومعنى هذا أن شعيباً ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ قد تقدم موسى في عقيدته الإلهية، وعلمه تبليغ الشريعة، وتنظيم القضاء في قومه، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي، ولم يكونوا معلمين (٣).

وعندما يتجول الإسرائيليون في جنوب فلسطين، يخشى موسى أن يضل وقومه الطريق في صحراء التيه، فلا يصلوا إلى الأرض المباركة أبدا، ومن ثم فانه يستحلف حماه ـ ومن عجب فهو هنا حوباب بن رعوئيل ـ «لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازل البرية تكون لنا كعيون» (٤).

وهكذا كانت العلاقات بين المديانيين والاسرائيليين طيبة، ولكنها ساءت بعد ذلك، وطبقاً لما جاء في التوراة (٥)، فإن شيوخ مدين عقدوا

---

(١) خروج ١٨ : ١٣ ـ ٢٧ ، وانظر : حسين ذو الفقار : المجلة يوليه ١٩٧٠ ص ٩
خروج ١٨ : ١٢
عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٣ ، ٨٤
عدد : ١٠ : ٢٩ ـ ٣٣
عدد ٢٢ : ٤ ، ٧

حلفاً مع «بالاق بن صفور» ملك مؤ اب [1] ضد بني إسرائيل، ونقرأ في سفر العدد أن الرب قد أمر موسى أن «إنتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين، ثم تضم إلى قومك»، وتستمر رواية التوراة بعد ذلك، فتذهب إلى أن موسى قد أرسل جنده إلى مديان، فقتلوا ذكورها، وسبوا نساءها وأطفالها، ونهبوا جميع مواشيها، وحرقوا مدنها، وهدموا حصونها، ثم عادوا «وقد أخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم»، فيخرج إليهم موسى ثائراً مهدداً وكلاء الجيش الذين أبقوا على النساء قائلا: «إقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل إمرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر إقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن حيات» [2].

ونص التوراة هذا غريب، ما في ذلك من ريب، فكاتب النص يأبى إلا أن يصوّر موسى حريصاً على قتل رجال مديان فضلاً عن السبايا من نسائهم، والذين لم يبلغوا الحلم من ذكورهم، ولعل من العجيب أن يكون ذلك مع قبيلة آوته وأكرمته وصاهرته، ثم عاد منها كريماً لينقذ بني إسرائيل من سخط فرعون وعذابه المهين، وليس من شك في أن الكليم، عليه السلام، براء من ذلك كله، وليس من شك كذلك في أن الخيال

---

(١) ينسب المؤابيون الى مؤاب بن لوط (تكوين ١٩ : ٣٧) وهم من الشعوب التي تتصل بالعبرانيين بصلة من قرابة عن طريق لوط إبن أخي ابراهيم ، كما ان جدة داود موابية (راعوث ١ : ٤) ، ويقع اقليم المؤاب شمال وادي الحسا (وادي زارد في التوراة) ، وقد امتدت مملكتهم من ناحية الشرق من البحر الميت حتى الصحراء ، واتسعت شمالا حتى وادي الموجب (نهر أرنون في سفر العدد ٢١ : ١٣) وكانت مؤاب مثل أدوم حصينة قوية ذات مواقع استراتيجية على الحدود وفي الداخل ، ولهذا اضطر الاسرائيليون أثناء التيه أن يكفوا عن الاستمرار في السير « في البرية التي قبالة مؤاب » حتى وصلوا الى الجانب الآخر من أرنون ، أما عربان مؤاب فهي وادي الأردن بين مصب يبوق والبحر الميت

(٢) عدد ٣١: ١ ـ ١٨

الاسرائيلي قد لعب دوره هنا إلى أبعد الحدود، فهل كان بنو إسرائيل في مرحلة التيه هذه بقادرين على سحق المديانيين إلى هذا الحد؟ إني أشك في ذلك كثيراً، وشكي معتمد على نصوص التوراة نفسها [١] - عن آيات القرآن الكريم [٢] - وكلها تتحدث عن جبن الاسرائيليين وتقاعسهم عن دخول الأرض الموعودة، «لأن فيها الجبابرة بني عناق، فكنا في أعيننا كالجراد»، ولست أدري كيف يستطيع شعب ذليل لا يعرف سوى رائحة الشواء عند قدور اللحم في مصر - حتى وان استعبد من أجل ذلك وذلّ - أن يخوض المعارك ليدخل الأرض المقدسة، فضلاً عن أن يغزو المديانيين، وأن يجعل بلادهم خراباً، ثم إن الأحداث التالية - وبنص التوراة نفسها - تكذب ذلك كله.

ومن ثم فإن التوراة نفسها، إنما تفاجئنا بعد كل هذا الضجيج، وبعد كل ما زعمت أن بني إسرائيل قد فعلوه بالمديانيين، وبعد أن استقر بنو يعقوب في فلسطين، تفاجئنا بروايات تذهب فيها إلى أن المديانيين إنما كانوا يظهرون في فلسطين في كل عام - ولفترة ما - ينشرون الفزع والرعب بين الإسرائيليين بجمالهم السريعة، ويمكننا أن نحس بهذا الرعب الذي كانوا ينشرونه من قصة «جدعون»، حيث يشار إلى الجمال التي لا يحصى عددها، والتي تسببت في أن الإسرائيليين كانوا لا يجدون حتى المأوى الذي يقيهم شر المديانيين، في غير الكهوف، وفي قمم الجبال [٣]، ومن هنا

(١) عدد ١٣ : ١ - ٣٣ ، ١٤ : ١ - ٣٥

(٢) سورة المائدة : آية ٢٢ - ٢٦ ، وانظر : تفسير الجواهر ٣/ ١٥٤ ، تفسير روح المعاني ٦/ ١٠٦ - ١١٠ ، تفسير الطبرسي ٦/ ٦٥ - ٦٩ ، في ظلال القرآن ٦/ ١٢٤ - ١٢٩ ، تفسير الطبري ١٠/ ١٧١ - ١٩٠ ، تفسير الكشاف ١/ ٦١٩ - ٦٢١ ، تفسير النسفي / ٤٠١ - ٤٠٣ تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٢ - ٥٤١ (دار الاندلس - بيروت) ، في ظلال القرآن ٦/ ٨٥٦ - ٨٧١ ، تفسير أبي السعود ٢/ ١٧ - ١٩ ، تفسير القرطبي ٦/ ١٢٣ - ١٣٣ .

(٣) *M.Noth, The History, of Israel, P.161*

نسب إليهم إدخال «الجمل المدجن» إلى فلسطين وسورية في القرن الحادي عشر ق. م [1].

واستمر الأمر كذلك سبع سنين، أخضع المديانيون فيها الاسرائيليين تماماً، واستولوا على كل محاصيلهم، وطبقاً لنص التوراة، فإنهم «لم يتركوا لإسرائيل قوة الحياة، ولا غنماً، ولا بقراً ولا حميراً، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة، وليس لهم ولا لجمالهم عدد، ودخلوا الأرض ليخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين» [2].

وتمضي الأيام ، ويبدأ إسم المديانيين يتوارى في الظلام شيئاً فشيئاً، وآخر ما ورد عنهم في التوراة ما جاء في سفر القضاة بشأن إنتصار «جدعون» على شيخي مديان «ذبح وصلمناع» [3]، وكيف أدى هذا النصر إلى وضع حد للرعب الذي كان يسببه المديانيون للإسرائيليين، أو أنه قد أثار تصميم بني إسرائيل على الدفاع عن أنفسهم، لأننا لا نسمع بعد ذلك عن هجوم من قبل المديانيين على بني إسرائيل [4]، ويبدو أنه لم يعد للمديانيين شأن بعد هذه الفترة، ولعلهم ذابوا في القبائل العربية الأخرى [5].

---

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين ص ٤٠٨

(٢) قضاة ٦: ١ - ١٢

(٣) قضاة ٨: ١ - ٢١

(٤) أشعياء ٩: ٣ - ٤، مزمور ٨٣: ٩ - ١٠؛ وأنظر كتابنا إسرائيل ص ٣٨٢، وكذا *M.NOth, op-cit, P.162*

(٥) *J.Hastings, Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, P.616*

الفَصْلُ التَّاسِع

سَيل العَرِم

(١) القصة في القرآن الكريم

جاءت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة سبأ، حيث يقول سبحانه وتعالى «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنيتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور، وجعلنا بينهم وبين القري التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور» [١].

والآيات الكريمة تدل على أن القوم إنما كانوا في رغد من العيش، تحيط بهم جنتان عن يمين وشمال، وكان من المنتظر أن يشكروا ربهم على هذه النعم الجزيلة، والخيرات الكثيرة، وذلك الرزق السهل الميسر، الذي لا يقتضي النصب ولا الكد، غير أن القوم لم يكونوا كذلك، وإنما جحدوا نعمة ربهم، ومن ثم فقد أرسل عليهم سبحانه وتعالى سيل العرم [٢]،

---

(١) سورة سبأ : آية ١٥ ـ ١٩

(٢) العرم : المسناة التي تحبس الماء ، واحدها عرمة ، أو هو صفة للمسناة التي كانت لهم وليس بإسم لها ، وفي اللسان : عرم (العرم) بفتح الراء وكسرها ـ وكذا واحدها وهو العرمة ـ سد يعترض به الوادي (والجمع عرم ، وقيل العرم : جمع لا واحد له) ، أو هو إسم الوادي الذي كان يأتي السيل منه ، وبني السد فيه ، أو هو الصعب : من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب ، أو هو المطر الشديد ، أو السيل الذي لايطاق ، أو هو إسم للجرذ الذي نقب عليهم سدهم ، فصار سبباً في تسلط السيل عليهم، وهو الفار الأعمى الذي يقال له الخلد ، أو هو ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه ، أو هو كل شيء حاجز بين شيئين وهو الذي يسمى السكْر : أو هو مطر يجتمع بين جبلين وفي وجهه مسناة ، وهى التي يسميها أهل مصر الجسر ، فكانوا يفتحونها إذا شاءوا ، فإذا رويت جناتهم =

الذي أغرق جنتيهم، فبدلهم الله بهما جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، وهكذا هلكت أموال القوم، وخربت بلادهم، من ثم فقد إضطروا - أو اضطر أكثرهم - إلى أن يهاجروا من مواطنهم، وأن يتفرقوا في غور البلاد ونجدها، حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيدي سبأ»، جزءاً وفاقاً على كفرهم بنعمة ربهم، وتلك - ويم الله - عاقبة من يجحدون فضل ربهم، ولا يحمدون له نعماءه، وصدق الله العظيم، حيث يقول «وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» (١).

(٢) القصة في الروايات العربية

يروي المفسرون والأخباريون أن أرض سبأ إنما كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها، وأكثرها جناناً وغيطاناً، وأفسحها مروجاً، مع بنيان حسن، وشجر مصفوف، ومياه كثيرة، وأزهار متنوعة، غير أن السيل كثيراً ما كان يغرق هذه الأرضين، وفي عهد ملكتهم «بلقيس» إقتتل القوم على ماء واديهم، فغضبت لذلك بلقيس وإنزوت في قصرها، فأتى إليها الملأ من قومها يطلبون إليها العودة إلى ما كانت عليه، غير أنها رفضت أن تجيبهم إلى مطلبهم، بحجة أنهم كثيراً ما يعصون أمرها، وأن تفكيرهم غير

= سدوها، ولعل أقرب الآراء إلى الصواب، هو الذي يذهب إلى أن العرم إنما هو السد يعترض الوادي، ذلك لأن لفظة العرم (عرمن) إنما تعني السد في لغة اليمنيين القدامى، وبدهي أنها لم تكن علماً على سد معين، أعني سد مأرب (أنظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٧٨ - ٨٠، تفسير الألوسي ٢٢/ ١٢٦، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٤٥٨ - ٢٥٩، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٥ - ٢٨٦ (طبعة دار الكتب)، تفسير الجلالين (نسخة على هامش تفسير البيضاوي ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩)، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٥١، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠، إبن هشام ١/ ٩، مروج الذهب ٢/ ١٦٣ - ١٦٤، الإكليل ٨/ ٤٣، معجم البلدان ٤/ ١١٠، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ١١٧، جواد علي ٧/ ٢٠١، الدميري ١/ ٤٤٥)

(١) سورة ابراهيم الآية: ٧

سليم، وإن قبلت في نهاية الأمر أن تعود إلى عرشها، وهنا أمرت فسد ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة منها إثنا عشر مخرجاً على عدة أنهارهم، وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام.

غير أن أصحابنا المفسرين والاخباريين لم يتفقوا على الرواية الآنفة الذكر، من أن بلقيس [1] هي التي بنت سد مأرب، فذهب فريق منهم إلى أن ذلك إنما كان «سبأ [2]» نفسه، وإن لم يكمل السد فأتمه ولده حمير،

---

(١) أنظر عنها مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » - مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - العدد السادس - ١٩٧٦ م وكذا كتابنا « بلاد العرب »

(٢) تذهب الروايات العربية إلى أن « سبأ» هذا ، إنما هو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وأن سبب تسميته بسبأ أنه أول من سبى من العرب ، وزعم البعض أنه كان مسلماً وله شعر بشر به بالمصطفى ﴿ﷺ﴾ ، وأنه حكم ٤٨٤ عاماً - ثم خلفه ولده حمير ، وأنه أنشأ مدينة سبأ وسد مأرب في اليمن ، وعين شمس في مصر ، حيث خلفه عليها ولده بابليون (الطبري ١/ ٢١١ ، ابو الفداء ١/ ١٠٠، إبن الاثير ١/ ٢٣٠ ، مروج الذهب ٢/ ٤٥ - ٤٨ ، البلاذري: أنساب الاشارف ص ٤ ، كتاب التيجان ص ٤٨ - ٥٠، ابن كثير ٢/ ١٥٨ - ١٥٩، تاج العروس ١٠/ ١٦٩ ابن خلدون ٢/ ٤٧، منتخبات ص ٤٧ ، المحبر ص ٣٦٤ ، الأخبار الطوال ص ١٠ ، المعارف ص ٤٦ ، ٢٧١ ، بلوغ الأرب ١/ ٢٠٧ ، الاشتقاق ١/ ١٥٥ ، ٢/ ٣٦١-٢٦٣، اليعقوبي ١/ ١٩٥ ، روح المعاني ٢٢/ ١٢٤) وأما أن سبأ هو عبد شمس بن يشجب. . . الخ فهناك كتابة حفرت على نحاس في مجموعة (*P.Lamare*) جاء فيها هذا الاسم ، وأما ان سبب التسمية كثرة السبي ، حتى وصلت غزواته إلى بابل وأرمينية في آسيا ، ومصر والمغرب في أفريقيا ، فليس هذا إلا في خيال إبن منبه ، ومن دعوا بدعوته ، وأن هذه البلاد التي ذكرت آنفا ، فلا تعرف شيئاً عن سبأ هذا - وان عرفت السبئيين على أنهم من تجار البخور واللبان وغيرهما من مستلزمات المعابد القديمة ، وليس غزاة يحتلون البلاد ويبنون المدن ، وأما أن الرجل قد بنى مدينة سبأ وسد مأرب ، فيكذبه أن التاريخ لا يعرف بلداً بهذا الاسم ، وأما بنائه لسدّ مأرب فتلك دعوى لا تعرف نصيباً من صواب - كما سوف نعرف - وأما بنائه لعين شمس ، فالواقع أن المدينة قد بنيت قبل ظهور سبأ هذا - إن كلن هناك ملكاً بهذا الإسم - بمئات من السنين ، بل بآلاف من السنين ، =

الذي يرى فيه فريق ثان المؤسس الأصلي للسد، وليس متمماً له، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن ذلك إنما كان لقمان الأكبر العادي وهو لقمان بن عادبن عاد - وقد رصف أحجاره بالرصاص والحديد (١).

وأياً ما كان الأمر، فإن القوم بدأوا يستغلون المياه التي أخذت تتجمع خلف السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي مزارعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه، فإزدهرت بلادهم فوق إزدهارها الأول، ويزعم الأخباريون - فيما يزعمون - أن المرأة إنما كان تخرج - إذا أرادت جني شيء من الفاكهة - واضعة مكتلها على رأسها، فتمشي تحت الأشجار، وهي تغزل أو تعمل ما شاءت، فلا ترجع إلى بيتها، إلا وقد إمتلأ مكتلها مما يتساقط من الثمار، ويزيد البعض أنها كانت تروح من قرية وتغدوها وتبيت في قرية لا تحمل زاداً ولا ماءً، لما بينها وبين الشام، وأن بلاد سبأ كانت طيبة لا يرى فيها بعوض ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ولا ذباب، وكان الركب يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره، فإذا وصلوا إلى بلادهم ماتت، وهكذا عاش القوم في أطيب عيش وأهنأ حال، فضلاً عن قوة الشوكة واجتماع الكلمة، لا يعاندهم ملك إلا قصموه، ولا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه، فذلت

= حيث كانت تدعى «اون» أو «أويون» واما «بابليون» ولده، فهذا إسم حصن في مصر القديمة ما تزال بقاياه حتى الآن، وأما قوله شعراً في النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا من نوع مزاعمهم من نسبة شعر إلى إبليس والى آدم . . . ، وهي لا تعدو ان تكون أساطير، لا تعرف لها نصيباً من صواب، ثم إن عربية الجنوب تختلف كثيراً عن عربية الشمال، عربية القرآن الكريم

(١) مروج الذهب ٢/ ١٦٠ - ١٦٢، تفسير الطبري ٢٢/ ٧٨ - ٨٠، تفسير روح المعاني ٢٢/ ١٢٦، معجم البلدان ٥/ ٣٤ - ٣٥، الدميري ١/ ٤٤٥، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٥٩، إبن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٥٩، تفسير القرطبي ١٤/ ٤٨٦، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٥١، وفاء الوفا ١/ ١١٧

لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض [1].

وبقي القوم على هذه الحال حيناً من الدهر، لا يدري الأخباريون مداه على وجه التحقيق، أعرضوا بعده عن شكر الله على نعمائه، وانغمس امراؤهم في الترف والملذات، واللهو والشهوات، منصرفين عن تدبير الملك ورعايته، ومن ثم فقد بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فدعوهم إلى الله وذكروهم بنعمه عليهم، وأنذروهم عقابه، فأعرضوا، وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمة، وكان نتيجة ذلك كله، إن سلط الله عليهم سيل العرم، فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس.

وهنا يجنح الأخباريون إلى الأساطير، فيرون أن القوم إنما كانوا يعلمون - عن طريق كهانهم - إنما يخرب عليهم سدهم هذا فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين، إلا ربطوا عندها هرة، وتمر الأيام ويصبح سيد القوم «عمرو بن عامر» الأزدي، فيرى - فيما يرى النائم - كأنه إنبثق عليه الردم فسال الوادي، فأصبح مكروباً، فانطلق نحو الردم، فرأى الجرذ يحفر بمخاليب من حديد، ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله وأخبرهم بالأمر، ثم إنهم عمدوا إلى هرة، فأخذوها وأتوا إلى الجرذ، فصار الجرذ يحفر ولا يكترث بالهرة، فولت هاربة.

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن ذلك إنما كان من إمرأة له كاهنة - يقال لها طريفة - رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضيهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه، ففزعت طريفه لذلك وأتت عمراً وأخبرته بالأمر، فهدأها، ثم دخل حديقة له ومعه جاريتان من

---

(1) الدميري ١/ ٤٤٥، تفسير الطبري ٢٢/ ٧٧ - ٨٥، مروج الذهب ٢/ ١٦١ - ١٦٢، وفاء الوفا ١/ ١١٦ - ١١٧، روح المعاني ٢٢/ ١٢٦ - ١٢٧، إبن كثير ٢/ ١٥٩، ياقوت ٥/ ٣٥، تفسير القرطبي ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي ٢/ ٢٥٨

جواريه، فلما علمت طريفة بذلك، جاءته، غير أنها رأت في طريقها إليه ما يؤكد لها ما رأته في منامها، وتستطرد الرواية فتصف ما رأته طريفة وتفسيرها له، وحين يطلب منها زوجها علامة على نبوءتها المشئومة هذه تخبره أنه لو خرج إلى السد لوجد هناك جرذاً يكثر بيديه في السد الحفر، ويقلب برجليه من الجبل الصخر، وينطلق عمرو إلى السد، فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً فرجع إلى طريفة وأعلمها الخبر، ثم أنشد شعراً عربياً فصيحاً.

ويستطرد الاخباريون في رواياتهم فيذهبون إلى أن الرجل وقد تأكد من وقوع المأساة، كتم ذلك عن قومه، وأجمع أمره أن يبيع كل شيء به بأرضه سبأ، ومن ثم فقد دعا أصغر بنيه ـ ويدعى مالكاً ـ أو ابن أخيه ـ ويدعى حارثة ـ أو يتيماً كان قد رباه، وقال له: إذا جلست في المجلس واجتمع الناس إليّ، فإني سآمرك بأمر، فأظهر فيه ـ العصيان، فإذا ضربتك بالعصا، فقم اليّ والطمني، ثم قال لأولاده: فاذا فعل ذلك فلا تنكروا عليه ولا يتكلم أحدمنكم، فإذا رأى الجلساء فعلكم لم يجسر أحد منهم أن ينكر عليه ولا يتكلم، فأحلف أنا عند ذلك يميناً لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إلى أصغر بنيّ فلطمني فلم يغيروا.

وينفذ عمرو وأولاده ما اتفقوا عليه، ويعرض الرجل ضياعه للبيع، ويبتاع الناس منه كل ما له بأرض مأرب، غير أنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أتى الجرذ على الردم تستأصله، فبينما القوم ذات ليلة بعد ما هدأت العيون إذا هم بالسيل فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرب ديارهم، ولم يبق من الأرض والكروم إلا ما كان في رؤوس الجبال.

وتفرق القوم في البلاد، فذهب أولاً جفنة إلى الشام، ونزل الأوس والخزرج في يثرب، وسارت ازد السراة إلى السراة، وازد عمان إلى عمان، وذهب مالك بن فهم إلى العراق، ونزلت طيء بأجأ وسلمى، ونزلت أبناء

ربيعة بن حارثة تهامة، حيث سموا بخزاعة، واستولوا على مكة من جرهم [١].

تلك هي الروايات التي جاءت عن سيل العرم في الكتب العربية، موجزة، وهي روايات لا تكاد تزيد في معظمها عن مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جو اسطوري، حافل بالإثارة، مجاف للعقل والمنطق، غاص بالمتناقضات، ومن ثم فلا يهم أن تكون لها قيمة علمية أو لا تكون، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكن المهم ألا تكون حقائق تاريخية يصدقها الناس تماماً، عن سد مأرب، وما حدث له من تصدعات في فترات متباينة وفي ظروف مختلفة، ذلك لأن سهام الريب إنما توجه إليها من كل جانب، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق فطان الشبهات.

ولعل أهم ما يوجه إليها من نقد، يمكن حصره في نقاط، منها (أولا) ذلك الخلاف بين الرواة فيمن بنى السد، فذهبت رواية إلى أنه سبأ، وأخرى إلى أنه حمير، وثالثة إلى أنه لقمان، ورابعة إلى أنها بلقيس، ومع ذلك فإن هذه الروايات جميعاً، إنما كانت بعيدة عن الحقيقة التاريخية - والمسجلة على السد نفسه - وهو أن صاحب الفكرة ومنفذ المشروع، إنما كان «سمه علي ينوف» في القرن السابع قبل الميلاد، ثم أخذ خلفاؤه من بعده يضيفون إليه جديداً بعد جديد، حتى إكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيام «شمر يهرعش»، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

---

(١) ياقوت ٥/ ٣٥ - ٣٧، تفسير الألوسي ٢٢/ ١٣١ - ١٣٣، تفسير الطبري ٢٢/ ٨٠ - ٨٦، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٥٩، مروج الذهب ٢/ ١٦٧ - ١٧٦، إبن خلدون ٢/ ٥٠، ٥٧، ابن كثير ٢/ ١٦٠ - ١٦١، وفاء الوفا ١/ ١١٧ - ١٢٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٠٣ - ٢٠٥، الدميري ١/ ٤٤٥، إبن هشام ١/ ٨ - ٩، الإكليل ٨/ ٤١، ١١٥ - ١١٦، الميداني ١/ ١٨٥، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٥ - ٢٩١، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٥٣، قارن: نهاية الأرب ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٨، الميداني ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦، الدرر الثمينة ص ٣٢٦

ومنها (ثانياً) تلك الأسطورة التي تزعم أن السد إنما تهدم بفعل جرذ له مخالب وأنياب من حديد، وهو سبب لا يمكن أن يكون مقبولا إلا في عالم الأساطير، وكما سنعرف فيما بعد، فإن السد إنما تصدع عدة مرات، كان آخرها في عام ٥٤٣م، وبفعل عوامل لا دخل لفأر كانت له أنياب من حديد فيها بحال من الأحوال، ومنها (ثالثاً) أن الرواة أنفسهم، إنما يذهب فريق منهم إلى أن الماء قد سال إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، وبذلك خربت جناتهم.

ومنها (رابعاً) تلك النبوءات التي ملأوا بها صفحات كتبهم - والتي أشرنا إلى بعضها آنفاً - عن خراب السد، وكأن أصحابنا الأخباريين - وكذا المفسرين - يسلمون بأن الكهان إنما يعلمون الغيب من الأمر، ونسوا - أو تناسوا - أن الله وحده هو «عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيب أحداً إلا من ارتضى من رسول»[1]، ومنها (خامساً) ذلك الخلاف بين الروايات فيمن تكهن بخراب السد، ففريق يذهب إلى أنه «عمرو بن عامر الازدي»، بينما يذهب فريق ثان إلى أن زوجه الكاهنة «طريفة» هي صاحبة النبوءة الأولى، هذا إلى جانب فريق ثالث ذهب إلى ان ذلك إنما كان أخاه «عمران».

ومنها (سادساً) تلك الوسيلة التي لجأ إليها سيد القوم «عمرو بن عامر» في الحصول على كل أمواله بعد أن علم عن طريق نبوءاته - أو

(١) يروي البخاري في صحيحه ان جويريات جلسن يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، ثم جعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر، حتى قالت جارية منهن «وفينا نبي يعلم ما في غد» فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين» (أنظر: النبأ العظيم ص ٣٣)، ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه «قل لا اقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب» (الانعام: آية ٥٠) ويقول سبحانه وتعالى «ولو كنت أعلم الغيب لأستكثرت من الخير» (الأعراف: آية ١٨٨) فهل هذا يتفق وروايات المؤرخين والمفسرين عن نبوءات القوم عن خراب السد؟

نبوءات زوجته أو أخيه ـ بخراب السد ، هل تتفق هذه الحيلة ومكانة الرجل كسيد لقومه ، بل هي تتفق والخلق العربي ؟ ثم أليست هي حيلة ساذجة ، يبدو الإختراع فيها واضحاً ، فضلا عما تدل عليه من طبع دنيء وخلق غير كريم ، ما عهدناه في سادات القبائل العربية من قبل .

ومنها (سابعاً) تلك الصورة التي تقدمها الروايات عن الرخاء الذي عمَّ بلاد سبأ ، وعن خلوها من كل الحشرات الضارة ، فلا يُرى فيها برغوت ولا بعوض ولا عقرب ولا حية ولا ذباب ، وأن الركب إنما كانوا يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره ، فإذا ما وصلوا إلى مأرب ماتت ، لطيب هوائها ، ولست أدري كيف استطاع السبئيون ، أو كيف إستطاع أصحاب هذه الروايات أن يخلصوا السبئيين من كل هذه الحشرات الضارة ، وما هي وسيلتهم إلى ذلك ؟ إلا أن يكون الخيال هو الذي دفعهم إلى أن يقولوا ما قالوا ، وإلا أن يكون السبئيون قد توصلوا إلى طريقة ـ لا نعرفها حتى الآن ـ إستطاعوا أن يتخلصوا بها من هذه الحشرات الضارة، وليست هذه الوسيلة على أي حال ، طيب هواء سبأ ، كما يظن أصحابنا المفسرون والأخباريون .

ومنها (ثامناً) تلك المبالغات عن الرخاء والأمن الذي ساد البلاد ، حتى أن المرأة لتخرج واضعة مكتلها على رأسها ، فتمشي تحت الأشجار ـ وهي تغزل أو تعمل ما شاءت ـ فلا تعود إلى بيتها إلا وقد إمتلأ مكتلها مما يتساقط من الثمار ، فهل هذا صحيح ؟ وهل صحيح كذلك أن قوماً تضطر نساؤهم إلى العمل ، حتى وهن سائرات في الطرق يجمعن ما تساقط من ثمار الأشجار ، يمكن أن نقول عنهم أنهم وصلوا إلى درجة من الرخاء لم يصلها غيرهم ، وأي رخاء هذا الذي تضطر فيه نساء القوم إلى التجول بين الأشجار لجمع بقايا الفواكه التي تتساقط من أشجارها .

ومنها (تاسعاً) تلك الصورة الأخرى التي يذهب فيها الأخباريون إلى أن المرأة لتخرج ومعها مغزلها ومكتلها - مرة أخرى - تروح من قرية وتغدوها ، وتبيت في قرية لا تحمل زاداً ولا ماء لما بينها وبين الشام ، فهل هذا صحيح ؟ أم أنها مجرد كلمات ؟ وهل صحيح كذلك أن هناك قرى متصلة بعضها بالبعض الآخر فيما بين اليمن والشام ؟ ليت الذين كتبوا ذلك كله يتذكرون أن طريق القوافل بين اليمن وشمال بلاد العرب ، إنما كانت - ولا زالت - تمر في صحراء مقفرة ، وأن القرى حتى الآن بعيدة عن بعضها ، ثم وهل كانت المرأة حقاً تأمن على نفسها في صحراوات بلاد العرب ، في وقت كان السبي فيه أمراً معهوداً ، ثم وهل من علامات الرخاء ان تمشي المرأة من اليمن إلى الشام ، تروح من قرية إلى اخرى ، ثم تبيت في ثالثه ، لا تحمل زاداً ولا ماء ، وكأن الرخاء الذي يتحدثون عنه لا يتوفر إلا في الزاد والماء .

ومنها (عاشراً) تلك المبالغة التي يصفون بها جرذهم الذي خرب السد ، حتى أنه كان يقلب برجليه صخرة ، يعجز عنها خمسون رجلا ، ومنها (حادي عشر) ذلك الشعر الذي قاله « عمرو بن عامر الازدي» ، بلغة عربية بليغة إلى أرقى درجات البلاغة ، فهل صحيح أن عمرا هذا قال هذا الشعر ، أم أن الرجل بريء مما نسب إليه ، كما هو بريء مما سجله الأخباريون على لسانه - ولسان زوجته طريفة - من نثر هو غاية في الفصاحة والبلاغة ، ومرة أخرى ليت الذين نسبوا الى الرجل وزوجه من شعر أو نثر، كانوا يعلمون أن سكان اليمن قبل الإسلام كانوا ينطقون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، وأن من يأتي بعدهم سوف يكتشف سر « المسند » - الخط الذي يكتب به في جنوب بلاد العرب - ومن ثم يتمكن من قراءة نصوصه والتعرف على لغته ، وأن عربيته تختلف عن هذه العربية التي تدوّن بها - والتي زعم الأخباريون أن عمراً وزوجه قالا

بها شعراً ونثراً ـ ومن ثم فقد ذهب بعض علماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية واللهجات العربية الأخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية من اللغة العربية ، وقصر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وعلى ما تفرع منها من لهجات ، ومن هنا يروي « الجمحي » أن أحد علماء العربية سئل عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[1] ، ونستطيع أن نقدم هنا نصين كمثال يثبت مدى الخلاف بين هذه اللهجات ، الواحد من الشمال ، من نصوص المناذره ، ملوك الحيرة ، والذين يزعم الأخباريون أنهم يمنيون هاجروا بعد خراب السد إلى الحيرة بقيادة مالك بن فهم الارذي ، والثاني من اليمن نفسها ويرجع إلى القرن السادس الميلادي ، وقبيل مولد الرسول ، ﴿ ﷺ ﴾ باكثر من ربع قرن قليلا .

يقول إمرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة (٢٨٨ ـ ٣٢٨ م) «تي نفس مر القيس بر عمرو ، ملك العرب كله ، ذو أسر التج وملك الأسدين ونزارو وملوكهم ، وهرب محجو عكدي ، وجابزجي في جج نجرن مدينت شمر ، وملك معدو ، وبين بنيه الشعوب وكلهن فرسولروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه ، عكدي هلك سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده »[2] .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤ ، جواد علي ١/ ١٥ ، قارن المسعودي ٢/ ٤٦

(٢) يعرف هذا النقش بنقش النمارة ، وقد إكتشفه «رينيه ديسو» و«فريدريك ماكلر» في عام ١٩٠١ م ، على مبعدة كيلو متر واحد من النمارة القائمة على انقاض مخفر روماني ، شرقي جبل الدروز ، وهو في خمسة أسطر محفور على حجر من البازلت ، وأبعاده هي ١,٧٣ متراً من الطول ، ٠,٤٥ متراً في العرض، ٠,٤٠ متراً في السمك ، ويوجد الآن بمتحف اللوفر بباريس ، من الواضح أن كاتبه نبطي، لأن الخط المستعمل هو الخط النبطي، واللغة العربية المستعملة تعرضت هي أيضاً لتحريفات نبطية . وانظر عنه :

(أ)ـ حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، الاسكندرية ١٩٧١ ص ١٦٥ ـ ١٧٣

وترجمته إلى لغة مفهومة قد تكون كالتالي : « هذا جثمان إمرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذي عقد التاج وملك قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وصد بني محج حتى اليوم ، وجاء بنجاح إلى حصار نجـران عاصمة شمر ، وملك قبيلة معد ، وقسم على أبنائه الشعوب ، وجعلها فرساناً للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه حتى اليوم ، مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ من شهر كسلول (٧ ديسمبر ٣٢٨ م) ، السعادة لأولاده »[١] .

وأما النص الثاني ـ ويرجـع إلى عام ٥٤٣ م ، أي بعـد النص الأول بحوالي ٢١٥ عاماً ـ وفيه يتحدث أبرهه عن تهدم سد مأرب واصلاحه ، وقد افتتحه بالعبارة التالية « نجيل وردا ورحمت رحمنن ومسحو وروح قدس »[٢] .

وترجمته إلى لغة مفهومة قد تكون كالتالي « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس » .

وليس من شك أنه ليس واحداً من النصين يثبت أن لهجة اليمن إنمـا كانت تتفق ولغة القرآن الكريم التي سجل بها أصحابنا الأخباريون شعراً لعمرو بن عامر الأزدي ، أو نثراً للرجـل وزوجتـه ، ولـكن ما حيلتنـا واصحابنا الأخباريون يصرون على أن ينسبوا إلى يعرب بن قحطان وإلى سبأ وإلى تبع والى الزباء شعراً عربياً فصيحاً ، بل إن الأمر وصل بهم إلى

(ب) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ ترجمة ابراهيم كيلاني ، بيروت ١٩٥٦ ص ٧١

(حـ) فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطـين ـ الجـزء الأول ـ ص ٤٢٧ ؛ ـ جواد علي ٣/ ١٩٠ ـ ١٩٣ وكذا

René Dussaud, Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907, P.35
F.Nau, Les Arabes Chrestiens, P.32, J.Cantineau, Le Nebateen, I,P. 22

(١) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص.١٦٥ ـ ١٦٦

(٢) سوف نسجل النص كاملا فيا بعد عند الحديث عن تهدم سد مأرب

أن ينسبوا إلى آدم وإلى أبليس ، شعراً مضبوطاً وفق قواعد النحو والصرف ، ومن ثم فليس غريباً أن ينسبوا إلى عمرو بن عامر الازدي شعراً كذلك .

ومنها (ثاني عشر) تلك المبالغة فيمن أرسلهم الله للقوم من المصطفين الأخيار ، حيث يروي إبن إسحاق - عن وهب بن منبه - أن الله جلّ وعلا قد أرسل إليهم ثلاثة عشر نبياً ، وزعم السدّى أنهم إثنا عشر ألف نبي[1] ، فضلا عن تعارض ذلك مع الإتجاه الذي يذهب إلى أن خراب السد إنما كان بين الميلاد وبعثة المصطفى ﴿ﷺ﴾ ، وهي فترة يرى الجمهور أنه لا أنبياء فيها ، وإن ذهب البعض إلى أن بها أربعة أنبياء ، ثلاثة من بني اسرائيل ، وواحد من العرب ، هو خالد العبسي ، على أن هناك من يرى أنهم ثلاثة عشر نبياً ، وأنهم كانوا فيما بين عهد سبأ نفسه ، وبين فترة هلاكهم أجمعين[2] .

ومنها (ثالث عشر) من الذي ساعد عمرو بن عامر في حيلته الساذجة ، فأهانه أمام قومه ؟ هل ولده ، أم إبن أخيه ، أم كان يتيماً رباه الرجل وأنكحه ، كما يقول بعض الأخباريين[3] .

(٣) السدود في بلاد العرب

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافاً وحراً ، وربما كان ذلك لوقوعها في منطقة قريبة من خط الاستواء ، ولأن معظم أجزائها تقع في الإقليم المداري الحار ، ولبعدها عن المحيطات الواسعة التي تخفف من درجة الحرارة ، ولأن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق والى الغرب

---

(١) إبن كثير ٢/ ١٥٩

(٢) تفسير روح المعاني ٢٢/ ١٢٨

(٣) وفاء الوفا ١/ ١١٩

منها ـ وأعني بها الخليج العربي والبحر الأحمر ـ أضيق من أن تكفي لكسر حدة هذا الجفاف المستمر ، ومن ثم فقد كان أثرهما في إعتدال الحرارة غير ملموس ، أما المحيط الهندي الذي يقع إلى الجنوب منها ، فلئن ساعد في الجنوب على سقوط الأمطار في أطراف شبه الجزيرة العربية الجنوبية ، فإن مرتفعات حضرموت والربع الخالي قد تمنعها عن داخلها .

ومن المعروف أن المطر غوث ورحمة لسكان شبه جزيرة العرب ، يبعث الحياة في الأرض ، فتنبت العشب والكلأ والكمأة والازهار ، ويحول وجهها الكئيب إلى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ومن هنا كان من مرادفات المطر الغيث ، وفي الكلمة ما فيها من معاني الغوث والنصرة ، وهو على أي حال ، جد قليل في داخل البلاد بالنسبة إلى شدة إحتياج البلاد إليه ، ولعل أكثر المناطق حظوة ونصيباً من المطر ، هي النفود الشمالي وجبل شمر ، إذ تنزل بها الأمطار في الشتاء فتنبت أعشاب الربيع ، وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ ، وأما في اليمن وعسير ، فتسقط الأمطار الموسمية ، وهي هناك تكفي لتأمين زراعة الأرض زراعة منتظمة ، ومن ثم فهناك نجد خضرة دائمة تنبت في أودية خصبة قد تمتد نحو مئتي ميل من الساحل[1] .

هذا وليس في الجزيرة العربية كلها نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر ، وليس في نهيراتها الصغيرة ما يصلح للملاحة ، وهي لذلك تعد من جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات ، وفي جملة البلاد التي يتغلب عليها الجفاف ويقل فيها سقوط الأمطار ، ومن ثم فقد أصبحت

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص٦ ، جواد علي ١/ ٢١٤ وكذا
K.P.Hitt, op-cit, P.18

اكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان [1] .

وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية التي تجري فيها السيول غِبّ المطر ، الذي ينهمر أحياناً وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فتكوّن سيولا عارمة جارفة ، تكتسح كل ما تجده أمامها ، وتسيل الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان [2] ، هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية شبه الجزيرة العربية إنما كانت انهاراً في يوم ما [3] ، وأما أدلتهم على ذلك ، (فأولا) وجود ترسبات في هذه الأودية من النوع الذي يتكون عادة في قيعان الأنهار ، ومنها (ثانياً) ما عثر عليه من عاديات وآثار سكن على حافة الأودية ، ومنها (ثالثاً) ما جاء في كتابات المؤ رخين القدامى من الأغارقة والرومان عن وجود أنهار في شبه جزيرة العرب ، ف «هيرودوت» يتحدث في (١ : ٢١٤) عن نهر أسماه « كورس » رغم أنه ينبع من منطقة نجران ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية ، مخترقاً بلاد العرب حتى يصب في الخليج العربي ، ويرى « مورتز» أنه في وادي الدواسر الذي يمس حافة الربع الخالي ، عند نقطة تبعد خمسين ميلا ، من جنوب شرق السليل ، وتمده الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول [4] .

(١) جواد علي ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨

(٢) جواد علي ١/ ٢١٥

(٣) مما يؤكد وجود أنهار في الجزيرة العربية قديماً ، ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في « صحيحه » في كتاب الزكاة في « باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها) . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً » .

(٤) جواد علي ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩ ، حافظ وهبه : المرجع السابق ص ٥٤ ، محمود شكري الألوسي : تاريخ نجد ص ٢٩ ، وكذا

Betram Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, N.Y., 1932, P.350

B.Moritz, Arabien Studien Zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes, **Hanover, 1923, P. 21**

وأما أهم أودية شبه الجزيرة العربية ، فوادي الرمه ووادي الحمض ووادي السرحان ووادي حنيفة ووادي الدواسر ووادي بيشه ، ثم وادي نجران - والذي يتصل بموضوعنا - وهو أحد الأودية الكبيرة في شبه الجزيرة العربية ، بل هو في الواقع مجموعة أودية كبيرة ، منها :

(١) وادي حرض : وينبع من مرتفعات « وشحه » ومرتفعات « خولان بن عامر » غربي صعدة ، ويتجه مجراه إلى ساحل البحر الأحمر شمال « ميدي » في المملكة العربية السعودية .

(٢) وادي مور : وهو واد كبير تتصل به روافد كثيرة متعددة المنابع (من مرتفعات العشمة ووشحه وكحلان وحاشد) ويصب في البحر الأحمر شمال « اللحية » .

(٣) وادي سردد : ويغذي مناطق زراعية واسعة ، وتتصل به عدة روافد ، أهمها وادي الأهجر الذي تكثر به الشلالات وقد إستخدم على أيام حمير في طحن الغلال ، ويصب وادي سردد جنوب « الزيدية » .

(٤) وادي سهام : وتقع منابعه في وادي آنس جنوب صنعاء ، ويصب في البحر الأحمر جنوب الحديدة .

(٥) وادي رماع : وينبع من المرتفعات الواقعة شمال «ذمار » ، وتغذيه عدة روافد ، ويصب في البحر الأحمر شمال «الفازة » .

(٦) وادي زبيد : وهو من الأودية الغزيرة المياه ، ومنابعه في مرتفعات لواء « آب » ويصيب في البحر الاحمر غربي مدينة « زبيد » .

(٧) ثم هناك وادي نخلة ، ويصب في البحر الأحمر شمال « الخوضة » ، ثم وادي رسيان ووادي موزع .

وكل هذه الأودية تتجه غرباً ، أما الأودية التي تتجه شرقاً ، فهي : (١) وادي الجوف ، وتتجمع فيه عدة أودية . (٢) وادي مأرب : وينبع من جبل بلق ثم يتجه شرقاً ماراً بمدينة مأرب - على مبعدة ١٢ كيلو متراً من سد مأرب . (٣) وادي حريب : وينبع من مرتفعات خولان الطيال (٤) وادي أملح والعقيق (٥) وادي بيجان ، وينبع من مرتفعات لواء البيضاء ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى يصل إلى بيجان القصاب ، ثم تضيع مياهه شرقاً في الأحقاف [١] .

وتتميز هذه الأودية الأخيرة بأنها ذات أهمية تاريخية ، إذ كانت مركزاً للسكنى والاستقرار ، وكان حجم التجمعات السكانية ولا شك كبيراً ، وقد دفعتهم قلة المياه في بلادهم ، مع الرغبة في زراعة أراضيهم ، إلى التفكير في إقامة السدود العديدة على مجاري الوديان ، حتى أنهم في الغالب لم يتركوا وادياً يمكن إستثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ، وحتى أن الهمداني يشير إلى أنه في مخلاف « يحصب العلو » وحده ثمانون سداً ، والى هذا يشير شاعرهم بقوله [وفي الجنة الخضراء من أرض يحصب : ثمانون سداً تقذف الماء سائلا] [٢] .

وبقايا هذه السدود ما يزال يشهد بوجودها في مجاري الوديان ، فضلا عن بقايا المدن التي كانت تنتشر بالقرب من مجاري الوديان كذلك ، والتي من أهمها براقش ومعين التي ذكر بليني أنها كانت بلاداً كثيرة الغاب والأعراس .

وأما أهم سدود اليمن القديمة هذه ، إذا إستثينا سد مأرب العظيم ، فهي : سد قصعان وربوان (سد قتاب) وشحران وطمحان وسد عباد

(١) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٤٣ - ٥٢
(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٠١

وسد لحج (سد عرايس) وسد سحر وسد ذي شهال وسد ذي رعين وسد نقاطه وسد نضار وهران وسد الشعبابي وسد المليكي وسد النواسي وسد المهباد وسد الخانق بصعدة (وقد بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن) ومظهره في الحنفرين من رحبان ، وسد ريعان وسد سيان وسد شبام ، على مقربة من صنعاء بثمانية فراسخ ، وسد دعان وغيرها[1] .

هذا وهناك كذلك سد قتبان ، وقد أقيم في وادي بيجان عند « هجر بن حميد »[2] ، وكان يسقي منطقة واسعة من دولة قتبان[3] ، فضلا عن سد

(١) ياقوت ٣/ ٣١٨ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥٤ ، جواد علي ٧/ ٢١٢

()انظر A.Grohmann, Arabien, P.153
R.Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, GJ, 101, 1943, P.116
J.B. Philby, The Land of Sheba, GJ, 92, PP. 113,119

(٣) تقع دولة قتبان ـ فيما يرى سترابو ـ في الاقسام الغربية من العربية الجنوبية وفي جنوب السبئيين وجنوبهم الغربي ، وقد امتدت منازلهم حتى باب المندب (EI,2, P.810) ، وليس في المصادر العربية شيئاً يستحق الذكر عنها ، سوى أنها موضع من نواحي عدن (ياقوت ٤/ ٣١٠) وانها بطن من رعين حمير (تاج العروس ١/ ٤٣١) وقد اختلف المؤرخون في التأريخ لها ، ربما لمعاصرتها لدولة معين وسبأ ، ومن ثم فإن تاريخ الدول الثلاث مرتبط ببعضها ومرتبط بالأبحاث اللغوية ، وكل تلك امور ما تزال موضع خلاف ، ومن ثم فقد رأينا من يضع دولة قتبان فيما بين القرنين العاشر والثاني قبل الميلاد ، ومن يرى أنها في الفترة (٨٦٥ ـ ٥٤٠ ق.م.) ، ومن يرى أنها فيما بين عام ٦٤٥ ق.م. والقرن الثالث ق.م. ، ومن يرى أنها فيما بين القرن السادس ق.م. ، وعام ٥٠ ق.م. ومن يضعها في الفترة (٤٠٠ ـ ٥٠ ق.م.) ومن يرى انها فيما بين القرن الرابع ق.م. والأول الميلادي [أنظر
J.P. Philby, The Background of Islam, P.60
S.Moscati, Ancient, Semitic Civilizations, P.179وكذا BASOR, 119, 1950, PP.3-5
F.Hommel, Grundris der Geographie und Gerchichte des Alten Orient, P.139
(W.Phillips, Oataban and Sheba, P.222F وكذا
وأما أهم مدن قتبان فهي العاصمة تمنا » (تمنه = تمنع)

(٢) وتقع في وادي بيحان في منطقة تدل آثار الري فيها ، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين ، وأنها قد خربت بسبب حريق هائل ، هذا فضلا عن « حريب » التى ذكر الهمداني ، « واشتهرت بنقود ضربت فيها وحملت إسمها كما كانت عاصمة لقتبان في أخريات أيامها » (أنظر الهمداني : المرجع السابق ص ٨٠، ٩٥، ١٣٥ ؛ جواد علي ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ وكذا G.F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, P.IXXIV, 75

عند « مرخة » ، وآخر عند « شبوة » ، وثالـث عنـد « الحريضـة »[1] ، أضف إلى ذلك تلك السدود التي تظهر آثارها في وادي عديم وعند حصن العر وثوبة في جنوب وادي حضرمـوت ، كما أن هنـاك ما يشـير إلى أن الصخور قد نحتت عند « نجران » لعمل ممر مائي يتجه إلى حوض واسع أحيط بسد وجدار ، حيث يستطيع القوم تخزين مائة مليون جالـون من المياه هناك[2] .

(٤) سد مأرب

كان خصب أرض سبـأ مضرب الأمثـال عنـد العـرب ، وكان أهلهـا ينعمون بخيرات واديهم ، وبما تدره التجارة عليهم من أموال ، إذ كان السبئيون القدامى يتحكمون في ذلك الدرب التجاري الهام الذي لعب دوراً من أكبر الأدوار في تاريخ العالم القديم .

وهناك على مقربة من مدينة مأرب توجد فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسير في القناة اليمنى ـ إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب ـ وما زالت بقايا جداريها المشيدين بالحجر ، ترى حتـى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة ، وهي الباب الرئيسي في السور الذي كان يواجه معبد « أوام » أو «محرم بلقيس » ، وعلى الجدار الشمالي من ذلك الأثـر نقش معروف (رقم ١ ـ ٤٤) ومكتوب فيه أن مكرب سبأ « ذمـار على وتار » بن « كرب ايل » ـ الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد ـ هو الذي بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله « عتتر »[3] ، ويبدو أن الرجل كان

(١) جواد علي ٧/ ٢١٣ وكذا *C.Thompson and E.Gardiner, in GJ, 93, 1939, P.P.34-5*

(٢) جواد علي ٧/ ٢١٣ وكذا *J.B. Philby, The Land of Sheba,* P. 16 . وكذا *A.Grohmann, op-cit, P.153*

(٣) احمد فخري: المرجع السابـق ص ١٧١ ، ١٨٠ وكذا *J.Ryckmans, les Institutions Monarchiques, P.P.62-3*

مهتماً بالإصلاح الزراعي ، وكما نعرف من نقش (هاليفى ٣٤٩) فإنه قد أمر بتوسيع مدينة «تشق » ، كما أمر بتحسين وسائل الري ، وباستصلاح الأراضي المحيطة بالمدينة واستغلالها في الزراعة [١] .

وعلى أي حال ، فلقد جاء بعد « ذمار علي وتار » ولده « سمه علي نيوف » الذي ينسب إليه أنه صاحب فكرة ومنفذ أكبر مشروع للري عرفته بلاد العرب ، وذلك بالرغم من أن سكان مأرب كانوا ذوي خبرة بشئون الري ، إلا أن سدودهم كانت بدائية ، حتى جاء « سمه على نيوف » وأحدث تطوراً خطيراً في وسائل الري ، وذلك حين شيد سد « رحب » للسيطرة على مياه الأمطار والإستفادة من السيول ، وهكذا بدأ المشروع العظيم والذي عرف في التاريخ باسم « سد مأرب » الذي نما على مر الأيام ، حتى إكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيام « شمر يهرعش »[٢] ، فنظم وسائل الري وأضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج[٣] .

ونعرف من نقش (جلازر ٥١٤) أن « سمه علي ينوف » قد ثقب حاجزاً في الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه إلى سد « رحب » ثم إلى منطقة « يسرن» التي كانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالمياه من حوض السد[٤] ، وتستمد ماءها من مسيل « ذنة » فتغذي أرضاً كانت ـ

---

(١) جواد علي ٢/ ٢٨٠

(٢) حكم شمر يهرعش في الفترة (٢٧٠ ـ ٣١٠ م) ، وإن كان « فون فيسمان » يحدد النصف الثاني من حكمه بالفترة (٢٨٥ ـ ٢٩١ ـ أو ٣١٠ ـ ٣١٦ م) [فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٩٥ وكذا *(Le Museon, 1964, 3-4P.P.456, 486*

(٣) جواد علي ٢/ ٢٨١ ، وكذا انظر : *D.Nielson, Handbuch, I,P.79*

(٤) انظر . *H.Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage zur historischen Georgraphie des Vorislamishchen Südarabien. P.27*

وما تزال ـ خصبة ، يمكن للقوم الإفادة منهـا إذا ما استعملـوا الوسائـل الحديثة لإيجاد المياه[1] .

وليس من شك في أن عهد « سمه علي ينوف » من أهم عهود مكاربة سبأ[2] ، فيما يتصل بالتأريخ لسد مأرب ، وأن أقدم ما لدينا من وثائـق عنـه ، إنمـا يرجـع إلى عهـد هذا المكرب ، وربمـا إلى حوالي عام ٧٥٠ ق.م. ، على رأي[3] ، وإلى حوالي عام ٧٠٠ ق.م. ، على رأي آخر[4]

وجاء « يتع أمر بين » وسار على سنة أبيه « سمه على ينوف » في الإهتمام بتحسين وسائل الري في البلاد ، ويبدو أن « سد رحب » لم يف بجميع حاجيات الاراضي الصالحة للزراعة من المياه ، ومن ثم فقد عمل « يتع أمر بين » على إدخال بعض التحسينات على هذا السد ، وإنشـاء فروع له ، ومنها فتح ثغرة في منطقـة صخـرية ، حتـى تصـل المياه إلى أرض « يسر ن » ، هذا إلى جانب تعلية سد رحب وتقويته ، أضف إلى ذلك أن الرجل إنما قام ببناء السد المسمى « هباذ » . وهو أكبر من « سد رحب » ، والذي كان على الأرجح البوابة الأخرى على اليسـار[5] ، كما أقـام سده الجبار المعروف بإسم « سد حبا بض » الذي مكّن كثيراً من الأرض من الإفادة بأكبر كمية من المياه التي كانت من قبل تجري عبثاً ، فلا تفيد زرعاً

---

(١) جواد علي ٢/ ٢٨١ ، نزيه مؤيد العظم : المرجع السابق ص ٨٨

(٢) تقع هذه الفترة فيما بين عامي (٨٠٠ ـ ٦٥٠ ق.م.) أو (٧٥٠ ـ ٤٥٠ ق.م.) وإن كنا نفضل الرأي الذي يبدأ تأريخها بالقرن العاشر ق.م. ، وإليها تنتمي ملكة سبـأ صاحبـة سليمان [أنظـر : جواد علي ٢/ ٢٦٩ ، *BASOR, 137, 1955, P.38* وكذا *(Discoveries, P.73*

(٣) جواد علي ٢/ ٢٨٢ وكذا *Discoveries, P.75*

(٤) *Ency. of Islam, III, P.290*

(٥) احمـد فخـري: المرجـع السابـق ص ١٨٣، جواد علي ٢/ ٢٨٢، وكذا *Discoveries, P.75* وكذا *Glaser 523, 525*

أو ضرعاً [1] .

ولعل هذا كله ، هو الذي دفع بعض الباحثين إلى إعتبار « يتع أمر بين » وأبيه « سمه علي ينوف » المؤسسين الأصليين لسد مأرب ، والذي يعتبر أكبر عمل هندسي عرفته شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم .

هذا وقد كان من أثر الإهتمام بإنشاء السدود وتنظيم الري ، أن زادت مساحة الأراضي الزراعية ، وخاصة حول مأرب ، مما كان سبباً في الإعلاء من شأنها وزيادة سكانها ، ولما كان الرخاء الإقتصادي في سبأ يعتمد على الحياة النباتية ـ وليس الحيوانية ـ فإن الإهتمام بتنظيم الري إنما كان سبباً في الرخاء الذي ساد البلاد إبان تلك الفترة ، وجعل من « مأرب » مدينة مزدهرة ، وأوجد الصورة الرومانتيكية لبلاد العرب في أذهان المؤلفين الكلاسيكيين ، فأطلقوا عليها « بلاد العرب السعيدة » ، وهكذا أصبحت مأرب تنازع «صرواح » [2] مكانتها أول الأمر ، ثم

(1) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ وكذا *Ency, of Islam, III, P.290* وكذا انظر : *D.H.Muller, Die Burgen, II, P.13 F*

(2) كانت صرواح عاصمة سبأ في عصر المكاربة ، ثم واحدة من أهم مدن سبأ لعدة قرون بعد ذلك ، وتقع الآن في موضع « الخربة » و« صرواح الخريبة » ما بين صنعاء ومأرب ، وكثيراً ما تردد ذكرها في أشعار العرب ، وقال عنها الهمداني : أنه لا يقارن بها شيء من المحافد المختلفة ، ويروي الأخباريون أنها حصن باليمن ، وأن الجن قد بنوه لبلقيس بأمر من سليمان ، وليس من شك في أن هذا من الأساطير التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً ، فضلا عن جهل بتاريخ المدينة ، إلى جانب أثر الاسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه ، إلى سليمان وإلى جن سليمان ، وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق هي : منطقة البناء والمنطقة المسماة القصر ، وهي قرية حديثة إستخدموا في تشييدها بعض أحجار المعابد ، وإما المنطقة الثالثة فهي المسماة الخريبة ، واما أهم آثار صرواح فهو معبد إله القمر الموقاة ، ودار بلقيس ومعبد « يفعان » الذي نال حظوة كبيرة بعد معبد الموقاة عند المكاربة [أنظر : احمد فخري ص ١٦٠ ـ ١٦٢ ، نزيه مؤيد العظم ٢/ ٣٤ ، ياقوت ٥/ ٤٠٢ ، اللسان ٣/ ٣٤٣ ، الهمداني الإكليل ٨/ ٢٤ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ١٠/ ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٠ ، صفة جزيرة العرب ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣ ، منتخبات ص ٦٠ وكذا *D.Nielson, op-cit, P.141* *(G.Ryckmans, Publication of the Inscriptions, III, 1951*

سلبتها هذه المكانة بعد حين من الدهر ، فغدت عاصمة سبأ ، وصاحبة معبد الإله الموقاه - إله سبأ الكبير(١) .

هذا وهناك ما يشير إلى أن ملوكاً آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد ، فضلا عن تقوية أجزائه القديمة ، ومن هؤلاء الملوك « كرب ايل بين بن يتع أمر » و« ذمار علي ذريح » و« يدع ايل وتار »(٢) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القوم إنما كانوا يهدفون من وراء السد إلى تحقيق أمرين ، الواحد السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية ، والآخر تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها إلا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب ، الذي يرتفع عن مستوى السايلة بخمسة أمتار ، ويأمنون توفير كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول أخرى من المناطق الممطرة في شرق اليمن لأن منطقة مأرب من المناطق الجافة قليلة الأمطار ، ولا يزرع أهلها اليوم - أي بعد تخريب السد - إلا مساحات ضئيلة على مقربة من مجرى المياه في وادي دنة ، وتضيع اكثر مياه السيول هباء في الوقت الحالي ، ولا يمكن إستخدامها في زراعة أراضي الوادي المرتفعة(٣) .

(٥) وصف السدّ

تسقط كميات كثيرة من الأمطار في مناطق كثيرة في شرق اليمن ، وتسير

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ وكذا I.Shalid, Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, P.10. وكذا J.B.Philby, op-cit, P.39

(٢) جرجي زيدان، المرجع السابق ص ١٦١ ، جواد علي ٧/ ٢١٠ وكذا D.H.Muller, op-cit, P.15

(٣) احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨١

سيولها في الوديان المختلفة ، ثم تتجمع مع غيرها من السيول القادمة من الشمال ومن الجنوب ، وتؤلف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ، ومنخفضة من جهة الشرق ، حيث تسير جميعها شرقاً في مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها «ذنة» (إذنة) وتدخل جميعها في واد كبير في جبل يقال له جبل بلق ، فتقسمه إلى جبلين - بلق الأيسر وبلق الأيمن - وأما الفتحة بين الجبلين فتعرف بإسم « الضيقة »[1] .

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة إلى حوالي ٣٠٠ م ، وأما الضيقة فتبلغ متوسط إتساعها حوالي ٢٣٠ م ، وإن إتسعت في الوسط إلى حوالي ٥٠٠م ، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠م ، ثم تستمر الناحية الشمالية (أي التي على يمين الشخص المواجه للسد) في إمتدادها ، بينما تنفرج الناحية الأخرى ، وقد إختار السبئيون القدامى هذا المكان لتشييد السد ، فبنوا جداراً قوياً يعترض الوادي ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا في الناحيتين فتحتين ، إحداها إلى أقصى اليمين ، واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون صدغاً ثانياً للبوابة ، أما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر وأعظم وتنقسم إلى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر ترى في وجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لري ناحية من نواحي الوادي الفسيح[2] .

ويطلق الاهالي على البوابة اليمنى مربط الدم وكانت تروى الناحية اليمنى التي ما زالت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم وكلها على يمين

---

(١) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٨٢

(٢) احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨١

وادي زنة ، وربما كان ذلك الإسم في حد ذاته ما يثبت أن تهدم السد قد حدث في هذه الناحية القريبة من مدخل الضيقة ويبدو أن صخرة الجبل تكوّن إحدى جانبي هذه الفتحة ، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر ، وربما كان في صدغي تلك الفتحة المكان الذي كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه وتسير بعد ذلك في قناة عادية ، ويبدو أنه كان هناك بروزاً مثلثاً في ذلك الجدار الحجري ، وقد كان ذلك البروز داخلاً في جدار السد الكبير ، وهو الجدار الذي تهدم وسبب ذلك الخراب (١) .

وأما البوابة اليسرى ، فقد كان لها عينان ، ووراءها قناة مبنية الجوانب طولها أكثر من كيلو متر تنتهي بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات ، كما يبدوا أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل ، ثم جعلوا في مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات وذلك لتصريف أي كميات زائدة من المياه حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد لا يريدونه ، أو يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها ، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادي ، وفي وقت من الأوقات رأوا أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منهما واكتفوا بالأخرى ، وكان يخرج من الحوض المبني بالحجر في آخر القناة الكبرى قنوات متعددة ، تبلغ فتحات بعضها نحو ثلاثة أمتار ، وكلها مبنية بالحجر ، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق في فتحتين في جانبي كل بوابة (٢) .

هذا وتدل دراسة المباني التي ما زالت قائمة عند البوابتين على أنه قد

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٣

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٤

استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض ، وتثبت وتتماسك وكأنها قطعة صلدة واحدة ، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان إسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس وذلك ليكون البناء قوياً ، وليكون في إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل ، أما المادة التي استعملت لربط الاحجار بعضها فهي من الجبس الممتاز ، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد كذلك حتى صار كأصلب أنواع السمنت[1] .

(٦) تهدم السد

تعرض سد مأرب عدة مرات لتصدعات في بنيانه إبان الفترة ما بين بنائه على أيام « سمه علي ينوف » في منتصف القرن السابع قبل الميلاد[2] ، أي حوالي عام ٦٥٠ ق. م. (وربما حوالي عام ٧٠٠ ق. م. أو ٧٥٠ ق. م. ، كما أشرنا من قبل) وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣ م ، على أيام أبرهة الحبشي ، أي خلال ما يقرب من ألف ومائتي عام ، وربما أكثر من ذلك ، لأن هناك من يرى أن السد قد ظل يؤدي واجبه حتى حوالي عام ٥٧٥م[3] ، ومن ثم فليس في إستطاعتنا على ضوء معلوماتنا الحالية أن نؤكد أن تلك المباني القائمة عند الفتحتين ، إنما ترجع إلى عهد « سمه

---

(١) جواد علي ٧/ ٢١١، نزيه مؤيد العظم ٢/ ٩٢ وكذا *A.Grohmann, op-cit, P.152*

(٢) حدد « فلبي » للمكرب « سمه علي ينوف » فترة الحكم (٦٦٠ - ٦٤٠ ق. م.) ، غير أنه عاد بعد ذلك وحدد له في قائمته التي نشرها في مجلة *(le Museon)* عام ٧٨٠ ق.م. كبداية للحكم ، ثم جعل فترة الحكم - بالاضافة إلى فترة حكم خليفته « تبع أمر بين » ثلاثين عاماً ، تنتهي عام ٧٥٠ ق. م. (أنظر جواد ٢/ ٣١٢)

(٣) جواد علي ٧/ ٢١٠ وكذا *A.Grohmann, op-cit, P.151* وكذا انظر:
A.Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiet, II, P.P.23-28

على ينوف » و«يثع أمربين » أو الى عهد غيرهما ، غير أننا إذا ما قارنا مبانيهما بمباني معبد صرواح ومعبد محرم بلقيس ـ وكلاهما من هذا العهد ـ ووضعنا في أذهاننا أن تهدم ذلك السد يحدث من تصدع جداره الكبير الذي كان بين البوابتين ، نرى أنفسنا ميالين إلى الأخذ بالرأي القائل بأن مباني البوابتين القائمتين هما من ذلك العهد (مع إفتراض حدوث بعض الترميمات فيهما) اللهم إلا إذا ظهر من الوثائق القديمة ما يثبت غير ذلك ، وهو ما لم يحدث حتى الآن[١] .

ونقرأ في نقش (جلازر ٨٢٥) أن الرومانيين قد إنتهزوا فرصة الحرب التي دارت رحاها بين الملك السبئي « شعر أوتر » (٦٥ ـ ٥٥ ق.م.)[٢] ، وبين ملك حضرموت « العزيلط »[٣] ، فأغاروا على سد مأرب بغية إيقاع الخسائر به ، غير أن قبيلة « حملان » التي عهد إليها حماية السد ، نجحت في صد هجوم الرومانيين ، هذا ويذهب البعض إلى أن هذا الهجوم ربما كان بتحريض من ملك حضرموت بهدف إنزال ضربة قاصمة بالسبئيين ، وذلك بتخريب سدهم الذي هو بمثابة العمود الفقري للإقتصاد السبئي ، وبخاصة بالنسبة للعاصمة مأرب[٤] .

هذا وهناك ما يشير إلى أن هناك تصدعاً قد حدث في سد مأرب على أيام الملك « شمريهرعش» وأن الرجل قد نجح في أصلاحه[٥] .

---

(١) احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٤

(٢) *A.Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilquis, P.390*

وقارن : *A.Grohmann, op-cit, P.28*

(٣) انظر *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit, P.113* وكذا *Berlin,* *2672* وكذا *A.Jamme, op-cit, P. 300* وكذا *Handbuch, I, P.93*

وكذا *CIH, 334*

(٤) انظر : *H Von Wissmann and Maria Hofner, op-cit, P.38*

(٥) جواد علي ٧/ ٢١٠

وعلى أي حال ، فإننا نعرف من نص (جام ٦٧١) ، والـذي أقامتـه جماعة من سادات بيت ريمان ، وأقيال عشيرة سمعـي ، شكراً للموقـاه الذي ساعدهم على القيام بما أمر به الملكان « ثاران يهنعم » و« مكليكرب يأمن »[١] ، من إصلاح للسد ، نعرف أن السد قد تهـدم عنـد موضـع «حبابض» ـ وكذا عند رحبتن ـ فتداعـت جدرانـه ومبـانيه واحواضـه وسدوده ومصارفه الواقعة فيما بين «حبـابض» و« رحبتن » ، وأن القوم قد كتب لهم نجحٌ كبير في إصلاح ما تهدم من السور[٢] .

هذا ، ونجد أنفسنا إذا ما وصلنا إلى عهد « شرحبيل يعفر » (٤٢٥ ـ ٤٥٥ م)[٣] ، أمام نص خطير (جلازر ٥٥٤)[٤] ، يحدثنا عن تصدع سد مأرب ، وما قام به الملك إزاء هذا الحادث الخطير ، فنقرأ أن « شرحبيل يعفـر ملك سبأ وذي ريدان وحضرمـوت ويمنـت وأعرابهـا في النجـاد والتهائم ، إبن أبي كرب أسعد ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد والتهائم ، قام بتجديد بنـاء سد مأرب وترميمـه على مقربة من رحب وعند عبرن » ، فضلا عن إصلاح أجـزاء منـه حتـى

---

(١) يرى « فون فيسمان » أن «ثاران يهنعم » قد حكم مع أبيه « ذمار علي يهبر » حكماً مشتركاً في الفترة (٣٤٥ ـ ٣٥٠ او ٣٦٠ م) ثم مع إبنه « ملكيكرب يهأمن » ، ثم الأخير مع ولديه « أب كرب اسعد » و« ذرأ أمرايمن » ثم إنفرد « أب كرب أسعد » مع ولده « حسن يهأمن » في حوالي ٤٠٠ م le Museon, 1964, 3-4, PP. 490 ,498) ، وانظر كذلك (Oriens Antiques, III, 1964, P.80

(٢) *le museon, 1964, 3-4, P.491, 498* وكذا *A Jamme, op-cit, P.176*

(٣): *J.B.Philby, op-cit, P.143* (وقارن قريتز هومل : حيث يضعه في الفترة (٤٢٠ ـ ٤٥٥ م) أنظـر : *D.Nielsen, op-cit, P.104* وكذا *Philby, Arabian Highlands, P.460*

(٤) *E.Glaser, Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Marib, MVG, II, 1897, P.372* وكذا انظر *le Museon, 1964, 3-4 , P.493* وكذا *A.Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, P.13*

موضع طمحن (طمحان) ، وحفر مسايل المياه وبناء القواعد والجدران بالحجارة وتقوية فروعه ، وبناء أقسام جديدة بين « عيلن » (عيلان) و« مغلل » (مغلول) ، وتجديد سد « يسرن » ، وأن هذه الأعمال كلها ، إنما تمت في شهر « ذي داون » من عام ٥٦٤/ ٥٦٥ من التقويم الحميري [١] ، الموافق عام ٤٤٩/ ٤٥٠ (أو عام ٤٥٦) من التقويم الميلادي [٢] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن النص إنما يشير إلى أمور عدة ، منها (أولا) أن تصدع السد قد إضطر الملك إلى تجديد بناء أقسام منه ، وترميم أقسام أخرى ، فضلا عن إضافة أقسام جديدة إليه ، ومنها (ثانياً) أن السد إنما تهدم مرة أخرى ، وبعد فترة قصيرة ، وذلك في شهر ذو ثبتن (ذو الثبت) من عام ٥٦٥ من التقويم الحميري (الموافق ٤٥٠/ ٤٥١ م أو ٤٥٥/ ٤٥٦ م) ، وكان التهدم هذه المرة في غاية الخطورة حتى أن القوم في « رحبتن » (الرحبة) قد إضطروا إلى الفرار إلى الجبال خوف الموت ، ومن ثم فقد لجأ الملك إلى حمير وإلى قبائل حضرموت يستعين بهم على إعادة بناء السد ، وقد تجمع لديه من هؤ لاء وأولئك زهاء عشرين ألف رجل ، عملوا في قطع الأحجار وحفر الأسس وتنظيف الأودية وانشاء الخزانات وعمل الأبواب ومنافذ مرور المياه ، وقد تمّ ذلك بنجاح في شهر « ذو دأو » من عام (٥٦٥) من التقويم الحميري (٤٥٠/ ٤٥١ م) .

ومنها (ثالثاً) أن تصدع السد بعد فترة قصيرة من ترميمه واصلاحه

---

(١) يبدأ هذا التقويم عام ١١٥ أو ١٠٩ ق.م. ، لأنه عام قيام دولة حمير ، أو لأنه تاريخ سقوط معين تحت سيادة سبأ أو لأنه عام إنتصار سبأ على قتبان

(٢) جواد علي ٢/ ٥٧٩ - ٥٨١ وكذا *A.Sprenger, op-cit, P.20* وكذا *E.Glaser, op-cit, P.379* وكذا *le Museon, 1964, 3-4, P.494* وكذا *J.B.Philby, The Buckground of Islam, P.118*

وتجديده ، وبعد إنفاق أموال طائلة عليه ، واشتغال آلاف من العمال في بنائه ، شيء يدعو إلى التساؤل عن سبب سقوطه أو سقوط جزء منه بهذه السرعة ، وهنا يقدم الباحثون ثلاثة إحتمالات ، أولها : أن التصدع إنما كان بسبب سقوط أمطار غزيرة في هذا العام لم يكن في طاقة السد إحتمالها ، وثانيها : أن إصلاح السد لم يكن قد كمل تماماً ، فسقطت أمطار غزيرة سببت إنهيار الأماكن الضعيفة في المواضع التي لم تكن قد تمت ، وثالثها : أن التصدع إنما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين[1] .

وايا ما كان الأمر ، فلقد كان لهذه الأحداث أثر سيء على مأرب ، ومن ثم فقد أخذ الناس يرحلون عنها إلى مناطق أخرى مثل «صنعاء» التي بدأ نجمها يتألق حتى صارت فيما بعد مقر الحكام الذين أقاموا في قصر غمدان ، ربما بسبب التحول السياسي الذي أصاب هذا العهد ، وان كان تصدع السد عدة مرات كان هو السبب الأول ، حيث ترك المزارعون أراضيهم التي أصابها التلف والجفاف إلى أرضين أخرى ، فضلا عن اللجوء إلى الهضاب والجبال[2] ، على أن نص (جلازر ٥٥٤) الذي أشار إلى هذه الأحداث الخطيرة ، لم يشر إلى أسماء القبائل التي هربت من « رحبتن » خوف الموت ، وإن كان يفهم منه أن القبائل التي كانت تسكن هذه المنطقة قد تفرقت وتشتت بسبب ما أصاب السد ، وفي هذا دليل على أن هناك أصلا تاريخياً للروايات العديدة التي يرويها الأخباريون عن تهدم سد مأرب وتفرق سبأ[3] ، وإن غلب فيها عنصر المبالغة والخيال على عنصر

---

(١) جواد علي ٢/ ٥٨٠ - ٥٨١ وكذا *J.B. Philby, op-cit, P.118*

(٢) *le Museon, 1964, 3-4, P.493*

(٣) أنظر : *E.Glaser, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, II, 1897, P.387* وكذا *A.Sprenger, op cit, P.28*

الحقيقة والتاريخ .

ونقرأ في نص (جلازر ٦١٨) ونص (CIH 541) من عهد أبرهة الحبشي عن ترميم سدمأرب وتجديده مرتين [١] ، الواحدة في شهر « ذو المدرح » من عام ٦٥٧ من التقويم الحميري (٥٤٢ م) ، والثانية في شهر « ذو معان » من عام ٦٥٨ من التقويم الحميري ، الموافق عام ٥٤٣ من التقويم الميلادي [٢] » .

ويبدأ أبرهة نصه بقوله « بقوة وجلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس ، سطروا هذه الكتابة ، إن أبرهة نائب ملك الجغريين رمحر زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في النجاد والتهائم » [٣] ، ثم يتحدث النص بعد ذلك عن ثورة شبت بقيادة « يزيد بن كبشة » ، والذي عينه أبرهة نائباً عنه في قبيلة كنده ، وسرعان ما انضم إليه « معد يكرب » بن « السميقع أشوع » وبعض الزعماء اليمنيين ، ومن ثم فقد بدأت الثورة تنتشر في أجزاء كثيرة من اليمن ، حتى أنها قد شملت حضرموت وحريب وذو جدن وحياب عند صرواح ، إلا أن أبرهة سرعان ما انتصر على الثوار وبطش بهم ، بمساعدة قبائل يمنية

---

(١) جواد علي ٣/ ٤٨٣ - ٤٨٤ ، وكذا *E.Glaser, op-cit, P.390*
وكذا *A.J.Drewes, Inscriptions de l'Ethiopie Antique, 1961, 65, 1962, 71*
وكذا *le Museon, 1953, 66, P.340* وكذا *F.Altheim and R.Stiehl, op-cit, P.587*
وكذا *A.F.L. Beeston, Problems, of Sabaean Chronology, in BASOR, 16, 1954*
وكذا *A.Sprenger, op-cit, P.31-126* وكذا *Handbuch, P.106* وكذا *Rychmans, 506*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٨٤ وكذا انظر *F.Praotorius, Bemerkungen Zur den beiden grossen Inschriften Vom Dammbruch zu Marib, in ZDMG, 1899, 5, 15*

(٣) جواد علي ٣/ ٤٨٤ وكذا *E.Glaser, op-cit, P.421*

قوية[1]

ثم نقرأ بعد ذلك أن أبرهة سرعان ما يسمع بتصدع سد مأرب ، وهو يصلي في كنيسة مأرب ، فيسرع إلى إصلاح السد ، مستعيناً بحمير وجنوده من الاحباش ، غير أنه يضطر إلى إعطائهم مهلة يستريحون فيها من شرور الحرب ، فضلا عن القضاء على تذمر القبائل التي لم تتعود مثل هذه الأعمال الشاقة ، إلى جانب عقد هدنة مع أقيال سبأ الذين كانوا ما يزالون خارج سلطانه . ثم يبدأ بعد ذلك في جمع العمال من أبناء العشائر ، وتخزين المؤ ن التي سوف يحتاج إليها إبان عمله في إصلاح السد ، وأخيراً يبدأ العمل في السد ، فضلا عن القنوات والأحواض والمشروعات الفرعية الجديدة ، حتى إذا ما كمل المشروع ، بعد أحد عشر شهراً من العمل المتواصل ، كان طول السد ٤٥ ذراعاً ، وعرضه ١٤ ذراعاً ، وارتفاعه ٣٥ ذراعاً ، هذا ويحدثنا أبرهة أن مقدار المؤ ن التي صرفت أثناء العمل كانت ٥٠٨٠٦ كيساً من الدقيق ، ٢٦٠٠٠ حملا من البلح ، فضلا عن نحر ٣٠٠٠ جملا وثوراً ، ٢٠٧٠٠٠ رأساً من الغنم ، وذلك منذ اليوم الذي بدأ فيه العمل ، وحتى الإنتهاء منه في شهر «ذو معان» من عام ٦٥٨ من التقويم الحميري ، الموافق عام ٥٤٣ من التقويم الميلادي[2] .

وكان نجاح أبرهة في ترميم سد مأرب ـ وهو آخر ترميم له ـ أمراً إعتز به الرجل ، وقرر الاحتفال به ، فجاءت إلى مأرب وفود كثيرة تمثل مراكز القوى في العالم وقت ذاك ، يذكر أبرهة منها في نقشه ، وفداً يمثل « زمخير

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٣ وكذا *H.Von Wissmann and M.Hofner op-cit, P.121*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٦ ، احمد فخري: المرجع السابق ص ١٨٧ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣

زبيان » نجاشي الحبشة ،ووفداً يمثل « جستنيان » (٥٢٧ ـ ٥٦٦م) ملك الروم ،ووفداً يمثل ملك فارس ، ورسلا من الحارث بن جبله الغساني (٥٢٨ ـ ٥٦٩ م) ، وآخرين من المنذر بن امرىء القيس (٥٠٨ ـ ٥٥٤ م) أمير الحيرة [1] .

ولعل سؤ ال البداهة الآن : أي هذه التصدعات في سد مأرب هي التي يعنيها القرآن الكريم ؟

والواقع أن هذا واحداً من الاسئلة الصعبة التي لا يمكن الإجابة عليها في يسر وسهولة ، وذلك لإنعدام المادة العلمية التي نستطيع الاعتماد عليها في الاجابة المؤكدة عن السؤ ال من ناحية ، ولأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات ، من ناحية أخرى ، ومن ثم فإن الأمـر لا يخـرج هنـا عن حيز الحدس والتخمين .

وعلى أي حال ، إننا إذا ما اعتمدنا على النصوص التـي قدمناهـا من قبل ، فربما كان التصدع الذي حدث على أيام « شرحبيل يعفر » ، أقرب إلى ما يعنيه القرآن الكريم من غيره ، لأنه أشدها قوة ، ولأن آثاره تعدت الأضرار الجـانبية إلى هروب سكان المنطقـة إلى الهضـاب والجبـال ، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أرضين أخرى ، ولأنه دون غيره ـ فيما يرى بعض الباحثين ـ ربما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبـراكين ، وليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة ، ومن ثم فقـد كان أثـره خطـيراً على الأرض وعلى الناس سواء بسواء .

ومع ذلك فلست أزعم أن هذا رأي يمكن الإعتماد عليه تماماً ، وإنما هو مجرد فرض لا أجد له من الأدلة التي تدعمه غير الحدس والتخمين ، ذلك

---

(١) جواد علي ٣/ ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٧ وكذا *E.Glaser, op-cit, P.P.408,421* وكذا *F.Praetorius, op-cit, P.650*

لأن الأدلة الأثرية شبه معدومة ، وأقوال المفسرين والأخباريين تكاد لا تقدم علماً يعتمد عليه ، أو أدلة قوية تساند وجهة النظر هذه أو تلك ، وإن كانت الأحوال الداخلية في اليمن قد تشير إلى إضطراب في الأمن ، وإلى تدخل الأجانب في شئون البلاد ، فضلا عن ظهور عقائد دينية جديدة ، وأخيراً فإن « شرحبيل يعفر » ما أن يختفي من المسرح ، حتى يعتلي العرش « عبد كلال » ، وهو - فيما يرى فلبي - كان من قبل كاهناً وشيخاً لقبيلة ، نجح بمساعدة الأحباش - الذين أصبحوا أصحاب شأن في شئون العربية الجنوبية - في أن يغتصب العرش لمدة خمس سنوات (٤٥٥ - ٤٦٠ م)[١] .

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن التهدم الذي ورد في القرآن الكريم ، إنما كان آخر تهدم[٢] ، ويضيف آخرون إلى أنه ربما قد حدث فيما بين عامي ٥٤٢ م ، ٥٧٠ م ، وأن السد لم يصلح هذه المرة ، ومن ثم فقد ترك الناس مزارعهم ، واضطروا إلى الهجرة منها ، وإلى ذلك وردت الإشارة في القرآن الكريم[٣] ، بل إن صاحب هذا الإتجاه إنما يحاول مرة أخرى أن يحدد عام ٥٧٥ م (أي بعد مولد الرسول ﴿ﷺ﴾) كتاريخ لحدوث هذا التصدع الخطير ، الذي لم يمكن التغلب عليه بسبب الأحوال السياسية التي سادت العربية الجنوبية وقت ذاك ، من إضطراب للأمن ، ومن تدخل الأجانب في شئون البلاد ، وبالتالي فقد أهمل السد ولم تتدخل الحكومة في إصلاحه[٤] .

غير أن هذا الاتجاه إنما يتجاهل أموراً كثيرة ، منها (أولا) أنه إنما يحدد

---

(١) *J.B.Philby, Arabian Highlands, P.260, The Background of Islam, P.143*

(٢) احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٠

(٣) جواد علي ٢/ ٢٨٣

(٤) جواد علي ٧/ ٢١٠

فترة قريبة جداً من الإسلام لسيل العرم ، ولو كان الأمر كذلك لاستطاع المؤ رخون الإسلاميون تحديده على وجه اليقين ، بل لاستطاع شعراء العرب تحديده كذلك ، ومنها (ثانياً) أنه يرجع بالهجرات العربية التي خرجت من اليمن بعد تهدم السد إلى فترة متأخرة ، لا تتفق وتاريخ قيام دولتي المناذرة والغساسنة ـ وأصحابها من هذه الهجرات كما يرى المؤ رخون الاسلاميون ـ كما أن وجود الأوس والخزرج في يثرب إنما يرجع بالتأكيد إلى ما قبل هذه الفترة ، ومنها (ثالثاً) أن الفترة ما بين إستيلاء أبرهة على اليمن وظهور الإسلام ، ليست من الفترات الغامضة في تاريخ اليمن ، ثم هي فترة قصيرة على أية حال ، ومنها (رابعاً) أن عام ٥٧٥ م ، هو العام الذي يرى فيه المؤ رخون نهاية الحكم الحبشي وبداية حكم « سيف بن ذي يزن » ، فضلا عن النفوذ الفارسي في أول الأمر ، ثم السيطرة الفارسية بعد ذلك ، وتاريخ اليمن في هذه الفترة لا يتحدث عن تصدع سد مأرب ، بل ليست هناك أية إشارة في هذا التاريخ عن السد ، أوعن هجرة قبائل يمنية من مواطنها الأصلية إلى الشمال ، كما نعرف من أحداث تهدم السد .

وأما الروايات العربية ، فإن بعضها يشير إلى أن الحدث الخطير إنما كان قبل الإسلام بقرون أربعة (أي في القرن الثالث الميلادي) ، ويشير بعضها الآخر إلى أن ذلك إنما كان على أيام ملك حبشان ، ولعل صاحب هذه الإتجاه يعني بذلك الأحباش لأنهم خربوا كثيراً من قصور اليمن وأبنيتها ، فإذا كان ذلك كذلك ، فماذا يعني « ياقوت » بأيامهم هذه ، هل يعني فترة تدخلهم في شئون العربية الجنوبية قبل الاحتلال الحبشي في عام ٥٢٥ م ، أم يعني فترة الاحتلال نفسه ؟ وعلى أي حال ، فإن « إبن خلدون » إنما يذهب إلى أن ذلك إنما كان على أيام « حسان بن تبان

أسعد » في القرن الخامس الميلادي .[1]

هذا ويرجح « بلو Blau » أن ذلك إنما كان في القرن الثاني الميلادي[2] ، بينما يذهب آخرون إلى أن ذلك إنما كان في القرن الرابع الميلادي معتمدين في ذلك على نسب « سعد بن عبادة الخزرجي » ، وجعله مقياساً للزمن الذي ربما تكون الهجرة قد تمت فيه ، فنسب سعد هذا ـ طبقاً لرواية النسابين ـ إنما هو « سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة » ، فمن « سعد » إلى « الخزرج الأكبر » أحد عشر جيلا ، وإذا إفترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرون عاماً ، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢ م) وبين الخزرج الأكبر ، حوالي مائتين وخمس وسبعين سنة ، أي أن هجرة الأوس والخزرج ـ بعد حادث سيل العرم ـ ربما كانت في أخريات القرن الرابع الميلادي ، هذا ويحدد « سديو » هذه الهجرة بعام ٣٠٠ م ، وأن الاستيلاء على المدينة إنما كان حوالي عام ٤٩٢ م[3] .

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب وهجرة القبائل العربية من جنوب بلاد العرب إلى وسطها وشمالها ، أمر لا يمكن ـ على ضوء معلوماتنا الحالية ـ أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل ، أو حتى قريباً من هذا القول ، وأن الأمر ما يزال في مرحلة الحدس والتخمين ، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أو في غيرها ما ينير الطريق أمامنا .

---

(١) ياقوت ٥/ ٣٥ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥٥

(٢) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٣١

(٣) احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣١٥ ، وانظر : سديو : تاريخ العرب العام .

(٧) سَيل العَرم والهجرات اليمنية

يروي الأخباريون أن كثيراً من القبائل العربية التي كانت تسكن منطقة سد مأرب ، قد هاجرت بعد سيل العرم من اليمن إلى شمال بلاد العرب ووسطها ، ومن ثم فقد ذهب الأوس والخزرج الى يثرب ، واتجه أولاد جفنة الى الشام ، وسار مالك بن فهم الازدي إلى العراق ، وذهب أزد السراة إلى السراة ، وأزد عمان إلى عمان ، وأما طيء فنزلت بأجأ وسلمى ، وذهب أبناء ربيعة بن حارثة إلى تهامة ، حيث سموا بخزاعة ، واستولوا على مكة من جرهم [١] .

وهكذا كان سيل العرم سبباً في تغييرات إقتصادية وسياسية هائلة في شبه جزيرة العرب ، وعلى تخومها الشمالية والشمالية الغربية ، بل كان سبباً في قيام دولتي المناذرة والغساسنة كدولتين حاجزتين بين بلاد العرب من ناحية ، وبين الامبراطوريتين الفارسية والرومية من ناحية أخرى .

على أن هناك من المؤ رخين من يتشكك في حقيقة هذه الهجرات العربية الجنوبية نحو التخوم السورية ، بحجة أن أسماء الاعلام في هذه المناطق في القرن السابع ، ليس فيها بقايا الأسماء الشائعة في المنطقة الجنوبية العربية [٢] .

---

(١) ياقوت ٥/ ٣٦ ـ ٣٧ ، الدميري ١/ ٤٤٥ ، احمد فخري : المرجع السابق ١٧٨ ـ ١٨٨ ، وفاء الوفا ١/ ١٢٠ ـ ١٢٢ ، تفسير الألوسي ٢٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٥٩ ، تفسير الطبري ٢٢/ ٨٠ ـ ٨٦ ، ومروج الذهب ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤ ، إبن كثير ٢/ ١٦١ ، تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٥ ـ ٢٩١ ، تفسير الفخر الرازي ٥/ ٢٥٣ الإكليل ٨/ ٤١ ، ١١٥ ـ ١١٦ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ، نهاية الأرب ٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٨ ، الميداني ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(٢) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ص ٢٩ وكذا *J.Halvey Rapport sur une mission Arachaeologique dans le Yemen, JA, 19, Paris, 1872*

والواقع أن هذه الهجرات أنما تؤكدها عدة أمور ، منها (أولا) أن منطقة مأرب إنما تعود خصوبة الأرض فيها إلى سد مأرب ، أما وقد تعطل السد وأدى خرابه إلى خراب الحضريين وانكفائهم إلى حياة البداوة ، والبحث عن أماكن جديدة ، فربما كان أمراً لم يقتصر على منطقة مأرب وحدها ، بل ربما شمل كذلك منطقة حضرموت ، حيث تدل منشآت الري المهملة وسط الصحراء على تدني الحياة الحضرية ، ومنها (ثانياً) أن هناك من بين الأمراء المؤابيين في شرق الأردن أميراً يدعى « شرحبيل » وهو إسم عربي جنوبي ، كما أننا نجد كذلك بعض أمراء شرق الاردن الذين ينتسبون إلى قبيلة كندة اليمنية في القرن الخامس يسمون « شرحبيل » و« معدي كرب » [1] .

ومنها (ثالثاً) وجود قبائل في المناطق الشمالية والجنوبية من بلاد العرب لها أسماء موحدة كقبيلة كندة التي نزل قسم منها نجدا ، ونزل القسم الآخر حضرموت ، وقبيلة الأزد التي نزل قسم كبير منها في السراة في الحافة الشمالية من اليمن ، في حين إستقر القسم الآخر في « عمان » ـ كما أن قبيلتي الأوس والخزرج تنتسبان إلى الأزد ـ وكذلك القول في قبيلة « إياد » التي يضرب بعض أفرادها في وادي بيشة ـ الذي ينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب مدينة أبها ـ بينما ضربت أكثريتها في السهول الغربية من الفرات الأسفل [2]

هذا وهناك فريق الباحثين يشكك في أن يكون السيل وحده هو سبب

---

(١) بلاشير : المرجع السابق ص ٣٠ ، وكذا *Caussin de* **Perceval**, *Essai sur l'Histoire des Arabes, 2, P.P.250-53*

(٢) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٣٠ ـ ٣١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٩ ـ ١٧٢ (طبعة الشعب)

هجرة كل تلك القبائل من الجنوب الى الشمال والوسط ، ذلك لأن سد مأرب إنما كان يسقي ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون « الأ... » ومن ثم فإنه يصبح من الصعب أن نقبل القول بأن جميع البطون الأزدية قد هاجرت من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها ، بسبب إ...ار السد وحده ، وانه لمن المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى ... العرم ، واضطرت بعض هذه البطون إلى ترك وطنها والهجرة إلى الأرجاء النائية [1] ، هذا فضلا عن أن المؤرخين الإسلاميين أنفسهم ، إنما يرى الكثير منهم أن القوم لما أصيبوا بكارثة سيل العرم لم يخرجوا جميعاً من اليمن ، وإنما بقي فيها الكثير من قبائل حمير وكندة ومذبح وأنمار والأشعريين [2] .

أضف إلى ذلك أن القول بأن قبائل الأزد إنما هاجرت دفعة واحدة ، أمر غير مقبول ، ذلك لأن خزاعة - وهي بطن من الأزد - كانت تحكم مكة حتى حوالي عام ٤٥٠ م ، وقد إستمرت مدة طويلة تلي ذلك الأمر ، رأى البعض أنها ثلاثمائة سنة ، ورأى آخرون أنها خمسمائة سنة ، وهذا يعني أنها هاجرت من اليمن حوالي منتصف القرن الثاني أو في بداية القرن الثالث الميلادي ، وربما في عام ٢٠٧ م ، فيما يرى سديو [3] .

هذا ولا يذهبن بنا الظن إلى إعتبار الهجرات الجنوبية كسيل جارف إتجه من الجنوب إلى شمال الجزيرة العربية ، لأن ظواهر الأمور إنما تدل على أن هناك حركة أكثر تعقيداً ، هي هجرة قبائل كهمدان مثلا ، والتي هاجرت من حضرموت واستقرت فيما بين مأرب ونجران ، حيث ... قبيلة

(١) عبد الفتاح شحاته : المرجع السابق ص٢٨٣ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ...

(٢) إبن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٦١

(٣) احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ٣١٥ ، إبن كثير ٢/ ١٨٣ ، لويس اميل سديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر

طيء ، وقد سببت هذه الحركة عدة تنقلات لقبائل الحجاز ونجد ، ويظهر ان المؤ رخين المسلمين قد حفظوا ذكرى هذه الهجرات الناتجة عن تنقل القبائل القادمة من الجنوب ، ولعل قدوم طيء إلى نجد حوالي جبال أجأ وسلمى ، وسيطرة هذه على تلك المنطقة قد سببت هجرات تكلم عنها الرواة المسلمون[1] .

وأيا ما كان الأمر ، وطبقاً لرواية الأخباريين ، فإن كثيراً من قبائل الأزد ، إنما هاجرت بسبب سيل العرم ، الأمر الذي لا يمكن تحديده بسهولة ـ كما أشرنا من قبل ـ ذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع ـ وربما الثامن ق.م.[2] ـ وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣ م ، فهناك عدة إشارات الى تهدم السد وإصلاحه[3] ، ومن ثم فلا ندري على وجه التحديد في أي وقت من هذه الفترة التي ربما تزيد عن إثني عشر قرناً ، قد حدثت هذه الهجرات .

وأما أن تهدم السد كان بسبب « جرذ » له مخالب وأنياب من حديد[4] ،

(١) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٣٢

(٢) جواد علي ٢/ ٢٨١ ، نزيه مؤيد العظم : المرجع السابق ص ٨٨ ، وكذا انظر وكذا D.Nielsen, op-cit, P.79 وكذا H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit, P.27

(٣) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٩ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٤ ، احمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٣ ، جواد علي ٢/ ٥٨٠ ، ٥٨٦ ، ٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ، وكذا le Museon, le museon, 1964, 3-4, P.493-494 وكذا R.A. Nicholson, op-cit, P.16 وكذا A.Jamme, op-cit, P.176 وكذا J.B.Philby, op-cit, P.118

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٠ ، ياقوت ٥/ ٣٥ ، الدميري ١/ ٤٤٥ ، مروج الذهب ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٠٥ ، الدرر الثمينة ص ٣٢٦ ، تفسير الطبري ٢٢/ ٨٠ ـ ٨٦ ، تفسير روح المعاني ٢٢/ ١٢٧ ـ ١٣٣ ، إبن كثير ٢/ ١٦٠ ، قارن : الميداني ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، نهاية الأرب ٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٨

فتلك أساطير لا تدور إلا في رؤوس أصحابها ، ومن ثم فهي لا تعرف نصيباً من صواب ، كما أن « كيتاني » قد جانبه الصواب كذلك ، حين ذهب إلى أن خراب سد مأرب ، إنما كان بسبب الجفاف الذي أثر على السد ، بل إن ضغط الماء على جوانب السد ، ثم حدوث سيل العرم ، إنما هو في حد ذاته لدليل على فساد نظرية الجفاف هذه [1] ، فضلا عن معارضتها الصريحة لما جاء في القرآن الكريم عن حادث السيل هذا [2] .

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى تصدع السد ، ثم حدوث السيل ، إنما هو ضعف الحكومات ، ثم تحول الطرق التجارية ، فضعف الحكومات في اليمن أدى إلى تزعم سادات القبائل والرؤساء ، وانشقاق الزعامة في البلاد ، وزاد الطين بلة أن تلك القلاقل الداخلية ، قد صاحبها تدخل الحبشة ثم الفرس في شئون البلاد الداخلية ، وكان نتيجة ذلك كله ، إضطراب الأمن في اليمن ، وظهور ثورات وفتن داخلية ، كما تدلنا على ذلك النقوش منذ القرن الرابع الميلادي ، وإن ظهوره بوضوح إبان القرن السادس الميلادي ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بواجباتها ، مما أدى إلى إهمال السد ، ومن ثم فقد تصدعت جوانبه ، فكان السيل الذي أغرق مناطق واسعة من الأرض الخصبة ، التي كان القوم يعتمدون عليها في حياتهم الاقتصادية [3] .

أضف إلى ذلك كله ، أن اليمن لم تصبح في تلك الفترة صاحبة السيادة على الطرق التجارية ، كما أنها لم تعد الوسيط الوحيد في نقل التجارة إلى

(١) جواد علي ١/ ٢٤٤ - ٢٤٦ • وكذا انظر L.Caetani, Studi, Della Historia Orientale, I,P.P. 64, 185, 186, 188,192, 267, 296 وكذا Alois Musil, Northern Nejd, P.P.309-10

(٢) سورة سبأ : آية ١٥ - ١٩

(٣) جواد علي ١/ ٢٤٦ وكذا انظر Corpus Inscriptionum Semiticarum, 1911, Part, 4, Vol. 2, Nos, 384, 540-41

المناطق الشمالية ، بل ربما لم يعد دور اليمن - بعد سيطرة الرومان على البحر الأحمر ، فضلا عن ظهور القرشيين وقيامهم برحلتي الشتاء والصيف المشهورتين - إلا دوراً ثانوياً . وهكذا تجمعت العوامل السياسية والاقتصادية معاً على إهمال الزراعة وكساد التجارة ، مما دفع بقبائل عربية غير قليلة إلى الهجرة إلى بلاد العرب الشمالية والوسطى [1] .

---

(١) A. Musil, op-cit, PP. 309-317

الفصل العاشر

قصة أصحاب الأخدود

(١) القصة في المصادر العربية

لا ريب في أن الفضل ـ كل الفضل في كل ما جاء في المصادر الإسلامية عن تعذيب « ذي نواس » لنصارى نجران إنما يرجع إلى القرآن الكريم الذي أشار إلى الحادث في قوله تعالى « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤ منين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤ منوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد »[١] ، ومن ثم فقد كانت هذه الإشارة حافزاً دفع بالمفسرين وأصحاب التاريخ والأخبار على جمع ما علق بالإذهان عن الحادث الخطير .

ولعل من الأفضل هنا ـ قبل أن نناقش روايات المؤ رخين والمفسرين التي دارت حول هذا الحادث ـ أن نثبت ـ باديء ذي بدء ـ تلك الرواية الصحيحة ، التي جاءت في صحيح الإمام مسلم عن رسول الله ، ﴿ﷺ﴾ ، والتي تتلخص في أن ملكاً كان له ساحر ، وان هذا الساحر قد طلب من مليكه عندما بلغ من الكبر عتياً ، أن يبعث إليه بغلام يعلمه السحر ، فأجابه الملك إلى طلبه ، غير أن راهباً كان في طريق الغلام إلى الساحر ، فكان يقعد إليه ويسمع منه ، مما كان سبباً في أن يتأخر عن الساحر ، الذي كان يضربه بسبب تأخره عنه .

ومرت الأيام ، وبينما كان الغلام في طريقه إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فأخذ حجراً وقال : « اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ،

(١) سورة البروج : آية ٤ ـ ٩

فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وانك ستبتلي فإن ابتليت فلا تدلّ علي » .

وينجح الغلام بعد ذلك في أن يبرىء الأكمه والأبرص وفي أن يشفي الناس من أوجاعهم ، وفي أن يرد لواحد من رجال البلاط بصره ، وما أن يعلم الملك بالأمر الأخير ، حتى يسأل رجل بلاطه عن الذي رد عليه بصره ، فيجيبه : إنما هو ربي ، فيقول له الملك : ولك رب غيري ، فيقول : ربي وربك الله ، فما كان من الملك إلا أن يعذب رجل بلاطه ، الذي يعترف بأمر الغلام ، وهنا يأمر الملك بقتله ، فضلا عن قتل الراهب ، بعد أن عرض عليهما أن يتركا دينهما الجديد ، فلما رفضا شق رأس كل منهما بمنشار .

غير أن الملك إنما يفشل تماماً في قتل الغلام ، بعد أن جرب معه وسائل مختلفة ، منها القاؤه من فوق قمة جبل ، ومنها قذفه في البحر ، ومنها ضربه بسيف ، وأخيراً يدله الغلام على الطريقة الوحيدة لقتله ، وذلك بأن يجمع الناس ، ثم يرميه بسهم ، قائلا : «بسم الله رب الغلام » .

وهكذا يقتل الغلام ، ولكن الناس - وقد رأوا كل ما حدث - إنما يؤ منون برب الغلام ، فيغضب الملك ويأمر بقتل المؤ منين ومن ثم فإنه يأمر بالأخدود[1] في أفواه السكك ، ثم يضرم النار ، ويعرض عليها الناس ، فمن رجع عن دينه الجديد تركه ، ومن أصر على الإيمان ألقاه في الأخدود فأحرقه ، حتى أن امرأة جاءت ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع في النار ، فقال لها صبيّها : إمض يا أماه فإنك على الحق ، فاقتحمت

---

(١) الأخدود: الشق في الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه الأخاديد ، ومصدره الخد ، وهو الشق ، يقال خدّ من الأرض خداً ، وتخدد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق (تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١١٩ ، وانظر : تفسير جزء عم للألوسي ص ٨٧ - ٨٨

النار[1] .

هذا وقد قدم لنا المؤ رخون الإسلاميون عدة روايات عن قصة تعذيب «ذي نواس» لنصارى نجران - (غير تلك الرواية الصحيحة ، الآنفة الذكر ، والتي جاءت في صحيح مسلم) - وبالتالي عن تدخل الأحباش واستيلائهم على اليمن ، ومن هذه الروايات واحدة تذهب إلى أن من يدعى «عبد الله بن الثامر» قد أخذ النصرانية عن راهب مسيحي - لعله فيميون - وأن عبد الله بن الثامر - وكذا فيميون - قد قتلا ، وأن رجلا قد حفر حفرة على أيام الفاروق عمر بن الخطاب ، فرأى عبد الله ، وقد وضع يده على ضربة في رأسه ، فإذا رفعت عنها يده جرت دماً ، وإذا ارسلت يده ردها إليها وهو قاعد ، فكتب بذلك إلى عمر ، فأمر الخليفة الراشد أن يتركه على حاله[2] .

على أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن ذا نواس كان يهودياً متعصباً ، فقدم عليه يهودي - يقال له دوس من أهل نجران - فأخبره أن القوم قد قتلوا له بنين ظلماً ، فأستنصره عليهم - وأهل نجران نصارى - فغضب ذو نواس لليهودي ، وشن حملة على أهل نجران ، ثم خيّرهم بين اليهودية أو القتل ، فاختاروا القتل ، وهنا حفر لهم أخدوداً ثم أضرم فيه النار ، وألقاهم فيه ، فقتل منهم عشرين ألفاً على رواية ، وسبعين ألفاً على رواية أخرى[3] .

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ١٣٠ - ١٣٣

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٤

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٣ ، مروج الذهب ١/ ٨٠ - ٨١ ، تاريخ الخميس ص ٢٢٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٠و تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٢ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١١٨ ، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٨٩

وهناك رواية ثالثة تذهب إلى أن قوماً من المجوس سكر ملكهم فوقع على أخته ـ أو إبنته ـ ثم أراد أن يجعل ذلك شرعاً في رعيته ، فخطب الناس بأن الله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ قد أحل نكاح الأخوات أو البنات ، فرفض القوم متابعته في شريعته هذه ، فأشارت عليه تلك التي وقع عليها أن يخد لهم أخدوداً، فمن أبى قذف به في النار ، ومن لم يأب تركه ، هذا إلى رواية رابعة يذهب أصحابها إلى أن هناك نبياً بعث في الحبشة فآمن به خلق كثير ، فخد لهم قومهم أخدوداً ثم أخذوا يعرضون الناس عليه ، فمن أتبع النبي قذف به في الأخدود ، ومن تابعهم تركوه .

وأيا ما كان الأمر في هذه الروايات ، فإن أصحابنا الأخباريين يذهبون إلى ان واحداً من أهل نجران الذين عذّبهم ذو نواس ـ ويقال له دوس ذو ثعلبان ـ قد استطاع أن يهرب على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك ، حتى إذا أتى الامبراطور الروماني « جستين » (٥١٨ ـ ٥٢٧ م) فاستنصره على ذي نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له القيصر : « بعدت بلادك من بلادنا ونأت عنا ، فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود ، ولكني سأكتب إلى النجاشي ملك الحبشة ، وهو على هذا الدين وقريب منكم » .

ويكتب القيصر إلى النجاشي يأمره بنصرة دوس هذا ، وينفذ الملك الحبشي ما أمر به العاهل الروماني ، فيرسل مع دوس سبعين ألفا من الرجال ، على رأسهم « أرياط » ـ وفي جنوده أبرهة الأشرم ـ ويأمره إن ظفر باليمن : « أن يقتل ثلث رجالهم ، وأن يخرب ثلث بلادهم ، وأن يسبي ثلث نسائهم وأبنائهم » .

ويخرج الجيش من الحبشة ، فينزل بسواحل اليمن ، ويجمع ذو نواس

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٠ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ٨٨ ـ ٨٩ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١١٨

إليه حمير ، ومن أطاعه من قبائل اليمن ، وتقوم الحرب بين الفريقين ، وما هي إلا جولة حتى يكتب النصر للأحباش ، وتكون الهزيمة من نصيب ذي نواس وما أن يرى ذو نواس ما نزل به وبقومه ، حتى يقتحم البحر بفرسه فيغرق ، ويطأ أرياط اليمن بالحبشه ، فيقتل ثلث رجالها ، ويخرب ثلث بلادها ، ويبعث إلى النجاشي بثلث سباياها ، ويقيم بها ويستذل أهلها(١) .

على أن هناك رواية أخرى ، تختلف عن الرواية السابقة بعض الشيء ، فهي ترى أن الذي هرب إنما كان « جبار بن فيض » ، وأنه ذهب إلى الحبشة مباشرة ، ومعه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه ، وأن ملك الحبشة قد قال له : « الرجال عندي كثير ، وليست عندي سفن ، وأنا كاتب إلى قيصر في البعثة إليّ بسفن أحمل فيها الرجال » ، فكتب إلى قيصر في ذلك ! وبعث إليه بالإنجيل المحروق ، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة »(٢) .

وتستطرد الرواية فتذهب إلى أن السفن لما قدمت إلى النجاشي من بيزنطة ، حمل فيها جيشه ، فخرجوا الى مضيق باب المندب ، فلما سمع بهم ذو نواس كتب إلى أقيال اليمن يدعوهم إلى نصرته ، وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعهم عن بلادهم واحداً ، غير أن الأقيال رفضوا الفكرة ، وطلبوا « أن يقاتل كل رجل عن مقولته وناحيته » ، فلما رأى ذو نواس ذلك صنع مفاتيح كثيرة ، ثم حملها على عدد من الأبل ، وخرج حتى لقي عدوه الحبشي ، فقال له : هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جئتكم

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٤ - ١٢٥ ، إبن الأثير ١/ ٤٣١ - ٤٣٢ ، المعارف لابن قتيبه ص ٢٧٧ ، الكشاف ٢/ ١٥٩٤ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٥٠ ، إبن كثير ٢/ ١٦٨ - ١٦٩ ، قصص القرآن ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٩ - ٦٠ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٩ - ٢٠٠ ، قارن المقدسي ٣/ ١٨٢ - ١٨٣

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٤ ، المقدسي ٣/ ١٨٤ ، قارن : تاريخ إبن خلدون ٢/ ٦٠ .

بها » ، فلما وجه أرياط الثقات من رجاله لاستلام خزائن اليمن ، كتب ذو نواس إلى كل ناحية : أن اذبحوا كل ثور أسود في بلدكم ، فقتلت الحبشة ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، فلما بلغ النجاشي ذلك جهز إليهم سبعين ألفاً ، عليهم قائدان ، أحدهما أبرهة الأشرم ، فلما وصلوا الى صنعاء[1] ، وأدرك ذو نواس أنه لا طاقة له بهم ركب فرسه ، واعترض البحر فاقتحمه ، فكان آخر العهد به[2] .

هذه هي أهم الروايات العربية التي تحدثت عن غزو الحبشة ، والسيطرة عليها قرابة نصف قرن من الزمان ، إلا أن هناك بعض النقاط التي تدعو إلى التساؤل في هذه الروايات ، منها (أولا) ذلك الخلاف في أسباب تلك المذبحة الرهيبة التي حدثت في نجران ، ففريق يذهب إلى أن السبب إنما كان لاعتناق القوم النصرانية ، وفريق آخر أنها كانت لنصرة رجل يهودي قتل نصارى نجران ولديه ، بل ان فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أن السبب إنما كان لأن واحداً من الملوك أراد أن يجبر الناس على الزواج من

---

(١) بدأ إسم صنعاء (صنعو) يظهر في تاريخ اليمن منذ أيام الملك « الشرح يحصب » (من القرن الثاني ق.م. ، على رأي ، ومن القرن الأول ق.م. ، على رأي آخر) ، حيث تردد كثيراً من نصوص ذلك العهد (كما من نقوش جام ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ريكمانز ٥٣٥) ، ثم سرعان ما بدأت تأخذ مكانتها بين مدن اليمن ، حتى أصبحت آخر الأمر عاصمة البلاد ومقر الحكام حتى الآن (انظر *P.K.Hitti, op-cit, P.57* وكذا *A.Jamme, op-cit P.393*
وكذا *J.B.Philby, op-cit, P.142* وكذا
(H.Von Wissman und M.Hofner, op-cit, P.19 ويبدو أن ذلك لا يتفق وروايات الاخباريين من أنها كانت تدعى « أزال » ، وأن « وهرز » القائد الفارسي هو الذي اطلق عليها اسم « صنعاء » حين قال إبان دخوله إياها « صنعة صنعة » ، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها ، أو أن التسمية كانت نسبة إلى بانيها « صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالخ » على رواية ، و« غُمدان بن سام بن نوح » على رواية أخرى ، فكانت تعرف تارة بأزال وتارة بصنعاء (ياقوت ٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧ ، البكري ٣/ ٨٤٣.)

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٥ ، ١٢٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٠ - ٦١ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٩ - ٢٢٠ ، تاريخ الخميس ص ٢٢٠

أخواتهم أو بناتهم ، ومن ثم فالقصة كانت - فيما يزعم هذا الفريق - مع المجوس ، وليست مع النصارى ، وأخيراً فإن فريقاً رابعاً ذهب إلى أن القصة إنما كانت مع الأحباش ، وأن المجزرة إنما كانت بسبب إيمان فريق من الناس بنبي هناك .

ومنها (ثانياً) ذلك الخلاف في مكان الأخدود ، أهو في اليمن أم في الشام أم في فارس أم في الحبشة ، بل إن فريقاً خامساً زعم أن أصحاب الأخدود إنما هم « عمرو بن هند »[1] المشهور بمحرق ومن معه ، حين حرقوا مائة من بني تميم[2]

ومنها (ثالثاً) أنه من المعروف تاريخياً أن ذا نواس ، إنما قتل بيد الأحباش على رواية ، وأنه قد ركب فرسه وإعترض البحر فأقتحمه ، فكان آخر العهد به ، على رواية أخرى ، غير ان رواية ثالثة إنما تذهب إلى أن نار الأخدود قد ارتفعت فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعاً فأحرقتهم[3] .

ومنها (رابعاً) تلك الحيلة الساذجة التي يزعم الأخباريون أن ذا نواس قد لجأ إليها للقضاء على الأحباش ، وذلك بإعطائهم مفاتيح خزائن

---

(١) هو « عمرو بن المنذر » كان مليكاً على الحيرة في الفترة (٥٥٤ - ٥٦٩ م) ، وأما « هند » هذه ، فهي امه بنت « عمرو بن حجر آكل المرار » ، عمه امرىء القيس الشاعر المشهور ، وكان « عمرو بن هند » يسمى « مضرط الحجارة » كناية عن قوة ملكه وشدة بأسه ، كما كان يسمى « المحرق » لأنه حرق « بني تميم » ، أو لأنه حرق نخل اليمامة ، وكان جباراً عاتياً ، لا يبتسم ولا يضحك ، ومن ثم فقد كانت العرب تهابه وتخشاه (حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٢ ، ابن قتيبه : المعارف ص ٢٨٣ ، المقدسي : البدء والتأريخ ٣/ ٢٠٣)

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٠ ، تفسير الطبري ٣٠/ ١٣١ - ١٣٣ ، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٨٨ - ٩٠

(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨٩

اليمن محملة على جمال عدة ، ثم أمر نوابه في الأقاليم بقتل رسل القائد الحبشي ثم كيف قبل أرياط هذه الحيلة الساذجة ، وهل تحتاج خزائن اليمن إلى مفاتيح تحمل على جمال عدة .

ومنها (خامساً) أن أصحابنا الأخباريين لم يبينوا لنا لماذا أراد النجاشي من قائده أن يقتل له ثلث رجال اليمن ، وأن يخرب ثلث بلادهم ، وأن يسبي ثلث النساء والأطفال ، ثم ما الهدف من هذا النظام الثلاثي في العقوبة ، وكيف يمكن تحديد هذا الثلث ، وبخاصة في الرجال والنساء والأطفال ، وأخيراً ما هو المصدر الذي إعتمدوا عليه في هذه الرواية ، بل وفي غيرها من الروايات .

ومنها (سادساً) من الذي نجا من مذبحة ذي نواس ؟ أهو « دوس ذو ثعلبان » أم « جبار بن فيض » ، ثم إلى أين ذهب هذا الذي نجا ، ألملك الحبشة ، أم لقيصر الروم ؟ ومنها (سابعاً) كيف حدد أصحاب هذه الروايات عدد القتلى في مذبحة نجران بعشرين ألفاً ، أهو مجرد رقم ؛ أم أن لهم مصدراً إعتمدوا عليه في تحديد هذا الرقم ؟ إن الوثائق لم تتحدث عن عدد القتلى ، ومن ثم فأكبر الظن أنه مجرد رقم ، أريد به المبالغة في تصوير المذبحة الرهيبة ، ذكره بعض الأخباريين ، ثم تابعه الآخرون في ذكره ، بل إن بعضهم ذهب إلى أنهم إثنا عشر ألفاً ، بينما ذهب الخيال بفريق ثالث حداً جعله يقرر أن من قتلهم ذو نواس ، إنما كانوا سبعين ألفاً[1] ، وعلى أية حال ، فالدكتور إسرائيل ولفنسون إنما يعترض على هذه الأرقام ، ويرى أن عدد القتلى مبالغ فيه ، وأن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة ، لا يزيد عدد سكانها عن بضع مئات ، فضلا عن أن ذا نواس لم يقتل كل أهالي نجران ، بدليل أنهم ذكروا في أخبار صدر الإسلام[2] ،

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٢ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١١٨ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ٨٩

(٢) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٤٥ ، إبن هشام ٢/ ١٦٥

أضف إلى ذلك أن ترنيمة يوحنا ، إنما تحدد عدد القتلى بما يقارب المائتين ، وهو رقم مقبول ، وربما قد يدل على صحة هذه الترنيمة ، وعلى معاصرتها للحادث الخطير[1] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم لم يتحدث عن هذا الذي خدّ الأخدود ، ولا على عدد القتلى ، والأمر كذلك بالنسبة إلى مكان هذا الحادث ، ومن ثم فقد كان الخلاف البين بين الباحثين في كل هذه الأمور ، فذهب بعضهم إلى أن الحادث إنما كان بنجران في الفترة ما بين المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وذهب فريق آخر إلى أنه إنما كان باليمن (دون تحديد مكان معين) ، وقبل مبعث المصطفى ، ﴿ ﷺ ﴾ ، بأربعين عاماً ، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن هناك أخاديد ، وليس أخدوداً واحداً ، فهناك أخدود في اليمن على أيام « تبع » وآخر في القسطنطينية على أيام قسطنطين ، حين صرف الناس من أتباع عيسى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، واتخذ أتونا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد ، ثم هناك أخدود ثالث في العراق على أيام بخت نصر (نبوخذ نصر ٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م.) ، حين صنع صنما وأمر الناس بالسجود له ، ففعلوا ، إلا دانيال وعزريا ومشايل ، فألقي بهم في أتون من نار ، إلا أن الله سبحانه وتعالى جعلها عليهم برداً وسلاماً ، ثم ألقى بأعدائهم فيه فاكلتهم النار[2] .

ولست أدري من أين جاء أصحابنا الأخباريون برواياتهم هذه ، وتاريخ المسيحية لا يتحدث عن إضطهاد للنصارى على أيام الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) ، بل إن العكس هو الصحيح تماماً ،

---

(١) *R.Bell, op-cit, P.38*

(٢) ، إبن كثير : البداية والنهاية ٢/ ١٣١ - ١٣٢ ، تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٠

فالتاريخ يحدثنا أن الرجل قد إعترف بالنصرانية في عام ٣١١ م ، كواحدة من ديانات امبراطوريته ، بل إن هناك بعض الروايات التي تذهب إلى أن الرجل قد تنصر في عام ٣١٢ م ، وإن ذهبت روايات أخرى إلى أنه بقي وثنياً طوال حياته ، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش الموت ، هذا فضلا عن أن أمه « هيلانة » هي التي بنت كنيسة القيامة في بيت المقدس[١] .

أما رواية خدّ العراق ، فهي اسرائيلية صرفة ، وليس في تاريخ البابليين ـ فضلا عن اليهود أنفسهم ـ ما يشير إلى هذا الحادث ، وإن كانت التوراة[٢] قد أشارت إلى حادث يشبه هذا ، إلا أنه لم يكن مع « دانيال » الذي كان مقرباً الى البلاط البابلي ، وإنما كان مع ثلاثة من اليهود يعملون سقاة في القصر الملكي ، ويبدو أن الرواية قد نقلت إلى المؤرخين المسلمين من اليهود محرفة ، فضلا عن أن أكبر الظن عندي أن قصة التوراة نفسها ، إنما هي قصة الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا أن طغمة باغية من يهود قد عبثت بالقصة ، فحولتها إلى هؤلاء الذين كانوا يشرفون على شراب الملك البابلي ، وما أكثر الحقائق الدينية والتاريخية التي حرفها اليهود في توراتهم .

أضف إلى ذلك ، أن القرآن الكريم لم يتحدث عن عدد الضحايا في مذبحة الأخدود هذه ، إلا أن المفسرين وأهل الأخبار أخذوا يتنافسون في تقديم أرقام مختلفة عن ضحايا الحادث الأليم ، دون أن يذكروا لنا

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٢٩ ، وانظر كذلك : إدوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٦٩ ، الجزء الأول ص ٥٦٣ وما بعدها ، فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ الجزء الأول ـ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ، ثم قارن :
Sozomenus, Historia Eccelesiastica, BK.I, ch. 4   *Eusebius, Bk.X., Ch.S*

(٢) دانيال : ١ ـ ٣ : ٣٠

المصادر التي اعتمدوا عليها ، ومن ثم رأينا ارقاماً . تتفاوت فيما بين ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٢ ألف ، ٢٠ ألف ، ٧٠ ألف ، والفرق جدّ شاسع بين أقل هذه الأرقام وأكبرها ، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نقول أي الأرقام هو الصحيح ، أو حتى أيها هو الأقرب إلى الصحيح .

وأخيراً فإن الذي يفهم من النص القرآني الكريم أن الذي قتل أصحاب الأخدود ، إنما كان مشركاً[١] ، بدليل قوله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤ منوا بالله العزيز الحميد » ، ومن ثم فإن الذي دعا نصارى نجران ، إنما دعاهم إلى الوثنية ، لا إلى اليهودية ، لأن اليهودية والنصرانية ديانتان سماويتان ، لا مجال لتفضيل إحداها على الأخرى ، وإذا بدا أن اليهود كانوا أشد عداء للرسول ، ﴿ﷺ﴾ ، وللإسلام ، وأن النصارى أقرب مودة ، طبقاً لقوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »[٢] ، فذلك يقتضي أن يفضل النصارى على اليهود ، ولا يقتضي تفضيل اليهودية على النصرانية ، أو النصرانية على اليهودية[٣] ، ومن ثم فإن ذا نواس ، إما أن يكون قد دعا نصارى نجران إلى الوثنية ، وبالتالي فهو لم يكن يهودياً ، وإنما كان وثنياً ، أو أنه لا صلة له من قريب أو بعيد ، بقصة الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم .

بقي أن نشير إلى أن الروايات العربية إنما تذهب إلى أن ذا نواس ، إنما

---

(١) تفسير إبن كثير ٤/ ٥٤٨ ، تفسير القرطبي ٣٠/ ١٣٤ ، ياقوت ٥/ ٢٦٨

(٢) سورة المائدة : آية ٨٢ وانظر : تفسير الجواهر ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، تفسير الطبرسي ٦/ ١٧١ - ١٧٦ ، تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٨ - ٥٠٦ ، تفسير الكشاف ١/ ٦٦٨ - ٦٦٩ ، تفسير النسفي ٢/ ٣ - ٤ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢٣ ، في ظلال القرآن ٧/ ٩٥٩ - ٩٦٦

(٣) عمر فروخ : المرجع السابق ص ٧٤ ، وانظر كذلك : ياقوت ٥/ ٢٦٨

أنهى حياته بنفسه ، وذلك حين ركب فرسه فوجهه نحو البحر ، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر ، حتى أفضى به إلى غمرة ، فاقحمه فيه ، فكان آخر العهد به[1] ، إلا أن الروايات الحبشية والإغريقية ، إنما تذهب إلى أن الرجل قد وقع أسيراً في أيدي أعدائه فقتلوه ، بل إن هناك رواية غريبة تنسب إلى « علقمة ذي جدن » شعراً جاء فيه :

[أو ما سمعت بقتل حمير يوسفا : أكل الثعالب لحمه فلم يقتبر] ، والرواية قد يفهم منها أن الرجل إنما قتل بيد الحميريين أنفسهم ، وإن جثته لم تقبر ، وانما ألقيت إلى الحيوانات المفترسة حيث أكلتها ، وطبقاً لهذه الرواية ، فإن « فون كريمر » إنما يذهب إلى أن ذا نواس لم يغرق في البحر ، وإنما قتل قتلا ، كما جاء في الروايات العربية ، وأخيراً ، فإن هناك رواية تذهب إلى أنه قد مات حريقاً بنيران الأخدود الذي أوقده[2] .

وعلى أي حال ، فإن « جون فلبي » قد زار نجران ، وعثر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة « رجمت » ، ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذي إحتفره ذو نواس في هذه القصة موضوع الدراسة[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٥ ، ١٢٧ ، المقدسي ٣/ ١٨٥

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨٩ ، عبد المجيد عابدين: بين الحبشة واليمن ص ٥١ ، جواد علي ٣/ ٤٧١ - ٤٧٢ ، وكذا *Procopius, I,XX,I* وكذا *ZDMG, 35, 1881, P.16* وكذا *Malala, P.433* وكذا انظر *Von Kremer, Südarabische Sage, 127* وكذا *P.P. 92, 127* وكذا *REP. EPIGR. V,I, P.5* ثم قارن : سعد زغلول : من تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٩٧ - ١٩٨ ، حيث يرى أنه ربما قتل دون أن يعرف أمره في وسط إضطراب المعركة التي دارت على مقربة من الشاطىء ربما من موضع نزول الحملة من مراكبها .

(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٨٦ وكذا *J.B.Philby, Arabian Highlands, P.237F*

ومن الغريب أن الكتابات العربية الجنوبية لم تحدثنا بشيء عما ورد في كتابات المؤرخين الإسلاميين ، إلا أن نقش « حصن غراب » ، والمعروف (REP. EPIGR, 2633) ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥٢٥ م ، إنما يشير إلى أن الأحباش قد استولوا على اليمن في عهد ملك لم يذكر النقش إسمه ، وأنهم قد قتلوا هذا الملك وأقياله [١] ، على أن « هوجو فنكلر » ، إنما يذهب إلى أن هذا الملك إنما هو ذو نواس ، وأنه كان البادىء بالحرب ، وأن أصحاب النص (السميفع أشوع وأولاده) ، كانوا من أنصار ذي نواس على غير رغبة منهم ، وأن المعارك التي دارت بين الفريقين قد إنتهت بانتصار الأحباش ، ومن ثم فإن « السميفع أشوع » وأولاده ، قد إضطروا إلى الإلتجاء إلى حصن ماوية حتى إنتهت العاصفة ، وحينئذ فإنهم قد عقدوا صلحاً مع السادة الجدد [٢] .

(٢) القصة في المصادر المسيحية واليونانية

إهتمت المصادر المسيحية المعاصرة بغزو الحبشة لليمن ، ومن هؤلاء « قزما » ، الذي كان في الحبشة إبان عمل الإستعدادات لغزو اليمن ، وقد سجل لنا قصة الغزو ، ربما بعد ٢٥ سنة من وقوعها ، وقد رأى ان الحملة إنما تمت في أوائل أيام القيصر « جستين » (٥١٨ - ٥٢٧ م) [٣] ،

---

(١) *REP. EPIGR, V,i,p.s* وكذا *J.H.Mordtmann, in ZDMG, XLIV, 1890 P.176* وكذا انظر *E.Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895 P.P.131-132*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٥٩ - ٤١٠ انظر: *H.Winckler, Zur Alten Geschichte Yemens und Abessiniens, P.327*

(٣) جواد علي ٣/ ٤٦١ ، مجلة المجمع العلمي العرب بدمشق ، المجلد ٢٣ ، الجزء الأول ، ١٩٤٨ ص ١٨ وما بعدها ، وكذا وكذا *ZDMG, 1881, P.S.* وكذا *J.B.Bury, History of the Roman Empire, II,P.323* وكذا *Cosmas, P.141*

بل إن «ثيوفانس» و« سدرينوس » قد حدداها بالعام الخامس من حكم هذا القيصر (أي عام ٥٢٣ م) ، وأن سبب قيام الحملة إنما كان تعذيب ذي نواس ـ الذي قتل في المعارك ـ لنصارى نجران ، على أنهما يتحدثان كذلك عن غزو آخر قام به الملك الحبشي « أداد » ضد « دمياتوس » ، وأن هذا الغزو الأخير قد حدث في العام الخامس عشر من عهد القيصر « جستنيان » ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ، أي في عام ٥٤٢ م[١] .

وهناك رواية يونانية تذهب إلى أن « ذا نواس Dunaas » ملك حمير ، قد عذب نصارى نجران في العام الخامس من عهد الأمبراطور « جستين » (أي عام ٥٢٣ م) ، ومن ثم فقد قام نجاشي الحبشة بغزو حمير ، ففر ذو نواس إلى الجبال ، حتى إذا ما واتته الفرصة إنقض على الجيش الحبشي ، فأباده واحتل نجران ، مما اضطر الأحباش إلى القيام بحملة ثانية ، إنتصرت على الملك الحميري ، وعينت مكانه « أبرهة Abrames »[٢] .

ولعل من أهم الوثائق المسيحية التي تتصل بتعذيب نصارى نجران ، إنما هي « رسالة مار شمعون » أسقف بيت رشام إلى رئيس أساقفة « دير جبلة » ، يصف فيها ما سمعه من شهود عيان من أهل اليمن عن تعذيب نصارى نجران ، وما لاقوه هناك من صنوف التعذيب ، ثم يتحدث بعد ذلك « مار شمعون » في رسالته عن الرسالة التي ارسلها ملك حمير إلى ملك الحيرة ، وفيها يطلب منه أن يفعل بنصارى مملكته ، ما فعله هو بنصارى نجران ، وأن شمعون قد تأكد بنفسه من الحادث ، وذلك حين أرسل من قبله رسولا ليأتيه بالخبر اليقين ، ومن ثم فقد وجه شمعون نداء إلى كل الأساقفة الرومان ، وإلى بطريق الإسكندرية ، وإلى أحبار

---

(١) جواد علي ٣/ ٤٦٢ وكذا انظر *J.H.Mordtmann, ZDMG, 31, 1877,P.67* وكذا *Theophanes, I,346*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٦٣ ، وكذا *J.H.Mordtmann, op-cit, P.67*

طبرية ، طالبا منهم بذل الجهود الجادة لإيقاف هذه المذابح البشرية ، ورغم ما تفيض به الرسالة من عواطف شخصية ، ومن مبالغات متعمدة لإثارة الحمية الدينية عند رجال الدين المسيحي ، ورغم أن ما جاء بها على لسان ملك حمير ، إنما هو من كلام شمعون ، وليس كلام الملك الحميري فإن الرسالة بصفة عامة صحيحة ، ومن ثم فهي وثيقة تاريخية يمكن أن ينظر إليها باهتمام[1] .

هذا وقد تحدثت المصادر السريانية كذلك عن شهداء نجران ، ومنها كتاب ينسب إلى « يعقوب السروجي» ، وقصيدة في رثاء الشهداء لأسقف الرها « بولس » ، فضلا عن نشيد كنسي سرياني لرئيس دير قنسرين « يوحنا بسالطس » المتوفي عام ٥٢٦ م ، أو ٦٠٠ م[2] .

(٣) الاحتلال الحبشي وعلاقته بقصة الأخدود

ليس من شك في أن العلاقة بين اليمن والحبشة ، إنما ترجع إلى عصور موغلة في القدم ، قد تبعد عن الميلاد بقرون طويلة ، وربما كان ذلك بسبب قرب الحبشة من اليمن ، حيث لا يفصل بينهما إلا مضيق باب المندب الضيق ، والذي كان يمكن عبوره بسهولة بوسائل النقل التي كانت متاحة في تلك العصور الخالية ، ومن ثم فقد تبادل الفريقان الهجرات ، وهكذا رأينا هجرات عربية تنتقل من بلادها إلى الشواطىء الأفريقية المقابلة ، كما رأينا كذلك هجرات أفريقية إلى العربية الجنوبية ، فضلا

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٥٦ ، جواد علي ٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥ ، وكذا *J.B.Bury, op-cit, P.323* وكذا ZDMG ,35, 1881, PP. 2-4 وكذا *Fragmants Histori. Greega, IV, P.177*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٦٥ ، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب والعلوم السريانية ص ٢٥٤ ، وكذا *J.B.Bury, op-cit, P.324* وكذا *ZDMG. 31, P.P.324, 363, 400, 35, P.4*

عن هجرات مرتدة من هذا الجانب أو ذاك ، إلى جانب حملات عسكرية من الجانب العربي ـ وكذا من الجانب الافريقي ـ نجحت في أن تحتل جزءاً كبيراً أو صغيراً من هذه المنطقة أو تلك .

هذا ويذهب كثير من الباحثين إلى أن العرب الساميين ، إنما كانوا يتجهون إلى أفريقية منذ وقت مبكر ، على دفعات متعددة ، وفي أوقات مختلفة ، وهكذا رأينا في الألفي سنة قبل الميلاد جماعات عربية تهاجر من جنوب غربي شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة [1] ، ويرى « كارل بيترز » أن هناك جالية حميرية كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين نهري الزمبيزي واللمبوبو منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، وأن المعبد الكبير في «زمببويه» إنما بني في عام ١١٠٠ قبل الميلاد ، وأن السبئيين كانوا أصحاب السيادة في ذلك الوقت [2] .

على أن الأمر إنما يزداد وضوحاً منذ القرن السادس ق.م. ، حيث نزحت جالية سبئية إلى المنطقة المعروفة بـ « تعزية » في أرتيريا ـ وكذا إلى هضبة الحبشة ـ مكونة حكومة محلية هناك [3] ، ولعل هجرة الأوسانيين إلى السواحل الأفريقية ، إنما كانت في نفس تلك الفترة ، حيث إتخذوا من « عزانيا » مقراً لهم ، ثم سرعان ما أخذوا يشقون طريقهم نحو الجنوب ، ويحدثنا صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأريتري » أن هذه المنطقة التي شغلها الأوسانيون ، إنما كانت تسمى على أيامه « Ausaniteae » ، وهو إسم لا شك أنه قريب من إسم « أوسان » وأن

(١) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٠٧

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ١٢٨ وكذا *C.Peters, The Eldorado of the Ancients, P.P.271-74*

(٣) *A.Grohmann, op-cit, P.25*

هذه المنطقة إنما كانت على أيامه (القرن الأول الميلادي) [1] تخضع لحكام « Mapharitis »[2] ويريد بهـم حكام سبـأ وذي ريدان [3] ، هذا بالإضافة إلى أن هناك هجرة سبئية من القرن الخامس قبـل الميلاد ، إلى جانب تلك الجالية الحبشية من غرب اليمن[4] .

وهكذا وجدت منذ زمن قديم ، قبل النصف الأول من الألف الأول ق.م. ، جماعات من العرب الجنوبيين تعبر البحـر الأحمـر ، وتـؤسس جاليات ومحطات تجارية على الساحل المقابل ، وقد تتابعت الهجرات نحو المنطقة التي كانت « عدولي » مركزاً لهـا ، فاتسعـت المنطقـة المستوطنـة إتساعاً متصلا ، وتولـت الطبيعـة نفسهـا دفـع المستوطنـين إلى الهضبـة المشتهاة ، وتبين النقوش العربية الجنوبية التي وجدت في منطقة أكسوم ، وإلى الشرق منها حيث يمر الطريق الممتد من عدولي ، سعة إنتشار النفوذ العربي في أثيوبيا قبل القرن السادس قبل الميلاد[5] .

وقد إستمرت الهجرات العربية إلى الحبشة حتى الفترة فيما بـين عامـي

---

(١) يحدد فضلو حوراني (المرجع السابق ص ٥٤) تاريخ هذا الكتاب بالفترة (٥٠ ـ ٦٠ م) ، بينما يرى موسكاتي (المرجع السابق ص ٣٧٨) أنه يرجع إلى عام ٧٥ م ، وأما « جاكلين بترين ، فالرأي عندهـا أنـه كتـب في عام ١٠٦م —
(J.Pirenne, le Royaume Sud-Arabe de Qataban et Sa dation, P.P. 167-193)

(٢) جواد علي ٣/ ٤٥٠ وكذا انظر *A.Grohmann, Arabien, P.25*

(٣) *Ibid, P.25* وأنظر كذلك آراء أخرى : حيث يتجه البعض إلى أن الاوسانيين كانـوا يسيطرون على المنطقة شمال « بمبا » و« زنجبار » ربما منذ ما قبل عام ٤٠٠ ق.م. ، وأن لهم نشاط تجاري مع السواحل الافريقية عن طريق ميناء « عدن » الذي كان يتبع « أوسان » وقت ذاك : جواد علي ٢/ ٥٠٢ وكذا *W.Schoff, The Periplus of the* Erythraean Sea, P.22 وكذا *Discoveries, P.39* وكذا انظر
H. Von *Wissmann und M.Hofner, op-cit, P.74*

(٤) جواد علي ٣/ ٤٥٠ وكذا انظر *Die Araber, I.P. 126*

(٥) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٣

٢٣٢ ، ٢٥٠ م[١] ، بل إن بعض الباحثين ليذهب إلى أن أصل الأحباش أنفسهم ، إنما كان من غرب اليمن ، معتمدين في ذلك على أن هناك جبلا في اليمن يدعى « حُبّيش » ، فضلا عن أن هناك قبيلة عربية تحمل إسم « حبشت » (الحبشات) ، قد يكون لإسم الجبل ، أو إسـم القبيلـة ، صلة بهؤلاء المهاجرين إلى أفريقية ، وأن القوم أنفسهم هم الذين أطلقوا إسم الجبل ـ وربما إسم القبيلة ـ على مواطنهم الجديدة ، ومن هنا جاء إسم « الحبشة » ، ومن نفس الكلمة أخذ الإفرنج لفظ«Abyssinia» [٢]

والأمر كذلك بالنسبة إلى « الجعـز » ، وهـم « Cesani الـذين رأى « بليني » أن مواطنهم إنما كانت على مقربة من « عدن » ، والذين يرى فيهم العلماء عرباً جنوبيين هاجروا إلى الحبشة ، وكونوا هناك مملكة ، ثم سرعان ما سادت لغتهم بين السكان الساميين في أثيوبيا ، ومن ثم فقـد عرفت لغة الحبش « بالجعزية »[٣] هذا وقد بلغ من سيادة تلك اللغـة هناك ، أن الانجيل حين ترجم في الحبشة خلال القرن الرابع الميلادي ، إنما ترجم من الإغريقية إلى الجعزية ، وحتى أصبحت لغة الجعـز لغـة التخاطب والكتابة ، ثم ظلت تلك اللغة مستعملة في الحبشة حتى القرن الثالث عشر الميلادي فغلبتها اللغة الأمهرية[٤] .

---

(١) *Die Araber, I,P.126*

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٩٥ وكذا جواد علي ٣/ ٤٤٣٩ ، وكذا انظر *C.Rossini, Expedition et Possessions des Habasat en Arabie, P.5*

(٣) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٩٥ ، وكذا *Die Araber, I,P.P.114,274*

(٤) ابراهيم طرخان : محاضرات في تاريخ الحبشة ، عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٩

على أن هناك من يرى عكس ذلك تماماً ، ويذهب إلى أن الساميين إنما جاءوا فيما قبل التاريخ إلى شبه الجزيرة العربية من أفريقية عبر مضيق باب المندب [١] ، ومن ثم فإنهم يثيرون الشكوك حول هذا الرأي السائد ـ الذي أشرنا إليه آنفاً ـ ويقولون إنه ليس هناك من دليل على صحته ، وأن الأمر كله يمكن أن يفسر على أن العرب الجنوبيين قد أثروا في شعب سامي كان مستقراً في أثيوبيا من قبل ، ورغم أن هذا الاحتمال لا يمكن رفضه دون مناقشة ، على أنه ليس من اليسير أن نرى من أين يمكن أن يجيء ذلك الشعب السامي[٢] ، فضلا عن أن هناك كثيراً من الأدلة على أن العرب إنما كانوا ذلك الشعب السامي الذي عناه هؤلاء العلماء ، وأن منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية ظلت طوال العصور التاريخية مصدراً لهذا الشعب السامي عن طريق الهجرات ، والتي ازدادت مرة أخرى ، فيما بين الألف الأول قبل الميلاد ، والنصف الأول من القرن الأول بعد الميلاد[٣] ، وبالتالي فقد إزداد التأثير العربي في الحبشة [٤] ، حتى ذهب البعض إلى أن مملكة أكسوم نفسها إنما أنشأها العرب الجنوبيون [٥] .

---

(١) *H.Fleisch, Introduction a l'etude des langues semitiques, Paris, 1947, P.25*

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤

(٣) *J.D. Clark, The Prehistoric Culture of the Horn of Africa, P.315*

(٤) أنظر عن هذه التأثيرات: موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٤ ، ٢٢٣ ، جواد علي ٣/ ٤٥٣ ، صلاح الشامي : الموانى السودانية ص ٥٠ ـ ٥٢ جورج فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٨٥ ، وكذا ١١٤ وكذا Die Araber, I, P. 114 *Causin de Perseval, op-cit, P.82* وكذا *A.H.M. Jones and E.Monroe, Histoire de l'Abyssinie, Paris, 1935* وكذا *Handbuch, I, P.34*

(٥) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٨٥ ، جواد علي ٣/ ٤٥١ وكذا ***Die Araber, I,P.114***

وعلى أي حال ، فعلى أيام « علهان نهفان »[1] ملك سبأ وذي ريدان ، كانت العربية الجنوبية تمر بفترة من الاضطرابات الداخلية ، إضطر بسببها « علهان » إلى عقد معاهدة مع « جدرة » ملك الحبشة ، والذي كان ـ فيما يرى فون فيسمان ـ يسيطر على ساحل البحر الأحمر الشرقي من ينبع إلى عسير ، فضلاً عن مضيق باب المندب[2] .

ونقرأ في النص المعروف بـ (Guekens I) أن الأحباش ـ وربما بإتفاق مع الردمانيين قد أغاروا على جيش « شعر أوتر » أثناء محاربته للحضرميين ، هذا فضلاً عن الإغارة على أرضين تابعة له ، وألحقوا بهما أضراراً بالغة[3] ، وكما جاء في نقش (جام ٦٣١) ، فإن « شعر أوتر » قد أوكل إلى قائده « قطبان أوكان » أمر الإنتقام من الأحباش ، وأن « قطبان » هذا قد نجح ـ بمساعدة قوات سبئية أخرى جاءت تعينه على مهمته هذه ـ في حصار الأحباش ، ثم مهاجمتهم على غرة ، ثم أعمل السيف فيهم ، حتى إضطرهم إلى ترك منطقة « ظفار » ، والاتجاه إلى المعاهر (معهرتن)[4] ، وان لم يستطع الرجل أن يسيطر على المناطق الغربية من اليمن ، والتي تطل على البحر الأحمر ، حيث بقيت تحت النفوذ الحبشي[5] .

---

(١) يرى فلبي أنه حكم حوالي عام ١٣٥ ق . م . ، ويرى البرت جام أنه حكم في الفترة (٨٥ ـ ٦٥ ق . م .) ، ويرى البرايت أنه حكم حوالي عام ٦٠ ق . م . ، وأما فون فيسمان فيرى انه كان حوالي عام ١٦٠م (انظر : Von Wissman and Hofner, op-cit, P.113 وكذا A.Jamme, op-cit, P.390 وكذا (J.Philby, op-cit, P.142

(٢) le Museon, 1964, 3-4, P.471

(٣) GRyckmans, Inscriptions Sud-Arabes, P.297F وكذا A.Jamme, op-cit, P.301

(٤) Ibid, P.132

(٥) le Museon, 1964, 3-4, P.475

على أن هناك ، من ناحية أخرى ، بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى أن الحميريين قد قاموا بحملات عسكرية في وادي النيل الأوسط ، وشمال أفريقية[1] ، وقد أشار « كوسان دي برسيفال » إلى حملة قادها « أبو مالك بن شمر يرعش » إلى معادن الزمرد في أرض البجة ، ومن المحتمل أن يكون الرجل قد لقي حتفه هو ومعظم جيشه حوالي منتصف القرن الأول الميلادي[2] .

وفي عهد دولة أكسوم يتغير ميزان القوى إلى جانب الأثيوبيين ، وضد العرب الجنوبيين ، بخاصة بعد إعتناق الملك « عيزانا » (أزانا) - والذي اعتلى العرش حوالي عام ٣٢٥ م - النصرانية ، وأيا ما كان السبب في اعتناق « عيزانا » النصرانية ، وسواء أكان ذلك عن إقتناع بالدين الجديد ، أو لمزيد من التقرب الى بيزنطة ، حامية المسيحية الكبرى في الشرق ، فإن اليمن قد وضعت بين قوتين مسيحيتين ، الحبشة من جهة ، والروم من جهة أخرى[3] .

وزاد تنصر أثيوبيا من حدة منافستها لليمن غير المسيحية ، وبدأت في تنفيذ خطتها القديمة لإحتلال اليمن ، تلك الخطة التي بدأت منذ حوالي القرن الأول قبل الميلاد ، كما نعرف ذلك من النقوش العربية القديمة ، مثل نقش (جام ٦٣١) بل إن نقش (جام ٦٣٥) ليحدثنا عن معارك دارت رحاها خلف مدينة « نجران » بين جيش «سقر أوتر» (٦٥ - ٥٥ ق.م.) وبين الأحباش ، وربما كان ذلك يشير إلى أن « نجران » إنما كانت في أيدي الأحباش في تلك الأونة[4] ، ونقرأ في نقوش (جام ٥٧٤ ،

(١) مصطفى مسعد: المرجع السابق ص ١٠٨
(٢) *Causin de Perseval, op-cit, P.82*
(٣) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢١٥ ، حسن ظاظا المرجع السابق ص ١٩٦ - ١٩٧
(٤) *A.Jamme, op-cit, P.P.132, 135-6, 303, 390*

٥٧٥، ٥٩٠، ٥٩٥) عن حرب نشبت بين « الشرح يحضب » وأخيه « يأزل بين » وبين الأحباش ، وأن الأخوين قد إنتصرا على الأحباش في « وادي سهام » و« وادي سردد » ـ على مبعدة ٤٠ كيلو متراً إلى الشمال من الحديدة ـ وفي غير ذلك من المناطق التي يوجد فيها الأحباش [١] ، ويسجل نقش (جام ٥٧٦) إنتصار « الشرح يحضب » على ملك كنده وحلفائه ، وكذا على قوات حبشية [٢]

ونقرأ في نقش (CIH 407) عن حرب شنها « شمر يهرعش » على قبائل تهامه في شمال غربي اليمن ، والتي شملت عسير وصبيه بين وادي بيش ووادي سهام ، وأن جيوش الملك الحميري قد إنتصرت على هذه القبائل براً ، ثم سرعان ما طاردتهم في البحر ، حيث أوقعت بهم خسائر فادحة ، وربما كان ذلك يشير إلى أن هؤلاء المهزومين ، إنما كانوا من الأحباش الذين كانوا يسيطرون على ساحل تهامه ، وأن المعركة إنما دارت في البحر الأحمر[٣] ، وأن شمر يهرعش قد إستعان بقبيلة « سردود » في قتاله ضدهم ، وربما كانت هذه المعارك سبباً في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شئون العربية الجنوبية[٤]

وعلى أي حال ، فلقد إستمرت محاولات الحبشة في احتلال اليمن[٥] ،

---

(١) D.S. Margoliouth, *Two South Arabian Inscriptions, P.5*

وكذا A. Jamme, op-cit, PP. 60, *64, 310-311, 316* وكذا انظر

H.Von Wissmann und M.Hofner, Beitrage Zur historischen Geographie des vorislamischen Sudarabien, P.P.18,38

(٢) A. Jamme, op-cit, PP. 88, *93, 96, 317-319*

(٣) *A.Jamme, op-cit, P.369* وكذا *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit, P.119*

(٤) عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص ٣٢ ـ ٣٣

(٥) *A.Gronmann, op-cit, P.29* وكذا *le Museon, 1964, 3-4 P.P.480,498*

وقد نجحت مرة ، وفشلت مرات ، وضمت إليها جزءاً كبيراً أو صغيراً طبقاً لظروف البلدين ، بدليل ذكر اليمن في ألقاب السيادة التي إتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم ، فالملك « عيزانا » مثلا كان لقبه « ملك أكسوم وحمير وزيدان وسبأ وسلحين »[1] ، بل ان هناك نقشاً لملك جاء قبل عيزانا يلقب فيه بملك الأكسوميين والحميريين[2] ،

وفي عام ٥١٥ م يجلس على عرش اليمن « ذو نواس » ، وهو « زرحة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب » ، والذي سمي « يوسف » بعد اعتناقه اليهودية ، هذا ويذهب بعض الأخباريين إلى أن السبب في تسميته « ذي نواس » أن كانت له ذوأبتان تنوسان على عاتقه ، وبهما سمي ذي نواس[3] ، وعلى أي حال ، فهو الملك الذي احتل الأحباش اليمن في عهده ، وبقوا فيها نصف قرن من الزمان ، وإن كانت هذه ليست هي المرة الأولى التي يغزو الأحباش فيها اليمن ، كما رأينا من قبل ، وإن كان الجديد هنا أن الغزو قد إتخذ من الدفاع عن المسيحية والمسيحيين سبباً .

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن المسيحية بدأت تأخذ طريقها نحو اليمن منذ القرن الرابع الميلادي ، وأن ذلك إنما تمّ على يد « ثيوفيلس » الذي نجح في حوالي عام ٣٥٤ م من نشر الديانة الجديدة بين العرب الجنوبيين ، ثم سرعان ما أنشأ كنيسة في « ظفار » ، كان لها الأسبقية على غيرها ، ومن ثم فقد أصبح رئيس أساقفتها بمثابة المشرف على كنائس بلاد العرب الجنوبية[4] .

---

(١) *le Museon, 1964-3-4, P.448*

(٢) عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص ٣٤

(٣) إبن الاثير ١/ ٤٢٥ ، مروج الذهب ٢/ ٥٢ تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٩ ، المعارف لابن قتيبه ص ٣١١ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٣٠٠ ، تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٣ كتاب المحبر ص ٣٦٨

(٤) انظر: *A.Grohmann, Arabiean, P.29* وكذا *P.K.Hitti, op-cit, P.61*

وكانت اليهودية ـ كما جاء في القرآن الكريم[1] ـ قد بدأت تأخذ طريقها إلى مملكة سبأ منذ القرن العاشر قبل الميلاد ـ وعلى أيام سليمان (٩٦٠ ـ ٩٢٢ ق. م.) ـ وذلك طبقاً لما جاء في القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ في ختام قصتها مع النبي الكريم[2] ، حيث يقول سبحانه وتعالى « قالت رب إني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين » [3] .

وفي القرن السادس قبل الميلاد ، وبعد إستيلاء « نبوخذ نصر » على بيت المقدس وتدمير الهيكل في عام ٥٨٦ ق. م. [4] ، بدأت أعداد من يهود تتجه نحو اليمن ، ثم جاءت أعداد أخرى ، ربما أكثر من الأولى ، بعد تدمير أورشليم على يد « تيتوس » الروماني في عام ٧٠ م ، ثم على يد الامبراطور « هدريان » (١١٧ ـ ١٣٨ م) ، حيث مرّ اليهود واليهودية بأقسى المحن وأشدها ، وحيث تم القضاء على اليهود ككيان سياسي في فلسطين ، ثم تغيير إسم المدينة المقدسة (القدس) إلى « إيليا كابتيولينا » ، وتحويل المعبد اليهودي إلى معبد لإله الرومان « جوبيتر » ، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء ، وضاع اليهود في غياهب التاريخ ، وسرعان ما فرّ ـ من أسعده الحظ فنجا من القتل أو الأسر ـ إلى مكان يحتمي به من غضبة الرومان القاسية ، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصل الى يثرب وإلى اليمن[5] ، ومن ثم فهناك من يرى أننا لو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في بلاد العرب لرأينا ان كثيراً منهم أراميون

(١) سورة النمل: آية ٢٠ ـ ٤٤

(٢) راجع قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام في مقالنا «العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة»

(٣) سورة النمل: آية ٤٤

(٤) أنظر كتابنا «إسرائيل» ص ٥٢٩ ـ ٥٣٥، وكذا أستار: الملوك الثاني وأرميا: وكذا *M.Noth, op-cit, P.P.286-88* وكذا *A.Malamat, op-cit, P.225F 5F* وكذا *W.Keller, op-cit, P.P.400-403*

(٥) *Josephus, The Jewish War, II, 18,1,3-4*

وعرب متهودون[1] ، اعتنقوا اليهودية بتأثير من اليهود أنفسهم .

وعلى أي حال ، وسواء أكان إنتشار اليهودية في اليمن يرجع إلى تلك الفترة المبكرة ، أو الى عهد « أب كرب أسعد » (٤٠٠ ـ ٤١٥ م)[2] ، حيث يروي الأخباريون في قصة طويلة أن الرجل قد تهود ، بل وفرض اليهودية على الحميرين كذلك[3] ، أو منذ تهود « ذي نواس » ، سواء أكان تهوده هذا رغبة منه في أن يقاوم ديناً سماوياً بدين سماوي آخر ، ومن ثم فهو يمثل الروح القومية في اليمن ، حين رأى في النصارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الأحباش المسيحيين البغيض[4] ، أو لأنه كان في الأصل ـ طبقاً لرواية إبن العبري ـ من أهل الحيرة ، وأن أمه يهودية من « نصيبين » وقعت في الأسر ، فتزوجها أبوه ، فأولده منها ، ومن ثم فهو يهودي وفد على اليمن من الحيرة[5] ، أو لأنه حين أعتنق اليهودية كان آمناً على نفسه وعلى دولته من أن يتسلط عليه أو عليها دولة ذات نفوذ واسع ، وسلطان كبير ، إذ لم يكن لليهودية في ذلك الوقت دولة سياسية ، في حين أن النصرانية إنما كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح

---

(١) P.K.Hitti, op-cit, P.61

(٢) هناك من يحدد له كذلك الفترة (٣٨٥ ـ ٤٢٠ م) ومن يحدد له الفترة (٣٧٨ ـ ٤١٥ م) ، ومن يرى أن حكمه إستمر إلى عام ٤٣٠ م (أنظر : جواد علي ٢/ ٥٧١ ، فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٨ وكذا D.Nielsen, op-cit, P.104 وكذا (J.B.Philby, note on the last kings of Saba, P 269, The Background of Islam, P.P.116,145

(٣) إبن كثير ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٧ ، تفسير إبن كثير ٤/ ١٤٢ ، الأزرقي ١/ ١٣٢ ـ ١٣٤ ، تفسير الطبري ٢٥/ ١٢٨ ـ ١٢٩ ، تفسير الخازن ٤/ ١١٥ ، ١٧٥ ، تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧ ، بلوغ الأرب ٢/ ١٧٠ ، ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، مروج الذهب ١/ ٨٢ ، اليعقوبي ١/ ١٩٧ ـ ١٩٨ ، العقد الثمين ١/ ٧١ ، إبن خلدون ٢/ ٥٢ ، قارن : المعارف ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦

(٤) P.K.Hitti, op-cit, P.62

(٥) جواد علي ٢/ ٥٩٣ ، قارن : الإكليل ٢/ ٦٣

اليمن[1] ، فكل تلك أمور ليس مجال مناقشتها هنا ، لأن الذي يهمنا الآن أن الفرقة الداخلية التي ترجع في الدرجة الأولى إلى التنافس بين اليهودية والمسيحية في اليمن العربية ، إنما بدأت تدفع بالبلاد إلى طريق الإضمحلال والتفكك أول الأمر[2] ، ثم إلى وقوعها تحت السيادة الحبشية ثم الفارسية في آخر الأمر .

على أن ظروف بلاد اليمن الداخلية ، إنما لعبت دوراً خطيراً في التمهيد للفتح الأثيوبي للبلاد ، ذلك لأننا نقرأ في نقش (فلبي ٢٢٨) عن حرب داخلية استعر أوارها قبيل الغزو الحبشي لليمن ، وربما في عام ٥١٦ م ، وعلى أيام الملك «معد يكرب يعفر» ، واشتركت فيها قبائل سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة[3] ، ومن ثم فقد مهدت هذه الفتنة الطريق للأحباش ليحتلوا اليمن في سهولة ، وذلك بسبب الخصومات القبلية القديمة بين القبائل العربية ، وبسبب ظهور الروح القبلية التي لا تعرف طريقاً للتعاون القومي ، إلا إذا كان من أجل القبيلة وفي مصلحتها ، دونما أي إهتمام بما يجره ذلك على الكيان القومي من نكبات قد تودي باستقلال البلاد وخضوعها للأجنبي .

ونقرأ في نصي (ريكمانز ٥٠٧ ، ٥٠٨) [4] ، ويرجعان إلى عام ٥١٨ م ، عن إشارات عن حرب دارت رحاها بين الأحباش وملك حميري دعوه « يسف أسأر » (يوسف أسأر) ، ولعل عدم الإشارة هنا إلى اللقب الملكي الطويل ، ربما يعني أن سلطان ذلك الملك (ذي نواس) لم يكن

---

(١) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٣٦

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٣

(٣) جواد علي ٢/ ٥٩١ وكذا G.J. Vol. CXVI, 4-6, 1950, P. 214

(٤) أنظر : جواد علي ٢/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ، وكذا *le Museon, 1953,3-4, P.284F* وكذا BSOAS, Vol. XVI, Part: 3, 1954, P. 434 وكذا Ryckmans, 507, 508

يمتد إلى كل بلاد العرب الجنوبية ، وانما كان مقصوراً على أجزاء منها ، وأن الأحباش إنما كانوا يشاركونه هذا السلطان ، فـ « ظفار » ومجاوراتها إنما كانت في أيدي الأحباش ، كما كان الأقيال قد كونوا حكومات إقطاعية في إماراتهم ، بل وكانوا يثيرون الفتن والقلاقل في أنحاء البلاد ، وقد أشرنا من قبل إلى حرب أهلية إستعر أوارها حوالي عام ٥١٦م ، واشتركت مجموعة من القبائل ، وهكذا كانت تلك الظروف الداخلية سبباً في ضعف البلاد وجعلها آخر الأمر لقمة سائغة في أيدي المستعمرين الأحباش[1] .

هذا ويشير نص (ريكمانز ٥٠٨) إلى حرب وقعت بين الملك يوسف أسأر من ناحية ، وبين الأحباش ، ومن كان يؤ يدهم من اقيال اليمن ، من ناحية أخرى ، وأن الملك الحميري قد هاجم « ظفار » و« مخا » ، واستولى على كنائسهما ، وإن كان أشد القتال ، إنما كان بينه وبين قبيلة الأشاعر ، حيث قتل منهم ثلاثة عشر ألف قتيل ، وأسر تسعة آلاف وخمسمائة أسير ، كما استولى على ٢٨٠ ألف رأس من الابل والبقر والغنم ، ثم إتجه بعد ذلك إلى « نجران » حيث أنزل بالأحباش ، ومن سار في ركابهم ، خسائر فادحة[2] .

ولعل كل هذا يشير إلى عدة أمور ، منها (أولا) أن الوضع في اليمن في تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد ، إنما كان جد قلق ، ومنها (ثانياً) أن الأحباش إنما كانوا يسيطرون على جزء غير قليل من البلاد ، وأنهم إتخذوا من العاصمة الحميرية (ظفار) مقراً لهم ، ومنها (ثالثاً) أن هناك كثيراً من أمراء اليمن ، إنما كانوا أعواناً للمستعمر الجديد ، يساعدونه في

---

(١) جواد علي ٢/ ٥٩٥

(٢) *le Museon, 1953, 3 4, P.296*, وكذا *BSOAS, XVI, Part, 3, 1954, P.434*

القضاء على السلطة الوطنية في البلاد ، ويحاربون برجالهم ضد الملك الشرعي للبلاد ، ومن كان إلى جانبه من أبناء الوطن الاحرار ، وكانت النتيجة أن إستولى الأحباش على اليمن ، وجعلوها مستعمرة حبشية ، يتحكمون فيها ويستغلون مواردها الاقتصادية لمصلحة بلادهم ، وبدهي أن الخونة من أمراء اليمن لم ينالوا من ساداتهم الجدد ، إلا الفتات ، وإلا العار يسجله التاريخ عليهم أبد الدهر ، شأن الخونة في كل مكان وفي كل زمان .

هذا ويقدم المؤرخون عدة أسباب لغزو الحبشة لليمن ، منها (أولا) الرغبة في السيطرة على اليمن ، وذلك لضمان توزيع السلع الحبشية ، دون أن تتعرض لاعتداءات الحميريين[1] ، ومنها (ثانياً) ما يذهب إليه البعض من أن عداوة الحبشة للعرب قديمة العهد ، نشأت منذ أن كان عرب اليمن يخطفون الأحباش من سواحل الحبشة ، ويبيعونهم أرقاء في شبه جزيرة العرب ، حيث وجد الحبش في الحجاز[2] ، ومنها (ثالثاً) أن بلاد العرب الجنوبية كانت تقوم في ذلك الوقت بنفس الدور الذي تقوم به مصر الآن ، حيث أصبحت منذ شق قناة السويس تهيمن على شريان من أهم شرايين الملاحة الدولية ، والأمر كذلك بالنسبة إلى بلاد العرب الجنوبية ، نظراً لمركزها الهام على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وحيث يوجد مضيق باب المندب ، وفي تلك الأيام كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية حريصة على إنتزاع تلك المكانة وإعطائها لمصر ، ومختلف الولايات الرومانية الشرقية الأخرى التي تستطيع الإفادة من مركزها

(١) مراد كامل: مقدمة لكتاب سيرة الحبشة، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦١، عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ١٨٢

(٢) يوسف احمد: الإسلام في الحبشة، القاهرة ١٩٣٥ ص ٦ - ٧، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٧٤

الجغرافي ، وبخاصة فإن المسيحية كانت قد إستقرت في كثير من هذه الولايات الرومانية الشرقية ، حتى اضطر الإمبراطور قسطنطين في عام ٣١١ م ، إلى السماح بانتشار المسيحية في بلاده[1] ، وهنا بدأ الرومان يفكرون في إستغلال الدين لضم بلاد العرب الجنوبية إلى إمبراطوريتهم ، فعمدوا إلى ارسال البعثات التبشيرية لتلك البلاد ، لنشر للمسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ، ولتهيئة الأفكار والنفوس لقبول النفوذ الروماني من جهة أخرى[2] .

لقد كان العالم وقت ذاك - كما هو الآن - منقسما إلى جبهتين شرقية وغربية ، أو الفرس والروم ، ولكل أتباع من الدويلات الصغيرة ورؤساء القبائل ، وفي هذه الظروف عمل الروم على الهيمنة على بلاد العرب ، أو ابعادها عن النفوذ الفارسي على الأقل ، وعمل الفرس من ناحية أخرى على تحطيم كل جبهة عربية تعمل لمصلحة الروم ، فضلا عن منع السفن الرومية من الدخول إلى المحيط الهندي ، والاتجار مع بلاد العرب ، ولجأ الروم إلى الدين كوسيلة لبسط نفوذهم على شبه الجزيرة العربية ، فأرسلوا المبشرين لنشر المسيحية بين القوم ، وطلبوا من الأحباش مساعدتهم في أداء مهمتهم هذه - الدينية في الظاهرة ، السياسية أو قل الإستعمارية في الواقع ، وأتخذ الفرس من النصرانية - المخالفة في المذهب لنصرانية الروم - وكذا اليهودية ، وسيلتهم لمعارضة نفوذ الروم والأحباش ، وهكذا يبدو واضحاً أن الروم - وكذا الفرس - لم يقصدوا وجه الله من نشر المسيحية أو اليهودية ، وإنما كانت الأغراض السياسية والمطامع الإستعمارية هي الهدف أولا وأخيراً ، ولعل مما يؤيد وجهة النظ هذه ، أن أبرهة الحبشي لم يقتصر على القضاء على ذي نواس واحت...

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠١
(٢) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٣٦

اليمن ، وإنما بسط نفوذه على وسط بلاد العرب كذلك ، حيث نقـرأ في نص (ريكمانز ٥٠٦) - والذي يرجع تاريخه إلى عام ٥٣٥ أو ٥٤٧ م[١] - عن حرب أشعلها أبرهة ضد قبائل معد ، بل وعن العلاقات بينه وبين ملوك الحيرة ، أتباع الفرس ، كما سوف نرى فيما بعد .

وهكذا يبدو واضحاً أن تعذيب ذي نواس لنصارى نجران لم يكن هو السبب الحقيقي للغزو الحبشي ، ودليلنا على ذلك - غير ما قدمنا من أدلة - أن المصادر الاغريقية ، وكذا الحبشية نفسها ، إنما تذهب إلى أن الأحباش قد أغاروا على اليمن ، قبل قصة التعذيب هذه بسنين ، وأنهم قد إنتصروا على ذي نواس ! واضطروه إلى الإلتجاء إلى الجبال ، إلا أنه إستطاع بعد فترة أن ينجح في لمّ شمـل جنـده ، وأن يهاجـم الأحبـاش ، وينتصر عليهم ، وأن يغزو نجران ويتمكن من الإستيلاء عليها ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، ثم ينتقم من أهلها شر انتقام[٢] .

وهكذا إتفقت مصالح الأحباش والرومان في السيطرة على بلاد العرب الجنوبية ، وكانت سياسة ذي نواس التي تربط بـين انتشـار المسيحية في اليمن ، وبين ازدياد نفوذ الأحباش السياسي في البلاد ، سبباً في أن يتخذ من نصارى اليمن موقفاً عدائياً ، وكانت هذه هي الفرصة التي وجدها الرومان للقضاء على إستقلال اليمن ، ولكن دون التدخل المباشر ، وإنما بتحريض الأحباش على غزوها ، ولعل الامبراطور « جستين » (٥١٨ - ٥٢٧ م) قد إتخذ هذه الخطوة ، ربما نتيجة لأطماع الفرس التي إزدادت في شبه الجزيرة العربية ، بحيث أنهم إستقروا في ساحل الخليج العربي ،

---

(١) *A.F.L. Beeston, Notes on the Muraighan Inscriptions, in BSOASK, 1954, P.389*
وكذا *le Museon, 66, 1953, P.275* وكذا
S.Smith, Events in Arabia in the 6th Century A.D., P.435

(٢) *J.B. Bury, op-cit, 2, .P.323*

مثل البحرين [1] .

وهناك رواية تذهب إلى أن السبب المباشر لغزو الحبشة لليمن ، إنما كان لأن الملك الحميري « دميون Dimion » (دميانوس Dimianos) ، كان قد أمر بقتل التجار الروم الذين هم في بلاده ، وبنهب أموالهم ، وذلك بسبب إضطهاد اليهود وإساءة معاملتهم في بلاد الروم ، مما أدى إلى أن يتجنب تجار الروم الذهاب إلى الحبشة أو اليمن - أو حتى المناطق القريبة من حمير - ومن هنا رأى البعض أن بعثة «ثيوفيلوس» التبشرية ، إنما كانت للعمل على ضمان حسن نية الأمراء اليمنيين إزاء التجار الروم ، غير أن تلك البعثة قد فشلت في تحقيق أهدافها بسبب نفوذ الفرس في اليمن وقت ذاك ، وقد أثر ذلك في التجارة مع الحبشة تأثيراً سيئاً ، وهنا إضطر النجاشي إلى أن يقدم عروضاً رفضها الملك الحميري ، مما كان سبباً في نشوب حرب بينهما ، وتزعم الرواية أن النجاشي كان حتى تلك اللحظة ما يزال على وثنيته ، ومن ثم فقد عُرض عليه أن يعتنق المسيحية - إن كتب له النجح على الحميريين - وحين إنتهت الحرب في صالحه ، إعتنق النصرانية وأرسل إلى قيصر يطلب منه إرسال عدد من رجال الدين ، ليعلموه العقيدة الجديدة ، وقد تمّ له ما أراد [2] .

وأيا ما كان الأمر ، فلقد نجح الأحباش في القضاء على ذي نواس واحتلال اليمن ، ولكنهم على ما يبدو لم يحكموها حكماً مباشراً ، وإنما

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٧٨ ، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٧٤ ، وكذا
I.Kammerer, la Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, le Caire, 1929

(٢) جواد علي ٣/٤٦٨ - ٤٦٩ ، عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٥ - ٤٦ وكذا .
J.B.Bury, op-cit, 2, P.322 وكذا *Noldeke, Tabari, P.188* وكذا *ZDMG, VII,P.357*
وكذا انظر *E.Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895, P.176*
R.Bell, The Origin of Islam in its Christian environment, London, 1926 P.33F

اختاروا واحداً من الأقيال الذين عاونوهم على نجاح مهمتهم الإستعمارية هذه ، وكان هذا الرجل هو « السميفع أشوع » والذي سبق أن أشرنا إلى أنه كان في جانب ذي نواس على غير رغبة منه ، وأنه قد تحصن بعد الهزيمة في حصن ماوية ، ثم هادن السادة الجدد ، ومن ثم فقد عينه الأحباش ملكاً على حمير ، على أن يدفع لهم جزية سنوية .

وهناك نص من متحف « استنبول » ، نشره العالم البلجيكي « ج - ريكمانز » ، يفهم منه أن السميفع أشوع كان ملكاً على سبأ ، وكان يدين بالنصرانية ، بدليل أن النص جاء فيه « باسم رحمنن وبنهو كرشتش غلبن » ، وترجمته « باسم الرحمن وابنه المسيح الغالب »[1] ، ولعل هذا النص يعضد ما ذهب إليه « بركوبيوس » من أن الذي حكم حمير بعد ذي نواس ، إنما هو « Esimiphaeus » (سام يفع أشوع = السميفع أشوع)[2] ، على أنه لم يكن في الواقع إلا تابعاً لملك الحبشة ، وأنه - كما يفهم من النص المعروف -(CIH , 621) - قد بدأ حكمه في عام ٥٢٥ م[3]

وما أن تمضي ستون سنة ، (أي في عام ٥٣١ م) ، حتى تبدأ البقية الباقية من جنود الحبشة الثورة على « المسيفع أشوع » ، ثم محاصرته في إحدى القلاع ، وتعيين « إبراهام » - وهو عبد نصراني كان مملوكاً لتاجر

---

(١) *D.Nielsen, op-cit, P.105, Note.4* وكذا *le Museon, 1950, 3-4, P.272, 1964, 3-4, P.P.165-7*
وكذا انظر *C.ContiRossini, Storia D'Etiopia, I, P.180*

(٢) جواد علي ٣/ ٤٧٢ وكذا *Procopius, I, XX, 1-2*

(٣) *G.Hunt, Himyaric Inscriptions of Hisn Ghurab, 1848* وكذا *ZDMG, 39, 1885, P.230*
Von Maltzen, Reise Nach Sudarabien, P.225 وكذا انظر *J.R. Wellsted, op-cit, P.21*
وكذا جواد علي ٣/ ٤٧٥ - ٤٧٦

يوناني في مدينة عدو لي ـ في مكانه ، وقد حاول النجاشي أن يعيد الأمور إلى نصابها ، إلا أن هزيمة قواته التي أرسلها مرة بعد أخرى ، جعلته يتقبل الوضع على علاته ، وما أن تنته حياته في هذه الدنيا حتى يسرع ابراهام إلى عقد صلح مع خليفته ، يدفع له بمقتضاه جزية سنوية ، في مقابل أن يعترف النجاشي الجديد به نائباً للملك في اليمن[1] ، وهكذا يصبح ابراهام ، أو أبرهه ، حاكماً على اليمن ، وإن اعترف إسميا بأنه « عزلي ملكن أجعزين » أي « نائب ملك الأجاعزة » على اليمن .

(١) أنظر *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit,P.P.92,120*
J.B.Bury, op-cit, P.324

الفصل الحادي عشر

قصة أصحاب الفيل

(١) توطيد النفوذ الحبشي في اليمن

نجح الأحباش - كما اشرنا من قبل - في الاستيلاء على اليمن ، ثم سرعان ما بدأ أبرهة في توطيد سلطانه في هذه الأرض العربية ، وكان أول ما فعله في سبيل ذلك أن قاد ثورة أطاحت «بالسميفع أشوع»، وأتت به في مكانه على رأس السلطة في اليمن[١] ، ثم دخل في منافسة شديدة مع أرياط على هذه السلطة، أنتهت بعد جولة حاسمة ، لعبت فيها الخيانة دورا كبيرا[٢] ، ومن ثم فقد أصبح سيد الموقف في اليمن العربية ، رغم أنه كان ما يزال يحمل لقب «نائب ملك الأجاعزة في اليمن» ، وليس ادل على ذلك من أن ملك الحبشة نفسه ، إنما كان يطلق عليه في نصي (جلازر ٦١٨) و (CIH 541) «ملك الجعز» ، بينما يطلق أبرهة على نفسه في نفس النص لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال والتهائم» ، وهو ما يزال بعد - من الناحية الإسمية على الأقل - «نائب ملك الجعز»[٣] .

ورغم أن النصوص تحدثنا عن ثورة قام بها «يزيد بن كبشة»، والذي عينه أبرهة نائبا عنه في قبيلة كندة، سرعان ما ينضم إليها «السميفع

---

(١) *J.B.Bury, op-cit, P.324* وكذا *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-citP.P92,120*

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٢٧ - ١٣٠ ، إبن الأثير ١/ ٤٣١ - ٤٣٣ ،و إبن كثير ٢/ ١٦٩ ، تاريخ إبن خلدون ٢/ ٦٠ - ٦١ ، اليعقوبي ١/ ٢٠٠ تاريخ الخميس ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، المقدسي ٣/ ١٨٥ ، الأخبار الطوال ص ٦٢ ، تفسير القرطبي ٢٠/ ١٩٣ - ١٩٤ ، الازرقي ١/ ١٣٦ - ١٣٧ تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣ ، جواد علي ٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ ° وكذا *Procopius, History of the Wars, I,P.191*

(٣) جواد علي ٣/ ٤٨٤ وكذا انظر *E.Glaser, Zwei Inschriftten uber den Dammbruch von Marib, II,P.421*

أشوع» و«معد يكرب»، وبعض الزعماء اليمنيين ، ورغم أن الثورة سرعان ما امتدت إلى جضرموت وحريب وذو جدن وحياب عند صرواح ، فإن أبرهة ـ بمساعدة قبائل يمنية قوية أخرى ـ قد نجح في القضاء على الثورة ، وأن يبطش بقادتها ، وأن يقضي على الثائرين على سلطانه من أبناء القبائل[1] .

وهكذا تستقر الأمور لأبرهة في اليمن ، ويبدأ في مد نفوذه على قبائل في وسط الجزيرة العربية ، ونقرأ في نقش (ريكمانز ٥٠٦)[2] ، عن حرب أشعلها أبرهة ضد قبيلة معد ، وعن العلاقات بين أمراء الحيرة وبين حكام اليمن من الأحباش، وعن نفوذ هؤلاء الأحباش على قبائل مثل معد ، ولعل هذا يؤيد ما ذهب إليه الكتاب العرب من أن لليمن نفوذ على قبائل معد ، وأن تبابعة اليمن كانوا ينصبون الملوك والحكام على هذه القبائل[3] .

ويحدثنا أبرهة في نصه هذا على هذه الحرب التي شنها على معد عند «حلبان» ، وعن أوامره التي أصدرها إلى رؤساء قبائل كندة وعل وسعد بالقضاء على ثورة بني عامر ، هذا ويشير النص بعد ذلك إلى أن أبرهة قد إنتصر على قبيلة معد ، ثم أخذ منها الرهائن ، إتقاء لثورة أخرى قد تقوم بها في مستقبل الأيام ، فضلا عن قبوله بأن يبقى «عمرو بن المنذر» ، الذي عينه أبوه المنذر أميرا على معد ، في مكانه[4] .

---

(١) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ٣٠٣ وكذا *H.Von Wissmann and M.Hofner, op-cit, P.121*

(٢) *le Museon, 66, P.275* وكذا *S.Smith, op-cit, P.435* وكذا *E.F.L.Beeston, op-cit, P.389*

(٣) جواد علي ٣/ ٣٣٣ ـ ٤٩٤

(٤) جواد علي ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦ وكذا le Museon. 1953, 3-4. PP. 277-279

هذا، وقد ذهب بعض الباحثين مذاهب شتى في تفسيرهم لهذا النص، فمنهم من رأى أن النص إنما يشير إلى حملة أبرهة على مكة المكرمة في العام المعروف بعام الفيل[1]، وذهب آخرون إلى أنه إنما يشير إلى غزو قام به أبرهة تمهيدا لحملة كبيرة كان ينوي القيام بها إلى أعالي شبه الجزيرة العربية، غير أنه توقف عند مكة[2]، هذا في الوقت الذي يرفض فيه فريق ثالث أن يربط بين هذه الحملة، وحملة عام الفيل على مكة، إذ يرون أن هذه الحملة قد تمت في عام ٥٤٧ م، بينما كانت الاخرى في عام ٥٦٣م[3]، هذا وهناك فريق رابع يتجه إلى أن النص إنما يتحدث عن معركتين، الواحدة قادها أبرهة في «حلبان»، والثانية قامت بها مجموعة قبائل في «تربة» في بلاد بني عامر[4]، وربما على مبعدة ثمانين ميلا إلى الجنوب الشرقي من الطائف[5].

(٢) بناء القليس

إستقرت الأمور لأبرهة في اليمن بعد القضاء على الثورات التي هبت ضده، وبعد أن بسط نفوذه على قبائل معد، وبعد أن نجح في إيجاد علاقات من نوع ما مع أمراء الحيرة، وبعد أن انتهى من ترميم سد مأرب، ومن ثم فقد عمد إلى نشر المسيحية ومحاربة الأديان الأخرى في

---

(١) جواد علي ٣/ ٤٩٥ وكذا *le Museon, 1965, 3-4, P.426* وكذا انظر *F.Altheim and R.Stiehl, Araber und Sasaniden, Berlin, 1954, P.P.200-207* .F.Althiem

(٢) *le Museon, 1965, 3-4, P.426* وكذا. انظر *W.Caskel, Entdeckungen in Arabien P.30*

(٣) *le Museon, 1953, 3-4, P.P.277-279*

(٤) *BSOAS, 1954, P.391* وكذا *le Museon, 1965, 3-4, P.426* وكذا جواد علي ٣/ ٤٩٥ - ٤٩٦

(٥) البكري ١/ ٣٠٨

شبه الجزيرة العربية، فقوي ساعد مسيحي بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ من «نجران» مركزا رئيسيا لحملته الدينية ، فنجد جماعة مسيحية في صحراء اليمامة ، في منتصف الطريق بين اليمن والحيرة ، فضلا عن جماعة أخرى في يثرب ، وعلى إمتداد الطريق التجاري إلى فلسطين وسورية[1] ، وتبع ذلك بناء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن ، لعل أهمها مأرب ونجران وصنعاء، وفي هذه الأخيرة بنى أبرهة كنيسته المشهورة «القليس» ، بغية أن يصرف الحجيج عن مكة إلى صنعاء، فسيفيد من ذلك فوائد مادية وأدبية وسياسية ، وبالتالي فقد كان ذلك سببا في حملته المشهورة على مكة .

ويبالغ الأخباريون كثيرا في وصف كنيسة القليس هذه ، حتى أنهم يرون أن أبرهة لما أتمّ بناءها كتب إلى النجاشي يقول «إني قد بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبن العرب ولا العجم مثله» ، أو «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب[2]» .

ويروي الأخباريون أن القليس إنما بنيت بجوار قصر غمدان ، وبحجارة من قصر بلقيس في مأرب ، وأن أبرهة قد كتب إلى قيصر الروم يطلب منه الرخام والفسيفساء ومهرة الصناع ، وأنه قد أستعمل في بنائها طبقات من حجر ذي ألوان مختلفة ، لها بريق وأنه نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر ، وطعموا بابها بالذهب واللؤلؤ ، ورشوا حوائطها بالمسك ، وأقاموا فيها صلبانا منقوشة بالذهب والفضة والفسيفساء ، وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق

(١) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ٣٠٤

(٢) الازرقي ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩ ، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠ ، تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٧ ، تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٢٣ ، إبن كثير ١/ ١٧٠ ، إبن هشام ١/ ٤٣ ، تفسير إبن كثير ٤/ ٥٤٨

مربعة ، عشر أذرع في عشر ، تغشي عين من ينظر إليها من بطن القبة ، تؤدي ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة وكان تحت القبة منبر من شجر اللبخ ـ وهو عندهم الأبنوس ـ مفصد بالعاج الأبيض ، ودرج المنبر من خشب الساج ملبسه ذهباً وفضة ، وكان في القبة سلاسل من فضة [1] .

وفي الواقع فإنه رغم ما في وصف الأخباريين للقليس من مبالغات ، فإن القصر كان حقا ، عصر بناء الكنائس الضخمة التي أنشئت في العالم المسيحي ، وأهمها كنيسة «أيا صوفيا» في القسطنطينية ، وكنيسة «المهد» في بيت لحم ، اللتان تعودان إلى عهد الأمبراطور «جستنيان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، والتي تأثرت جميعها بالفن البيزنطي، وإن جمعت كنيسة «القليس» بين الفن العربي القديم ، والفن البيزنطي النصراني في بناء الكنائس .

هذا وقد لجأ أبرهة في بناء القليس إلى السخرة ، فضلا عن القسوة الشديدة ، التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل ، إن تهاون أو تكاسل في عمله ، ويروي «ياقوت الحموي» أن أبرهة قد استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعا مختلفة من السخرة ، وكان ينقل إلى كنيسته هذه آلات البناء كالرخام أو الحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم ، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها[2] .

---

(١) إبن الأثير ١/ ٤٤٢، الازرقي ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، النويري ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، على الجارم أديان العرب ص ٣٥، إبن سعد ١/ ٥٥ وكذا *H.Scott, in the High Yemen London, 1947, P.212*

(٢) ياقوت ٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦، روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣

(٣) حملة الفيل في الروايات العربية

كان إحتلال أثيوبيا لليمن مرحلة من مراحل الصراع بين الفرس والروم ، والذي كان يحتدم حينا بعد حين ، ثم كانت حملة أبرهة على الحجاز مرحلة أخرى من هذا الصراع ، أراد أبرهة أن يشارك بها - إلى جانب الروم - في الصراع القائم وقت ذاك بينهم وبين الفرس ، وليحقق بها ، في الوقت نفسه ، حلم الاسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.)[١] وأغسطس (٣١ ق.م. - ١٤ م)[٢] وغيرهما من أباطرة اليونان والرومان ، ممن حاولوا السيطرة على بلاد العرب ، ذلك الجزء الخطير من العالم ، وليصل دولته بدولة حلفائه الروم ، الأمر الذي لم يكف الروم عن التفكير فيه أبدا ، حتى أنهم حاولوا - بعد فشل حملة أبرهة على مكة - تنصيب «عثمان بن الحويرث» ملكا على المدينة المقدسة ، من قبل قيصر[٣] .

على ان الغريب من الأمر ، أن المؤرخين الإسلاميين ، إنما يحاولون تفسير الأمور ببساطة تدعو إلى العجب ، ومن ثم فقد ذهب فريق منهم

---

(١) انظر عن أحلام الاسكندر في بلاد العرب: جواد علي ٢/ ٥ - ١٢ ، و. تارن: الاسكندر الأكبر ص ١٨٥ - ١٨٦ ، فضلو حوراني: المرجع السابق ص ٥٥ وكذا W.W.Tarn in JEA, 15, 1929, P.13 وكذا A Wilson, The Persian Gulf, P.P.40, 43

(٢) عن المطامع الرومانية في بلاد العرب: انظر: جواد علي ٢/ ٤٣ - ٤ ، وكذا De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, P.P. 74-78 Pliny, II, P.P.415,6,101 وكذا Strabo, XVI, IV, 23-24 وكذا انظر H.Von Wissman, and M.Hofner, op-cit, P.P.31-34 وكذا JEA, 15, P.17 وكذا J.Pirenne, op-cit, P.P.93-124 وكذا EI, 3, P.801 وكذا ERE, 9, P.121 وكذا Edward Gibban, op-cit, P.214 وكذا J.B. Philby, op-cit, P.P.32, 101

(٣) إبن هشام ١/ ٢٢٤ ، إبن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٩٠ ، الروض الانف ١/ ١٤٦ ، الأغاني ٣/ ١١٢ ، حياة محمد ص ١٢٧ - ١٢٨ ، جلس العقاد: المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥ ، السهيلي ١/ ١٤٦ ، احمد ابراهيم الشريف: المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ ، وكذا W.M.Watt, Muhammad at Mecca, 1953, P.16

إلى أن رجلا قد أتى «القليس»، حين علم أن أبرهة قد عقد العزم على أن يصرف اليها حج العرب ، فتغوط فيها ، ثم لحق بأهله من «فقيم» ، وأن أبرهة سرعان ما علم بالخبر ، ومن ثم فقد أقسم ليسيرن إلى البيت الذي يحج إليه العرب بمكة فيهدمه ، ثم بعث رجلا كان عنده إلى «بني كنانة» يدعوهم إلى الحج إلى القليس ، غير أن القوم قد رفضوا ، ثم قتلوا رسول أبرهة كذلك ، مما زاد من غضب الطاغية الحبشي وحنقه ، ومن ثم فقد أمر بالجيش فتجهز وسار على رأسه إلى مكة المكرمة ، يبغي هدم البيت الحرام[1] .

على أن هناك رواية أخرى - صاحبها السيوطي - تذهب إلى أن اكسوم - إبن إبنة أبرهة - خرج حاجا إلى البيت الحرام ، فلما إنصرف من مكة ، نزل في كنيسة نجران ، فعدا عليها ناس من مكة ، فأخذوا ما فيها من حلي ، وكذا قناع اكسوم ، ومن ثم فقد عضب أبرهة ، وأرسل إليهم جيشا من عشرين ألفا من خولان والاشعريين ، حتى إذا ما كان على مقربة من الطائف قابله زعماؤ ها ، وصرفوه عن مدينتهم ، ودلوه على الطريق إلى مكة[2] .

وهناك رواية ثالث نسبها القرطبي الى مقاتل بن سليمان وإلى أبن الكلبي -

---

(١) إبن الأثير ١/ ٤٤٢ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠ - ١٣١ ، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠ ، إبن كثير ٢/ ١٧٠ - ١٧١ ، تفسير إبن كثير ٤/ ٥٤٩ ، تفسير النيسابوري ٣٠/ ١٦٣ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٧٦ ، الكشاف ٣/ ٢٨٨ ، روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، الأزرقي ١/ ١٤٠ - ١٤١ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي ٢/ ٥٧٦) ، في ظلال القرآن ١/ ٦٦٤ - ٦٦٥ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧ - ٧٢٧٨ (طبعة الشعب) ، إبن هشام ١/ ٤٣ - ٤٦ ، الطبقات الكبرى ١/ ٥٥ ، ياقوت ٤/ ٣٩٥ ، أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي : دلائل النبوة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١/ ٥٦ - ٥٧

(٢) السيوطي : الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٣٩٤ ، الاصبهاني : دلائل النبوة ص ١٠٠ ، تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ٢٨٨ .

خلاصتها أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى الحبشة ، وهناك وعلى ساحل البحر الأحمر ، وبجوار بيعة للنصارى ، أوقدوا نارا لطعامهم ، ثم تركوها بعد حين ، إلا أن ريحا عاصفة هبت على النار فأشعلتها ، وأحرقت البيعة فغضب النجاشي لذلك أشد الغضب ، واتفق أن أتاه أبرهة ـ ومعه حجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديين ـ وضمنوا له إحراق الكعبة ، ومن ثم فقد كانت الحملة إلى مكة [1] .

وتذهب رواية رابعة إلى أن أبرهة قد توّج «محمد بن خزاعي بن خرابة الذكواني» على «مضر»، وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس ، فذهب محمد هذا حتى إذا ما نزل ببعض أرض بني كنانة ـ وكان قد بلغ أهل تهامه أمره ـ بعثوا له برجل من هذيل، يقال له عروة بن حياض ، فرماه بسهم وقتله ، فهرب أخوه «قيس» الذي كان بصحبته إلى أبرهة فأعلمه الخبر، فحلف أبرهة ليغزون بني كنانة وليهدمن البيت[2] .

هذه هي الأسباب التي رأى المؤرخون المسلمون ، وكذا المفسرون، إنها كانت من وراء حملة أبرهة على البيت الحرام[3] ، ولست أظن أن واحداً منها بكاف وحده لتبرير هذه الحملة التي أراد أصحابها القضاء على أقدس مقدسات العرب ، وإن كانت الرواية الرابعة ، تحمل ـ فيما أظن ـ بعضا من صواب ، فقصة تدنيس القليس على يد رجل من النسأة ، ـ وهم الذين كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر لشن الغارات وطلب الثارات ـ قد

(١) تفسير القرطبي ص ٧٢٨٢ ـ ٧٢٨٣ (طبعة الشعب)، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠، أعلام النبوة ص ١٤٩، قارن: تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٤ (طبعة الشعب)

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٣١، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠ ـ ١٣٩، تاريخ الخميس ص ٢١٢ ـ ٢١٧، نهاية الأرب ١/ ٢٥١ ـ ٢٦٤ ، سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت ١٩٦٧، الجزء الثامن ص ٦٦٤ ـ ٦٦٥، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧ ـ ٧٢٩٠ (طبعة الشعب)، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٣ ـ ٥١١ (طبعة الشعب)

تكون حقيقة وقعت ، وقد تكون أسطورة وضعت ، فإنه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ومع ذلك ، فلو صدقنا جدلا أنها قد حدثت فعلا ، فهي إنما تمثل إحتجاج رجل ـ أو جماعة من العرب ـ على سياسة أبرهة نحو الكعبة ، ورغبته في صرف حاج العرب عنها ، ولكنها لن تكون سببا كافيا لقيام حملة تضم الافا مؤلفة من جنود الحبشة ، فضلا عن الذين أشتركوا فيها من قبائل اليمن ، وبقيادة أبرهة نفسه . وهو الذي يملك الكثير من الوسائل الأخرى لتأديب هذا الرجل ، أو تلك الجماعة ، على تدنيسهم لكنيسته .

وأما رواية السيوطي ، فظاهرها المنطق ، وباطنها كثير من الخيال ، فأكسوم بن الصباح ـ حفيد أبرهة ـ رجل نصراني ، وما كانت النصارى تحج إلى مكة ، وما كان حفيد أبرهة بالذات هو الذي يحج إلى كعبة قريش ، لأنها كانت محجة الوثنيين وقت ذاك ، ولأن جده أبرهة هو الذي كان يعمل جاهداً على صرف العرب عنها وتحويلهم إلى القليس ، وليس من المنطق ، فضلا عن حقائق التاريخ ، إن يكون أول الخارجين على سياسة أبرهة ، حفيده يكسوم هذا، وإلا لما غضب أبرهة من أجل سرقة قناعة ، فضلا عن حلى كنيسة نجران، ثم إن السيوطي إنما يخالف الإجماع فيما ذهب اليه من أن الذي كان على رأس الجيش، إنما هو «شهر بن معقود» وليس أبرهة نفسه، كما انه يسبغ على قائد الحملة لقب «ملك»، وقد كان ذلك لقب أبرهة، ولم يكن «شهر» هذا ممن يحملون هذا اللقب الرفيع(١) .

وأما رواية القرطبي ، فالجديد فيها أن سبب الحملة ، إنما كان أحراق بيعة ، وليس تدنيس القليس ، وأنها في الحبشة ، وليست في اليمن ، وأن الذي أمر بها إنما كان النجاشي ، وليس أبرهة ،الذي لم يتجاوز دوره فيها

---

(١) جواد علي ٣/ ٥١١

دور المنفذ لما إرتآه مليكه ، على أن المعروف تاريخيا أن أبرهة إنما نظم هذه الحملة من حيث هو حاكم مستقل ، فضلا عن أن السبب الذي قدمه القرطبي ، لا أظنه بكاف لأن يدفع النجاشي بقوات الحبشة إلى مكة ، ثم ما هي الصلة بين حرق بيعة في الحبشة بدون قصد ، وبين حملة أبرهة على مكة ، حتى لو افترضنا أن رواية القرطبي صحيحة ، ثم أليس في الإمكان أن يُعَاقب الجناة هناك في الحبشة ، بل أما كان في الإمكان منع تجار قريش من النزول بأرض النجاشي والاتجار فيها ، لكن أن يكون العقاب هو هدم الكعبة ، فلا أظن أن وراء ذلك أسبابا أخرى ، فما كانت سياسة الدول تدار بهذه الطريقة ، ولن تكون .

وأما الرواية التي ذهبت إلى أن الحملة إنما كانت لأن بني كنانة قتلوا «محمد بن خزاعي» الذي إختاره أبرهة واليا على مضر من قبله ، كما فعل نفس الشيء من قبل مع معد ، فربما كانت أقرب من غيرها إلى الصواب ، لأن قتل محمد هذا ، يتعارض تماما وما يريده أبرهة من فرض نفوذه على مضر ، فالهدف إذن لم يكن هدم الكعبة لذاتها ، بقدر ما كان رمزا لفرض النفوذ الحبشي على الحجاز ، بعد أن تمت السيطرة على اليمن ، وفرض نفوذ أبرهة على معد .

أضف إلى ذلك أن هناك بعض الملاحظات على هذه الروايات بصفة عامة ، منها ذلك الخلاف بين الروايات العربية في أسباب الحملة ، ومنها قصة أبي رغال ، والتي تكررت - كما أشرنا من قبل - في قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، ومنها ذلك الحديث الذي همس به «نفيل بن حبيب الخثعمي» في أذن الفيل ، ومنها ذلك الحديث الذي دار بين مسعود بن معتب سيد ثقيف وبين قائد الحملة ، والذي يفهم منه أن أبرهة ما كان يعرف طريقه إلى مكة ، فهل يعدّ الرجل ذلك الجيش الجرار ، دون أن

يعرف الطريق إلى هدف هذا الجيش ، ثم وهل كانت الكعبة مجهولة إلى هذا الحد ، وهي التي بنى أبرهة كنيسته القليس ليصرف الناس عنها ، وأخيرا ، أما كانت القبائل العربية التي إنضمت إلى أبرهة تعرف الطريق إلى الكعبة المشرفة ، وبخاصة «نفيل بن حبيب» الذي قاوم الحملة ـ بادىء ذي بدء ـ ثم رضي بعذ ذلك أن يكون دليلا لها في مقابل إطلاق سراحه .

(٤) أسباب الحملة الاقتصادية والسياسية

لا ريب في أن حملة أبرهة الحبشي على مكة المكرمة ، إنما كانت لأسباب سياسية واقتصادية في الدرجة الأولى ، وربما كانت دينية في الدرجة الثانية ، وحتى هذه فقد كانت في خدمة العوامل السياسية والاقتصادية ، ذلك لأن اليمن ، بعد الإحتلال الحبشي ، قد فقدت دورها التقليدي في نقل التجارة العالمية ، يوم أن كانت تسيطر على باب المندب ، وتملك أسطولا ضخما ينقل البضائع من الهند والصين وسوقطرة إلى موانيها مثل عدن وقنا ، بحيث كان ذلك شبه إحتكار في يدها[1] .

وزاد الطين بله ، أن النزاع بين الفرس والروم قد أدى إلى اغلاق الطريق التجاري الشرقي المار ببلاد العراق إلى الشام ، كما أن البحرية الحبشية لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية في البحر الأحمر، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية ، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري ، عبر تهامة والحجاز ، هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لا بد ـ بعد زوال النشاط اليمني ـ أن يوجد من يسد هذا الفراغ ، ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين ، لنقل التجارة ، وقد

---

(١) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ٧٤، وكذا
W.Schoff, The Periplus of the Erythraean Sea, P.P.30, 32

وجد هذا الوسيط ممثلا في مدينة مكة [1] ، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة سامية بين عرب الشمال ، فضلا عن طرفي الصراع الدولي (الفرس والروم) في تلك الفترة ، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنازعين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبُعْد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى .

غير أن الحبشة - بتأثير من الروم على ما يبدو - لم تكن ترى هذا الرأي ، إذ كانت حريصة على ان تحتكر هذا المصدر الاقتصادي الهام لنفسها ، ومن ثم كانت حملة أبرهة للاستيلاء على مكة [2] ، وبالتالي السيطرة على التجارة القادمة من الجنوب إلى الشمال ، عن طريق مكة ، ولعل ذلك قد حدث بعد فشل مشروع تحويل العرب من الكعبة إلى القليس ، وما كان يرجى من وراء ذلك من مكاسب مادية ودينية وأدبية .

وأما الأسباب السياسية ، فلعل أهمها أن الإستلاء على مكة ، إنما يعني إزاحة عقبة كؤد ، كانت تقف حائلا بين إتصال الأحباش في اليمن بحلفائهم البيزنطيين في الشمال، وربما كانت بيزنطة تقف بكل قوتها وراء هذا المشروع الخطير ، بل أن هناك ما يشير إلى أن ذلك إنما كان كذلك ، فنجاح هذا المشروع يجعل العربية الغربية كلها تحت نفوذ النصرانية ، كما أن أبرهة يستطيع ، بعد فتح مكة ، أن يزحف نحو الشرق ، ومن ثم يمكنه إلى حد كبير أن يقضي على النفوذ الفارسي في العربية الشرقية ، وبالتالي طرد الفرس من بلاد العرب وجعل النفوذ الأجنبي فيها مقصورا على النفوذ الحبشي الرومي .

---

(١) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٥٤
S.A. Huzayyin, Arabia and the Far East, Cairo, 1942, P.P.142-143

(٢) احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٥٥ ، جواد علي ٣/ ٥١٨

وهكذا فإن نجاح المشروع سوف يحقق للأحباش والروم أهدافهم في بلاد العرب ، يحقق للأحباش أهدافهم الدينية بالقضاء على المركز الديني العربي الأساسي وتحويلهم نحو القليس ـ مكرهين أو راغبين ـ ويحقق لهم أهدافهم الإقتصادية عن طريق سيطرتهم على الطريق التجاري البري بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، فضلا عن الفوائد الإقتصادية التي يجنيها الأحباش من تحويل الحجيج من مكة إلى صنعاء ، ويحقق للروم أهدافهم عن طريق بسط نفوذهم على بلاد العرب ، والقضاء على النفوذ الفارسي فيها ، بل وتقديم المساعدة لهم في الوقت المناسب في الصراع القائم بينهم وبين الساسانيين ، بل إن «بركوبيوس» ليرى أن «ايراموس» (أبرهة) عندما بسط نفوذه في العربية الجنوبية ، وأمّن ملكه ، وعد الإمبراطور «جستينان» ان يغزو الفرس ، وأنه قد بدأ مشروعه هذا بالفعل ، إلا أنه سرعان ما تردد في تنفيذه بعد ذلك .

ولعل أهم الشواهد التي تؤيد أهداف الحملة السياسية والإقتصادية ما يرويه المؤ رخون المسلمون أنفسهم من أن أبرهة قد كتب للنجاشي بعد بناء القليس ـ وقبل تدنيسها ـ بأنه ليس منته حتى يصرف إليها حج العرب[1] ومنها كذلك (ثانياً) حملة أبرهة على « معد » وفرض نفوذه عليها[2]، وهناك من يذهب الى أن هذه خطة كان المراد منها إقامة قيس على معد ، ثم تكوين جيش من هؤلاء وأولئك لغزو فارس ، ولم يكن أبرهة ذلك الرجل الذي يزهد في مثل هذه الفرصة ، لمد نفوذه على بلاد العرب[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٠، تفسير الطبري ٣٠/ ١٩٣، تفسير القرطبي ٢ / ١٨٧ ـ ١٨٨ (طبعة دار الكتب) ، ص ٧٢٧٧ (طبعة الشعب) ، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٤ (طبعة الشعب) ، البداية والنهاية ١/ ١٧٠، إبن هشام ١/ ٤٣

(٢) جواد علي ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦، *Le Museon, 1953, 3-4, P.P.277-79,*

(٣) *Procopius, I,XX, 9-12 P.193*

ومنها (ثالثاً) إن الروم إنما كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية تحت نفوذهم ، ومن ثم فقد حاولوا من قبل تكوين حلف منهم ومن « السميفع أشوع » ـ ملك اليمن بعد ذي نواس وقبل أبرهة ـ ضد الفرس[1] ، بل إن أوليري » ليرى أن بعض تجار الروم في مكة ، إنما كانوا يقومون بأعمال التجسس لحساب بلادهم[2] .

(٥) مقاومة العرب للحملة

بدأ أبرهة يعدّ العدة لغزو مكة ، وهدم البيت الحرام . ومن ثم فقد جهز جيشا ضخما ، وإن كان المؤرخون الإسلاميون قد بالغوا في عدده ، حتى ذهب بعضهم إلى أنه كان ما بين ٤٠ ، ٦٠ ألفا ، وقد اشترك في هذا الجيش من قبائل عرب الجنوب ، خولان والأشعريون وخنْدف وحميس بن أد[3] .

هذا وتذهب المصادر العربية إلى أن العرب حينما سمعت بهذا الأمر عظمته، ورأوا أن جهاده حقا عليهم، وذلك لمكانة الكعبة عند العرب ، فضلا عن مكانة مكة نفسها ، ذلك لأن المدينة المقدسة ، إنما كانت ـ كما اشرنا من قبل[4] ـ تتمتع عند القوم بمكانة لا تتطاول إليها مكانة بلد آخر في شبه الجزيرة العربية ، فمن المعروف أنه رغم وجود « البيوت الحرام » كبيت الأقيصر وبيت ذي الخلصة وبيت نجران، وغيرهما من البيوت

---

(١) Procopius, I,XIX, 8-16, P.180 وكذا E.Glaser. in MVG, II, P.437
وكذا R.Bell, op-cit, P.40

(٢) De LacyO'Leavy, op-cit, P.184

(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٩٣ ، البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٥٧، روح المعاني ٣٠/ ٢٣٤ ، جواد علي ٣/ ٥١٩ ، وكذا le Museon, 1965, 3-4P.433

(٤) راجع هنا الفصل الخاص بالكعبة المشرفة

الحرام[١] ، فإن واحدا من هذه البيوت لم يجتمع له ما أجتمع لبيت مكة ، لأن مكة ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها[٢] .

وكانت مكة كذلك عربية لجميع العرب ، ولم تكن كسروية ولا قيصرية ، ولا تبعّية ولا نجاشية ، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها يجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة ، لا على حكم القهر والإكراه[٣] .

هذا بالاضافة إلى أن كعبة مكة ـ دون غيرها من البيوت الحرام ـ إنما هي من بناء أبيهم إبراهيم وولده إسماعيل ، عليهما السلام ، فضلا عن إنها إنما كانت تضم أصناما لكل قبيلة عربية ، حتى زاد عدد الأصنام في الكعبة على ثلاثمائة صنم[٤] ، وأخيرا فإن الكعبة إنما أصبحت آخر الأمر ، المفخرة القومية ، والحرم الإلهي عند العرب ، ثم غدت بعد حين من الدهر ،

---

(١) ياقوت ١/ ٢٣٨ ، ٣/ ٤٢٧ ، ٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، ٥/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، بلوغ الأرب ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٢/ ٢٠٢ ، ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ، كتاب الأصنام ص ٣٨ ، البكري ٢/ ٦٠٣ ، كتاب المحبر ص ٣١٧ ، إبن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣ ، الروض الآنف ١/ ٦٦

(٢) عباس العقاد ، مطلع النور ص ١١٢ ـ ١١٣

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١٣

(٤) الازرقي ١/ ١٢٠ ـ ١٢١ ، اليعقوبي ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، الروض الأنف ٢/ ٢٧٦ ، كتاب الأصنام ص ٢٧ ـ ٢٨ ، جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٢٤ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ١/ ٣٧ وكذا *E.Gibbon, op-cit, P.225*

الجوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده ، بشعور العروبة الموحدة ، عالية الرأس ، غير مستكينة لأجنبي ، كائنا من كان .

ولعل هذا كله إنما كان سببا في أن يرى العرب أن مقاومة حملة أبرهة، إنما هو الواجب المفروض عليهم ، ومن ثم فقد تعرض للحملة شريف يمني يدعى «ذونفر»، لم يكتب له النجاح في مهمته ، وأخذ اسيرا ، والأمر كذلك بالنسبة إلى «نفيل بن حبيب الخثعمي» ، وهكذا إستمرت الحملة في طريقها، حتى إذا ما وصلت إلى الطائف ، تقدم زعيمها «مسعود بن معقب» إلى الطاغية الحبشي ، يعلن له الخضوع ، ثم بعث معه «أبا رغال» ليدله على الطريق إلى مكة ، فأنزله «المغمس» ـ على مبعدة ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف ـ وهناك هلك أبو رغال، ورجمت العرب قبره بعد ذلك [1] .

ويصل أبرهة إلى أرباض مكة ، ويرسل «الأسود بن مقصود» على فرسانه ، فيسوق إليه أموال تهامة من قريش وغيرها ، ومن بينها مائتا أو أربعمائة بعير لسيد مكة ، عبد المطلب بن هاشم ، ثم يبعث برجل من العرب يدعى «حقاطة» يبلغ سيد مكة أن أبرهة لم يأت لقتالهم ، وإنما لهدم البيت الحرام ، فإن لم يمنعوه، فهم في أمان من حربه .

ويلقى رسول أبرهة سيد مكة ، ويبلغه رسالة أبرهة ، فيقول له عبد المطلب : «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة ، وهذا بيت الله الحرام ، وبيت إبراهيم خليله عليه السلام ، فإن يمنع منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبنيه، فوالله ما عندنا دفع عنه» .

---

(١) إبن الأثير ١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥ ، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٨ ـ ٧٢٧٩ (طبعة الشعب)، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ (طبعة دار الكتب)، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥ (طبعة الشعب)، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٤ ، في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٥، مروج الذهب ٢/ ٥٣ ، ياقوت ٣/ ٥٣ ـ ٥٤ ، ٥/ ١٦١ ـ ١٦٢، الأزرقي ١/ ١٤١ ـ ١٤٢

وتستمر الرواية بعد ذلك ، فتذهب إلى أن الرسول إنما أخذ معه عبد المطلب إلى أبرهة ، وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما ، فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه ، وسأله عن طلبه ، فقال عبد المطلب : الإبل التي ساقها جندك ، وهنا يذهب الرواة إلى أن أمر عبد المطلب قد هان في نظر أبرهة، وقال له : «أتسأل عن البعير ، وتترك البيت الذي هو دين آبائك ، ودينك من بعدهم» ، فقال عبد المطلب : «أنا رب الإبل ، وللبيت رب يحميه» ، وهنا أمر أبرهة برد إبل عبد المطلب دون غيرها[1] ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال ، وساقها هديا إلى الحرم ، وهناك وقف على باب الكعبة يقول:

[يا رب لا أرجو لهم سواكا * يا رب فامنع منهم حماكا] [إن عدو البيت من عاداكا* فامنعهم أن يخربوا قراكا] [لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك] لا يغلبن صليبهم * ومحالهم غدرا محالك] [وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك] [2] .

ويعلق الاستاذ العقاد ـ طيب الله ثراه ـ على موقف عبد المطلب هذا ، بأنه كان موقفا حكيما ، يتفق وما عرف عن صفات هذا السيد العظيم ، لا تهور مع القوة الطاغية ، ولكن لا خضوع لها ، بل وضع لها في موضعها ،

(١) هناك رواية تذهب إل أن عبد المطلب صحب معه نفاثة بن عدي سيد بكر، وخويلدبن واثلة سيد هذيل، فعرضا على أبرهة ثلث أموال تهامه على أن يرجع ولا يهدم البيت، فرفض (أنظر: الازرقي ١/ ١٤٥، روح المعاني ٣٠/ ٢٣٥، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٢)

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٣ ـ ١٣٦، تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، الازرقي ١/ ١٤٣ ـ ١٤٥، إبن الأثير ١/ ٤٤٤، تفسير الفخر الرازي ٣٢/ ٩٦، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦، مروج الذهب ٢/ ١٠٤ ـ ١٠٦، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، دلائل النبوة ١/ ٥٨ ـ ٥٩، إبن هشام ١/ ٤٨ ـ ٥٢، إبن سعد ١/ ٥٥ ـ ٥٦، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٤ ـ ٥٠٦، حياة محمد ص ١٠١ ـ ١٠٢، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٩ ـ ٧٢٨٢ (طبعة الشعب)، العقاد: مطلع النور ص ١٢١ ـ ١٢٢، عبد المجيد عابدين المرجع السابق ص ٦٤ ـ ٦٥، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٢.

وقول يناسب كل مقام ، فإذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التي تأنف من التهور، لما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال الذي يغني ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الأبل لأنني اضن بأثمانها ، فإنني قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكني سألت عنها لأنها موضع سؤ الي ، وتركت السؤ ال عن البيت لأن إستجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله ينفي الثقة بالبيت وبالله[1] ، فضلا عن أن أبرهة ما كان ليرجع عن عزمه ، إن سأله عبد المطلب أن يكف عن البيت ، وهو الذي أعد كل ذلك من أجل أن يهدم هذا البيت ، ومن ثم فإن طلب عبد المطلب من أبرهة الرحمة بالبيت ، طلب لا موضع له ، في هذه الظروف ، وإزاء كل هذه التجهيزات العسكرية .

وهنا تروي المصادر العربية أن عبد المطلب قد إنطلق ومن معه من قريش إلى شعاب الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها ، غير أن هناك رواية أخرى ـ نرجحها ونميل إلى الأخذ بها ـ تذهب إلى أن عبد المطلب ، بعد أن لم يفلح في تعبئة قريش لقتال الأحباش ، لم يفارق الكعبة حين تفرقت قريش في شعاب مكة وجبالها خوفا من الغزاة ، وإنما أخذ يستعد لمقاومة الغزو بمن أطاعه من قومه ، وهو مع ذلك كان دائم الدعاء لربه ، ليرد كيد المغير عن بيته الحرام ، ومن ثم فإن المرض حين تفشى في جيش أبرهة وارتد عن مكة ، علت مكانة عبد المطلب فوق علوها[2] . ولعل مما يرجح مقاومة عبد المطلب أن العرب حين سمعت بحملة أبرهة على الكعبة ، رأوا جهاده حقا عليهم ، ومن ثم فقد خرج رجل من أشراف اليمن دعوه «ذو نفر» ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر

---

(١) عباس العقاد: مطلع النور ص ١٢٢

(٢) ابن هشام ١/ ٤٩ ـ ٥٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، دلائل النبوة ١٥/ ٥٧، المعارف ص ٣١٢، الازرقي ١/ ١٤٥، احمد ابراهيم الشريف: المرجع السابق ص ١٣٨

العرب إلى حرب أبرهة وجهاده ، ورغم أن «ذانفر» قد فشل في مهمته، فإنه قد أثبت أن العرب لم يخنعوا لأبرهة ، ولم يستكينوا لرغبته في هدم كعبتهم الشريفة ، أضف إلى ذلك أن «البيهقي» يذهب إلى أن الأشعريين وخثعم ، حينما وصلوا إلى الحرم الشريف كسروا رماحهم وسيوفهم ، وبرئوا إلى الله تعالى من أن يعينوا على هدم البيت الحرام[1].

(٦) نتائج الحملة

منيت حملة أبرهة بفشل ذريع ، ذلك لأن إرادة الله أرادت غير ما أراد الطاغية الحبشي ، «وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول»، وسواء أكانت هذه الطير الأبابيل ، طيرا من البحر رمتهم بحجارة مثل الحمص والعدس ، لا تصيب الواحد منهم إلا هلك ، أو أنها أشباه اليعاسيب رمتهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر ، أو أنها مثل صغار العصافير السوداء، أو أن المراد بها جراثيم الوباء، أو أنه وباء لا ندري عنه شيئا ، فتك بجيش أبرهة، أو أنه بالتحديد مرض الجدري قد فتك بالجنود وقائدهم ، أو أنه الجدري والحصبة معا[2] ، فالنتيجة واحدة لا تتغير

(١) البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٥٩ ، إبن هشام ١/ ٤٥ ـ ٤٦ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٨، تفسير ابن كثير٨/ ٥٠٤

(٢) ابن هشام ١/ ٥٩و مروج الذهب ٢/ ١٠٥، تفسير الفخر الرازي ٣٢/ ٩٦ ـ ٩٧، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧)، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، تفسير الطبري ٣٠/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، ٣٠٤، تفسير النيسابوري ٣٠/ ١٦٥، تفسير القرطبي ص ٧٢٨٢ ـ ٧٢٨٣ ـ ٧٢٨٦ ـ ص ٧٢٩٠ (طبعة الشعب)، ٢٠/ ١٩٦ ـ ١٩٩ (طبعة دار الكتب)، تفسير في ظلال القرآن ٨/ ٦٦٦ ـ ٦٧٥، تفسير إبن كثير ٨/ ٥٠٧ ـ ٥٠٩، تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٧٦، الأزرقي ١/ ١٤٦ ـ ١٤٨ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٣٦ ـ ١٣٩ ، البداية والنهاية ٢/ ١٦٩ ، وهب ابن منبه: المرجع السابق ص٣٠٣، يوسف احمد: المحمل والحج ص ٧٧، الرحلة الحجازية ص ١٢٩، ابن سعد ١/ ٥٦، حياة محمد ص ١٠٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٢

بصحة سبب من هذه الأسباب ، وعدم صحة آخر ، فشل ذريع لحملة ظلوم من طاغية غشوم ، أراد بالبيت الحرام سوءا ما بعده سوء ، فحمى الله بيته، وأهلك عدوه ، حتى أن المراجع تكاد تجمع على أن أبرهة لم يبلغ صنعاء، إلا بعد جهد جهيد ، وهناك مات مشيعا بلعنات العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، ومقدما في الوقت نفسه العبرة لكل ظالم جبار تسول له نفسه أن يفكر في الإعتداء على بيت الله الحرام وآله .

وكان من نتائج الحملة أن علت مكانة عبد المطلب الدينية والأدبية علوا كبيرا ، حتى كانت قريش تقول بعد ذلك «عبد المطلب إبراهيم الثاني» ، كما علت ، في الوقت نفسه ، مكانة قريش بين القبائل العربية ، وقالت العرب عنهم «أهل الله قاتل عنهم كفاهم مؤ ونة عدوهم»[1] .

هذا وقد اشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث الجلل في سورة كاملة ، هي سورة الفيل ، يقول عزّ من قال : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول» .

وأخيرا فإن هذا النصر العظيم الذي أعطاه الله للعرب على أبرهة ، إنما كان ارهاصا بدعوة المصطفى ﴿ﷺ﴾ وشرفه العظيم ، فضلا عن دلالة واضحة على شرف البيت الحرام ، وحماية الله له من كل ظالم غشوم ، وإجابة لدعوة الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ «رب أجعل هذا بلدا آمنا[2]» .

(١) إبن هشام ١/ ٥٧، الازرقي ١/ ١٤٨، تفسير القرطبي ٢٠/ ١٩٥ ـ ١٩٦، ٢٠٠

(٢) سورة البقرة آية ١٢٦، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٣٢/ ٩٧، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣ ، تفسير القرطبي ٢/ ٥٠٢ ـ ٥٠٥ ، تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣ ، تفسير المنار ١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٦ ، تفسير الطبري ٣/ ٤٤ ـ ٥٦ (دار المعارف)، تفسير الكشاف ١/ ١٨٦ .

وهكذا كانت حملة أبرهة - كما يقول براون - فاتحة عصر جديد، في تاريخ حياة العرب القومية [1]، حتى أنهم إعتبروها مبدأ تقويم يؤ رخون به الأحداث، ومن ثم فقد كانت قريش تؤ رخ بعد ذلك بعام الفيل [2]، كما أن هذه الهزيمة المنكرة لأبرهة جعلت الحبشة لا تفكر بعد هذا الحادث أبدا في أن تقوم بعمل عسكري ضد مكة، بخاصة وأن القوم في اليمن سرعان ما استعانوا بالفرس، وطردوا الأحباش من بلادهم - وإلى الأبد إن شاء الله - ومن ثم فإننا نرى أن العلاقات بين الحبشة والعرب في مكة إنما كانت طيبة على أيام البعثة النبوية الشريفة، بل إننا نعرف أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - كان على علاقة طيبة بالنجاشي، الذي يرى فيه المؤرخون المسلمون « عم أصحمة »، بينما يرى المؤرخون المحدثون أنه « أرماح الثاني » أو « أرمحة »، ومن ثم فإنهم يذهبون إلى أن « عم أصحمة » هذا، إنما كان حاكماً على إقليم من أقاليم الحبشة، وعلى أي حال، فإن النجاشي قد أكرم وفادة المسلمين الذين هاجروا إلى بلاده فراراً من إضطهاد قريش لهم، والأمر كذلك بالنسبة إلى علاقة النجاشي بقريش التي أرسلت له سفارة فأوصته في رد هؤلاء المهاجرين [3].

بقي أن نشير إلى أن تاريخ حملة أبرهة هذه ما يزال موضع خلاف بين

---

(١) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٧٦

(٢) الازرقي ١/ ١٤٨، هيكل: حياة محمد ص ١٠٢

(٣) إبن هشام ١/ ٣٢١ - ٣٤١ (طبعة الحلبي الثانية - القاهرة ١٩٥٥) الطبقات الكبرى ١/ ١٣٦ - ١٣٩، ابن الأثير ٢/ ٧٦ - ٨٢، تاريخ الطبري ٢/ ٣٢٨، ٣٣٥، زاد المعاد ٢/ ٧٥ (طبعة عام ١٩٢٨)، احمد ابراهيم الشريف: المرجع السابق ص ١٥٩، عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص ٧١ - ٨١، رحلة صادق باشا المؤيد إلى الحبشة، ترجمة رفيق العظم ص ١٨٦ وكذا De Lacy O'Leavy, op-cit, P.184 وكذا P.P.137, 270-71
E.N.W. Budge, A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, I, London, 1938,

المؤرخين، فهو عام ٥٥٢ م على رأي[١] ، وهو عام ٥٦٣ م على رأي آخر[٢] ، وكلاهما يخالف المعهود من أن الحملة إنما كانت في عام ٥٧٠ - ٥٧١ م ، وهو ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به ، طبقا للدراسة التي قام بها «محمود باشا الفلكي»[٣] ، وأثبت فيها أن مولد المصطفى ﷺ - وقد كان في عام الفيل[٤] - إنما كان في يوم الأثنين ، التاسع من ربيع الأول، الموافق ٢٠ أبريل من عام ٥٧١ م[٥] .

(١) le Museon, 1965, 3-4, PP. 427 -28

(٢) جواد علي ٣/ ٤٩٦ وكذا *le Museon, 1965, 3-4, P.427*

(٣) محمود باشا الفلكي : التقويم العربي قبل الاسلام، وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته، القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٣ - ٤٤

(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٩٤ - ١٩٥ ، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٣

(٥) راجع ما قدمناه هنا فى هذه الدراسة من قبل عن الآراء التي دارت حول المولد النبوي الشريف .

المصادر والمراجع العربية

١ - القرآن الكريم

كتب الحديث

٢ - البخاري ، الامام ابو عبد الله محمد بن اسماعيل : صحيح البخاري ، ٢٥ جزءا دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة (بدون)

٣ - ابن حنبل ، الامام احمد : مسند الامام احمد بن حنبل ، المكتب الاسلامي ، بيروت (بدون)

٤ - ابو داود ، الامام الحافظ السجستاني الازدي: سنن ابي داود، نشر وتوزيع محمد علي السيد، حمص، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م

٥ - ابن ماجة ، الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني : سنن ابن ماجة : جزءان ، عيسى البابي الحلبي، القاهرة (بدون)

٦ - مسلم ، الامام ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد ناصر الدين، بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

كتب التفسير

٧ - الألوسي، السيد محمد شكري: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت (بدون)

٨ - البيضاوي، ابو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار صادر، بيروت (بدون)

٩ - لخازن، ابي محمد الحسين الفراء البغوي: لباب التأويل في معاني التنزيل ، دار الفكر ، بيروت (بدون)

١٠ ـ الرازي، الفخر : التفسير الكبير ، دار الكتب العلمية، طهران (بدون)
١١ ـ الزمخشري ، الامام جار الله محمود بن عمر : الكشاف على حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، بيروت (بدون)
١٢ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت (بدون)
١٣ ـ الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٢ هـ
١٤ ـ القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري : الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠ جزءاً الطبعة الثالثة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧
١٥ ـ قطب، سيد : في ظلال القرآن ، الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية، القاهرة (بدون)
١٦ ـ ابن كثير ، اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م
١٧ ـ المنار، دار المنار : تفسير القرآن الحكيم ، الطبعة الرابعة ، دار المنار ، القاهرة ١٣٧٣ هـ
١٨ ـ النسفي ، ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمود : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المكتبة الأموية ، بيروت (بدون)
١٩ ـ النيسابوري ، نظام الدين بن محمد بن حسين القمي : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، الطبعة الاولى ، بولاق مصر ١٣٢٣ هـ

* * *

٢٠ ـ الكتاب المقدس : العهد القديم والعهد الجديد ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة ١٩٦٩

* *

٢١ ـ ابن الأثير ، عز الدين ابو الحسن علي الشيباني : الكامل في التاريخ ـ الجزء الأول والثاني ـ بيروت ١٩٦٥
٢٢ ـ ابن العبري ، ابو الفرج جريجورس بن هارون : تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨
٢٣ ـ ابن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد : كتاب الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥
٢٤ ـ ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن اسحاق : كتاب الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨ هـ
٢٥ ـ ابن بكار ، الزبير : جمهرة نسب قريش ، القاهرة ١٣٨١ هـ
٢٦ ـ ابن بلهيد ، محمد بن عبد الله : صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الاثار ـ خمسة أجزاء ، القاهرة ٥١ ـ ١٩٥٣
٢٧ ـ ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم : مقدمة في أصول التفسير ، دمشق ١٩٣٦
٢٨ ـ ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم : اقتضاء الصراط المستقيم ، القاهرة ١٩٥٠
٢٩ ـ ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم : مجموع فتاوى ابن تيمية ، الرياض ٨٢ ـ ١٣٨٣ هـ
٣٠ ـ ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي : الموضوعات ، القاهرة ١٣٨٦ هـ
٣١ ـ ابن حبيب ، ابو جعفر محمد : كتاب المحبّر ، حيدر أباد ١٩٤٢
٣٢ ـ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي : فتح الباري بشرح البخاري ، القاهرة ١٣٨٠ هـ
٣٣ ـ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي : الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف ، القاهرة ١٣٥٤ هـ

٣٤ - ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي : لسان الميزان ، حيدر أباد ١٣٢٩ هـ

٣٥ - ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد : جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢

٣٦ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ ابن خلدون - الجزء الثاني، بيروت ١٩٦٥

٣٧ - ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق - جزءان ، القاهرة ١٩٥٨

٣٨ - ابن رسته ، ابو علي احمد بن عمر : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩٢

٣٩ - ابن سعد ، ابو عبدالله محمد بن سعد : الطبقات الكبرى - الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٨

٤٠ - ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله : جامع بيان العلم وفضله ، القاهرة (بدون)

٤١ - ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله : الاستيعاب في اسماء الأصحاب، القاهرة ١٩٣٩

٤٢ - ابن عبد ربه ، ابو عمر احمد بن محمد الاندلسي: العقد الفريد ، القاهرة ١٩٥٣

٤٣ - ابن عبد الوهاب ، الامام محمد : مختصر زاد المعاد، بيروت ١٣٩١ هـ

٤٤ - ابن عراق، علي بن محمد : تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ، القاهرة (بدون)

٤٥ - ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن سالم : المعارف ، القاهرة ١٩٣٤

٤٦ - ابن قتيبة، ابو محمد عبدالله بن سالم: تأويل مشكل القرآن ،

القاهرة ١٩٥٤
٤٧ ـ ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن سالم : الشعر والشعراء (جزءان) ، القاهرة ١٩٦٤
٤٨ ـ ابن قتيبة، ابو محمد عبدالله بن سالم : عيون الأخبار ، القاهرة ١٩٦٣
٤٩ ـ ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن سالم : تأويل مختلف الحديث ، القاهرة ١٩٦٦
٥٠ ـ ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل : البداية والنهاية في التاريخ ـ الجزء الاول والثاني، الرياض ١٩٦٦ .
٥١ ـ ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل : فضائل القرآن ، بيروت ١٩٦٦
٥٢ ـ ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء ، اسماعيل : قصص الأنبياء ـ الجزء الاول والثاني ، القاهرة ١٩٦٨
٥٣ ـ ابن منبه ، وهب : كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر أباد ، ١٣٤٧ هـ
٥٤ ـ ابن منظور، ابو الفضل محمد عبدالملك: لسان العرب، بيروت ١٩٦٥
٥٥ ـ إبن هشام، أبو محمد عبد الملك: سيرة النبي (ﷺ)، القاهرة ١٩٥٥
٥٦ ـ أبو ريه ، محمود : أضواء على السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٠
٥٧ ـ أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى : القرآن ، القاهرة ١٩٧٠
٥٨ ـ ابو شهبة ، محمد محمد : دفاع عن السنة ، القاهرة ١٩٦٧
٥٩ ـ ابو العلا ، محمود طه : جغرافية شبه الجزيرة العربية (الجزء الثالث والرابع) ، القاهرة ١٩٧٢
٦٠ ـ ابو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥ هـ
٦١ ـ الارياني ، مطهر علي ، في تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٧٣

٦٢ - الأزرقي ، ابو اليد محمد بن عبد الله : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - (جزءان) بيروت ١٩٦٩
٦٣ - الأسد ، ناصر الدين (دكتور) : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، القاهرة ١٩٦٦
٦٤ - الاصفهاني ، حمزة : تاريخ سني ملوك الارض والأنبياء ، برلين ١٣٤٠ ﻫ
٦٥ - الألوسي ، السيد محمود شكري : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، (٣ أجزاء) ، القاهرة ٢٤ - ١٩٢٥
٦٦ - الأنصاري ، عبد الرحمن (دكتور) : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العزبية ، الرياض ١٩٦٩
٦٧ - الأنصاري ، عبد الرحمن (دكتور) : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٥
٦٨ - الباقوري ، احمد حسن : مع القرآن ، القاهرة ١٩٧٠
٦٩ - البتنوني ، محمد لبيب : الرحلة الحجازية ، القاهرة ١٣٢٩ ﻫ
٧٠ - البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي : تقييد العلم ، دمشق ١٩٤٩
٧١ - البكري ، ابو عبيد عبدالله بن عبد العزيز : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، (أربعة أجزاء) ، القاهرة ٤٥ - ١٩٥١
٧٢ - البلاذري ، احمد بن يحيى : كتاب فتوح البلدان (٣ أجزاء) ، القاهرة ٥٦ - ١٩٥٧
٧٣ - البلاذري ، احمد بن يحيى : أنساب الأشراف ، القاهرة ١٩٥٩ .
٧٤ - البوطي ، محمد سعيد رمضان (دكتور) : من روائع القرآن ، دمشق ١٩٧٢
٧٥ - البيهقي ، ابو بكر احمد بن الحسين : دلائل النبوة - الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٠

٧٦ ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمر بن بحر : البيان والتبيين ، القاهرة ١٩٤٨
٧٧ ـ الجارم ، محمد نعمان : أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٢٣
٧٨ ـ الجبوري ، ابو اليقظان عطية : مباحث في تدوين السنة المطهرة ، القاهرة ١٩٧٢
٧٩ ـ الحربي ، ابو ساحاق ابراهيم : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، الرياض ١٩٦٩
٧٦ ـ الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، القاهرة ١٩٥٢
٨٠ ـ الحربي ، ابو اسحاق ابراهيم : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، الرياض ١٩٦٩
٨١ ـ الحيمي ، الحسن بن احمد : سيرة الحبشة ، القاهرة ١٩٥٨
٨٢ ـ الخربوطلي ، علي حسني (دكتور) : الكعبة على مر العصور ، القاهرة ١٩٦٧
٨٣ ـ الخطيب ، عبد الكريم : القصص القرآني ، القاهرة ١٩٦٤
٨٤ ـ الخطيب ، محب الدين وآخرون : دفاع عن الحديث النبوي ، القاهرة ١٩٥٨
٨٥ ـ الديار بكري ، حسين بن محمد الحسن : تاريخ الخميس ، القاهرة ١٣٠٢ هـ
٨٦ ـ الدميري ، كمال الدين : حياة الحيوان الكبرى ـ طبعة صبيح ، القاهرة (بدون)
٨٧ ـ الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود ، الأخبار الطوال ، القاهرة ١٩٦٠
٨٨ ـ الذهبي ، محمد بن احمد : ميزان الاعتدال ، القاهرة (بدون)

٨٩ ـ الذهبي ، محمد ابن احمد : تذكرة الحفاظ ، حيدر أباد ١٩٥٦
٩٠ ـ الذهبي ، محمد بن احمد : سير أعلام النبلاء ، القاهرة ١٩٥٥
٩١ ـ الذهبي ، محمد السيد حسين : التفسير والمفسرون ، القاهرة ١٩٦١
٩٢ ـ الذهبي ، محمد السيد حسين : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، القاهرة ١٩٧١
٩٣ ـ الزبيدي ، ابو الفيض مرتضى بن محمد : تاج العروس ، الكويت (بدون)
٩٤ ـ الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ، القاهرة ١٩٥٧
٩٥ ـ الزنجاني ، ابو عبد الله : تاريخ القرآن ، القاهرة ١٩٣٥
٩٦ ـ السباعي ، مصطفى : السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، القاهرة ١٩٦١
٩٧ ـ السجستاني ، ابو بكر عبد الله بن ابي داود : كتاب المصاحف ـ نشره آرثر جفري ، القاهرة ١٩٣٦
٩٨ ـ السهيلي ، عبد الرحمن بن عبد الله : الروض الأنف ، القاهرة ١٩٧١
٩٩ ـ السمهودي ، نور الدين علي بن جمال الدين : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ﷺ ، (جزءان) ، القاهرة ١٣٢٦ هـ
١٠٠ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : المزهر في علوم اللغة ، القاهرة ١٩٤٢
١٠١ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : الاتقان في علوم القرآن (جزءان) ، القاهرة ١٢٧٨ هـ
١٠٢ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ١٣٥١ هـ

١٠٣ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : تحذير الخواص من اكاذيب القصاص ، القاهرة ١٩٧٢
١٠٤ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر : اللآلىء المصنوعة من الأحاديث الموضوعة ، القاهرة (بدون)
١٠٥ ـ الشافعي ، عثمان بن ابي نصر : علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح ، القاهرة ١٣٢٦ هـ
١٠٦ ـ الشرقاوي ، محمود : الأنبياء في القرآن ، القاهرة ١٩٧٠
١٠٧ ـ الشريف ، احمد ابراهيم (دكتور) : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٥
١٠٨ ـ الصابوني محمد علي : التبيان في علوم القرآن ، بيروت ١٩٧٠
١٠٩ ـ الصالح ، صبحي (دكتور) : مباحث في علوم القرآن ، دمشق ١٩٦٢
١١٠ ـ الصباغ ، محمد : الحديث النبوي ، بيروت ١٩٧٢
١١١ ـ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ـ الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧
١١٢ ـ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ـ الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٦٨
١١٣ ـ العظم ، نزيه مؤيد : رحلة في بلاد العرب السعيدة (جزءان) ، القاهرة ١٩٣٨
١١٤ ـ العقاد ، عباس محمود : ابراهيم ابو الأنبياء ، القاهرة (بدون)
١١٥ ـ العقاد ، عباس محمود : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، القاهرة ١٩٦٠
١١٦ ـ العقاد ، عباس محمود : مطلع النور ، القاهرة ١٩٦٨
١١٧ ـ العقاد ، عباس محمود : الاسلام دعوة عالمية ، القاهرة ١٩٧٠
١١٨ ـ العلمي ، عبد الله : تفسير سورة يوسف (جزءان) ، بيروت ٦٩ ـ ١٩٧٠

١١٩ ـ الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد : شفا الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) ، القاهرة ١٩٥٦
١٢٠ ـ الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ـ الجزء الأول القاهرة ١٩٥٩ .
١٢١ ـ القاسمي ، محمد جمال الدين : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، القاهرة ١٩٢٥
١٢٢ ـ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٥٩
١٢٣ ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٧٣
١٢٤ ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين : التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٦٨
١٢٥ ـ المقدسي ، المطهر بن طاهر : كتاب البدء والتأريخ ، (الجزء الثالث والرابع) ، ١٩٠٣ ـ ١٩٠٧
١٢٦ ـ الميداني ، ابو الفضل احمد بن محمد : مجمع الأمثال ، (جزءان) القاهرة ١٩٥٥
١٢٧ ـ الناصوري ، رشيد (دكتور) : المدخل الى الفكر الديني ، بيروت ١٩٦٩
١٢٨ ـ النجار ، عبد الوهاب : قصص الأنبياء ، القاهرة ١٩٦٦
١٢٩ ـ النووي ، يحيى بن شرف : تهذيب الأسماء واللغات ، القاهرة (بدون)
١٣٠ ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ١٩٤٣
١٣١ ـ النيسابوري ، ابو عبد الله محمد بن عبدالله : معرفة علوم الحديث، بيروت (بدون)

١٣٢ ـ الهمداني ، ابو محمد الحسن بن احمد : صفة جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٥٣
١٣٣ ـ الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد: كتاب الأكليل ـ الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٣
١٣٤ ـ الهمداني ، ابو محمد الحسن بن احمد : كتاب الأكليل ـ الجزء الثامن، القاهرة ١٩٦٦
١٣٥ ـ الهيثمي ، علي بن ابي بكر : مجمع الزوائد ، القاهرة ١٣٥٢ هـ
١٣٦ ـ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب : تاريخ اليعقوبي ـ الجزء الأول ، بيروت ١٩٦٠
١٣٧ ـ ابراهيم ، حسن (دكتور) : تاريخ الاسلام السياسي ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٦
١٣٨ ـ احمد ، يوسف : الاسلام في الحبشة ، القاهرة ١٩٣٥
١٣٩ ـ أمين ، احمد : فجر الاسلام ، بيروت ١٩٦٩
١٤٠ ـ جاد المولى ، محمد احمد وآخرون : قصص القرآن ، القاهرة ١٩٦٩
١٤١ ـ جاء المولى ، محمد احمد وآخرون : أيام العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٤٢
١٤٢ ـ جرجس ، صبري (دكتور) : التراث اليهودي الصهيوني ، القاهرة ١٩٧٠
١٤٣ ـ حسين ، طه (دكتور) : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣
١٤٤ ـ خلف الله ، محمد احمد : الفن القصصي في القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٥٣
١٤٥ ـ خليفة ، حاجي : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، استنبول ١٣٢١ هـ

١٤٦ ـ دراز ، محمد عبد الله (دكتور) : النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن ، الكويت ١٩٧٠
١٤٧ ـ دراز ، محمد عبدالله (دكتور) : المدخل الى القرآن الكريم ، الكويت ١٩٧٤
١٤٨ ـ رضا ، محمد رشيد : تفسير سورة يوسف ، القاهرة ١٩٣٦
١٤٩ ـ سالم ، السيد عبد العزيز (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب ـ الجزء الأول ، الاسكندرية ١٩٦٧
١٥٠ ـ سعيد ، حبيب : المدخل الى الكتاب المقدس ، القاهرة (بدون)
١٥١ ـ شاهين ، عبد الصبور (دكتور) : تاريخ القرآن، القاهرة ١٩٦٦
١٥٢ ـ شحاته ، عبد الفتاح (دكتور) : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الاسلام ـ الجزء الثاني، القاهرة ١٩٦٠
١٥٣ ـ شرف الدين ، احمد حسين : اللغة العربية في عصور ما قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٧٥
١٥٤ ـ ظاظا، حسن (دكتور) : الساميون ولغاتهم، الاسكندرية ١٩٧٠
١٥٥ ـ عابدين، عبد المجيد : الحبشة والعرب ـ دار الفكر، القاهرة (بدون)
١٥٦ ـ عبده، الامام محمد : تفسير جزء عم، القاهرة ١٩٥٧
١٥٧ ـ علي ، جواد (دكتور) : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء) بيروت ٦٨ ـ ١٩٧١
١٥٨ ـ فخري ، احمد (دكتور) : اليمن ما ضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٩
١٥٩ ـ فخري، احمد (دكتور) : دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة ١٩٦٣
١٦٠ ـ فروخ ، عمر (دكتور) : تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤

١٦١ ـ فودة ، عبد الرحيم: من معاني القرآن ، القاهرة (بدون)
١٦٢ ـ قاموس الكتاب المقدس ـ الجزء الأول ، بيروت ١٩٦٤
١٦٣ ـ قاموس الكتاب المقدس ـ الجزء الثاني، بيروت ١٩٦٧
١٦٤ ـ مسعد، مصطفى محمد (دكتور): الاسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠
١٦٥ ـ مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية)، صححه ونشره الدكتور آرثر جفري، القاهرة ١٩٥٤
١٦٦ ـ مهران ، محمد بيومي (دكتور): دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ـ الجزء الثاني ـ اسرائيل ـ القاهرة ١٩٧٣
١٦٧ ـ مهران، محمد بيومي (دكتور): دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ـ الجزء الثالث ـ حركات التحرير في مصر القديمة ، الاسكندرية ١٩٧٥
١٦٨ ـ نافع ، محمد مبروك، عصر ما قبل الاسلام، القاهرة ١٩٥٢
١٦٩ ـ نعناعة، رمزي (دكتور): الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، بيروت ١٩٧٠
١٧٠ ـ هيكل، محمد حسين (دكتور): حياة محمد ﷺ، القاهرة ١٩٦٥
١٧١ ـ هيكل، محمد حسين (دكتور): الصديق ابو بكر، القاهرة ١٩٦٤
١٧٢ ـ ولفنسنون، اسرائيل (دكتور): تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧
١٧٣ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله : معجم البلدان (خمسة أجزاء) بيروت ٥٥ ـ ١٩٥٧
١٧٤ ـ بلاشير ، ريجيس: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ترجمة الدكتور ابراهيم كيلاني، بيروت ١٩٥٦
١٧٥ ـ تارن، و.و. : الاسكندر الأكبر، ترجمة زكي علي، القاهرة ١٩٦٣

١٧٦ ـ جولد تسيهر ، اجنتس: المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن، ترجمة علي حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٥٨
١٧٧ ـ جولدتسيهر ، اجنتس : العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ، القاهرة (بدون)
١٧٨ ـ جيبون ؛، ادوارد : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي ابو ريدة القاهرة ١٩٦٩ .
١٧٩ ـ حتى ، فيليب : تاريخ العرب ـ الجزء الاول، ترجمة ادوارد جرجي، جبرائيل جبور، بيروت ١٩٦٥
١٨٠ ـ حوراني، جورج فضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨
١٨١ ـ دائرة المعارف الاسلامية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩
١٨٢ ـ ديسو، رينيه: العرب في سورية قبل الاسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة ١٩٥٩
١٨٣ ـ ديمومبين، ج: النظم الاسلامية، ترجمة الشماع والسامر، بغداد ١٩٥٢
١٨٤ ـ ديورانت، ول: قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١
١٨٥ ـ سديو، لويس اميل: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، بيروت ١٩٤٨
١٨٦ ـ فنسك، ا. ي. : مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٩٣٤
١٨٧ ـ فنسك ، آ. ى. وآخرون : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ليدن ٣٦ ـ ١٩٣٧
١٨٨ ـ لوبون ، جوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨

١٨٩ ـ مـاير ، ف.ب. : حياة ابـراهيم ـ ترجمـة القس مرقص داود، القاهرة ١٩٦٠

١٩٠ ـ موسكاتي، سبتينو: الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨

١٩١ ـ موسل، الويس: شمال الحجاز، ترجمة الدكتـور عبـد المحسـن الحسيني، الاسكندرية ١٩٥٢

١٩٢ ـ بن نبي، مالك: الظاهرة القرآنية، ترجمة الدكتور عبد الصبـور شاهين، بيروت ١٩٦١

١٩٣ ـ نسلن ، ديتلف وآخرون : التاريخ العربي القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨

(٣) دوريات

١ ـ بلتاجي، محمد (دكتور): التفسير البياني للقصص القرآني ـ مجلة كلية الشريعة ـ العدد السادس، الرياض ١٩٧٥

٢ ـ الدسوقي، خالد (دكتور): قوم ثمود: بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش ـ مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد السادس الرياض ١٩٧٦

٣ ـ مهران ، محمد بيومي (دكتور): قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦، الاسكندرية ١٩٧١

٤ ـ مهران ، محمد بيومي (دكتور) : قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٧ ، الاسكندرية ١٩٧١

٥ ـ مهران، محمد بيومي (دكتور): الساميون والاراء التي دارت حول موطنهم الأصلي ـ مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤

٦ ـ مهران، محمد بيومي (دكتور): قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ـ مجلة كلية اللغة العربية، العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥

٧ ـ مهران، محمد بيومي (دكتور): العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ـ مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد السادس، الرياض ١٩٧٦

Abreviations

ANET	Ancient Near Eastern Texts.
EASOR	Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
BSOAS	Bulletin of the Schools or Oriental and African Studies.
CAH	The Cambridge Ancient History.
CHI	The Cambridge History of Islam.
CIS	Corpus Inscriptionum Semiticarum.
DB	Dictionary of The Bible
EB	Encyclopaedia Biblica.
ERE	Encyclopaedia of Religion and Ethics.
EI	Encyclopaedia of Islam.
GJ	Geographical Journal.
JA	Journal Asiatique.
JE	The Jewish Encyclopaedia.
JNES	Journal of Near Eastern Studies.
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society.
JRGS	Journal of the Royal Georgraphical Society.
MET	The Middle East Journal.
PSBA	Proceeding of the Society of Biblical Archaeology.
UJE	The Universal Jewish Encyclopaedia.
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Geselschaft.

(٤) المراجع الأجنبية

1 — Albright, W.F. , The Bible and the Ancient Near East, London, 1961.

2 — Andrae, T. , Mahomet, Sa Vie et Sa Doctrine, Paris, 1945.

3 — Altheim, F. , and Stiehl, R. , Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964.

4 — Altheim, F. , and Stiehl, R. , Araber und Sasaniden, Berlin, 1954.

5 — Amer, M. , The Ancient Irans - Peninsular Routes of Arabia, le Caire, 1926.

6 — Beeston, A.F.L. , Epigraphic South Arabian Calendars and Dating, London,1956.

7 — Bell, R. , The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

8 — Blachère, R. , Introduction Au Coran, Paris, 1959.

9 — Blachère, R. , Le Probleme de Mahomet, Paris, 1952.

10 — Branden, A.Vanden , Les textes Thamoudeens de Philby, Louvain, 1956.

11 — Branden, A.Van den , Histoire de Thamoud.

12 — Branden, A.Van den , Les Inscriptions Thamoudeens, Louvain, 1950.

13 — Budge, E.A.W. , A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, London, 1938.

14 — Bury, J.B. A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

15 — Bury, J.B. , A History of the Later Roman Empire, 2 Vols., London, 1931.

16 — Caetnani L. , Studi di Storia Orientale, Milano, 1911.

17 — Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, Paris, 1847.

18 — Clark, J.D. , The Prehistoric Culture of the Horn of Africa.

19 — Cooke, G.A. , A Text-Book of North Semitic Inscriptions, Oxford, 1907.

20 —Conti Rossini, C. , Storia d'Etiopia, I, Milan, 1928.
21 — Doughty, C.M. , Travels in Arabia Desert, 2 Vols. N.Y., 1946.
22 —Drewes, A.J. , Inscriptions de l'Ethiopie Antique, 1961.
23 —Dussaud, R. , la Penetrations des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.
24 —Epstein, I. , Judaism, Penguin Books , 1970.
25 —Fleisch, H. , Introduction à l'étude des Langues Semitiques, Paris, 1947.
26 —Finegan, J. , Light from the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christianitu, I, Princeton, 1969.
27 —Forster, C. , The Historical Geography of Arabia, 2 Vols., London.
28 —Gardiner, A.H. , Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.
29 —Gibbon, E. , The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950.
30 —Jeffery Arthur , Materials for the History of the Text of the Qur'an, Leiden, 1937.
31 —Goitein S.D. , Jews and Arabes, N.Y., 1955.
32 —Glaser, E. , Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895.
33 —Glaser E. , Zwein Inschriftten uber de nDammbruch von Marib, 1897.
34 —Grohmann, A. , Arabien, Munchen, 1963.
35 —Grohmann, A. , al-Arab, in Encyclopaedia of Islam, New edition.
36 —Guillaume, A. , Prophecy and Divination among the Hebreuws and other Semites, London, 1938.
37 —Guillaume, A. , Islam, Penguin Books , 1964.
38 —Hastings, J. , Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936.
39 —Hastings, J. , Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921.
40 — Hardings, G. , Some Thamudic Inscriptions from the Hashmite Kingdom, Leiden, 1952.
41 —Hill, G.F. ; Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia, and Persia, London, 1922.
42 —Hitti, P.K. , History of the Arabs, London, 1960.
43 — Hogarth, D.G. , A History of Arabia, Oxford, 1922.
44 — Hogarth, D.G. , The Penetration of Arabia, London, 1922.

45 — Hommel, F. , Grundriss der Geographie und Geschichte des Alten Orients, Munchen, 1926.
46 — Hommel, F. , Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903.
47 — Hornell, J. , Sea-Trade in Early Times, in Antiquity, 15, 1941.
48 — Huart, une Nouvelle Source du Koran, 1904.
49 — Hunt, G. , Himyaric Inscriptions of Hism Ghurab, 1848.
50 — Huzayyin, S.A. , Arabia and the Far East, Cairo, 1942.
51 — Jamme, A. , Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgris (Marib), Baltimore, 1962.
52 — Jamme, A. , Thamudic Studies, Washington D.C., 1967.
53 — Jamme A. , New Sabaean Inscriptions from South Arabia, 1968.
54 — Jamme A. , South Arabia Inscriptions, Princeton, 1955.
55 — Jaussen, A.J. and Savignac, R. , Mission Archeologique en Arabie, 4 Vols., 1904, 1920.
56 — Jones, A.H.M. , and Monroe, E. , A History of Abyssinia, Oxford, 1935.
57 — Kammerer, (A. , La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'Antiquité, Le Caire, 1929.
58 — Keller, W. , The Bible As History, (Hodder and Stoughton), 1967.
59 — Kenyon, K.M. , Archaeology in The Holy Land, London, 1970.
60 — Lammens, P. , L'Islam, Croyances et Institutions, Beyrouth, 1926.
61 — Littmann, E. , Thamud und Safa, Leipzeg, 1940.
62 — Leblois, le Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887.
63 — Lods, A. , Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, London, 1962.
64 — Margoliouth, D.S. , The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924.
65 — Masse, L'Islam, Paris, 1937.
66 — Montgomery, J.A. , Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934.
67 — Moritz, B. , Arabien, Hanover, 1923.
68 — Moscati, S. , Ancient Semitic Civilizations, London, 1957.
69 — Muir, W. , The Life of Muhammad, and History of Islam, Edinburgh, 1923.
70 — Musil, A. , The Northern Hegas, N.Y., 1926.
71 — Musil, A. , The Northern Nejd, N.Y., 1928

72 — Musil, A., In the Arabian Desert, N.Y, 1930.
73 — Musil, A., Arabia Petraea, Wien, 1907.
74 — Nielsen D., Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Hamburg, 1927.
75 — Nöldeke, T., Geschichte des Qurans, Gottingen, 1860, 1961.
76 — Noth, M., The History of Israel, London, 1965.
77 — Oeasterly, W..o.E., and Robinson, T.H., A History of Israel, 2 Vols., Oxford, 1932.
78 — O'Leary, De Lacy. D.D., Arabia Before Muhammad, London, 1927.
79 — Olmeasted, A.T., Weastern Asia in the days of Sargon of Assyria, 1908.
80 — Peters, C., The El dorado of The Ancient.
81 — Philby, H.St.J.B., The Heart of Arabia, 2 Vols., London, 1922.
82 — Philby, H.St.J.B., The Empty Quarter, N.Y., 1933
83 — Philby, H. St. J.B., Arabian Highlands N.Y., 1952
84 — Philby, H. St.J.B., Sheba's Daughters, London, 1939.
85 — Philby, H.St. J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947.
86 — Pirenne, J., la Decouverte de l'Arabie, Paris, 1958.
87 — Pirenne, J., le Royaume, Sud -Arabe de Qataban et sa datation, Louvain, 1961.
88 — Pliny, Natural History, Trans - by H.Rackham, London, 1949.
89 — Ptolemy, Georgraphie, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vols, Leipzig, 1843-1845.
90 — Roth. C., Ashort History of the Jewish People, London, 1969.
91 — Roux, G. Ancient Iraq, Penguin Books, 1966.
92 — Ryckmans, G., Publication of the Inscriptions, III, 1951.
93 — Ryckmans, J., L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale avant l'Islam, Louvain, 1951.
94 — Sale, G., Observations Historiques et Critiques sur le Mahometisme.
95 — Schoff, W.. The Periplus of the Erythraean Sea, London, 1912.
96 — Schwally, Geschichte des Quran, 2, 1938.
97 — Scott, H., In the High Yemen, London, 1947.
98 — Shahid 1, Pre - Islamic Arabia, in CHI, I, Cambridge, 1970.
99 — Sprenger, A., Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861.

100—Sprenger, A. . Cité Par Huart, une Nouvelle Source du Koran.
101—Sprenger, A. , Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875.
102— Sprengling, M. , The Alphabet, its Rise and Development from The Sinai Inscriptions, Chicago, 1931.
103—Starcky, J. , Palmyréniens, Nabatéens et Arabes du Nord avant L'Islam, en Histoire des Relıgıons, 4,1956.
104—Strabo, Georgraphy, Trans. by H.L. Jones, London, 1949
105 —Tisdall, S. , The Sources of the Koran.
106—Thomas, B. , Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, N.Y., 1932.
107—Unger, M.F. , Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.
108—Vincent, W. , The Periplus of the Erythraean Sea, London, 1805.
109—Watt, W.M. , Muhammad at Mecca, Oxford, 1953.
110—Wilson, A. , The Persian Gulf, London, 1928
111—Wilson, J.A. , The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
112—Wissmann, H.Von. , and Hofner, M. , Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Südarabien, Wiesbaden, 1953.
113—Woolley, L. , Excavations at Ur, London, 1963.
114—Woolley, L. , The Beginnings of Civilization, N.Y., 1965.
115—Encyclopaedia Biblica
116—Encyclopaedia of Islam
117—The Jewish Encyclopaedia
118—Corpus Inscriptionum Semiticarum
119—The Westminester Historical Atlas to the Bible.

(٥) الدوريات الأجنبية

1 — Albright, (W.F.), The Chronology of Ancient South Arabia, in The Light of The First Campaign of Excavation in Qataban, in BASOR, 119, 1950.

2 —« Albright, (W.F.), Anote on Early Sabaean Chronology, in BASOR, 143, 1956.

3 — Beeston, (A.F.L.), Notes on the Muraighan Inscriptions, in BSOAS, 1954.

4 — Beeston, (A.F.L.), Problems of Sabaean Chronology, in BSOAS, 16, 1954.

5 — Branden, (A.Van den), Essai de Solution du Problème Thamoudeens, BIOR, 15, 1958.

6 — Branden, (A.Van den), une Inscriptions Thamoudeens, le museon, LXIII, 1950.

7 — Cornwall, (P.B.), Ancient Arabia, in GJ, CVii, 1946.

8 — Grohmann, (A.), The Problem of dating early Quraans, der Islam, 33, 1958.

9 — Halvey, (J.), Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, JA, VI, Paris, 1872.

10 — Hamilton,(R.), Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, GJ, 101, 1943.

11 — Kensdale, (E.N.), Three Thamudic Inscriptions from The Nile Delta, le museon, 65, 1952.

12 — Lammens, (P.), L'Age de Mahomet et la Chronologie de la Sira, JA, 17, 1911.

13 — Lyall, (C.), The Word Hanif and Muslim, JRAS, 1903.

14 — Macalister, (R.A.S.), The Topography of Jerusalem, in CAH, 111, 1965.

15 — Malamat, (A.), The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950.

16 — Oppenheim, (A.L.), Babylonian and Assyrian Texts, ANET, 1966.

17 —Philby, (H.St. J.B.), Note on the Last Kings of Saba, le museon, LXIII, 1950

18 — Philby, (H. St.J.B.), The Land of Midian, MEJ, 9, 1955.

19 — Philby, (H.St. J.B.), South Arabian Chronology, le Museon, LXII, 1949.

20 — Philby, (H.St. J.B.), The Land of Sheba, GJ, 92, 1938.

21 — Philby, (J.B.), and Tritton, (A.S.), Najran Inscriptions, JRAS, 1944.

22 — Ryckmans, (G.), Inscriptions Sud - Arabes, le Müseon, XII, 1942.

23 — Ryckmans, (G.), on Some Problems of South Arabian Epigraphy, BSOAS, 1952.

24 — Ryckmans, (J.), Aspects Mouuveaux du Problème Thamoudéens, Studia Islamica, S, 1956.

25 — Smith, (S.), Events in Arabia in the 6th Century A.D., BSOAS, 1954.

26 — Tarn (W.W.), Ptolemy II and Arabia, in JEA, IS, 1929.

فهرست المحتويات

المصادر والمراجع العربية